مؤلفات
ثروت أباظة

٧

الأعمال الكاملة

لثروت أباظة

الجزء السابع

- الأيام الخضراء
- ذكريات بعيدة
- هذه اللعبة
- حين يميل الميزان
- السباحة في الرمال
- وبقي شيء

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٣

● الأيام الخضراء

الأيام الخضراء

أحببتها وأنا لا أدرى ما الحب ، عرفه الناس معنى أو عرفوه شجوا وأسى وألما ، أو لعلهم عرفوه خيالا وأحلاما ورؤى ، أما أنا فعرفته لعبا فى الملعب ، وتقاذفا بالكرة ، وقفزا وجريا وضحكا ، ولهوا عابثا ، كنت ألقاها لم أغير من ملابس المدرسة شيئا اللهم إلا تلك المريلة التى كانوا يضعونها فوقى ، وكانت تلقانى هى أيضا بلا تجمل أو زواق اللهم الا أن تخلع هى أيضا تلك المريلة التى كانت توضع عليها ثم نلتقى فى فناء منزلها أو فى فناء منزلنا بغير ميعاد مدبر أو اتفاق سابق وإنما ينزل كل منا إلى صاحبه ويكون اللعب فى أقرب فناء من اللقاء . .

أحببتها يوم ذاك وأحبتنى ، أحببتها كما أحب الكرة التى كنا نلعب بها أو كما أحب الحبل الذى كنا نقفز من فوقه ، وأحبتنى هى أيضا كحبها لهذه الأشياء ، وما كنا ندرى من الحب الا حبنا لهذه الأشياء .

كان كل منا يرى الآخر مكملا للعبه ، كما يرى الكرة والحبل مكملين للعبه . كان كل منا يحب الآخر كجزء من مرح الطفولة وحلاوة اللعب وعربدة اللعب .

لم تكن تعرف من أنا بالنسبة اليها وما كنت أدرى ، قصارى الأمر بيننا انى كنت أعرف انها بنت لأنها ترتدى ملابس البنات وانها كانت تعرف انى ولد لأننى أرتدى ملابس الأولاد . لم أكن أعرف الأنثى فيها ، ولم أكن أعرف معنى الأنوثة جميعا ، بالنسبة الى الرجل ، ولم تكن تعرف الرجل فى ولا معنى الرجولة الذى أمثله ، لا ولم تكن تعرف الرجل بالنسبة للأنثى .

لم يكن هذا الجهل يمنعنى أن أقدمها على نفسى وأترك لها فرصة أن تغلبنى فى بعض الأحيان ، وليس فى كل الأحيان ، وأن أهفو اليها مسرعا اذا سقطت وتسارع هى الى اذا وقعت ولكن أكان هذا قبل أن ندرك شيئا عن الهوى . أم أنه كان بعد أن أدركنا شيئا من معناه ، أكان

هذا الاهتمام بها ونحن فى الطفولة الأولى البلهاء أم أنه كان ونحن فى أواخر الطفولة مشرفان على الوعى أو بعض الوعى .

أتراه حين كنا فى الطفولة الواعية التى تحس ولا تبين ولا تشعر ولا تعبر وتخفق ولا تنطق !! أتراه كان كذلك .. وكيف لى أن أذكر ؟.

لقد شب حبى معى فاختلطت أدواره وتمازجت أيامه فما أدرى كيف عرفته وكيف استبان فى كامل الوعى منى ؟ أترانى عرفته حين كنت ألقاها ونحن فى بواكير الشباب فتعلو وجهها الحمرة وتمسك بلسانى لعثمة فتمر بى وأمر بها لا يحيى الواحد منا صاحبه إلا بهذه الحمرة وإلا بتلك اللعثمة .. لا .. لقد عرفت الحب قبل ذلك .. عرفته وجيبا وخفقا فى الفؤاد شديدا إن أنا ذكرتها ، وإن أنا خلوت إلى نفسى فقد كنت أذكرها كلما خلوت الى نفسى وعرفته هائم الفكر حذرا أخشى أن يكون حبها وهما من الأوهام . قرأت عن الحب وسمعت به من الرفاق وعرفت ما الرجل وما الأنثى ورحت أنطلق فى فسيح الفضاء لا أفكر الا فيها .. أخشى كلما فكرت فى حبها أن يكون وهما من الأوهام ..

وفى يوم لقيتها وقد خلا بنا الطريق ، وعلت الحمرة وجهها وأمسكت اللعثمة لسانى ، ولكن الطريق خال بنا نسير فى اتجاه واحد متباعدين ، فوجدتنى أثوب الى نفسى بعض الشىء ووجدتنى أقترب منها ، ووجدت حمرة الخجل تزداد وضوحا على وجهها ولكنى كنت قد جمعت بعض نفسى ، وكنت قد دربت لسانى طويلا على الجملة التى سينطلق بها ، فما أن اقتربت حتى ألقيت جملتى مفككة المقاطع متباعدة الكلمات ولكنى نطقتها وسمعتها وأجابت وأود لو أجابت بغير لسانها الا أنها أجابت على أية حال نعم أذكر ما قلت « ماشيه وحدك يا هناء » .

وأومأت برأسها أن نعم ، ثم ترابطت الكلمات فرحت أحادثها وراحت هى تضحك أو تبتسم أو تسكت لا تقول شيئا .. لا شىء على الإطلاق اللهم إلا قولتها فى آخر حديث لى :

ــ أخاف أن يرانا أحد ..

فأتلفت حولى مذعورا وما أن أثق من خلو الطريق حتى أقول لها :

ــ لا تخافى ..

ثم أعود الى حديث طويل ما زلت أدرج فيه من موضوع الى آخر حتى استطعت آخر الأمر أن أرجوها لتسمح لى بانتظارى لنقطع هذا الطريق سويا ، ولم تجب إلا بجملتها الوحيدة .

.. أخشى أن يرانا أحد ..

ولكنى ظللت مع الأيام ألتقى بها فى الطريق وأحكى لها وتستمع هى .. لم أقل لها ــ أحبك ــ فقد خشيت إن أنا قلتها ألا ترانى بعدها أبدا ، لقد كان الطهر الذى يشيع حولها مخيفا

يمسك لساني بل يمسك عقلي أن يفكر في التصريح بحبي لها ، وينقضي الطريق ، وأعود الى الوحدة ، وأعود إلى خوفي ألا تكون محبة لي ، ولم أخلص من حيرتي وخوفي إلا بالمذاكرة العنيفة ، فقد انتهيت إلى أنني ما زلت في المرحلة الثانوية وأنها قد تتزوج قبل أن أحصل أنا على شهادة التوجيهية ، فذاكرت ومنيت نفسي أنني اذا صرت في الجامعة قد أجد بعض الجرأة أن أخطبها ونتزوج ، ذاكرت كما لم أذاكر من قبل وأصبحت أعد السنين عدا وأطارد الزمن في عنف وإصرار حتى أصبحت في التوجيهية ، وسمعت همهمة تدور حولي أن هناء معرضة للخطبة ، ولقيتها في الطريق وسألتها فازداد وجهها احمرارا وتلعثم لسانها وهي تقول :

ـ نعم . .

ـ وماذا فعلت ؟

ـ رفضت الخطبة . .

ـ صحيح ؟.

ـ صحيح . .

ولم أسأل لماذا رفضت فقد أبى حبي أن يجعل للرفض سببا الا أنها هي تحبني والهبت الزمن بالمذاكرة ، كنت لا أفيق من الكتاب إلا في موعد عودتها من المدرسة ، لا أفكر إلا في أن أحصل على الشهادة لأصبح جديرا بها وكنت أفكر اذ ذاك في شيء آخر طالما ضقت بالتفكير فيه ، لقد كان أبي خريج جامعات أوروبا وكان أمله أن يرسل بي إلى جامعته لأنال فيها الشهادة التي نالها ، وقد كنت تواقا الى تحقيق أمله هذا ، فقد كان أملي أيضا ، ولكني كنت كلما فكرت في اغترابي عن هناء بعيدا ، بل بعيدا عن حبها ، بل بعيدا عن مصر كلها ، لا أشم النسمة التي تداعب شعر هناء ولا أتنفس الهواء الذي تتنفسه ، ولا أشرب الماء العذب الذي جرى في دمائها والذي يتحول على وجهها حمرة خجل كلما لقيتها ، كلما فكرت في ذلك أحسست شيئا قويا عنيفا يهيب بي ألا أسافر . .

كان التفكير فيها وفي السفر يحسر على كثيرا من الكتب فأسرح وأطيل التفكير ، حتى لقد كان صديقي أشرف ينتبه إلى انصرافي عن المذاكرة فيسألني عما بي ، وقد كتمت عنه حبي فترة طويلة من الزمان فقد كنت أخشى أن يجعله سخرية ويجعل مني ضحكة له ، ولكنه اكتشف حبي حين رآني معها في الطريق ، فلم أستطع الكتمان وألقيت إليه بخبيئة قلبي في جد حازم جعله يأخذ مأخذا لا مجال فيه لغير المشاركة العنيفة ، ولكن هذا لم يمنعه أن يحثني على المذاكرة بدلا من السرحان ، فنفضت إليه خشيتي أن تتزوج قبل أن أحصل على الشهادة ، وخشيتي أن أسافر الى الغرب ، وكان يقول :

ـ هل تتردد فى السفر من أجل هذا . . . إنك إن لم تسافر وتزوجتها لظللت طول عمرك تكرهها لأنها كانت حجر عثرة فى سبيل مستقبلك ، ولظلت هى طول حياتها تكره نفسها وتكره زواجها بك لأنه منعك من المستقبل اللائق بك ، لا ، اخطبها وسافر . ولكن لابد لك ان تسافر .

وحصلت على الشهادة وراح أبى يجهز لسفرى ، ورحت أنا أتحين الفرصة لأحادثه فى أمر خطبتى ، ولكن كيف ؟ . . كنت طفلا كبيرا فى السابعة عشرة من عمرى أحس أنا أنى كبير وأفهم كل شيء ، بل لعلى كنت معتقدا أنى أفهم ما لا يفهمه أبى نفسه ، ولكن من يعترف معى بكبرى هذا وعقلى وحكمتى ! كان أبى وأمى يعاملاننى كأنى طفل لا أزال ، حتى لقد فكرا أن يرسلا معى خادما الى الخارج ليرعى شأنى ويقوم على أمورى فما استطعت أن أصرفهما عن هذا التفكير إلا بشق الأنفس وكثير اللجاج ، بل وبالبكاء أيضا . . نعم بالبكاء فقد كنت حتى ذلك الحين أبكى إن أصر أبى على أمر لا أريد تنفيذه .

كيف إذن أحدثهما عن حبى وعن رغبتى فى الخطبة وهما يريان أننى ما زلت محتاجا إلى . . !!

لم أجد من ألقى إليه بما أنا فيه الا صديقى أشرف الذى عرف حالى جميعا أثناء المذاكرة ، قصدت إليه فى بيته وظللت أقول وأقول . . وأبين له كيف أنهم يجهلون فى بيتى قدرى وكيف أنهم يستصغرون شأنى ويستهينون بعبقريتى ، وكان أشرف يكبرنى بعض الشيء فانتهز الفرصة وراح يقف منى موقف المرشد الناصح وأنا أضيق بحديثه غاية الضيق حتى لم أطق أن أكمل الجلسة وخرجت من عنده وأنا أشد ضيقا مما كنت حين قصدت إليه . .

وتحدد موعد السفر ، وما لبث هذا الموعد أن حل ، وأصبحت فى اليوم الذى سأسافر فى مسائه . وقد عزمت أمرى على مفاتحة أبى وقد هيأ لى الوهم أننى ما أن أخبره برغبتى فى الزواج حتى يسارع الى أهل هناء فيخطبها لى فى نفس اليوم ، بل فى نفس الساعة .

قصدت الى حجرة أبى وقد أعددت نفسى إعدادا تاما ، ولكن لم أجد أبى فقد انصرف فى باكر الصباح ليكمل ما أحتاج اليه وأخبرهم فى البيت أنه لن يرجع إلا بعد الظهر .

ولم أطق أنا البقاء فخرجت عازما الا أعود أنا أيضا إلا بعد الظهر . .

وبعد الظهر عدت وما كدت أصل الى الحى حتى تدافعت الى أذنى زغاريد تنبعث من بعيد ويقترب صداها كلما اقتربت الى البيت ، ماذا ترى بعث هذه الزغاريد ؟ ليس هناك إلا سبب واحد .

لا بد أن أشرف أخبر أبى برغبتى فى الزواج من هناء وأراد أبى أن يفاجئنى بهذه المفاجأة الهائلة الرائعة العظيمة ، كم هو عظيم أبى هذا !! كم هو وفىّ أشرف صديقى ! أحقا تحققت

الأحلام ؟ أحقا هدأ لى مضطرب الفؤاد واستقرت بى نفسى الحائرة ؟ وتزداد الزغاريد قوة وكأنها تجيب أن نعم . . نعم ، لقد تم لك ما تريد . .

وبلغت مصدر الزغاريد ، انه بيت هناء ، اذن فهو ما فكرت فيه ، وإذن تحققت الآمال ووجدت بالباب سيارات وقوما متجمعين ووجوها يطيب البشر من قسماتها . . ولكن أين أبى من هؤلاء ؟ أين سيارته . . وأين سائقنا ، أين نحن فى هذه الجموع ؟ لا . . لم يكن هناك . . عدوت جريا الى منزلنا فوجدت أبى جالسا فى مكتبه ، ورأى اضطرابى وأدركه ولكن لم يلفت أمره ولم يسألنى ، « ما لك » بل قال فى صوت شوق عاطف :

ــ أين أنت ياأخى ، أتترك البيت فى هذا اليوم وسيأتى الناس لتوديعك وأمك تهفو أن تقضى معك هذه الساعات التى تسبق سفرك .

ــ والله كنت . . كنت . . كنت أودع أصحابى . . أبى . .

ــ نعم . .

ــ أبى . .

ــ نعم . .

ــ ما هذه الزغاريد ؟

ــ يا سيدى هناء تخطب اليوم ، وأنا ذاهب لأهنىء أباها فقد دعانى الرجل وألح على أن أذهب وهو يريدك أيضا أتأتى ؟ .

وتلعثمت وأنا أجيب أبى بأسى قانط مرير :

ــ لا . . لا يا أبى فانى سأنتظر مع أمى . . وأنتظر المودعين وابتسم أبى ابتسامة وجدتنى أمامها عاريا من سرى الكبير ، لقد كان الرجل يعرف كل شىء ، قال لى ذلك . . قالها دون أن ينطق كلمة واحدة ، قالها فى ابتسامته تلك التى ترقرقت على محياه . . وخرج . .

وخلوت أنا إلى حجرتى ، لم أنتظر المودعين ولم أجلس إلى أمى وانما لجأت إلى الكذبة التى يستعملها الجميع إذا شاءوا أن يخلوا إلى أنفسهم . . نعم ادعيت مرضا وصداعا وخلوت الى حجرتى . . أستعيد الأيام ، أيام الفناء والكرة والحبل والطريق واللعثمة والحمرة ، والأحاديث ، ذهب هذا جميعه ، هذه الخائنة ، ولكن ما ذنبها ! وهل تملك من أمر نفسها شيئا ، بل هل أملك أنا من أمر نفسى شيئا ! هأنذا مسوق الى السفر ، مرغم على السكوت حتى لا أستطيع أن أنبث بخالجة نفسى ورغبتى ، ما ذنبها ، إنما يحكم عليها من يحكم على . .

آه من الآباء !! فكرت ألا أسافر . . ولكن ماذا أقول . . وكيف أعصى أبى ، لا إنى سأسافر لا لأنى خائف من أبى ولكننى سأسافر لأنى زعلان من أبى . . ولماذا أزعل منه ! هل أخبرته بشىء . . لقد كان يعلم . . وماذا كنت أنتظر . . أن يأتى هو الى ويقول لى سأخطب لك هناء . . وماله !! ولماذا لا يفعل ؟ نعم سأسافر لأننى زعلان .

وسافرت ومضت السنون بى فى أوروبا وخطابات أشرف توافينى بأخبار هناء فتحيى فى القلب حبا كان خليقا أن يضعف . .

رأيت المرأة فى الغرب . . رأيتها فى أوضح صورها بشاعة ، وكانت رؤيتى لها تعيد حبى لهناء إلى شبابه الأول ، أرى العيون الفاجرة ، فأذكر عيونها المسبلة ! وأرى الوجوه البريئة فأذكر حمرة وجهها ! وأرى الأجسام الفائرة فأذكر جسمها الذى لا يبعث إلى ذهنك إلا فكرة الورود تتفتح عنها أكمامها فى حياء وفى زهو وفى كبر ، أرى النسوة عاريات وان سترت أجسامهن الملابس ، فأذكر ذراعيها العاريتين يسترهما جلال الحياء فيها وبراءة الأجواء التى تشيع من حولها . ورأيت الغرب فعرفت المرأة فازداد حبى لحبى الطفل الذى تركته فى مصر بين أيد غريبة عنى وعنها وعن طفولتنا وصبانا ومطالع شبابنا . .

كنت قد أوشكت أن أنتهى من دراستى حين جاءنى خطاب من أشرف يحمل إلى نبأ عجيبا . . لقد مات زوج هناء . . مات . . يا لفرحتى !! ودوى عن الفرحة ضمير برىء يستجدى أن يفرح للموت . . عدت الى خطاب صديقى . . يا له من مقصر ، ألا يذكرنى إن كانت هناء تعيسة بموته وما مدى تعاستها ، ولم يذكر الخطاب أين تسكن . . أوحدها أو مع والديها ؟

ولم يحن موعد عودتى الى مصر الا وأنا أعلم كل شىء عن هناء . . أين تسكن ، ومتى تخرج ، ومقدار حزنها ، ومدى تمتعها بالحياة ؟

عرفت كل شىء . .

ووصلت الى مصر ، فكان أول ما عملت أن اتصلت بها بالتليفون . .

ــ أتراك تذكريننى . . .

ــ أعرف الصوت ولا أصدق أذنى . . أتراك هو ؟

ــ أنا هو . .

ــ أنت . .

ــ أنا . . عرفتنى . .

ـ وهل تتصور أن أنساك .. وهل تتصور أننى نسيتك ؟

ـ أكلمك لأعزيك ..

ـ شكرا .. متى أراك ؟ ..

وتلعثمت وأنا أقول :

ـ ترينى ؟!

ـ طبعا .. مالك هكذا وكأنك لم تسافر الى الخارج . لا تزال اللعثمة تعتريك ..

ـ متى أراك ؟

ـ كما تحب ! ..

ـ الآن ؟

ـ الآن ..

واتفقنا على الموعد وذهبت إليه .. غير أن فى الصوت جرأة ، وفى الحديث امرأة وفى اللهجة اقبال .. ماذا ترى حدث ، أن تدعونى هى إلى اللقاء وقد كانت لا تلتفت إلى وأنا أحدثها فى الطريق ، هذا الصوت ، وهذه اللهجة ليست غريبة علىّ ، إننى أعرفها ، سمعتها ، ولكن بلغة غير اللغة ، نعم لقد كن هكذا يحادثننى فى الخارج .. ترى ألم تصبح هناء .. هناء .

واقبلت فى الموعد ، امرأة .. ربتة العود عالمة العينين خبيرة النظرات ، متجملة الوجه ، متأنقة الملبس ، وجلست ..

وتحادثنا .. كنت أحادثها عن أيام الطفولة والصبا وراحت تحادثنى عن الأنوثة التى التقيت بها فى أوروبا ، راحت تسألنى فى جرأة عارية عما فعلت فى أوروبا ، بل راحت تنبئنى عما فعل بها زوجها ..

ذعرت .. ليست هذه هناء ، انها امرأة .. عرفت مثيلاتها الكثيرات ، ليست هذه حبى ، ليست هذه طفولتى ، لا ولا هذه أحلامى .. أرجعوا الأيام ، أعيدوا إليها طفولتها ، وصباها وبواكير شبابها لأرى طفولتى وصباى وبواكير شبابى ..

كان لقاؤنا الأول هو الأخير .. حاولت أن تدعونى فما زادنى هذا إلا بعدا ، لقد فقدت هناء التى عرفتها فما خلقت الا امرأة .. امرأة كاملة ولكن ليس لى فيها ذكريات ولا آمال .

أحببت وهمي

لاتلمنى يا صديقى وأنت كثير اللوم . نعم إنى أسرف فى انفاق المال وأرمى به فى كل متجه لا أفكر فى العاقبة ولا أريد أن أفكر فيها . ولكن لا تلمنى فما تدرى أنت مقدار السعادة التى أحس بها وأنا أقذف بهذا المال ، لا . . لا تدرى وأرجو الله ألا تدرى أبدا وأرجو الله ألا تحس بهذه السعادة التعسة التى أحسست بها .

قد انقطعت عنك شهورا فما تعلم من أمرى شيئا ، وقد كان آخر ما بيني وبينك أنك عرفت بخطبتى وهنأتنى فى لقاء عابر سريع ثم درت أنا فى هذه الدوامة التى لم أفرغ منها إلا اليوم . .

لم تعرف شيئا عن خطيبتى . . نعم لم تعرف شيئا عن ندى . . أحببتها يا أخى منذ أنا صبى يدرج إلى باكر الشباب وأحبتنى ، رأيت فيها فتاة منسوجة من الإشراق ، فهى حيثما تحل فرحة نشوى ، المرح مجالها ، والنور مسبحها ، والصفاء محياها ، والطهر هى . .

أحببتها يا أخى فخطبتها فازددت حبا لها . . وأى عجب أن أحب خطيبتى ، ومرت بنا فى أيام الخطبة فترة وسنانة حالمة حييت فيها بقلب خافق يتناوبه الذعر من الغد فقد اعتادنى الذعر منذ غمرتنى هذه السعادة . ولكننى كنت حين أسير معها أنسى سعادتى وذعرى ولا أذكر إلا أننى أسير مع ندى وقد التف ذراعها على ذراعى فأحس كأن ذراعها ستار يحجب عنى من الدنيا شرورها ويفسح أمامى مجالات الجمال فيها والاشراق . .

كان هذا يا صديقى . . ثم كانت ليلة اتفقنا فيها على أن نذهب الى السينما فى الغد وتركتها وأنا أفكر فى هذا الغد وأنتظره حتى جاء فاشتريت التذاكر ، وذهبت اليها قبل الموعد وانتظرتها على أسفل السلم فى بيتها . وطالت بها الغيبة فأخذت أصيح فى مزاح جاد وأخذ أهلوها

يضحكون من ثورق المرحة ويشاركوننى فيها حتى بدت أخيرا على رأس السلم مشرقة حلوة ضاحكة مشاركة فى الصباح المرح ، وراحت تنزل السلم وثبا ، ولكنها توقفت فى منتصفه هنيهة لم يلحظها إلا أنا ، وتابعت وثبها الى أسفل حتى أدركتنى ..

وسحبتها من يدها إلى الخارج دون أن أتيح لها أن تعرض أناقتها على أمها وأبيها . واحتوانا الطريق وفى نفسى غصة جاهدت نفسى على إخفائها بعض الحين ثم لم أطق السكوت :

ـ ندى ..

ـ هيه ..

ـ لماذا توقفت وأنت تنزلين السلم ؟ ..

وكان السؤال مفاجأة لها فقد كانت تأمل ألا يرى أحد توقفها ..

فقالت فى تردد :

ـ أنا ؟

ـ نعم أنت .. لماذا توقفت ..

ـ يا أخى .. مسألة بسيطة .. ألا يفوتك شىء أبدا ؟!

ـ وماذا ستفعل ؟!

ـ اتخفين عنى .. عنى أنا ؟!

ـ أنا طبيب فان كنت لا أعجبك فدعينى أذهب بك إلى أى طبيب يعجبك ..

ـ يا سيدى الحكاية لا تحتاج إليك والحمد لله .. ابعد عنى وابحث عن رزقك مع غيرى ..

ـ بل معك أنت ..

ـ يظهر ان الزبائن انفضوا عنك فى هذه الأيام .. على أى حال أمرك ..

وذهبت بها الى العيادة وكان اليوم أجازة فانفردت بها فى عيادتى ورحت أسألها فى دقة عن كل ما تحس به .. وأخذ قلبى يزداد خفوقا مع كل إجابة ، واتصلت بأحد أطباء التحليل من أصدقائى وطلبت إليه أن يذهب إلى عيادته فورا .. وذهبنا .. النتيجة سرطان فى الدم .. عرفت أنا النتيجة ولم تعرفها هى ..

وعدت بها إلى المنزل .. نعم أنا طبيب .. وأعرف ألا أمل مطلقا .. لكننى انسان أيضا يا أخى .. ومحب .. أنا لا أطيق الحياة خالية من هذه المريضة .. لا .. لا أطيقها .

لم أخبر أحدا من أهلها بمرضها وحملت العبء وحدى وأنا وحدى بين الناس جميعا الذى كان خليقا أن يتهاوى تحت هذا العبء ولكنى حملته . .

تركتها فى البيت وخرجت وحدى إلى الطريق إلى قلبى المحطم ، أمرن لسانى على ما سيقول ، وأهيىء نفسى للطريق الذى اخترته . ولكننى فى وحدتى هذه لم أشعر بحيرة ولم أفكر فى طريق آخر غير الطريق الذى رسمته لنفسى فى سرعة خاطفة واستقر أمرى عليه . .

ذهبت فى اليوم التالى إلى أهلها وأخبرتهم أنى مسافر إلى الخارج فى مهمة علمية ، ورحت أدور بالحديث معهم حتى أقنعتهم أنه لابد من الزواج العاجل ، وجاءت هى بعد أن انتهينا إلى هذا القرار ، وفوجئت به ثم ما لبثت أن دخلت غرفة وحدها ونادتنى فذهبت إليها :

ــ أحمد . . ماذا عرفت أمس من تحليل الدم . . ؟

كنت قد أعددت نفسى لكل مفاجأة فصنعت ضحكة كبيرة وقلت :

ــ عرفت أنه لابد من الزواج السريع . .

ــ أهذا وقت الضحك ؟

ــ وماذا أعمل مع خطيبتى العبيطة التى تربط تعجيل الزواج بتحليل الدم ؟

ــ لماذا لم تخبرنى أمس عن رحلتك إلى الخارج . . أنت لم تخف عنى شيئا . .

ــ أخفيت هذا الشىء . .

ــ لماذا ؟

ــ لأننى اعتقدت أنه لو تم لى مفاجأة سارة أفاجئك بها ، وخشيت أن أخبرك ثم لا يتم فيسبب لك هذا ضيقا لا أريده لك أبدا .

ــ أحمد . . هل أنت صادق ؟

ــ وهل كنت عمرى كاذبا ؟

ــ أحمد إنى خائفة . .

ولم أستطع أن أتحكم فى لسانى وهو يقول :

ــ وأنا أشد خوفا . .

وارتاعت المسكينة فانتفضت تقول :

ــ لماذا . . لماذا يا أحمد ؟

واستعدت نفسي الجازعة وقلت لها :

ـ أخاف من السعادة التي تغمرني .. أخاف من السعادة يا ندى ..

واغرورقت عيناى بالدموع ، وتعلقت بجفنيها دمعتان ، فأما دموعى فبعض الألم الذى أخفيه ، وأما دموعها فمن حديثي إليها عن سعادتي ..

والتقت الدموع .. دموع الألم ودموع السعادة .. فاعجب معى يا أخى من إحساسين على طرفى نقيض كان التعبير عنهما واحدا !!

أتسخر منى يا صديقى ؟ بربك لا تفعل فانه يحلو لنا حين نغوص فى أحزاننا أن نجعل من أنفسنا فلاسفة وإن كنا فى عميق إحساسنا نعرف أننا لسنا من الفلسفة فى شيء ..

ولكننا نخادع أنفسنا ونرتاح الى هذا الخداع مع علمنا أنه خداع ..

أتسخر منى يا صديقى ، لا تتعجل السخرية .. فسوف أفسح لك مجالا للسخرية لا ينتهى أمده ، لا تفرغ سخريتك كلها ، فان كان فيما قلت ما يثير هذه الابتسامة الهازئة التى تضعها على فمك فان فيما عملت ما يثير قهقهتك الساخرة العالية .. فاحتفظ ببعض سخريتك ولا تفرغها جميعا فان ما قمت به بعد ذلك يحتاج إلى كل السخرية التى تزدحم فى نفسك ..

سافرت إلى أوروبا مع زوجتى .. نعم سافرت بعد أن أعدت قراءة ما كتب عن مرض زوجتى وبعد أن تأكدت ألا فائدة ترجى من السفر .. إلا أننى وجدت مجلة غير علمية تقول إن هناك بحثا يدور عن هذا المرض سافرت إلى هذا البحث .. ألم أقل لك احتفظ بسخريتك ..

توهمت أننى قد أجد أملا بجانب هذا البحث الدائر .. وإلى هذا الأمل سافرت .. وتجسم الأمل فى نفسى حتى كاد أن يصبح حقيقة ، وفى أوربا أنكرت أننى طبيب وأصبحت أفعل ما يقول به الأطباء ملتمسا فى كل كلمة أملا أزيد به أملى .. مكثت مع زوجتى ولا عمل لى إلا تنفيذ ما يقول به الأطباء الباحثون لا أناقشهم فى شيء ، ولا أفكر إلا فيما يقولون ، وقد أعلم أنهم مخطئون ولكننى أخطىء نفسى وأصدقهم . وأخفى على زوجتى ما يقولون وما أعلم وأوهمها أننى أعمل فى البحث الذى جئت من أجله وأوهمها كلما عرضتها على طبيب أنه صديق لى يريد أن يفحصها .. ليست زوجتى غبية أيها الصديق .. لقد عرفت أنها مريضة ، وعرفت أن مرضها خطير ولكنها لم تشأ أن تشعرنى بمعرفتها حتى لا تنغص على فرحتى بأننى استطعت أن أخفى عنها مرضها .. وكانت ترانى أمامها سعيدا دائما فلم تشأ أن تشعرنى أنها عرفت بمرضها حتى لا تقطع هذه السعادة المصطنعة التى كنت أخلقها لنفسى أمامها .. أكانت كاذبة هذه السعادة جميعها أم كان بعضها حقا .. لا تسخر يا صديقى .. لقد استطعت ـ وأنا الطبيب ـ أن أقنع نفسى أن الأطباء سيشفون زوجتى من المرض ..

نعم .. توهمت هذا ، وأحببت وهمى وعشت فيه ، حتى أصبحت السعادة التى كنت أفتعلها ، حقيقة أومن بها لا تقبل منى شكا ولا نقاشا ..

وتلومنى لأنى طلبت إليك أن تبيع كل ما أملك ، وتلومنى اليوم لأنى طلبت اليك أن تبيع أدوات العيادة .. لا .. لا تلمنى يا صديقى .. لقد اشتريت بما أرسلت إلى من نقود أملا ضخما ووهما حلوا أحببته وأحببت العيش فيه وبه ..

واليوم يا صديقى ماتت زوجتى ، ومات الأمل ، ومات الوهم وطالعتنى الحقيقة بلا خداع ولا كذب ولا وهم ..

لقد أسرفت فى الانفاق وما أقل ما أنفقت فى سبيل هذه الأيام التى تخليت فيها عن الحقيقة وعن العلم وفرغت إلى هذا الأمل الذى أنشأته وذلك الوهم الذى أحببته ..

اتسخر منى .. اسخر ما شاءت لك السخرية ، أما أنا فأقسم لك .. أقسم بها .. لو عادت الأيام إلى الوراء لفعلت ما فعلته ثانية وثالثة وألفا .. أيها الصديق لقد كرهت الحياة وأحببت الوهم فمن لى بهذا الوهم .. من لى به ..

●

أخلفت الموعد

دق جرس التليفون فى منزل الأديب الكبير الأستاذ شريف لطفى ورفع الأستاذ سماعة التليفون فبلغ سمعه صوت ناعم حلو :

- من ؟ .. الأستاذ شريف ؟

ـ أنا هو ..

ـ صباح الخير يا أستاذ ..

ـ صباح الخير ..

ـ أنا يا أستاذ إحدى المعجبات بكتابتك ، وأتمنى أن أراك .. أرجوك أن تحدد لى موعدا ..

وارتبك الأستاذ بعض الحين ، فهذه أول مرة تكلمه فيها سيدة على غير معرفة وكاد يغيب فى طوايا ذكريات سعيدة لولا إحساسه أن هناك من ينتظر رده فسارع يقول :

ـ متى تريدين الموعد ؟

ـ الآن .. فى هذه اللحظة إن أمكن ..

ـ الآن ! .. فى هذه اللحظة ؟

ـ ياأستاذ أنا أكلمك بعد تردد طويل ، كنت أخاف أن أضايقك ووددت نفسى عن تليفونك أياما بلغت شهورا ، وأخيرا جمعت جرأة لا أعرف من أين حصلت عليها لعلها من كتابك الأخير .. واستطعت أن أكلمك .. وأريد أن ..

ـ أنت غير محتاجة إلى هذا الاعتذار الطويل يا . .

ـ منى . . اسمى منى . .

ـ يا آنسة ؟

ـ نعم آنسة منى إذا شئت ، وما أحب إلا أن تقول منى . . منى بغير شيء قبلها ولا بعدها .

وخفق قلب شريف خفقا عنيفا وهو يقول :

ـ طيب يا منى . . أراك الآن ولكن أين أنت ؟

ـ أنا فى الجيزة . .

ـ طيب أنا سأنتظرك فى جروبى . .

ـ متشكرة ياأستاذ . . متشكرة جدا يا أستاذ . .

ووضعت منى السماعة وظل الأستاذ لحظات ممسكا بالسماعة ، ثم قفز إلى ذهنه خاطر أرسله يقول : « يا منى . . يا منى » ولكن هيهات فقد انقطع الخط وانتهى الأمر . فوضع شريف السماعة وهو حائر ! كيف سيعرفها أو كيف ستعرفه ؟ وهما لم يلتقيا ، أتراه صديق يمزح معه ؟ ! ولكن لا ، فما عوده الأصدقاء هذا المزاح ، وإن مكانته لا تسمح بمثل هذه الصغائر . . على أية حال ماذا عليه لو ذهب إلى جروبى وجلس إلى إحدى موائده فطالما جلس إلى موائده . . فإنه هناك وفى جروبى بالذات يستطيع أن يستعيد الذكريات . . وسمع الأستاذ نفسه تضحك منه ضحكة ساخرة هازئة . . ذكريات ؟ أى ذكريات يا أستاذ وهل لك ذكريات . . لقد قطعتها حياة خالية بلا حياة فيها ولا ذكريات . . أى ذكريات . . يا أستاذ ! !

وغضب الأستاذ من نفسه وزجرها فى عنف . . وحاول أن يجيب ولكنه وجد نفسه وجها لوجه أمام كرسى جروبى ، وقد وقف الخادم أمامه يبدو عليه أنه ينتظر أمره ، ويفرض عليه فى الوقت ذاته أن يطلب شيئا ، وانصرف الخادم وخلا الأستاذ إلى نفسه . .

أليس لنا ذكريات أيتها النفس ، كم أنت خبيثة تنكرين الماضى وتتنكرين للأيام الخوالى أما تذكرين أيام الهوى ! ! أيام أن كنت خالية إلا من الحب ، فارغة إلا من الأمل ، خفيفة إلا من الأحلام . .

وأمعنت نفس الأستاذ فى الإساءة إليه ، وراحت تجيبه فى سخرية . . متى ؟ . . متى يا أستاذ كان لى حب ، أو أمل ، أو أحلام ؟ فانى والله منذ عرفتك خالية بلا حب فارغة بلا أمل خفيفة بلا أحلام . . وهأنذا اليوم بلا ذكريات . . أستاذ أتراك تريد أن تضحك منى أيضا

كما تضحك من قرائك ، فتؤلف قصة تجعل من نفسك بطلها ، وتريدنى أن أصدق ما تقول ؟

وأجاب الأستاذ فى غير احتفاء بهذه السخرية ، فقد غمرته الذكريات فهو منها فى طوفان . .

أما تذكرين . . أما تذكرين ؟

وقالت النفس . . لا . . لا أذكر . ولكن الذكريات راحت تنهال فى خاطر شريف كجدول مزدحم الأمواج .

كان إذ ذاك صبيا مشرفا على الشباب ، ملهوفا إلى الغد لا أمس له ولا حاضر وإنما عيناه شاخصتان إلى المستقبل يرقبه من خلال الغيب عجلان ، يود لو أن الأيام تقاصرت ، ولو أن الليالى انحسرت ، يحب الشمس المشرقة ثم ما يلبث أن يكرهها ويرى فيها قديما لابد أن يزول لتأتى الشمس الجديدة شمس الغد شمس الشباب . .

كذلك كان شريف ، وكانت بثينة هى الجارة . . فتاة فى ربيع العمر من الشباب على وجهها حمرة الفرح ، وعلى صدرها استكبار الواثق المزهو ، ولف الشباب عودها فهى عود مورق تعرف الأوراق أين تنبت فيه ، وكيف تنبت ؟ ! غضة كالغصن الجديد مشرقة كالزهرة ، حلوة فتانة ، تنظر إلى الغد بعين وسنانة حالمة وتلتذ كل لحظة تعيشها وتعتصر كل لذة فى هذه اللحظة ، وتنبت لنفسها ذكريات من الأمس ولا ذكريات لها ولا أمس ، ولكنه الشباب يحب الماضى والحاضر والمستقبل . .

كانت بثينة أكبر من شريف فلم تجد بأسا أن يجلس إليها وأن تجلس إليه ولم يجد أهلها و لا أهله فى ذلك بأسا ، وانعقدت بينهما صداقة كان هو فرحا بها ، وكانت هى فرحة به أيضا ، وكانت بثينة تحب الأدب والأدباء ، وكانت تخص أديبا معينا بحبها ، وكانت تقرأ على شريف لهذا الكاتب بالذات فتكثر القراءة وكان هو يقبل على ما تقرأ فى تكاسل وعزوف ، ومرت الأيام ولم تلحظ بثينة أن الأيام مرت وأنها أطلعت فى وجه شريف الغض شعيرات تتلوى ، وأنها جعلته يشترى الكتب لكاتبها المفضل إن أصدر جديدا ، أو لغيره إن لم يصدر هو .

أحب شريف الفتاة وأحب الأدب فى غمرة حبه الأصيل . . وأحست الفتاة بحبه للأدب ولم تحس حبه لها . .

ومضت الأيام حتى كان يوم فوجىء فيه شريف ببثينة تتزوج ، وكان زوجها هو كاتبها المفضل . .

ومنذ ذلك اليوم ولا أمل له فى حياته إلا أن يصبح كاتبا مثل زوج بثينة . . وإلا أن يجد زوجة تعجب به كما أعجبت بثينة بكاتبها . .

ذهبت بثينة من حياة شريف وتركت له الأدب ، وذلك الأمل الضخم الذى رصد حياته كلها لتحقيقه . .

ومرت الأيام . . وشريف عاكف على الدراسة والقراءة العنيفة التى لا تعرف الوهن ، وسافر إلى الخارج يجمع إلى الأدب العربى الأدب الغربى ، وجهد فى الغرب ، لم يقض لحظة مع فتاة ولم يترك هنيهة دون أن ينتفع بها ، حتى اذا أتم ما أراد لنفسه أن يتم ، عاد إلى مصر ، وبدأ عمله أستاذا للأدب فى الجامعة وكاتبا فى الجرائد والاذاعة ومؤلفا للقصص الطويل منها والقصير . .

وانهال انتاجه على عشاق الأدب ضخما رائعا كثيرا متدفقا فما هو إلا بعض العام حتى كان اسمه على كل لسان ، تهمس به العذارى فى وله ، ويتشدق به شداة الأدب فى إكبار ، وينقده الأدباء فى مرارة ، وهو فى شغل عن هذا جميعه بأدبه ويأمله فى أن تحبه قارئة مثل بثينة وتعجب به ، وتقصد اليه تقدم بين يديه اكبارها واعجابها وحبها . . فيخطبها ويتزوجها وينشآن بيتا كأحلام العذارى أو خيال الشاعر الولهان . .أو كبيت بثينة وان كان لا يدرى ما فعل الله ببثينة . .

ومرت الأيام وراح أهل شريف يلحون عليه أن يتزوج وهو يصرفهم عن هذا الحديث كلما تحدثوا به ، فان ألحوا تركهم وخرج إلى مقعده فى جروبى . . هذا المقعد الذى يجلس إليه الآن فيستعيد الذكريات . . ذكريات بثينة وقراءتها له وتسخر منه نفسه كلما حاول أن يجعل من الأيام الماضية ذكريات . . ولكنه لا يحفل بسخريتها تلك بل هو يسترجع الذكريات . . وقد كان خليقا به فى يومه هذا أن يذكر . . فقد آن له أن يحقق الأمل ، أمل حياته جميعا . . كم هو فرح . . فرح ؟ !

ما أضعف الأديب حين يحاول أن يبين عن خالجة نفسه ، أكل ما يصف به نفسه الآن أنه فرح ! فرح فقط ! وماذا تملك غيرها أيها الأديب . . إنك لن تحاول أن تزوق الكلام لنفسك كما تزوقه لقرائك ، والمشاعر الانسانية معروفة (لا تتغير . . أنت فرح ولن تحاول أن تعبر عن فرحك لنفسك) لأن نفسك تعرف مقدار فرحك فقد لازمتك منذ أن كنت صبيا إلى الآن ، وها هو ذا أملك يتحقق فأنت فرحان يتناب فرحك بين الحين والحين غصة خوف أن لا تعرفك الفتاة ، وتطمئن نفسك بأن صورك تملأ الجرائد ثم تخشى أن تختلف الصورة عن الحقيقة ثم تفكر فى آخر صورة لك . . ثم . . ثم ها هى ذى الفتاة تقف إلى منضدتك . . نعم انها واقفة إلى منضدتك . .

ــ الأستاذ شريف . . صباح الخير . .

ويقف الأستاذ شريف ذاهلا حائرا فما كان يتوقع أن يرى كل هذا الجمال . . لا . . فما بثينة

بهذا الجمال . . لا ولا أمل هو يوما أن تكون فتاته بهذا الجمال لا . . وقبل أن يسترسل به الخيال يفيق الى وقفتها ووقفته فيقول :

ـ الآنسة . . آسف . . أقصد منى . .

ـ أنا هى . .

ـ أهلا وسهلا . . تفضلى . . اقعدى . .

وتقعد منى ثم ما تلبث أن تضحك ضحكة عالية مرحة منطلقة خالية لا يمسك بها شيء فهى رنين حلو ولكن شريف ينظر إليها فى تعجب . .

ـ خيرا . . ماذا حدث ؟

ـ انظر . .

ـ ماذا ؟

ـ لقد طلبت جلاس وتركته يذوب حتى ملأ المنضدة ولم تلتفت إليه أعرف أن الفنانين يسرحون ولكن لم أكن أعتقد أنهم يسرحون إلى هذا الحد . .

وارتبك شريف فما يدرى ماذا يقول أو يفعل ! وراحت منى تتحدث فى حديث آخر بعد أن نظف الخادم المنضدة ، راحت تشرح له اعجابها به وبكتبه ومقالاته ، وراح هو فى خجل حيران وفى نشوة فرحانة يسألها عما أعجبها وهو يتمنى أن تسكت فقد بلغ به الخجل مداه ، ويتمنى ألا تسكت فما لقى هذه السعادة جميعها قبل اليوم ، وبين رغبته فى سكوتها وأمله فى استرسالها راحت منى تتحدث فى انطلاق مرح فى اعجاب كبير وهى تنظر إليه نظرات يملؤها الاكبار فقد كانت ترى فى جلستها تلك اليه أملا لا سبيل الى تحقيقه . .

وطال الحديث وشريف ينظر إلى الفتاة لا يحول عينيه عنها والسعادة تغمره من كل جانب . . فجمال الفتاة معجزة واعجابها به يفوق اعجاب بثينة بكاتبها لم يبق له من أمل بعد هذا . لا . . لا أمل له أكثر من هذه السعادة التى يعيشها الآن ويتنفسها ويلتذ بكل نسمة فيها . .

وتمكنت منه رغبة فى الانطلاق فما يطيق أن يستقبل كل هذه السعادة جالسا إلى كرسى ، انه يريد أن ينطلق إلى الشوارع إلى الميادين . . إلى الفضاء بل إلى الزحام . . إلى الدنيا جميعا فى هدوئها وضجتها ، فى سكونها وحركتها . . إلى كل الدنيا . .

قال لمنى :

ـ هلم بنا . .

ـ إلى أين ؟

ـ إلى الشارع .. أريد أن أسير .. هلم ..

ـ إلى أين ؟

ـ إلى أى مكان ..

ـ ولكنى لا أستطيع ..

ـ لماذا ؟ ..

ـ لأننى أنتظر خطيبى هنا .. فقد طلبت إليه أن يأتى إلى هنا ..

ولم يسمع شريف شيئا مما قالت بعد خطيبى.. فقد جمدت عيناه تنظران إلى عينيها وجمدت شفتاه لا هما مفتوحتان ولا هما مغلقتان ..

وجمدت خلجات وجهه بين الدهشة والألم وبقايا فرحة تنحسر لتفسح مكانا لألوان شتى من المشاعر لا مجال فيها لفرح أبدا ..

وبعد فترة لا يدرى أقصرت أم طالت انتبه إلى نفسه ناظرا إليها فوجد صورته فى عينيها الشابتين ، وجد صورته الجازعة مطبوعة على عينيها الضاحكة المستبشرة ، رأى صورته فى عينيها فأطال التحديق .. لقد نسى الأستاذ شريف شيئا وذكرته صورته ما نسى .. نسى ذلك الشيب الذى اشتعل فى رأسه فحرق مستقبله ، وفى لحظة وامضة أدرك الاستاذ شريف ألا مستقبل له .. وأدرك ألا ماضى له أيضا .. لقد أكل الأدب ماضيه ومستقبله ، وألهاه عن السنوات التى تمر لا تراعى القلب الشاب ولا الأمل الطفل وانما هى تدمغ حيث تمر فتجعل من صبى الأمس عجوز اليوم ..

كان الأستاذ شريف يقترب إلى الخمسين من عمره ولا يحس .

ولم يفق الأستاذ شريف إلا حين جلس إلى مكتبه وأخرج ورقة وقلما وكتب عنوان قصته الجديدة ..

« أخلفت الموعد » ..

●

ملاعب الصبا

على ضفاف الصحراء ، جلس حمدان بن ربيعة يمد طرفه إلى الأفق البعيد ، فلا يرى بعينيه غير انطباقة السماء على الرمال ، فيخترق بفكره هذا الأفق ويوغل إلى ما وراءه . . إلى هناك . . إلى ملاعب الصبا ، ومدارج الطفولة ، هناك حيث انطبعت يوما على الرمالات البيض آثار ركبته ويديه وهو طفل يحبو ، وآثار قدميه الطفلتين وهو حدث يتعثر فى خطواته الأولى ، وهناك حيث محت الرياح آثار قدميه الصغيرتين وهو صبى يدرج إلى الشباب ، وويل لحمدان من ذكرياته لأيام الصبا ، فهى أولى ذكريات وعاها عقله ، وهى أحلى ذكريات صنعتها له الأيام .

كان ذلك منذ نيف وعشرين عاما ، وكانت الحياة بين يديه لعبا مع الأطفال من أترابه . .

وكانت هى بينهم تلعب كما يلعبون ويجرى عليها من أحكام اللعب ما يجرى عليهم لا يراعون أنها ابنة شيخ القبيلة . . وما شأنهم بأبيها ؟ إنما هى عضو فى جماعتهم لا يعنيهم من شأنها إلا مرحها ولعبها وإتقانها لهذا اللعب . .

وهكذا عاش حمدان فى جهالة الطفولة لا يدرك مقدار السعادة التى تتيحها له هذه الجهالة وإنما يدرك قواعد اللعبة التى يمارسونها تمام الإدراك ، ويتقن هذه اللعبة كل الاتقان .

وكانت هى ــ لمياء ــ تعجب بمهارته ، وتنضم دائما إلى الفريق الذى يضمه . . سعيدة أن تراه إلى جوارها لا تعرف سببا لهذه السعادة ، سعيدا هو أن يراها إلى جواره . . لا يدرك باعثا لهذه السعادة . .

ومرت الأيام ، وويل لحمدان فى جلسته هذه حين يذكر مرور الأيام . . لماذا مرت ؟ ألا تعرف هذه الأيام شيئا إلا أن تمر فتجعل من العقول الجاهلة الحالمة السعيدة عقولا مبصرة

واعية شقية ، أما كانت تستطيع هذه الأيام أن تتوقف فلا تمر ، أو تتمهل فلا تثب هكذا وثبا عنيفا يطيح بالأمانى العذاب ، ويقضى على الآمال الباكرة المشوقة إلى أن تصبح حقائق واقعة ، مرت الأيام كالرحى الثقيلة تطحن سعادتنا الجاهلة ، وأنسنا الساذج . . مرت الأيام ، فألقت على وجه لمياء حلاوة الشباب بعد عربده الطفولة ولمست جسمها فاذا هى فارعة الطول هيفاء غيداء تخطر كالهواء ، وتسعى كالأمل وتشرق كالشباب ولمست الأيام عقل لمياء الطفل الجاهل فتفتح إلى أفكار الشباب وصار يدرك سبب السعادة التى كانت تحسها ، وأصبحت تخجل من هذه السعادة وتحاول ما وسعها الجهد أن تخفيها فى عميق نفسها .

ومرت هذه الأيام نفسها على حمدان فعلمته أن ذلك الشعور بالسعادة إنما هو الحب الذى يتحدث عنه الشعراء ويتهامس به الشبان ، علمته الأيام أيضا أنه فقير ، أبوه تابع لأحد وجهاء الحى ، وعلمته الأيام أن دونه ودون لمياء المستحيل ، فهى لن تصبح له فى يوم من الأيام ، بل أنه لن يستطيع أن يكشف لها عن حبه مهما يعظم . . عرف حمدان هذا جميعه ولكن بعد فوات الوقت . . بعد أن كان الحب قد تغلغل فى نفسه فهو بعض من الدماء التى تجرى فى عروقه وهيهات للشاب المسكين أن يسيطر على حب هو بعض من دمائه . .

وكان الشبان من أبناء الأتباع يجتمعون فيتحدثون عن رجال الصحراء والكهوف حديثا يملأه الفخر وتحيط به هالات من التمجيد . وكان حمدان يستمع إلى هذا الحديث بأذن واعية وقلب خافق متطلع إلى المستقبل ، وكانت النسوة يستمعن إلى هذا الحديث فى تظاهر بالخوف لا يخلو من الإعجاب ، ونظر حمدان إلى نفسه فى قبيلته تلك فوجد نفسه ضائع الأصل ، منهار الأمل ، ووجد أترابه يتمتعون بالمستقبل المشرق ، بينما هو بينهم تابع بلا أمل وتمكن اليأس من حمدان وامتلأت نفسه بالحقد على مجتمعه هذا الذى يحيا فيه فهو ينظر إلى أصدقاء الملعب نظرة كلها الحسد ، وينظر إلى لمياء فى حسرة عنيفة ، وينظر إلى مستقبله فى مرارة قاتلة ، ويراود ذهنه ذلك القصص عن قطاع الطرق ، ومن خلال هذا الطريق المحفوف بالمخاطر يلمع لعينيه وميض أمل ، وما يمنعه أن يصبح قاطع طريق ؟! أهو غضب أبيه ؟ وما يهمه غضب أبيه ذلك الرجل الخامل الذى لم يستطع أن يصنع لنفسه إلا هذه الحياة الحقيرة ليس فيها غير الشرف والعفة والفقر والحرمان ؟ أتعوقه أمه ؟ وما شأنها به وهى التى رضيت أن تشارك أباه حياته تلك المهينة ؟ . . لا . . إن شيئا من هذا لا يمكن أن يمنعه . . لعلها لمياء . . لا . . لا تستطيع لمياء أن تمنعه فهو ان بقى إلى جوارها سيظل التابع الفقير وستظل هى ابنة الأكرمين وسيراها يوم تتزوج ولن يستطيع حينئذ أن يمد لها يدا أو حتى نظرة . . أما اذا رحل واتخذ سبيله فى قطع الطرق فلعله . . لعله يومئذ يستطيع أن يجمع مالا يعوضها به عن ضعة أصله ، ولعله . . ولعله يومئذ يستطيع أن يختطفها ويذكرها بالملعب وأيام الصبا ويناشدها ذلك الحب الطفل .

واتخذ حمدان طريقه وهجر منازله وأحلام صباه وملاعب طفولته وبدأ يمارس مهنته الجديدة فى عنف لم تسمع به العرب من قبل ، وما أسرع ما تكونت حوله عصابة ألقت إليه قيادها فهو يدبر للهجوم ويتزعمه . وبث لنفسه الجواسيس فى الأحياء فهو على علم بكل قافلة تهم بالمسير ، وهو يتخير من بين هذه القوافل أكثرها مالا فينقض عليها ولا بد له أن يصيب من أموالها ما يريد مهما تكن هذه القافلة منيعة الحراسة كثيرة العدد .

كان حمدان جالسا على ضفاف الصحراء تمر بذهنه الأفكار عن أمسه الغابر وعن حاله هذا الذى صار إليه ، وكان أفراد العصابة قد عرفوا فيه حبه لهذه الخلوة فلا يقطعونها عليه فهم جالسون أو نائمون داخل المغارة ينتظرون الجواسيس القادمين ليعرفوا منهم القوافل المعدة للسفر . .

وجاء الجواسيس فتجمعت حولهم العصابة وألقى كل جاسوس بما يعرف من أنباء إلا واحدا بقى مترددا لا تبين عليه حماسة من يحمل أخبارا فسأله حمدان :

– هيه يا عامر مالك صامتا . . ما أنباؤك ؟

– ليست هناك الا قافلة صغيرة . .

– قافلة من ؟

– قافلة لمياء . .

– لمياء؟ !

– نعم لمياء بنت شيخ القبيلة . . تم زواجها بالأمس وهى فى طريقها إلى منازل زوجها . .

– زوجها . . أتزوجت . . متى ؟ ومن زوجها ؟

فأجاب عامر دهشا من هذا الاهتمام المفاجىء :

– تزوجت بالأمس من عكرمة الحضرمى ، وسترحل إليه يوم السبت القادم . .

– ولكنك لم تخبرنى أنها خطبت قبل اليوم ؟ !

– لقد تمت الخطبة والزواج أمس . .

وأطرق حمدان مفكرا ، وكاد الدمع يفضح دخيلة نفسه ، ولكنه سرعان ما تمالك عن البكاء فسأله أحد أفراد عصابته :

– وما شأننا نحن بهذه القافلة الضئيلة . . إنها ستخرج فى يوم كثير القوافل وما أظنك ستترك القوافل الغنية الوفيرة الأموال لتأخذ قافلة هذه العروس . .

ولكن حمدان كان يرى فى قافلة هذه العروس آماله كلها قد تحققت فليس بينه وبينها إلا أن يمد بيده فاذا هذه الأوهام التى كانت تداعب خياله يوم ترك الحى قد أصبحت حقائق واقعة ، واذا حبه الذى كان أملا مستحيل التحقيق قد واف ، فها هى لمياء بين يديه لم يمنعها عنه مانع من زوج أو أب أو قبيلة .. إنها حبه وصباه وشبابه .. وهو .. وتردد حمدان قليلا .. أجل هو .. أتراه أيضا حبها وصباها وشبابها أم أن الأيام قد غيرت هذا الحب ، نعم إنها لم تقل يوما إنها تحبه ، لم تقل ذلك بلسانها ، ولكنه رأى من عينيها أنها تحبه ، وسمع تلك البسمة التى كانت ترتسم على وجهها عند اللقاء إنها تحبه ، ولكن أترى ما كان يسمعه حقا أم هى أوهام محب وخيال شاب ؟ ! سوف يعلم ، وينهى حمدان إلى عصابته أنه اختار قافلة لمياء فيطيعون أمره فى صمت ..

ومنذ ذلك اليوم وحمدان لا يعمل شيئا إلا أن يترقب القافلة القادمة ، وإلا أن يهيىء للمياء كل وسائل الراحة حتى لا تضيق بحياتهم المقفرة ، فهو يقيم لها خيمة من الحرير تملأها الوسائد اللينة والبسط النفيسة والأرائك الأنيقة ..

وبدت القافلة فى الأفق واستعد حمدان وعصابته ، وما هى إلا بعض الساعات حتى كانت إغارة حمدان على قافلة العروس قد نجحت ، فاختطفت العصابة لمياء وهرب أفراد القافلة جميعا حين رأوا كثرة العصابة ..

وأدخلت لمياء إلى خيمتها واتخذت لنفسها مكانا على إحدى الأرائك وبعد قليل دخل حمدان فى أجمل ملبس ، وانبعث فى لهفة إلى لمياء يجثو تحت أقدامها ..

ــ لمياء ..

ــ من ؟ اللص ..

لمياء ؟ انه أنا .. أنا ..

ــ ومن أنت ؟

ــ أنا حمدان .. ألا تعرفيننى ؟

ــ ومتى عرفتك ؟

ــ أنا حمدان .. صديق الصبا .. أخو الطفولة ، ماذا أتراك نسيتنى ؟ !

ــ أنا لم أعرفك حتى أنساك !

ــ إن وجهى لم يتغير كثيرا منذ تركت الحى ، فما هذا الجفاء .. ألأننى اختطفتك ؟ لقد حسبت أن هذا يزهيك .. أما ترين أننى ما فعلت هذا إلا لأننى أحبك .. نعم . أنا لم أقلها

قبل اليوم ، وكيف كان يمكن أن أقولها وأنت فى سماء بيتك ، وأنا فى وضيع حقارتى . . أما اليوم فانظرى حواليك . . انظرى هذه البسط وتلك الوسائد وهذه الأرائك . . اليوم نعم . . اليوم أقولها أحبك . . اليوم أنت لى . . أنت حبى وصباى وشبابى . . حمدان يا لمياء ، ألا تذكريننى ، حمدان ؟

ـ لا . . أنا أعرفك . . لقد كنت أعرف حمدان آخر . . وجهه كوجهك وقوامه كقوامك ، ولكن نفسه غير نفسك ، لقد كنت أعرف حمدان آخر . . عرفته ونحن أطفال وعرفته ونحن شباب فكان فى الطفولة مرح النفس محببا إلينا حين نلعب ، قريبا من نفوسنا جميعا ، وكان فى شبابه رجلا شريف النفس عفيف الخلق ، أما حمدان هذا الذى يجثو هنا . . أما أنت فقاتل سفاك ، قاطع طريق ، أما أنت أيها الرجل فأنا لم أعرفك قبل اليوم ولن أعرفك . .

ـ لقد ظننت . . لقد خيل إلى . . يالى من واهم مخدوع . .

ـ لم يكن حمدان واهما ولا مخدوعا . .

فيجيبها حمدان فى لهفة منتشية :

ـ اذن يا لمياء . . هو أنا . . أنا حمدان . .

ـ بل لست هو ولن تكونه . . لقد مات حمدان إلى غير رجعة . .

ـ أتخاذعيني ؟

ـ بل لقد مات حمدان . .

ويثور حمدان من ذلك الهدوء القاتل الذى تطالعه به حبيبته فما هو بمن يطيق هذه المداورة فهو يقول فى ثورة عنيفة :

ـ بل هو حى أمامك . . وستكونين له شئت هذا أم أبيت . . أنت هنا ملكى . . أنت جاريتى . . أنت لا حول لك ولا قوة ، أنا كل شيء لك أنا مستقبلك ولا مستقبل لك إلا بى . . أفهمت ؟

ـ لقد فهمت هذا منذ جئت إلى هذه الخيمة . . نعم . . انى جارية اختطفنى اللصوص . . فأنا ملك لمن اختطفنى فمالك ثائراً ؟ ! أنت لم تقل هذا فى أول الحديث وإنما ادعيت أننى أعرفك وأنك تعرفنى فكذبتك ، أما أننى ملكك فهذا حق . . أترى أيها اللص أننى لا أعارض فى الحق أبدا . .

ـ لمياء . . لمياء . . بعض هذه القسوة . .

ـ أى قسوة فيما أقول أيها اللص . . لقد أردتنى جاريتك ، وهأنذا أطيعك . . مرنى بما

تشاء أطعك .. لن أخالف لك أمرا مهما يكن ..

ــ حتى لو طلبت إليك أن تهبى لى قلبك ؟ ..

ــ وتجيبه لمياء فى ضحكة ساخرة :

ــ أرأيت القلب يوهب بالأمر أيها اللص .. لا .. لا يمكن أن أطيع هذا الأمر .. اللهم الا اذا أردت أن تقتلنى أو تسرق قلبى من بين ضلوعى ..

ــ بعض السخرية يا لمياء ..

ــ فبعض العقل أنت .. أتأمرنى أن أهب لك قلبى .. حبى ويحك لقد أفرطت .. أهب أحلام شبابى وآمال مستقبلى لقاتل .. سفاك .. وأهبها إطاعة لأمره .. جهلت الحب يا فتى وادعيت كذبا ..

ــ أعرف أننى أستطيع أن أنالك وأعرف أننى أستطيع أن آمرك فتصبحى لى وحدى ولكن لم يكن هذا حلمى .. لقد كنت أحلم بحبك لا بجسمك ، فأنت حرام على منذ اليوم ..

ــ بعد أن اختطفتنى وأنا فى طريقى إلى زوجى ؟ ! ألم تفكر فيما عسى أن يقال عنى .. ألم يدر بذهنك ذلك العار الذى ستلحقه بى ؟!

ــ لا والله لم يدر بذهنى هذا .. فقد كنت أحسب أننى سألقى فيك حبى القديم .. أما اليوم .. أما وقد ذكرت أنت هذا العار فلا وحياتك ما كنت لأجعل العار يلحق بك أبدا .. ويخرج حمدان من ثيابه خنجرا لامع النصل فتجزع لمياء قائلة :

ــ ماذا أنت صانع ؟

ــ سأجعل منك أعظم امرأة فى هذه الأحياء .. لقد طلب الرجال قتلى فلم يستطيعوا .. لأكونن قتيلك ، سأقتل نفسى بيدى ، وقولى أنت لمن يسألك إنك قتلتنى لتدافعى عن شرفك فأنقذته .. فاذهبى أنت إلى السعادة فى ظلال زوجك وحسبى أنا من الأيام ذكريات الصبا التى عشت بها ولها حتى اليوم ..

وما أن يكمل حمدان قوله حتى يغرس الخنجر فى قلبه فى سرعة خاطفة وتذهل لمياء عن نفسها .. لا تعرف ماذا تفعل فيسارع حمدان قائلا فى حشرجة :

ــ أسرعى بالهرب .. أسرعى قبل أن يأتى أحد .. أسرعى .. واذكرينى ، اذكرينى أننى قاتل وسفاك وقاطع طريق ولكننى .. أحببت .. ووفيت ومنعت اسمك أن يلم به السوء ..

وركعت لمياء إلى جانب حمدان فى لهفة ملتاعة :

ــ لماذا يا حمدان .. لماذا فعلت هذا بنفسك ؟ ! إنما أردت بكلامى أن ترجع عن طريقك

هذا .. أنا هى لمياء التى عرفتها يا حمدان .. فارجع إلى الحياة لتعيش شريفا نقيا كما عرفناك .. حمدان .. حمدان .

وجرت دموع لمياء غزيرة على وجه حمدان .. دموع فيها حب قديم ، وفيها حزن جديد ، ولكن حمدان لم يحس بحب أو بحزن كان قد ترك الدنيا بكل ما فيها من مشاعر ..

وخرجت لمياء تنفذ ما أمرها به حمدان فى ذهول حائر ودون أن تحس ولت وجهها إلى منازل أبيها ، وما يأتى الصباح من الغد حتى تكون قد رجعت إلى الحى تقص عليهم ماكان من حمدان .. لم تقل إنها قتلته بل روت الحقيقة كما هى .. وكأنما أرادت بها أن تنال من قلوبهم الغفران للص الذى غسلت دماؤه خطاياه ..

●

لقـــاء ولا وداع

هو ــ وحدك ؟

هي ــ وحدى .

هو ــ وتحبينني ؟

هي ــ وأحبك !

هو ــ وأنت على هذا الجمال الآسر ، حتى ليخيل إلى أنك صنعت جسمك بيدك ، أو ليخيل إلى أنك مكثت فى عالم الغيب أجيالا عدة تسألين الله أن يخلقك نوعا وحدك من الجمال ، فسمع سبحانه سؤالك وأجاب سؤالك ، فكنت على ما أرى الآن لونا فريدا من الجمال بلا شبيه ولا قرين ، بل انك حتى فى رفيع سمائك لا يليك من ألوان الجمال تال ، فسماؤك شاهقة الرفعة ، قريبة كل القرب من بارئك ، وسماوات الجمال الأخرى بعيدة عنك كل البعد ، فكأنما هي الأرض منك إن جاز لى أن أقارن .

هي ــ شاعر انت ؟

هو ــ لا شأن لك بي . . أجيبينى أنت . . كيف أمكنك أن تكونى على هذا الجمال ؟ . . ثم كيف خرجت به غير مستور إلى الطريق وحدك بلا رقيب عليه عات شديد ؟

هي ــ أغيرة ولم نتعارف ؟

هو ــ إنما هو عجب . . أليس لك زوج ؟ أليس لك محب ؟ هل بلغ العمى بالعباقرة النابغين وبالأغنياء واسعي الغنى الى حد أن واحدا منهم لم يرك فيلقى بجبهته عند أقدامك عابدا مكبرا ؟

هى ــ بل هناك من كان يفعل ذلك .

هو ــ كان ثم لم يعد . . فعزاء يا سيدتى . . وهل مات منذ عهد قريب ؟

هى ــ بل إنه مازال حيا .

هو ــ حيا ويتركك تخرجين وحدك ؟ حيا ويجعل منك هذه الشقية التى تجيب أول متحدث إليها ؟ حيا !! لعل أنفاسا تتردد فى جسمه بين ذهاب وأوبة ، ولعله يسير ويأكل ، ويشرب ، وينام . ولكننى ما زلت مصرا على أنه مات ، هو ميت وإن كان يملأ الدنيا بالحياة !

هى ــ وأى عجب فى ذلك . . ها أنت ذا وحدك . . وأنت جميل ، ألست حلو الحديث ، وحدك أرى وحدتك على وجهك ، وأراها فى حديثك المندفع الطويل الذى آده الصمت الطويل . وحدك أكاد لم أر شخصا تحيط به كل هذه الوحدة التى تحيط بك . . أليست لك زوجة أو صديقة تلقى إلى واحدة منها هذا الحديث الذى ألقيته إلى الآن ؟

هو ــ أنا يا سيدتى لا أزوق لك الكلام تزويقا ، ولا أختلقه اختلاقا ، وإنما رأيتك وحدك فأخذنى جمالك ثم حادثتك فأجبتنى فأخذتنى وحدتك .

هى ــ وحدة أحاطت فخرجت أبددها فكنت أنت .

هو ــ فهى وحدة طارئة !

هى ــ بل وحدة دائمة سئمتها فجزمت أمرى على هجرانها . . وأنت ؟

هو ــ وحدة طالما تمنيت أن أبددها فعجزت ، وكيف كان يمكن أن أبددها ؟ إننى أبحث عن امرأة ، وأريدها جميلة ، أراها فأرى سعادتى فى وجهها ، وأريدها ذكية ، أحادثها فيعود إلى حديثى يحمل منها فهما وعطفا وهوى ، والنساء يا أخت الوحدة : إما ساقطة تعرض نفسها فى السوق ، وأنا لا أشترى اخوق فى الآدمية ، أو جميلة لها زوجها أو خطيبها فلا أمل لى فيها ولا رجاء ، أو قبيحة لا بد أن أروض نفسى على قبحها ، ويحسبى من الشقاء وحدتى فلا خير لى عندها !! كذلك كنت ياأخت الوحدة قبل أن ألقاك !! وأقسم بالفنان الذى أبدعك ما كلمت واحدة قبلك دون تعارف ، وأقسم ما هممت بذلك حتى رأيتك فقلت انطق ، فإن صمتت فلا أحد يرى خزيى ، وان تكلمت . .

هى ــ هه . . وماذا إن تكلمت ؟

هو ــ الحقيقة أننى لم أفكر فيما يكون عليه الأمر لو تكلمت . . فما كنت أتوقع أن تتكلمى وإن نطق القدر .

هي ـ ولكن هذا اليأس يحيط بك طارىء ، فأنا لا أعتقد أنك تحيا فيه طوال يومك لا بد أنه ابن ساعة ثم يمضي .

هو ـ ابن ساعة ويمضي ولكن كثيرا ما يعود ، يعود زاحفا بالوحدة والضيق ، فأرى نفسي وأنا بين الجموع منفردا .

هي ـ أنت متزوج ؟

هو ـ نعم .

هي ـ وزوجتك ؟

هو ـ كنت أحبها حتى تزوجنا .

هي ـ فكرهتها ؟

هو ـ لا وحقك فما عرفت الكره يوما ، ولكنى أصبحت أرى فيها الشقاء ، ان بلغ الشقاء ذروته . . جامدة كالقدر ، أنانية كالحيوان ، لا شأن لها بى ولا يهمها أين أضطرب فى هذه الحياة ، كل شأنها أن تطلب فأجيب ، فلا شكر ولا حمد ولا ثناء ، ولا هى حتى تحبس سوء نفسها أو لسانها .

هي ـ كانت تلك حالك يا مسكين . . !!

هو ـ ولا تزال . . صدر لى ديوان شعر عدت به إلى بيتى فرحا . . أول كتاب يصدر لى ، أعطيته لزوجتى فوضعته جانبا وراحت تستجوبنى فى كل حقير تافه من أمورها فتركتها وخرجت لا أدرى أين طريقى ؟ هيه يا أخت الوحدة لقد بحت لك بكل شىء . .

هي ـ بل ليس بعد .

هو ـ ماذا؟

هي ـ فيم يدور شعر ديوانك ؟

هو ـ رعاك الله يا أخت وحدتى ، إن زوجتى لم تسألنى ما سألته الآن . . لا عليك وأخبرينى أنت فيما خروجك وحدك وجمالك معجزة والليل أسود والذئاب كثير؟

هي ـ أكبرته فتزوجته فأحببته .

هو ـ ما أسعدك !! حب يقوم على الزواج . . حب دائم .

هي ـ كان ذلك .

هو ـ ثم ؟ . .

هى ــ ثم راح الناس يمتدحون له جمالى فغاظه ذلك وأصبح يرى أن من يمتدحنى انما يقصد الى ذمه هو ، فهو يعتقد أنه قبيح الوجه . . كان جمالى وبالا على وعليه ، أبى أن يقنع من الدنيا بالمال الوافر والزوجة الجميلة فأراد أن يكون له من الجمال ما لم تهبه له الطبيعة ، فكفر بكل السعادة التى تحيط به وأحال حياتى وحياته شقاء مستمرا .

هو ــ وأية حياة تقوم بينكما ؟

هى ــ لا حياة بيننا . . هو فى عمله طول يومه ، فاذا عاد عند المساء فالضيق والضجر وألوان من السخط وأفانين من العذاب . . الزوجية بيننا هى هذا العذاب وليس فى حياتنا من معانيها إلا الشجار المستمر والغضب المتلاحق .

هو ــ أشبهت حياتك حياتى . . مسكينة !!

هى ــ أومثل هذه حياة ؟ . . إنها الموت .

هو ــ بل الموت خير منها . . فإننا عند الموت لا نختلف ولا نحترق فى كل يوم مرات وإنما عند الموت لن نجد أجسامنا تلك تطالبنا بحقوقها بعد أن احترقت .

هى ــ فخرجت أنتقم .

هو ــ ولهذا خرجت أنا .

هى ــ أنتقم من زوجى الذى جعل شبابى شيخوخة ومن نعمة جمالى نقمة ولعنة . . أريد أن أنتقم .

هو ــ وأنتقم أنا من زوجتى التى قتلت أحلام صباى ، ورؤى شبابى ، وصرعت كل نجاح لى فى ضجيج سخطها وتفاهة رغبتها . . لن تجدي شخصا صالحا لتحقيق انتقامك مثلى أنا .

وشع فى عينيها وميض كالشرر الساطع وهى تقول :

ــ أظنك على حق .

فأحاط هو ذراعها بذراعه وهو يقول :

ــ بل إنى على حق .

ــ وماذا تريد ؟

هلم بنا .

وسار الاثنان شعلتين من الانتقام والرغبة تشقان طريقهما إلى الحريق ،وكان الطريق طويلا ، وكانت الثورة فى نفسيهما تبحث عن الطريق الطويل ، وراح الحديث ينحدر بينهما فى

قوة عارمة ، ثم ما لبث أن أصابه بعض وهن ، فاذا هو حديث طبيعى بلا رعد ولا نيران ولا وعيد ، ثم انتهى آخر أمره الى حديث هامس حلو يدغدغ الأذن والقلب والعقل ، وراح الناقمان يسكب كل منهما على صاحبه أسلوبا من الفهم المادىء الواعى ، فترتاح نفس كانت ثائرة ، ويهدأ مضطرب كان راعدا ، ويسيران الطريق .. طويل طريقهما ، ولكنه لنجوى بلا غزل ، وأفكار معربدة بلا لذة ووهج أحمر يحف به ، ولكنه وهج النار وليس وهج النور . الحديث بينهما يتصل بكلمة أولا يتصل ، لم تسله إلى أين ، لقد كانت الأمكنة جميعها تستوى ، أما هو فقد كان يعرف طريقه ، وان كان يسلكه لأول مرة ، إنها شقة صديقه التى طالما دعاه إليها أغراه بأن مفتاحها عند البواب متروك لأقرب الأصدقاء . وعند البواب قائمة طويلة بهؤلاء الأصدقاء الذين يسمح لهم باستعمال المفتاح وهو أول هؤلاء الأصدقاء .

نعم إنه يعرف طريقه .

وبلغا العمارة وسألا البواب عن المفتاح فأخذاه وصعدا وفتحا الباب ثم أغلقاه عليهما .. منفردين .

قلبت هى عينيها فى المكان ، وأمعن هو فيها النظر . ثم جذبها إلى صدره فى عنف لم يكن بحاجة إليه فقد ألقت هى نفسها إلى صدره ، ولفف شفتها فغاصت هى فى أعماق قلبه تريد بها أن تنجو من عذاب زوجها وأيامها وجمالها وضميرها . وأحس هو الشفاه اللاهية ، ولكنه أحس لهيب انتقام لا لهيب لذة ، وأحست هى شفاهه الملتهبه ، ولكنها لم تحس اللذة فى هذا اللهيب وانفرجت الشفاه وتباعد الجسمان رويدا ، ثم ألقت بنفسها إلى كرسى وهى تقول :

ــ أحس راحة ..

فقال وهو يراوغ فى الإجابة :

ــ بل ليس بعد ..

ــ بل إنى أحس راحة ورضا ..

ــ إننا لم ننتقم من حياتنا بعد ..

ــ أما أنا فقد انتقمت ..

. . . .

ــ لقد انتقمت بحديثى إليك ، وقد كنت أحسب أننى واجدة جديدا اذا ما جئت إلى هنا .. لا .. لا جديد .. لقد استرحت ، وانتقمت ..

ويقول الشاعر مستخزيا :

ــ وأنا والله مثلك ، لقد ارتحت بحديثى إليك وانتقمت ، وما عدت أرجو بعد ذلك لذة . .

أترى . . لم تبق لنا لذة . . لقد انتقمنا بالحديث ، وبالحديث بلغنا أقصى غايات اللذة . . فما بقاؤنا الآن ؟

ــ نعم . . ما بقاؤنا الآن ؟ . .

فهلم . .

ــ إلى أين ؟

أنت إلى طريقك وأنا إلى طريقى . .

ــ بلا . . .

ــ بلا شيء على الإطلاق . .

ــ ولا وعد على اللقاء ؟

ــ ولا وعد . .

ــ ولا وداع ؟

ــ ولا وداع . .

ــ فما فى الوداع ؟

ــ فيه أنك ستقيم منه رؤى وخيالات ، وفيه أننا سنغذى عاطفة لعلها الآن تهم بالظهور . . فسلاما ولا وداع . .

ــ سلام . . ولا وداع . .

وعند الباب الخارجى فوجىء البواب بالشاعر يلقى إليه المفتاح إلقاء ، ثم فوجىء به يميل يمينا بينما تميل صديقته شمالا ، ويسيران بلا تحية ولا سلام ولا وداع . .

فوق السعادة

المنظر : حجرة معدة للجلوس اليومى ، أثاث أنيق فى غير بذخ ، تجلس عليه الأختان ثريا وأمينة .

ثريا . . أنت التى دائما تغلطينى . .

أمينة ــ والله يا أختى أنا أقول الحق ، وطبعا أنا آسفة أن أراك دائما هكذا . .

ثريا ــ بل أنت دائما تقولين عنى غلطانة حتى لا يقال عنك إنك تحابين أختك . .

أمينة ــ يا ثريا إن المعاملة التى تعاملين بها زوجك لا ترضى أحدا . .

ثريا ــ أى معاملة ؟ !

أمينة ــ وهل قليل أن يخرج زوجك كل يوم غاضبا ، وأن يبيت كل ليلة حزينا . . من يرضى بهذا ؟ !

ثريا ــ إنه هو الذى يختلق المشاكل . .

أمينة لنفترض ذلك ، انما واجبك أن تحلى أنت هذه المشاكل ولو أن ما أراه أنك دائما أنت . . وأنت وحدك التى تختلقين المشاكل . .

ثريا ــ إنه دائما غضبان لا أعرف كيف أرضيه . .

أمينة ــ إنه غضبان مما يرى يا ثريا . . ماذا يفعل المسكين حين يجد نفسه . . كلما يدخل إلى منزله . . أمام وجه كشر ، !

ثريا ــ وماذا أفعل إن كان يضايقنى دائما ؟ !

أمينة ـ وفيم يضايقك .. أنت تعلمين قلة موارده ، وأنت مع ذلك لم ترحميه من الطلبات .. وأقول الحق ، إنه يكلف نفسه فوق طاقتها ، وأنت مع ذلك غير راضية ..

ثريا ـ وماذا أفعل فى قلة موارده ؟ !

أمينة ـ أجننت !! فماذا يفعل اذا لم تفعلى أنت .. يجب أن تفعلى كل شيء يعاونه فى حياته .. أو يجب عليك ـ على الأقل ـ أن تخففى من طلباتك ..

ثريا ـ وهل شكا لك هو من كثرة طلباتى ؟

أمينة ـ لم يشك . ولكن لى عيونا ترى ..

ثريا ـ ولكنه لا يكلمنى فى مثل هذا أبدا ..

أمينة ـ فهو رجل صاحب حياء ..

ثريا ـ ولكنه فى هذه المرة ليس غاضبا من كثرة الطلبات .

أمينة ـ وهل تنتهى أسباب إغضابك له ؟

ثريا ـ لقد غضب لأننى خرجت من غير إذنه ..

أمينة ـ «ساخرة» بسيطة !!

ثريا ـ طبعا بسيطة ، نحن فى القرن العشرين ، ولابد للرجل أن يثق فى زوجته ، وإلا فلالزوم للحياة الزوجية نفسها .

أمينة ـ وهل فى استئذانك له ما يجرح من ثقته بك .؟

ثريا ـ فلماذا أستأذن ؟

أمينة ـ اسمعى يا ثريا .. تأكدى أن زوجك يثق بك ، ثقة عمياء ، فهو بغير هذه الثقة لا يستطيع أن يعيش معك يوما واحدا .. ولكنه حاول أن يمنع كلام الناس ولا أحد يلومه عليها ..

ثريا ـ وما شأننا بالناس ؟!

أمينة ـ كيف هذا ؟ الناس هم كل شيء .. الشرف سمعة .. فأنت شريفة ما دام الناس يرونك كذلك . أما إذا قالوا غير ذلك ، أصبحت كما يقولون ..

ثريا ـ ماهذا الكلام الفارغ ؟! الشريفة شريفة فى نفسها .

أمينة ـ هذا هو الكلام الفارغ .. مافائدة الشرف اذا كنت ـ لا قدر الله ـ تجلسين فى

البارات وتخرجين مع غير وزجك .. الشريفة يا ثريا هى التى تحافظ على سمعتها كما تحافظ على شرفها .. وواجب الزوج أن يمنع كل كلام يثار حول زوجته .

ثريا ـ وهل يستطيع أحد أن يقول عنى كلمة .. والله ..

« تدخل الخادمة »

الخادمة ـ جواب يا ستى

ثريا ـ أى جواب ؟

الخادمة ـ جواب أرسله سيدى ..

ثريا ـ هاتيه يا عليه .. (تأخذ الجواب وتبدأ فى قراءته ، ولكن عينها تترقرق فيها الدموع فتعطيه لأمينة) .

أمينة ـ خدى اقرئيه أنت ..

ثريا ـ ...

احببتك يوم طلبت يدك حبا أخذ على حياتى جميعا وأقسمت يومذاك .. بينى وبين نفسى .. أن أهيىء لك من أسباب السعادة ما لم يتهيأ لأحد فى العالم .. وكان ظنى يومذاك أنك ستنعمين بهذه السعادة وتسكبين على من فيضها ما أحيا به فى أهنأ حياة .. وكنت فى هذه الأيام ذا آمال كبار ، وكنت أنت شريكتى فى آمالى ، فما طمحت إلى شيء فى نفسى إلا فكرت فيما سينالك أنت من خير إذا تحقق . ثم تزوجنا ومرت الأيام فاذا آمالى كلها تتحقق الا شيئا واحدا وددت لو كان وحده هو الذى تحقق ـ نعم يا ثريا .. لم أستطع أن أهيىء لك السعادة التى نشدتها لك فى نفسى . ولست أدرى من منا كان المخطىء فيما حدث لنا ولكنى أدرى تماما أنى لم أستطع أن أهيىء لك السعادة التى نشدتها .. وإننى اليوم تاركك .. راجيا لك أن تنالى يوما ما فوته عليك من السعادة ..

« ملحوظة : سأحضر الساعة ٦ لآخذ مذكراتى التى لا أحب أن يلمسها أحد غيرى ، وكل رجائى أن تتركى المنزل مدة ربع ساعة .. » .

« سامى »

ثريا ـ « باكية ومحاولة التجلد » حسنا مادام هو الذى فعل هذا .. أنا لايهمنى شيء ..

أمينة ـ « وقد ظهر عليها كأنما تذكرت شيئا » ثريا .. كم الساعة الآن ؟

ثريا ـ أهذا وقته ياأمينة .. لا أعرف .

أمينة ـ كيف لاتعرفين أنه سيحضر فى الساعة السادسة .

ثريا ـ آه حقا .. الساعة الآن ...

« تنظر فى الساعة ثم تذهل حائرة » ..

أمينة ـ نعم أعرف أنها السادسة لقد تأخر الساعى فى إحضار الجواب .. لابأس .. سأحضر لك حقيبتك من الغرفة .. لتخرجى حالا ..

« تذهب أمينة ، ولكن ماتكاد تخرج حتى تدخل الخادمة مسرعة » .

الخادمة ـ سيدى ياستى .. دخل العمارة الآن ..

ثريا ـ أجاء ؟ « فى اضطراب » .. سأدخل فى الصالون فإن سأل قولى له خرجت ..

الخادمة ـ حاضر ..

« يدخل سامى متجهما » ..

سامى ـ أين سيدتك يا علية ؟

الخادمة ـ خرجت ياسيدى ..

سامى ـ طيب « ويهم بالدخول الى غرفته فتخرج أمينة » .

أمينة ـ « مضطربة » أهلا سامى

سامى ـ أهلا أمينة ، عن إذنك ..

أمينة ـ تفضل ..

« يدخل سامى » ..

أمينة ـ أين ستك ؟

الخادمة ـ « فى صوت خفيض » فى الصالون وطلبت الى أن أخبر سيدى بأنها خرجت .. يتهيأ لى ياستى أمينة أن فى الأمر شيئا ..

أمينة ـ لا شأن لك ياعلية . اذهبى أنت الى المطبخ ..

الخادمة ـ أمرك ياستى ..

« تخرج » .. « يدخل سامى وفى يده المذكرات » ..

سامى ـ عن إذنك ياأمينة فأنا على ميعاد مهم ..

أمينة ـ اقعد ياسامى ، مازال أمامك وقت ..

سامى ـ لا .. أرجوك ..

أمينة ــ لا تخف . . أنا أعرف أنك غضبان من ثريا . . كالعادة طبعا ، ، ولكننى لا أعرف شيئا عن الخلاف ، فقد جئت لزيارتها فلم أجدها . .

سامى ــ فلماذا أقعد ؟ . .

أمينة ــ أكلمك ياأخى . . ليس هذا من حقى ؟!

سامى ــ يظهر أنك لاتعرفين شيئاً عن الموضوع

أمينة ــ أى موضوع ؟

سامى ــ الذى حصل بينى وبين ثريا « يفتح باب الصالون » ولا يحس بهذا سامى ، بينما تراه أمينة فتتظاهر بأنها لم تره . . »

أمينة ــ لاشأن لى بها . .

سامى ــ لاشأن لك بها . . أليست أختك . !

أمينة ــ إن قلبى فوق أختى وفوق كل قوة فى الوجود « يحاول سامى أن يجيب فتندفع أمينة فى سرعة » أحبك وأنت تحبنى . . إلام نظل نخفى هذا الحب . ؟ لماذا لانتخلص من ثريا . ؟ لماذا لانعيش نحن فى ظل حبنا . . لماذا نحرم من الحق الذى يهيئه لنا حبنا . ؟

ثريا ــ « مندفعة من الحجرة » الله . . اللهّ . . أهذه هى الحقيقة اذن « أمينة تغالب الضحك » لا . . لاتحاولى ياأختى العزيزة أن تجعليه مزاحا فأنت تظنين أننى خرجت . . ألهذا اذن ترينه دائما على صواب وأنا دائما المخطئة . . وأنت أيها الزوج المخلص . . أهو حب آخر اذن ماجعلك تقلب حياتى الى هذا البؤس وأنت مع هذا لاتخجل أن تكتب لى هذا الخطاب وكأنك المظلوم المسكين !!

سامى ــ « مذهولا » أقسم لك يا ثريا ؟ إن هذه أول مرة تكلمنى فيها أمينة بهذا الشكل . . أقسم لك . . أقسم لك بالله العظيم . . أقسم لك أنى برىء . . أنا لا أعرف شيئا . .

أمينة ــ « منفجرة فى الضحك » أيها المغفلان . .

ثريا ــ وتضحكين !!

أمينة ــ لقد قالت لى « علية » إنك فى الصالون ، وهذا طبيعى ، فلو كنت خرجت لقابلك سامى . . أيها المغفلان . . ان كلا منكما يحب الآخر . . وتلك هى السعادة . . إن السعادة تصنعانها بأيديكما ، ولكن الحب يصنعه الله . . عيشا معا ، وليظهر كل منكما حبه للآخر فتلك هى السعادة . . إن الحب لا يوجد إلا مرة واحدة ، ولكن السعادة تجىء وتذهب . . إن لحظة

سعيدة بين حبيبين هى الحياة . . هى الدنيا . . هى كل شىء . . الحب . . « يقترب كل من الزوجين إلى الآخر » . .

الحب سيخلق لكما السعادة التى تنشدانها « ويتعانق الزوجان » عيشا . . عيشا . . عيشا . . فإنه الحب . .

« ستار »

●

الطابق الأعلى

دس عبد الله أفندى يده فى جيب صديريه وأخرج الساعة المعدنية « اللونجين » التى لا تخل دقيقة واحدة ، فوجد عقاربها تشير إلى الثانية من بعد الظهر فرفع الطربوش عن رأسه فى احتراس شديد ، وأخذ ينفخ فيه بكل قوته ، ومسح أركانه بكمه ثم أعاد الطربوش الى رأسه ، وثبته فى مكانه معتدلا قائما لا يميل يمنة ولا يسرة ، ثم أمسك عبد الله أفندى بتلابيب نفسه ، وأخذ ينفض « جاكتته » فى قوة عنيفة ، ثم نظف كميه كلا منهما بالآخر ، ونظر إلى « الدوسيهات » القائمة أمامه فأخذ يرتبها فى عناية شديدة ، وجمع الأوراق التى كانت أمامه ووضعها فى الدرج الأعلى من يمين المكتب ، فإنها الأوراق التى سيعمل فيها فى صباح الغد . . ثم جمع أوراقا أخرى ووضعها فى الدرج الأعلى من يسار المكتب ، فإنها الأوراق التى تم إنجازها وستأخذ سبيلها فى الغد إلى رئيس القلم . وقام عبد الله أفندى بعد ذلك ، وزرر جاكتته ، وأمسك بأطرافها فجذبها إلى أسفل وأخذ طريقه إلى باب الغرفة فى مشية متزنة لا هى بالبطيئة ، ولا هى بالسريعة ، وإنما هى مشية ذات خطوات مرسومة محسوبة لا تخطىء ولا تخل ، فإن عبد الله أفندى رجل دقيق لا يخطىء ولا يخل . .

وخرج عبد الله افندى من الوزارة وجهته محطة الترام ، وكان مشغول الفكر إذ ذاك بهذه الدروس التى عليه أن يؤديها فى يومه هذا . وكان ضيق النفس غاية الضيق بهذه الدروس التى يعطيها لصغار التلاميذ . وكان فى ذلك اليوم أشد ضيقا من كل الأيام السابقة فإنه يفكر فى عمره الذى سرقته معه هذه الدروس والذى انتهبته منه هذه الذرية التى توالت عليه منذ تزوج حتى عامه الفائت . . ستة عشر عاما هى شبابه . . ضاعت كلها فى إعطاء الدروس ، ثم فى إنفاق أجور هذه الدروس على الدروس التى يتلقاها أولاده هو ، وهكذا أصبحت حياته كلها دروسا فى دروس . . دروس تهب المال ودروس تتخطف المال ، وهو بين الأخذ والإعطاء آلة

حاسبة دقيقة كل الدقة ، ولكنها أيضا آلة ذات آمال وشباب ، فهى آلة حزينة كل الحزن !

وهكذا أصبح عبد الله أفندى صارما فى حياته لا يطيق فيها لهوا ولا لعبا ، وهكذا أخذ نفسه بالدقة البالغة . . لا يبتسم إلا بمقدار ، ولا يضحك إلا عند الضرورة الملحة ، ولا تكون هذه الضرورة إلا عندما يلقى رئيسه فى الديوان نكتة على مرأى منه أو مسمع !

ودقته هذه تلازمه فى كل شىء . . فى ملبسه ، فى مشيته ، فى عمله ، فى منزله فى سريره ، فى بيته . . وتزداد دقته فى مسائل الدين ، من صلاة إلى صوم الى كل ما أمر به الدين ما عدا الزكاة . .

وتقضى عليه الدقة ألا يسكن من العمارات إلا الطابق الأعلى . . وتسأله عن السبب فيجيب :

« حتى لا يمر صاعد أو هابط على العيال » . « والعيال » هنا هى زوجته بطبيعة الحال . وتقضى عليه الدقة أن يصدر إلى العيال . . إلى زوجته . . الأوامر بألا ينفتح الباب بحال من الأحوال وهو غائب ، فإن طرق الباب طارق فليطرقه ولا تجيب هى ، وزوجته ــ رعاها الله ــ سيدة وقور نزحت معه من الريف ، وقد نزحت معها أخلاق الريف العفيفة . فأوامر زوجها تطاع فى دقة . . دقة حازمة . . تلك الدقة التى يحبها زوجها ولا يحيد عنها أبدا . .

وقد امتدت هذه الأوامر إلى أولاده . . وامتدت طاعة الأم إلى أولادها . . فالأب يأمرهم فينفذون ، لا يدرون للأمر معنى ولا سببا إلا أنه واجب التنفيذ . .

ولكن أمرا واحدا لم يستطع الأولاد أن ينفذوه . . كان ذلك الأمر هو أن يكونوا أذكياء . . وكيف لهم أن ينفذوه وهم لا يفهمونه ! . . لقد أمرهم أبوهم : « كونوا أذكياء » فقالوا : « حاضر » ولكنهم لم يستطيعوا أن ينفذوا « حاضر » هذه أبدا . .

وكان عبد الله أفندى يأخذ أولاده بالشدة ، فقد كان يرى فيهم لصوصا لعمره الذى أضاعه فى إطعامهم ، وإلباسهم ، وتعليمهم ولكنه لم يعترف لنفسه أن شدته على أولاده مبعثها أنهم أضاعوا شبابه ، بل كان يقنع نفسه ويحاول أن يقنع غيره أنه لا بد للأولاد أن يؤخذوا بالشدة حتى ينفعوا فى حياتهم . . وكذلك كان عبد الله أفندى فى دينه ، فهو متعبد لأن العبادة لا تكلف صاحبها شيئا ولكنه يقنع نفسه ويحاول أن يقنع غيره أنه متعبد حبا فى الدين . .

وكان أكبر أولاد عبد الله افندى فى الخامسة عشرة من عمره ، وكان أمام أبيه مثالا للطاعة العمياء ، والأدب الجم ، والحياء المفرط ، فهو كسير العين ، منطبق الفم إلا إذا أكل ، ساكن الحركة إلا إذا أمره أبوه بإحضار شىء ! حتى إذا خلا بنفسه وبأصدقائه أصبح عربيدا لا يبارى

فى عربدته فهو أضحوكة الإخوان ومسلاتهم ، وهو من يتصدى عنهم لكل عبث يمنعهم عنه الحياء !

لم يطل انتظار عبد الله أفندى للترام فى يومه هذا ، فقد أخطأ السائق وجاء فى موعده وركب عبد الله أفندى محاولاً الوقار ، ولكنه لم يستطعه ، فقد وجد نفسه فى وسط كومه من الآدميين تصعد فصعد معها . . وكان الوقار يقتضي أن يجد عبد الله أفندى مكانا ليجلس فيه ، ولكنه لم يجد فوقف مكرها وجاء «الكمسارى» فأخرج عبد الله أفندى من جيبه ثمن التذكرة لا ينقص ولا يزيد مليما ، فهو يعد لكل شىء عدته ، ألم أقل لك إنه دقيق ؟

ووصل عبد الله أفندى إلى البيت وصعد درجات السلم . . أربعا وثمانين درجة . . لقد أحصاها ويحصيها كل يوم . كأنما يخشى أن تنقص درجة ، وفتح باب منزله ونادى . .

ــ يا أم سعيد . .

ــ نعم يا عبد الله أفندى . .

وكان الجواب آتيا من المطبخ ، وكانت زوجته هى المجيبة ، فهى لم تكن تدعوه بغير « عبد الله أفندى » . . وارتفع صوته ثانية :

ــ أين الغذاء ؟

ــ جاهز . .

ــ أسرعى ، فالساعة الثانية والنصف ودقيقتان . .

ــ جاهز يا عبد الله أفندى ، جاهز . .

وخرجت زوجته من المطبخ تحمل الأكل الذى أعدته ، وجلسا إلى المائدة ، وقبل أن يمد يده إلى الطعام قال :

ــ اليوم يوم الاثنين . .

ــ نعم . .

ــ فأين سعيد ؟

ــ لم يجىء بعد . .

ــ لم يجىء ؟ كيف ؟

ــ الله يعلم . .

ــ كيف هذا ؟ . . لقد طالما نبهت عليه ألا يتأخر فى الطريق .

ـ لعل لديه عملا بالمدرسة ..

ـ لا يمكن ..

ـ على كل حال كل أنت ولن يلبث سعيد أن يجيء ..

وقبل أن ينفذ عبد الله أفندى نصيحة زوجته ، طرق الباب فقام عبد الله أفندى ليرى من الطارق ، وفتح الباب فطالعه شرطى طويل عريض سأله فى غير مبالاة :

ـ أنت عبد الله أفندى عبد السميع ؟

ـ نعم أنا ..

ـ تعال معى إلى القسم ..

ـ القسم ؟ لماذا ؟

ـ ابنك محبوس ..

ـ ابنى ؟ .. ابنى أنا ؟ .. ابنى من ؟

ـ ابنك سعيد عبد الله عبد السميع ..

ـ محبوس ؟ لماذا ؟

ـ ضبط وهو يعاكس إحدى الفتيات فى الطريق العام .

ـ ابنى يعاكس إحدى الفتيات ؟ .. لابد أنك مخطىء ! .. هل أنت متأكد ؟

ـ والله ان كان فى هذه العمارة شخص آخر اسمه عبد الله عبد السميع ، وله ابن اسمه سعيد عبد الله عبد السميع أكون غير متأكد .

ـ طيب اذهب انت ..

وينصرف الشرطى ، ويتلفت عبد الله أفندى إلى زوجته :

ـ أسمعت ؟ .. أرأيت ابنك ؟ .. هذا آخر تعبى وشقائى ! ابنك يعاكس النساء فى الطريق .. أرأيت ؟

ـ يا أخى ألا يجوز أن يكون مظلوما ؟ اذهب إليه أولا وانظر ماذا فعل ..

ـ أنا أذهب الى القسم ؟ .. ماذا أقول لهم .. أنا الرجل المحترم الذى لم أخالف الدين يوما ، ولن أخالف القانون أبدا .. أنا عبد الله عبد السميع الموظف بالدرجة السادسة أذهب الى القسم من أجل ولد ضائع يعاكس النساء ؟ والله لن يكون هذا أبدا ! ..

ــ وابنك ؟ تتركه محبوسا ؟ .. ابنك يا عبد الله أفندى ؟

ــ لا تتعبى نفسك .. لن أذهب يعنى لن أذهب !

ويتركها عبد الله أفندى باكية ساخطة حائرة ، ويذهب إلى المنضدة التى أمر بها أن تكون مكتبا فكانت ، ويأخذ من عليها حقيبة الدروس ، ويخرج تاركا زوجته ملهوفة لا تعرف ماذا تفعل ! ..

وخرج عبد الله أفندى إلى الشارع قاصدا إلى الدرس الأول ، وكان مكان التلميذ فى أقصى الجيزة ، فركب عبد الله أفندى ، وركب حتى وصل إلى بيت التلميذ « ماجد فتحى » النجل الأصغر للوجيه الثرى الأستاذ فتحى الدرملى .. وكان عبد الله أفندى يرجو ألا يجد والد ماجد فى المنزل ، فهو لا يطيق مزاحه فى يومه هذا ..

وصل عبد الله أفندى متقدما عن ميعاد الدرس خمس دقائق فرأى أن يقطعها بالمشى أمام الدار . ولعله لم ير فى حياته أشقى من ذلك الوقت الذى قضاه فى هذه الدقائق الخمس ! فهو جزع متألم ساخط ، غاضب من هذه البلوى التى انساقت إليه من جراء ابنه العربيد الذى يعاكس النساء فى الشوارع .. ولم يكن عبد الله أفندى متشوقا إلى شىء قدر تشوقه إلى هذا الدرس ، فهو يريد أى شىء حتى وان كان درسا لينتزعه من التفكير فى هذه المصيبة التى حلت على دماغه فى يومه هذا ..

ومرت أربع دقائق ونصف دقيقة فاتجه عبد الله أفندى إلى باب المنزل ، وضغط الجرس ، وخرج له الخادم ولما أراد الدخول قال له الخادم إن ماجد لن يأخذ الدرس لأنه مريض .. وإنما كانت هذه مصيبة أكبر من وجود ابنه فى السجن ! .. ولم يجد زوجته ليفرغ فيها غضبه فانصرف عن الخادم دون أن يلقى إليه التحية التقليدية التى عودته دقته أن يلقيها .. وقبل أن يخرج عبد الله أفندى الى الشارع وقفت سيارة أمام الباب ، ونزل منها السيد فتحى .. وتقدم عبد الله أفندى من السيد وسلم عليه فى أدب ، وسأله :

ــ خيرا ؟ ماذا أصاب ماجد ؟

ــ لا شىء مجرد برد بسيط ولكن أمه تدلله ..

ــ شفاه الله .. طيب استأذن أنا ..

ــ بل تعال . فإنك لم تأخذ مرتب الشهر ..

ــ فى فرصة أخرى ..

ــ بل تعال .. ولماذا فرصة أخرى ؟ .. تعال .

وكان السيد فتحى قد تعود أن يمزح كثيرا مع عبد الله أفندى وكان مبعث ضحكه الأكبر ، ذلك الوقار الذى يأخذ عبد الله أفندى به نفسه ، وقد رآه فى ذلك اليوم أشد وقارا من أى يوم سابق ، فأراد أن ينتهز الفرصة ليضحك منه . .

ويدخل الاثنان إلى المنزل ، وما يكادان حتى يدق جرس التليفون فيرفع السيد فتحى السماعة ، ويقول لفظة واحدة فى صوت مرتفع هى « آلو » ، ثم ينخفض صوته إلى الهمس الخافت فما يسمع عبد الله أفندى إلا بعض كلمات . . « عندى شخصية مدهشة » . . « سأحضره » . . وينظر عبد الله أفندى حوله فلا يرى أحدا . فيكاد يظن أنه هو هذه الشخصية المدهشة ! وما يلبث السيد فتحى أن يضع السماعة ، ثم ينظر إلى عبد الله أفندى قائلا :

ـ انت حظك هائل يا عبد الله أفندى !

ـ حظى أنا ؟ !

ـ طبعا أنت . . سأصحبك معى فى جلسة رائعة . .

ـ جلسة ؟ . . أنا يا سيدى لا أنفع فى جلساتك أبدا ! . .

ـ لا شأن لك . . تعال . .

واختل نظام عبد الله أفندى جميعه ، فهو لا يطيق أن يرفض أمرا لوالد تلميذ له ، ولكنه يبذل محاولة أخيرة :

ـ يا سيدى أنا عندى دروس أخرى . .

ـ سأعوضك عنها جميعا ، وسأرفع مرتبك الشهرى . . ما رأيك ؟

ـ أمرك . .

ويجد عبد الله أفندى نفسه خارجا مع السيد فتحى ، ثم يجد نفسه فى سيارة ، ثم فى منزل !! ثم يجد عبد الله أفندى نفسه آخر الأمر مع سيدة غاية فى الجمال ! . . جمال كان يسمع عنه ، ولكنه لم يره فى حياته ! . . فهى شقراء ، بيضاء ذات عينين خضراوين ، وقوام ملء لا هو بالنحيف ولا هو بالسمين . . تماما كما يجب أن تكون . .

وينسى عبد الله أفندى ابنه الذى يرسف فى السجن . . وينسى تلاميذه الذين ينتظرونه وينسى السيد فتحى الذى يقهقه قهقهة عالية صاخبة . . ينسى كل شىء ولا يذكر إلا أنه أمام جمال صاعق لا يمكن للعين أن تظل ناظرة اليه ، ولا يمكن للعين أن تنصرف عنه . . ويضحك هذا الجمال من منظر عبد الله أفندى ، وقد زادته الدهشة استدعاء الضحك ويتكلم هذا الجمال :

ـ مالك ؟ .. اقعد .. مالك لا تتكلم ؟

فيجيب عبد الله فى ارتباك شديد :

ـ نعم .. نعم أقعد ..

وتبدأ الجلسة ، وتأتى السيدة الشقراء بالخمر ، وحينئذ يفيق عبد الله أفندى إلى نفسه قائلا :

ـ ماذا ؟ خمر ؟

ـ لا .. « ويسكى » ..

ـ أنا لا أشرب الخمر يا سيدتى ..

ـ لأجل خاطرى ..

ـ لا يا سيدتى ..

ـ خاطرى أنا .

ـ اشرب ..

ويشرب .. وتنفك عقدة لسانه فيتكلم عن دقته فى الوزارة وعن أعماله كلها ، عن جهاده وعن ذكائه ، وعن لباقته ، وكلما تكلم ضحك السامعان ، وكلما ضحكا ظن أنهما معجبان به ..

وفجأة سألته الغانية :

ـ قل لى يا عبد الله أفندى .. هل أنت متزوج ؟

ـ نعم ..

ـ وهل عندك أولاد ؟

وما أن يسمع عبد الله أفندى هذا السؤال حتى ينخرط فى بكاء شديد !!

ويذهل الجالسان ! ولكنه لا يبالى دهشتهما ، ويقوم المخبول مهرولا إلى باب الشقة وينزل فى سرعة مجنونة إلى الشارع لا يجيب الأسئلة التى تلاحقه .. وما أن يلمح أول تاكسى حتى يناديه وهو ما يزال يبكى ..

وقبيل المغرب كان عبد الله أفندى يسير معتمدا على ولده سعيد ناسيا كل شىء عن دقته .. فخطواته مضطربة تسرع حينا وتتمهل حينا ، ووجهه مضطرب يبتسم حينا ويعبس حينا ،

وحديثه إلى ابنه مضطرب ، ولكنه لا يعنف فى هذا الحديث أبدا ، ولا يلقى فيه بأوامره وإنما هو حديث سلمى ، ميسور ، ولكنه مضطرب .

وصعدا معا إلى الطابق الأعلى دون أن يعد السلالم ، ودون أن يراعى أى رقم فى صعوده . .

ومنذ ذلك اليوم لم يذهب عبد الله أفندى الى منزل السيد فتحى أبدا . . ومنذ ذلك اليوم تعلم عبد الله أفندى ألا يلقى لأبنائه بالأوامر الصارمة ، وإنما هو يناقش ويبحث ويفهمهم ما يريد فى غير صرامة ، وفى غير عنف ، وفى غير دقة . .

●

حنان وهوى

كان الليل قد مد ظلاله على الصحراء ، وكانت الخيل قد أضناها طول السفر ، وكان الرجال قد هد المسير أجسامهم فهم أشباح تسير تعلقت أبصارهم بالأفق ، والأفق عنهم مستتر قد أسدل دونه المساء غلالة سوداء داكنة فهم لايبصرون موضع الخطو من خيولهم ولكنهم مع ذلك يلقون إلى الأفق أبصارهم . وكان زعيم الركب « إياس » صامتا لاينطق ، تحيط به المهابة ويلتف به الإجلال ، يغضى عنه أصحابه فتصمت ألسنتهم لاتبين عما مسهم من نصب . كان إياس فى صمته هذا وغموضه أشبه ما يكون بقطعة من الليل الذى أدركهم ، كان قوى الاحتمال صلب العود ، رمحه فى يده يشرعه إلى السماء ممسكا به فى تحد فكأنما هما معا تمثال من الصخر قده فنان من الإغريق . .

وطال الصمت واشتد الظلام وازدادت الجماعة وفرسانها نصبا ، ولكن الطبيعة تأبى هذا الصمت ! ولا تحفل بقوة إياس أو صلابته أو جلاله ، فما يلبث القمر أن يرتفع رويدا من أقصى الأفق فيرى إياس رفاقه وقد مالت أعناقهم ، وانحنت ظهورهم ، وما يلبث أن يرى الخيل وقد تعثرت خطاها واضطرب مسيرها ! فيدرك حينئذ أنه قد آن له أن يتعب وأن يروح إلى رفاقه ويشعل النار ليصطلوا بها ويأذن لهم فيسمروا معه ، فقد كان دأبهم معه ألا يبدأوا حديثا لم يبدأه هو . . فاذا طاب له أن يسمر فهو فرد منهم يبيح لهم أن يظهروه على خافية أنفسهم وأن يسألوه فيجيب عن خاصة شأنه . .

وأشار إياس إلى الصحاب وما هو إلا بعض الحين حتى كانت النيران تشق الليل عن ضياء . وألقى القوم أجسادهم على رمال الصحراء فأتاحت لهم مهادا لينا صلبا يريح الجسم ولا يلقى فيه الكسل ، وقال إياس :

ـ تعبتم اليوم يارفاق !؟

فقال أحدهم :

ـ أجل وربك قد مسنا التعب !!

ـ فماذا تشاءون .. نوما و سمرا ؟ ..

ـ بل سمرا فما نظن النوم ليسعى الى أجفاننا ونحن على هذا الإجهاد

ـ ففيم تريدون أن تسمروا ؟

ـ أتريد أن تسألنا عن شؤوننا أم نسألك نحن ؟

ـ بل يسألكم أنا ..

ـ ولماذا لاتتيح لنا أن نسألك فأنت تخفى عنا مالا يجوز إخفاؤه عن قوم هم أقرب الناس إليك ؟

ـ فاسألوا إذن ..

ـ نراك لاتحب النساء ولا تميل إليهن !! فإن عرضت لك إحداهن صرفتها عنك وانفلت إلى سائر مشاغلك ، وأنت الرجل فى زهوة الفتوة ، وريعان الشباب ، وبريق العمر !! فمتى يتصل أسرك بامرأة إن لم يتصل اليوم ؟

وأطلق إياس تنهيدة لاهية ، وتراقصت فى عينيه دموع سترها الليل أن تبين وقال :

ـ من أحب الناس اليك ياقاسم ؟

ـ لا أفهم سؤالك . أيهن تقصد ؟ ..

ـ أقصد النساء جميعا ..

ـ هن جميعا ؟

ـ هن جميعا .

ـ وتدخل فيهن أمى ؟

ـ نعم ..

ـ فأمى أحب النساء إلى ..

ـ فتلك هى المصيبة عندى ياقاسم .. لكل رجل أم بدأ بها حبه للنساء .. أما أنا ياقاسم !! أما أنا فلا أم لى ..

ـ لا أم لك ؟ !

ـ مات أبى وأنا طفل لاأعى وتزوجت أمى رجلا قاسيا لا يرحم ! فكانت تعينه فى قسوته على ، ورأيت على وجه الأم أقسى صور الحياة !! يهون الخطب ياصديقى إن نزل بك من عدوك ، وقد تحتمله ان أتاك ممن لاتعرف ، وإنه يوجع ان وجهه إليك صديق .. ولكنه لايهون . . لايهون أبدا ياأخى إن أنزله بك من تلتمس من عنده الرحمة والحنان !!! وهو قاتل ياأخى إن كان من أمك ! عرفت النساء أول ماعرفتهن على يد أمى القاسية هذه . فكرهت أمى

وكرهت فيها النساء جميعا هكذا ياأخى عرفت النساء وهكذا صرت معكم .. أقطع الطريق الآمن على سالكيه ، لارحمة تأخذنى ، ولاضمير يردعنى ، ولاوازع من خير يقعد بى ، ومن أين لى بهذه المعانى وقد سمعتها سماعا ولم أرها ؟ !

ــ بل أنت والله رقيق تسبق رحمتك شرك ، ويدرك عفوك بطشك ..

ــ أترانى هكذا ؟ لعل القسوة التى رأيتها فى أول العمر مست قلبى بشىء من الرقة .. حدثتك عن نفسى ياصاحبى فأطلت وأمامنا الصباح ملء بالعمل فهلم لعل هجعة من النوم تعيد إلينا بعض النشاط ..

ونام القوم والقمر يأخذ سبيله إلى المغيب ، وصحوا والشمس لم يبد فيها إلا شعاعات ضئيلة كحمرة فى عين أصابها من السهر كلال ..

وركب إياس وركب صحبه وماكادت الخيل تسير حتى لاحت لهم قافلة ضخمة وما أسرع ماأمر إياس صحبه أن يتواروا خلف أكمة على الطريق ! فما أن بلغت إليهم القافلة حتى خرج إياس وصحبه وأحاطوا بالقافلة فما أبدت مقاومة بل سلم رجالها النساء والمال . وكان بالقافلة هودج ضخم أناخ به الجمل وخرجت منه امرأة رائعة الجمال بيضاء يشوب لونها حمرة .. خرجت عاتكة وهى حائرة تحمل على صدرها الذهب واليواقيت وليس فيها من جارحة إلا يكسوها من الذهب وكريم الأحجار ما لا يقدر بثمن . ورأت رجلا أمام هودجها فسألته :

ــ بربك من رئيس هؤلاء القوم ؟

وأجاب إياس وقد أخذ بجمالها :

ــ أنا .. رئيسهم ..

ــ أحقا ماتقول ؟ !

ــ إنه الحق ..

ــ فإنى لاجئة إليك لائذة برجولتك ، وإنى بنت الأكرمين ، خذ الأموال فلا تبق منها شيئا .. خذ ما أحمله منها وما اقتنيته ولكن حريتى ياسيدى .. لاتسلبنى حريتى ياسيدى فما عرفت الأسر وما أظننى أطيقه .. أتراك ترد مستجيرة بك لائذة بكرمك عائلة برجولتك ؟

وأخذ إياس بهذه المرأة التى تلجأ اليه ، وسره أن تتوسم فيه خيرا وهو يقود عصابة وأحب أن يشكرها على هذا الخير الذى توقعته منه ، وأوشك أن يذكر أمه وما قاسى منها .. ولكن أين هذه من أمه ؟ أين عينا أمه القاسية من هاتين العينين المسترحمتين ؟ أين شفتا أمه المزمومتان لاتنفرجان الا عن الاساءة من هاتين الشفتين المنفرجتين هونا ترتعشان وتهتفان فى طلب الرحمة .. لا .. انه لاصلة بين أمه وهذه .

ــ من أنت .. وما اسمك ؟

ـ أنا عاتكة بنت حويطب ، أبي يكرم الجار ، ويجير اللائذ ، ويعين على الزمان ، ما رد قاصدا اليه ، ولاقصر فى معروف .

ـ اذهبى يابنت الكرام .. طليقة أنت وطليق مالك .

ثم التفت الى اخوانه فقال لهم :

ـ هبوا لى هذه القافلة .

ووهب الرفاق القافلة لإياس ، وسألت عاتكة عن إياس فعرفته ومضت دون أن تشكره بغير نظرة لقيها إياس بقلبه فنفذت الى الأعماق واستقرت ..

وكان الأمير مايزال يبحث عن إياس وعصابته ، وكان جنده فى اثر اياس يريدون أن يأخذوه لأميرهم ليحكم فيه حكمه ويرى رأيه ، وكأنما أراد هذا اليوم الذى أطلق فيه إياس أسيرته أن يثبت فى حياة إياس فلا يزول أثره .

ما كادت القافلة المطلقة تغيب وما كاد اياس وجماعته ينفردون بالصحراء حتى أطبق عليهم جند الأمير من كل صوب ، حاربوا .. ولكن أين الجماعة من جند الأمير ..

ومثل إياس أمام الأمير ، قطعة من العجز والاستخذاء ، آسفا ! كسيف الوجه ، حطيم السيف لم يبق فيه من إياس الأمس بقية ، إلا من قوة الشخصية لمحة وإنما هو راكع يستجدى العطف وقد كان يمنحه ، ويسأل الشفقة وقد كان يمقتها ، ويلتمس الغفران وما كان يعرفه ، بقية رجل ! بقية باقية من إياس الأمس الذى كان يملأ الصحراء عنفا وقهرا وجبروتا ! بقية هى الجسم بلا كرامة ، وهى الدماء بلا عزة ، وهى المشاعر بلا حياة ..

وفى زاوية من زوايا الحجرة ألقى به الحراس كقطعة من الهمل وشاء الملك أن يزيده ذلا فما التفت إليه ، بل هو ينظر فى أمور دولته يقيم من أمورها ما شاء ويصرف من شئونها مايبغى حتى إذا فرغ ولم يبق له من عمل يعمله ، التفت إلى إياس فى ازدراء مهين ثم رفع نظره وقال للحراس :

ـ لماذا جئتم به الى هنا ، ألم آمر أن تلقوا به الى السياف .

وامتقع وجه إياس .. وراح الحراس يتهامسون يلقى كل منهم التبعة على صاحبه ، وتحسس إياس صوته بكلمات تحركت بها شفتاه بعض الحين حتى استطاع آخر الأمر أن يكتمل الصوت هونا ويخرج إلى الفضاء ليبلغ مسامع الأمير ..

ـ ألتمس عفوك يامولاى ..

ـ أى عفو تريد وقد كنت تملأ الصحراء رعبا ؟

ـ يعلم الله وحده ماعدوت على وحيد ، ولاقسوت على فقير ..

ـ ومال الأغنياء ، أظننت نفسك إلها تقسم الأرزاق ؟

ـ رضعت يامولاى الحقد وأنا طفل صغير ـ كرهت أمى فكرهت الناس جميعهم .

ـ وماذا جنى الناس حتى تصيبهم ببلائك .؟
ـ سعد الناس وماسعدت ، ورأوا العطف وذقت الهون . .
ـ فشارك الناس سعادتهم وانس حقدك . اعمل فى شريف الاعمال تنل السعادة التى تبغيها ، أما أن تسرق وتنهب وتقطع الطريق الآمن على سالكيه فهذا اغتصاب للسعادة . والسعادة لاتغتصب أكنت حين تنام وتخلو إلى وسادتك ونفسك تحس أنك أبلغت نفسك مناها ، ونلت من السعادة مافقدت ؟ !
ـ شهد الله يامولاى . . لا . .
ـ فأى سعادة تلك التى تراءى وتهرف عن فقدانك لها • أنت لص ، خرج عن أوامر الدين ولابد من عقابك .
ـ مولاى ، ان الله يقبل التوبة فوالله الذى خالفت أوامره والذى ماأشركت به يوما لو لم يمسك بى جنودك لكنت الآن فى موقفى هذا منك أطلب العفو تائبا راجعا إلى الله . .
ـ وأى جديد قد ألم بك حتى تسلم نفسك بلا جنود ؟
ـ عرفت طريقى إلى السعادة الحقة يامولاى وقد كنت موشكا أن أسير فيه . .
ـ وما الذى منعك ؟
ـ جنودك يامولاى . . توبتى أمامك الآن تخالها منبعثة من الخوف والله لايبعثها إلا خوفى من أن ألقى الله بلا توبة فى الحياة .
ـ ايه إياس . . لاتخش هذا فان الله يعلم ما فى القلوب ، وأما نحن فما نعرف غير الأعمال الظاهرة فإن قتلت الآن فالله سبحانه وتعالى سيقبل توبتك فى الآخرة . .
ـ انه سبحانه يقول إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا ، وانى يامولاى أتوب الآن ، وما كفرت بالله حتى أعود إلى الايمان ، وأما العمل الصالح فكل رجائى يامولاى أن تتيح لى الفرصة أن أعمله . .
ـ ما أرى إلى ذلك سبيلا . .
ـ هيىء لى الحياة يامولاى أعمل صالحا قبل لقاء ربى .
ـ ألم تعمل فى حياتك عملا صالحا ؟
ـ لعلى يامولاى عملت ، ولكنى أتبعت الحسنة بالسيئة والسيئات يامولاى يذهبن الحسنات . . مولاى هب لى الحياة ، تهب للحياة انسانا نادما على شر أو غل فيه ، مقبلا على خير يهفو إليه . .
ـ وحياة الآمنين الذين روعت وأموال المسافرين التى نهبت . .
ـ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا . .
ـ وماذا أقول أنا لربى إن لقينى عافيا عن مجرم . . صافحا عن لص ؟ . .
ـ الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا . .

والتفت الأمير الى حراسه يقول لهم :
ـ ألقوا به فى السجن . .

وألقى إياس إلى السجن ينتظر الحكم عليه ، هكذا المصير ! لم يحفل من السجن ولم يخف فقد كان يرى فيه إحدى نهايتين لطريقه الذى اختاره لنفسه من الحياة ، كان يعلم أنه طريق لابد أن ينتهى به إلى السجن أو الى الموت . وقد كان السجن أقرب النهايتين وهو ذا فيه . ومن يدرى لعله يؤدى به إلى الطريق الآخر ، فيجمع النهايتين فى واحدة والأمر لله من قبل ومن بعد . .

هكذا كان يفكر إياس حين دخل السجان يحمل كيسا مليئا بالمال وسأله إياس :
ـ ماذا تريد ؟
ـ امرأة تريد أن تلقاك . .
ـ تلقانى أنا ؟ . .
ـ نعم . . لقد رفضت أن أدخلها إليك ولكنها أعطتنى هذا الكيس وبه مائة دينار ، ولم أر فى حياتى حجة مقنعة مثل هذا المال الذى أحمله الآن . . مائة دينار ياسيدى ، إنها ستلقاك ، ستلقاك حتى وإن رفضت أنت أن تلقاها .
ـ ومن هى ؟ ماشأنها ؟ ماذا تريد ؟ . .
ولم يلتفت اليه السجان بل قال للمرأة :
ـ ادخلى ياسيدتى . . هذا هو طلبتك . .

ودخلت المرأة محجبة لا يبين منها شيء ، وما انحسر النقاب عن وجهها حتى عرفها إياس .
ـ عاتكة !! ماذا جاء بك إلى هنا ؟ إلى فى السجن والعيون رواصد لو رآك أحد فأبلغ الأمير أو أبلغ أباك فماذا أنت قائلة ؟

ـ وماذا يمكن أن اقول ، أأسمع أنك سجين ولا أسارع إليك ؟ فلست اذن بنت الكرام .
ـ شكراً لله ياعاتكة .
ـ قد جئتك بثياب وطعام ، وجئتك بمال حتى لاتقف بك قلة المال أن تعطى السجان أو من تشاء . .

ورأى إياس فى عاتكة الرحمة التى لم ينلها من أمه ، وهاجت إليها فى نفسه نوازع لا يدرى كنهها . . أهى حب ؟ ومن أين له أن يدرى الحب ولذعته ؟ أهى إذن عواطفه نحو أمه لم تجد أما فجاشت إلى هذه الفتاة فى ربيع العمر ؟ ومن أين له أن يدرى عواطف البنوة إلى الأمومة ؟ فما هذه الصبوة التى ترقى فى مشاعره وما هذا الخفق الذى يأخذ بقلبه ، وما هذا العجز الذى يمسك بلسانه ، أهكذا الحب ؟

ـ لاتخف من أمرك شيئا يا إياس . .

ـ أنا لا أخفى شيئا . .

ـ هيه إياس . . لعلك تريد أن تبوح لى بشىء . .

ـ هيهات . . وكيف لى أن أبوح ، وأنا بين يدى الغيب لا أدرى مايحمله لى فى غده أموتا أم عيشا الموت خير منه ؟ ! هنا من وراء الحياة مع الحديد والقضبان . . بماذا أبوح ياعاتكة ؟ !

ـ قل مابنفسك ودع الغد يأتى بما يشاء . .

ـ بربك ياعاتكة لاأطيق ، إن قلت ماأريد فأنا بين اثنتين . . إما أن تحبينى فلا والله لاأطيق العيش بعدها والقيد فى قدمى لأطير إليك ، واما أن تمنعينى فتزداد نفسى كرها لنفسى ، ولا والله لاألومك إن أنت أقصيتنى عنك ، وإنى قاطع طريق . . لص أضعت حياتى فى رمال الصحراء . .

ـ بروحى أنت يا إياس . . لاتقل شيئا ، وعهد الله بينى وبينك لاأسمع منك شيئا إلا وأنت طليق . .

وأخذت عاتكة سمتها إلى الأمير وكان وجهها مقربا إليه فما وقفت بالباب حتى أذن لها الأمير وبين يديه وقفت . .

ـ أيها الأمير . . أحمل إليك توبة ، وأنت ظل الله فى الأرض فاقبل التوبة ترضى الله . .

ـ توبة من ؟

ـ توبة إياس . .

ـ وماشأنك به ؟

وقصت عاتكة على الأمير ماكان من إياس حين هو فى الصحراء وحين هو فى السجن . . كانت تروى قصتها وجسمها ينتفض من الألم ولسانها يهدر وكأنها تروى لنفسها فما أن انتبهت إلى نفسها واقفة فى رحاب الأمير وقد بلل الدمع لحيته . إلا وقد انتهت من قصتها . . وأشرقت دموع الأمير فى عين عاتكة فما تمالكت نفسها أن تصيح . .

ـ عفا والله الأمير . .

وطلع القمر على زوجين يسيران إلى الكعبة المقدسة . . هناك حيث يخلص إياس من ماضيه ليستقبل حياة جديد هو فيها وليد جديد . . حياة فيها رحمة وفيها حنان . . وفيها هوى . .

علـى الـطـريـق

منذ سنوات بعيدة فى مشرق يوم يمر بالناس سريعا ، كان يوم نفضت البيوت أبناءها إلى الشارع صغارا فهم أطفال تتردد الحروف فى أفواههم قبل أن تصبح كلاما . . أو صبيان تعانى منهم الأمهات ما تعانى حتى يتعلموا لبس ثيابهم ويخرجوا إلى مدارسهم ، أو شباب يقفون أمام المرآة حتى لتكاد صورهم أن تنطبع على هذه المرآة ، أو فتيات ، منهن الجادات الحاسرات يرتدين ما يقرب من ملابس الرجال ، ومنهن المعجبات بأنفسهن الجميلات يمشطن شعورهن لأمام تارة ثم لخلف تارة أو يعقصنه إلى يمين أو يلقين به إلى يسار أو هن يجعلن منه ذيل حصان أو حمار ، ثم ينتهى الأمر بالجميع من بنين وبنات ، من شباب وفتيات ، أن يلقفهم الطريق ليفضى بهم إلى حيث يجب أن يذهب كل منهم .

وقد كان اليوم هو افتتاح المدارس ، فالطلبة عائدون إلى معاهدهم وقد غمرت نفوس الأكثرية فيهم سعادة غامرة ، فهم عائدون إلى أصدقائهم وهم قد انتهوا من هذه البطالة التى استقبلوها أول الأمر فرحين مهللين والتى يودعونها اليوم فرحين مهللين فبين الطرفين من أشهر ثلاثة فراغ طويل ، وضيق ثقيل ، فهم حائرون مع الوقت لا يعرفون كيف يقطعونه فهو يقطعهم بالملل والضجر والحنين ولو إلى الدراسة فان وسائل التسلية مهما كثرت لا تملأ فراغ الشباب وهم ضجرون بهذا اليوم الذى قدر لهم فيه أن يلتقوا ثانية بمعادهم وتلك الوجوه التى لازمتهم سنين ثم هى بسبيلها الى أن تلازمهم سنين أخر . .

هكذا كان أبناء الجيل يجمعهم الأمل فى المستقبل وتتفرق بهم مناحى التفكير إلى شتيت المشاعر !!

ولكن فئة بعينها كانت مقبلة والفرح يغمر نفسها لا تجد بينها الحزين أو الآسف ، الأمل يشتعل فى عينها اشتعالا ولو انكشفت نفوسهم لأخذ عينيك منها شعاع حافل بالنور يرمى إلى

المستقبل أضواءه ، يود لو أن السنين تقاصرت أو امحت فيقرب البعيد ويدنو القصى . . كانت هذه الفئة هى الناجحة فى شهادة البكالوريا والمقبلة على الجامعة أول إقبالها على الجامعة ذلك البناء الذى طالما مروا به فكان حافزهم إلى النجاح ، وباعثهم الى روح المذاكرة وأملهم الواضح القائم أمامهم لا يحجبه غيب ولا تستريبه الظنون . .

أقبلت تلك الفئة لم يتأخر من أفرادها فرد وتجمعت زرافاتهم ، كل أمام الكلية التى علق بها آماله وآمال أبويه معه .

وكانت كلية الحقوق مشجبا لأكثر الآمال ، فالواقفون أمامها من حاملى شهادة الدراسة الثانوية كثيرون يخطئهم الإحصاء وتختلف فى تعدادهم الآراء ، حتى يخرج مسجل الكلية بالرأى الفصل والعدد الذى لا يقبل جدالا ، وإن كان يقبل الزيادة على مر الأيام . ويذهب الطلبة إلى مدرجهم وتنتظم الدراسة وتنتهى الحصة . . آسف . . أقصد المحاضرة الاولى ، ويسود الهرج والمرج ويتقرب الطلبة إلى الطالبات ، وتعرض الطالبات عن الطلبة ، وتأتى المحاضرة الثانية ، وتتابع المحاضرات ، ويمر اليوم الدراسى ويكاداليوم الأول من الكلية يفوت دون أن يحدث فيه جديد ، ونكاد لانخرج بهذه القصة التى تعانيها الآن لولا أن شاء الله فيلتقى خارج المدرج طالب وطالبة ثم يشاء سبحانه أن تكون القصة . .

ووقفا على محطة الترام فرحين أنهما زملاء ، ولم يكونا من قبل زملاء ولم تجمعهما فى يوم مدرسة واليوم جمعتهما غرفة مهما تكن كبيرة متسعة إلا أنها على أية حال غرفة . . طال انتظارهما للترام ، فحدثها فأجابت ، فسخر من الأساتذة فضحكت ، فانتقد إلقاءهم فأعجبت ! فمدح بعضهم فوافقت ، فسألها اسمها فقالت ، فسألته اسمه وقال ، فأصبح حمدى وهند صديقين منذ اليوم ، وكان المنزلان متجاورين فالترام يحملهما فى الصباح ويعود بهما فى منتصف النهار أو أول الليل بعد الدراسة المسائية فهما على أى حال ، متلازمان فى الذهاب والعودة . .

كانت صداقة . . حتى كان يوم اعترض حمدى بعض الطلبة وسألوه أن ينتخب فلانا من الناس ليمثل السنة الأولى فى مجلس الجامعة فقال :

ــ ولكنى لا أعرفه . .

ــ ولماذا تعرفه ؟ . .

ــ لأنتخبه !!

ــ وهل لابد أن تعرفه حتى تنتخبه ؟

ــ إنى لا أفصل حلتى عند ترزى إلا بعد أن أعرف مهارته فكيف أضع ثقتى فى شخص لا أعرفه ؟ !

ــ يا أخى ما شأنك ، سنحضر لك من حزبه جنيها . . موافق ؟

ـ لولا أنكم زملاء لعرفت كيف أجيب ، أما الآن فيكفى أن تعرفوا أننى لن أكلمكم بعد اليوم .

ـ يا أخى اسمع الكلام .. ماذا تظن أنك ستفعل بصوتك الذى ستعطيه ..

ـ أنا أعلم انه لن يفعل شيئا للمرشح ولكننى أعرف أننى يجب أن أحترمه ، وعلى كل حال لا تحدثونى فى هذا الشأن مرة أخرى ، بل ولا تحدثونى فى أى شأن ..

كان هذا النقاش على محطة الترام وكان حمدى ينتظر هندا ، وكانت قد جاءت ولكنها لم تشأ أن تشعره بوجودها ، حتى ينتهى من حديثه مع هؤلاء ، ثم مرت الأيام فأكملت سنتين وحمدى كما هو يحترم نفسه ، يعلو عن الصغار ، يقتنع بالرأى فيدافع عنه أقوى ما يكون الدفاع ، ويعارض رأيا فيحاربه أقسى ما تكون الحرب !!

لم يكن حمدى جميلا ، بل لعله كان أقرب إلى الدمامة ، ولم يكن غنيا ، بل هو إلى الفقر أقرب فكانت هند لا تفكر فيه الا قدر ما يفكر صديق فى صديق آخر يعجب به ويشتد إعجابه على مر الأيام ..

وفى يوم وجدت هند حمدى فى حال من الاضطراب الشديد فسألته فلم يملك نفسه أن يجيب فى حدة :

ـ آسف يا هند ، لن أذهب معك اليوم إلى المنزل ..

ـ خير إن شاء الله يا حمدى ؟ !

ـ كنت أود أن يكون خيرا ، ولكن للأسف إنه الشر الذى ليس بعده شر ..

ـ الله ، ماذا جرى يا حمدى ، قل بالله ولا تخف ..

ـ لقد سرق فراش امتحانا من الامتحانات وباعه الى ..

ـ وما يغضبك فى هذا ؟

ـ ما يغضبنى فى هذا يا هند ؟ ! أنت التى تسألين ؟! فراش يسرق سرا هو أقدس أسرار الكلية ويبيعه إلى التلاميذ بالثمن الفادح فينجح الغنى ويسقط الفقير ..

ـ فلماذا اشتريته يا أخى ؟

ـ حتى يكون فى يدى الدليل ..

ـ أى دليل ؟

ـ الدليل الذى أقدمه للأستاذ حتى يعرف أن الامتحان الذى وضعه قد سرق ..

ـ أتنوى أن تخبر الأستاذ ؟

ـ الآن الساعة ، فى هذه اللحظة ..

ـ هل أنت مجنون ؟ طريق النجاح أمامك وتقفله !!

ـ النجاح .. أهذا نجاح ؟ .. ذلك هو الفشل .. النجاح أن نسعى ثم نصل .. إن النجاح فى العلم أن نحصله ونفهمه ونعبر عنه ، أما أن نشترى الشهادة بالمال والمستقبل بالخديعة والغش ، فذلك هو الفشل وذلك هو الزور الذى يلازمنا طول الحياة .. اننا فى الجامعة ، والعلم الذى نحصله اليوم هو أداتنا فى الغد فيا نقول للمستحيل إذا وقفنا أمامه جهلاء ومعنا الشهادة أغبياء ونحمل ألقابا ؟ .. لا يا هند .. أنا لا أنتظر منك هذا السؤال !!

لم تستطع دمامة حمدى ولا فقره أن يقفا هذه المرة دون حبها لحمدى فأحبته ، أحبت فيه مثلا من الرجولة لم تشهده قبل اليوم ، وكان حبا .. !! ومرت الأيام وتخرج حمدى ، وتخرجت هند ، وعند باب الجامعة التفتت هند إلى حمدى وقالت :

ـ إلى أين ؟

ـ إلى أين أنت ؟

ـ إلى الحياة ..

ـ وحيدة ؟ !

ـ وحيدة ..

ـ الطريق طويل ..

ـ لابد أن أقطعه ..

ـ قدماك لا تقويان ..

ـ ليس لى غيرهما ..

ـ وذراعك لا يطيل ..

ـ لابد أن يعمل ..

ـ ألا تريدين ساعدا ؟

ـ لابد أن أعرفه ..

ـ ألا تعرفيننى ؟

ـ أعرفك ..

ـ أترضين بى عونا على الحياة ، وصديقا إلى الأبد ؟

ـ إنك صديقى ..

ـ أترضيننى زوجا ؟

ـ أرضاك ولكن ..

ـ ولكن ؟!

ـ والداى ..

ـ اسألهما ..

ـ سيوافقان ..

ـ الحمد لله . .
ـ وتزوجا . .

ومرت الأيام وضربت الأيدى الفتية في لجج الحياة وتغلبت عليها حينا وغلبت أحيانا ، ثم أصبح للزوجين بنون ، فانقطعت الأم عن المكتب ومكثت فى البيت وواصل الأب جهاده ، ولكن الزبائن قلة والأطفال لا يرحمون ، والأصدقاء يشيرون على حمدى أن يستعين بسمسار ولكنه يأبى فى ترفع ويشمخ في عنف وهند ترى هذا فتزداد به إعجابا يمازجه الغيظ المكتوم ، حتى إذا مرض طفل لهما ولم يجدا ثمنا للدواء لجأ حمدى إلى سمسار القضايا ، يشاطره ـ وهو الجاهل ـ جهده وبحثه وأحست هند بعض الراحة تمازجها غضبة من ذلك الرجل الذى تنازل لأول مرة فى حياته عن عقيدة تمسك بها ورأى اقتنع به ، ولكن الأمومة الملهوفة ما تلبث أن تغتفر ، ويأتى المال ، ويعرف سبيله إلى حمدى ، وتأتى القضايا ويعرضها حمدى على هند فتراها خاسرة ولكنها ترى حمدى يقبلها ليضمن مقدم الأتعاب ويزداد المال ولا تفكر العائلة فى ثمن الدواء إذا مرض الطفل ، بل وتأمن العائلة كل ما تأتى به السنون من أحداث ولكن حمدى ما زال يعمل مع السمسار وما زال يقبل القضايا الخاسرة ويلفق لها من وراء ضميره ، بل أنه أصبح لا يطلع هندا على قضاياه ولكنها تقرؤها وترى أية هوة يتردى فيها حمدى . .

ويل للأمهات ! وويل للمال لقد أخذ منها زوجها ، وهل كان زوجها إلا ضميرا ورجولة وشرفا ، لم يكن زوجها وجها جميلا فهو دميم ولم يكن مالا كثيرا ، فقد كان فقيرا ، لم يكن إلا هذه الأخلاق ، ومن بين هذه القضايا رأت هند قضية ترفعها شركة كبرى وسألت حمدى :

ـ لماذا أعطتك الشركة هذه القضية أليس لديها محام ؟
ـ أرأيت شركة بغير محام ؟
ـ اذن فلماذا تدافع عنها أنت ؟
ـ لأنى أصبحت محاميها . .
ـ ولماذا لم تخبرنى ؟ . .
ـ لأنى سأصبح محاميها اذا كسبت هذه القضية .
ـ وأنت تعرف هذه القضية ؟
ـ أجل أعرفها . .
ـ لابد أن محامى الشركة رفض المرافعة فيها وقبلت أنت ؟
ـ نعم . .
ـ وشرفك . . وشرف المهنة . ؟
ـ شرف المهنة . . لا شىء مقابل شرفى أنا . .
ـ وأين الشرف فيما تفعل ؟ !

ـ ان هذا خير من أن استجدى أموال الناس لأشترى الدواء لابنى . .
ـ أتغالطنى أنا يا حمدى ؟ ! أنا أعرف رصيدك فى البنك .
ـ أنا لا أطيق هذا النقاش كل يوم . .
ـ أما أنا فلا أطيق هذا الانحدار كل يوم . . لقد تزوجت فيك المثل الرفيعة ، الشرف ، الأمانة . .

ـ كل هذا تنازلت عنه ، ولن أبقى بالمنزل لأسمع هذه الخطب الجوفاء . .

يخرج ويغلق الباب خلفه ، وتجلس هند وحدها . . ماذا بقى لها من زوجها ولماذا تبقى معه بعد اليوم ، ماذا يربطها ؟ ! ماذا تزوجت فيه ؟ إنها يوم تزوجته ، تزوجت أخلاقه ومثله ، أما اليوم ـ وقد فقدها ـ فهى لا تجد فيه شيئا . . اللهم إلا . . نعم اللهم إلا أنه أبو أولادها ، نعم هذه المخلوقات الصغيرة هى التى تربطها إلى زوجها . . لا شيء إلا هذه المخلوقات ، ولكن أتظل حياتها مع شخص تكرهه وتحتقره لأن أولادها يربطونها إليه ، لا . . لن تمكث ، ولكنها إن تركته تكون قد جرت على أولادها هؤلاء جريمة تتضاءل أمامها جرائم حمدى جميعها . . ليت هؤلاء الأولاد يموتون إذن حتى تتخلص من هذا الزواج الذى أصبح هباء . . نعم ليتهم يموتون .

ثم تصحو هند من هذا التفكير العميق جازعة هالعة . . لقد صرخ واحد من أولادها فهى تجرى إليه فى سرعة مجنونة .

ـ ابنى الحبيب . . ماذا بك . . لماذا تصرخ . .

حديث ولقاء

دق جرس التليفون فى مكتب الأستاذ أحمد اسماعيل بالجريدة ، وانبعث إلى أذنه صوت ناعم حلو . .

ـ الأستاذ أحمد ؟

ـ نعم يا أفندم . .

ـ معجبة . .

ـ قديمة ؟

ـ بل جديدة . .

ـ معجبة بماذا يا حسرة ؟

ـ بجمالك . .

ـ وأين رأيتنى ؟ . .

ـ ماذا أيها الفنان . . هل لابد أن أراك حتى أعجب بجمالك ؟

ـ لا . . فاتتنى هذه . . من الممكن أن تعجبى بجمالى على السمعة نسيت أن جمالى بعيد الصيت واسع الانتشار . .

ـ ويقولون فنان . .

ـ من هؤلاء الذين يقولون . . أنا قلت ؟

ـ كلهم يقولون إنك فنان . .

ـ لا عليك فاللغويون يقولون إن الفنان هو الحمار الوحشى . . لعلهم يقصدون أننى فنان بهذا المعنى . .

ـ لا يا سيدى . . لم يقدرك أحد الى هذا الحد إنما هم يقصدون أنك فنان موهوب ، لأغانيك الحلوة . . أنا أعبد أغانيك . .

ـ وما لهذا وجمالى ؟
ـ ان هذا هو جمالك . . لم تدرك هذا من أول لحظة أيها الفنان . .
ـ آه ! . يبدو لى أنك فنانة أنت أيضا . .
ـ وماله ! . يا ليتنى كنت . . إذن لا لتقيت بك مباشرة وأبديت لك إعجابي وجها لوجه بدلا من هذا التليفون الذى يفصل بيننا . .
ـ أراه يصل بيننا . .
ـ أتكتفى أنت بهذا الوصل ؟
ـ اسمعى ، أنا لى أصدقاء كثيرون ، كل همهم أن يوقعوا بى فى ورطة مضحكة . . وأنا يا بنت الناس كبرت على مسألة التليفون هذه فإن كان أحدهم أغراك فقولى له استح . .
ـ آه . هذا ظنك . . لماذا كل هذا الشك ؟ . أعجيب أن تعجب بك فتاة جميلة ؟ !
ـ لا . . ليس عجيبا أن تعجب بى فتاة ، ولكن العجيب أن تكلمنى فى التليفون والأعجب أن تكون جميلة . .
ـ أنا لست جميلة . .
ـ لا يمكن أن تكونى جميلة . .
ـ لماذا ؟
ـ لو كنت جميلة لما خفت من لقائى . . ولما استترت منى بالتليفون . .
ـ ومن قال لك إنى خائفة ؟
ـ حديثك هذا . . ولماذا لم تتيحى أن أراك بدلا من هذا الحديث ؟
ـ أولا . . أنا أجد فى هذا الحديث لذة تفوق لذة اللقاء . فأنت حين تحدثنى تتخيلنى فى صورة حلوة رقيقة وأتخيلك أنا أيضا فى صورة فنان رقيق أنيق متسق القسمات حلو الملامح وتظل هذه الصورة فى ذهن كل منا حتى نلتقى ! فتتمدد الصورة التى فى ذهنك حلاوة ورقة وعذوبة بخطوط جسمى ، وينعدم الخيال ، وأراك أنا فأرى شعر لحيتك وشاربك ، ورباط رقبتك ولعله يكون قبيحا يوم نلتقى ، ووجهك ولعلك تكون متعبا حين أراك . الحديث يطلق الخيال واللقاء يحده ، أنا أحب الحديث . .
ـ وأنا أحب اللقاء . . لا شأن لك بالخيال . . سأجد التعبير الذى أتخيله عنك بعد اللقاء . .
ـ يبدو أننى أنا الفنانة وأنك أنت المعجب . . كلامك واقعى ، لا خيال فيه . .
ـ اسمعى يا ستى ، الواقع أننى معجب بكلامك ! وبخيالك ! وكفى أقسم لك أننى أستطيع أن أقرأ كلاما خيرا من هذا ان اقتصر الأمر بيننا على الكلام . . الكلام يأخذ كامل بهائه حين نرى المتحدث ، ومادمت لا أراك فأرجو ألا نسترسل فى الحديث ، هذا إلى جانب أننى هنا فى مكتب العمل وأريد أن أفرغ للمواد المتراكمة أمامى . .

ـ أتريد أن تقطع الحديث ؟
ـ مادمت لا تريدين لقائى . .
ـ ومن قال لك انى لا أريد ؟
ـ أنت . .
ـ أبدا ! . أنا لم أقل . . كل ما فى الأمر انى أحببت أن نتمتع بالحديث ما أمكننا ذلك ثم نلتقى . .
ـ ولكنى أريد أن نتمتع باللقاء ما أمكن ذلك ثم نتحدث .
ـ مستعجل أنت ؟
ـ نعم . .
ـ فأين تريد أن تلقانى ؟ . .
ـ أنا أقعد عادة فى لاباس منذ الرابعة من بعد الظهر . .
ـ وكيف ستعرفنى ؟
ـ إنك أنت التى ستعرفيننى . فى مجلة الاذاعة اليوم أحدث صورة لى . . إنها أنا . . اذا أعجبتك . . فأنا . . البسى .
ـ انها ستعجبنى لا شك . .
ـ بل فى ذلك شك . . الى اللقاء . .
ـ إلى اللقاء .

وكان أحمد جالسا فى مقعده المختار بمحل لاباس حين دلفت إلى المكان سيدة رائعة الجمال لم تتردد كثيرا قبل أن تقصد إليه وتجلس إلى النضد الذى اتخذه . .
ـ ماذا أقول صباح الخير أم مساء الخير؟

ولم يجد أحمد فى التحية شيئا جميلا ولا لباقة فقال لها فى بعض دهشة :
ـ قولى ما شئت فإن جمالك غنى عن أى تحية .
ـ لا أفهم . .
ـ بل تفهمين وتريدين أن أزيد . . ومن أجلك سأزيد . . جمالك تحية من الله لكل من يلتقى بك ، أنت وحدك تحية فلا حاجة بك الى أن تقولى صباح الخير أو مساء الخير . .

وضحكت الفتاة ضحكة جذابة وقالت :
ـ لا والله أنا قصدت أن أعرف منك الجواب على سؤالى . . فنحن فى وقت لا تدرى أهو صباح أم مساء ؟
ـ أما ترين أن الحديث عن الصباح والمساء قد طال بيننا وهو موضوع بدائى ؟
ـ نعم أرى ذلك ولكن فيم تريد حديثنا ؟!

ـ لا أدرى ؟ فأنت التى طلبتنى وأنت الحكم بما تريدين الحديث فيه . .

ـ قليلة هى المواضيع التى أستطيع الحديث فيها . .

ـ عجيبة !!

ـ وأين العجب ؟

ـ أنت فى التليفون كنت تخلقين الحديث خلقا وتسيرين به إلى الوجهة التى تريدين بلا تكلف ولا مشقة ولا عنت فأى جديد جد عليك فجعلك تعجزين حتى عن بدء موضوع الحديث ؟!

وكانت ابتسامة تجاهد فى الاستخفاء تلوح وتختفى على شفتى الفتاة ، ورأى أحمد هذا الوميض من الابتسام فعجب له بعض الشيء وهم أن يسألها عما أطلق هذه الابتسامة على شفتيها ولكنها عاجلته قائلة :

ـ التليفون شيء آخر . .

ـ يظهر أنك أنت شيء آخر . .

وجزعت الفتاة جزعا يوشك أن تتضح معالمه على وجهها لولا حرصها الشديد وسألت :

ـ ماذا تقصد ؟

ـ لا شيء . .

ـ حسنا . . سأحدثك اذن مادام لابد من الحديث . لقد رأيت فيلم السماء الزرقاء وأعجبنى جدا . . هل أعجبك ؟

ـ ما الذى أعجبك فيه ؟

ـ الممثل ـ حلو . . جميل جدا . . عيناه . . عيناه . . عيناه . . عجيبة من عجائب الزمن !!

ـ أكل ما أعجبك فى الفيلم عينا الممثل ـ ألم تفكرى فى المؤلف الذى بذل أقصى جهده أياما وشهورا لتتمتعى أنت بساعة تشاهدين فيها الفيلم ؟ ألم يعجبك المخرج الذى أراق جهده وأعصابه ، ألم تفكرى فى هذا الممثل ذى . . أكل ما فى الفيلم عينا الممثل ؟ . .

ـ يا أخى لقد حيرتنى !!

ـ اسمعى يا ستى . . لا تحيرينى ولا أحيرك . . أنا سأنصرف وحدثينى فى التليفون . .

وقام أحمد عن المنضدة دون أن يلاحظ هذا الغيظ الذى على وجه الفتاة والذى لم تجاهد فى إخفائه .

وقبل أن يستقر أحمد على كرسى مكتبه من بعد الظهر فى اليوم ذاته دق جرس التليفون :

ـ من ؟

ـ أنا . .
ـ أهلا . . أهلا . .
ـ أسمع فى أهلا شوقا . .
ـ ولم لا ؟
ـ عجيبة ! كأنك لم تكن معى فى الصباح . .
ـ أنا لم أكن معك فى الصباح . .
ـ ألم نلتق فى لاباس ؟
ـ لم نلتق . لم تكونى أنت . .
وارتبكت الفتاة هونا ثم قالت :
ـ كيف ؟

ـ لا . . لقد رأيت فى لاباس فتاة جميلة كعرائس المولد ، تحسن التخطيط والتزجيج وتضع الأحمر حيث يجب أن يوضع ، وتضع الأسود حيث لابد له أن يرتسم لكنها عاجزة لا تحسن شيئا آخر ، عاجزة ، لسانها ألكن وعقلها تافه . . وأنت لست كذلك . .
ـ أتشتمنى ؟ ! أشكرك . .
ـ أنا أشتمك ولكنى أنفى عنك هذه التفاهة التى رأيتها . . أتدرين لماذا رضيت أن ألقاك ؟ . .
ـ وبعد أن لاقيتنى . .
ـ أتقسمين لى أنك أنت التى كنت فى لاباس اليوم . .
ـ . . . .
ـ أتقسمين ؟
ـ لا . . لا أقسم . .
ـ فلماذا أرسلت غيرك ؟
لأنى . .
ـ قولى . . لماذا ؟
ـ لأنى أرى نفسى غير جميلة . .
ـ ومن أدراك ؟ ! إن من لها عقلك هذا لا يمكن إلا أن تكون جميلة . .

ـ أتعلق الآن بخيط من الأمل واه ضعيف وأخشى إن أنا لقيتك أن ينقطع أملى الأخير . . أنا أريدك أن تحبنى . . وأخشى إن رأيتنى أن تكرهنى . .
ـ وماذا كنت تريدين أن تفعلى ؟
ـ كنت سأجعل من صديقتى وجهى الذى ألقاك به ، وأكتفى أن تلتقى عقولنا فى التليفون . .

ـ بل لابد أن القاهم جميعا ـ ألقى وجهك الذى يخفى جوهرة عقلك . لا تخافى شيئا ـ فالجمال المختفى وراء الوجوه أبقى على الزمان وأخلد نضارة من جمال الوجوه . . لقد أحببت حديثك ، وحديثك هو معالم عقلك ـ فلا تخشى ألا أعجب بوجهك . . تعالى . .

ـ سأجىء . .

وفى اليوم التالى التقت الفتاة بأحمد . . لم تكن جميلة ، وكان الخوف الذى ظل وجهها قد جعلها إلى القبح أقرب ، ولم يحادثها أحمد عن الجمال ولم تحادثه عنه بل سرعان ما جرى الحديث بينهما مرتقيا فى سموات من الفكر والأدب والفن والفتاة تلاحقه حينا وتسبقه أحيانا ، وبعد لحظات أخذت ظلال الخوف تنقشع عن وجهها رويدا رويدا لتجلو لأحمد وجها فيه بساطة وفيه رقة وفيه براءة وليس فيه جمال ـ وان كان أحمد قد رأى فيه الجمال كل الجمال !

ولم يقم أحمد وحده ولا قامت وحدها ، وإنما تشابك ذراعاهما وسارا فى الطريق فترة لاقت فترة ، وروحا لاقت روحا ، وقلبا لاقى قلبا . .

ولم يعد التليفون يدق فى مكتب أحمد كثيرا . . اللهم إلا إذا أرادت زوجته أن يشترى لها شيئا قبل أن يعود الى البيت . . ماذا ؟ ! ألم تفهم ؟ ! لقد تزوجا . .

●

وظيفة دائمة

(المنظر غرفة الأستاذ مجدى السيد المحامى وهو يجلس فيها ومعه أحد الموكلين) .
الموكل ــ أشكرك يا أستاذ على مجهودك . .
مجدى ــ لا شكر على واجب يا عم حسين . .
الموكل ــ مسألة الأتعاب يا أستاذ . .
مجدى ــ ألم تكلم فيها عبد البارى أفندى ؟
الموكل ــ كلمته فيها . يطلب كثيرا . . قلت أكلم الأستاذ عسى الله أن يخفضها قرشين . .
مجدى ــ (وهو يدق الجرس) ان كانت الحكاية حكاية قرشين يا عم حسين فالمسألة بسيطة . .
الموكل ــ البركة فيك يا أستاذ . .

(يدخل عبد البارى وهو شاب نحيف ذو وجه قريب من المومياوات وفى أعلى رأسه بضع شعيرات يصر عبد البارى أن يلصقها بالصابون) .

عبد البارى ــ طلبتنى يا أستاذ .
مجدى ــ خذ عم حسين معك وأرحه فى الأتعاب .
عبد البارى ــ انه يا أستاذ يريد أن . .
مجدى ــ عبد البارى . . لا تطل . . أنا لا أناقش الأتعاب . . خذه معك وتفاهما . .
عبد البارى ــ ولكن يا أستاذ . .
مجدى ــ من غير لكن . .
عبد البارى ــ أمرك يا أستاذ . .
الموكل ــ أطال الله عمرك يا أستاذ . . ترفق بنا يا عم عبد البارى الدنيا غلاء . .

عبد الباري ــ (وهو يأخذ عم حسين إلى الخارج) يا عم حسين أنا عبد المأمور .. تعال .. تعال ..

(يخرجان ــ يلتفت مجدى إلى التليفون ويهم بإدارة القرص ولكن ما يكاد حتى يدخل عبد الباري مهرولا فى فرح واضح) .

عبد الباري ــ البك وكيل النيابة يا أستاذ !!

مجدى ــ أى وكيل نيابة ؟

عبد الباري ــ البك وكيل النيابة زميل سعادتك ..

مجدى ــ أيهم ؟ لى زملاء كثيرون فى النيابة ..

عبد الباري ــ أنا لا أعرف اسمه يا أستاذ وإنما رأيته بالأمس فى الجنايات وأنا أشاهد جلسة الـ . . .

مجدى ــ طيب .. طيب انتهينا .. سله عن اسمه وانتظر حتى أناديك ..

عبد الباري ــ والبك وكيل النياب . . .

مجدى ــ ألم تسمع ما قلت ؟!

عبد الباري ــ سمعت يا أستاذ ..

(يخرج ويدير مجدى قرص التليفون)

مجدى ــ الهام .. ألم تخرجى بعد .. ماذا قال الدكتور ؟

. . .

مجدى ــ طيب .. وسمير نام ؟

. . .

مجدى ــ والحرارة انخفضت .؟ طيب .. أنا منتظرك بعد ساعة .. لا تتأخرى وحياتك ..

(يضع السماعة ويدق الجرس وبعد برهة يظهر عبد الباري)

مجدى ــ أعرفت اسم الزائر ؟

عبد الباري ــ والله .. لم أجرؤ على السؤال ..

مجدى ــ كيف هذا ؟

عبد الباري ــ اسأل وكيل النيابة ؟!

مجدى ــ طيب قل له يتفضل ..

عبد الباري ــ (صائحاً) يا حسن قل للبك يتفضل (يلتفت للأستاذ) عندنا قضية سينظرها هو ..

مجدى ــ اخرج ..

عبد الباري ــ حاضر ..

(يخرج عبد البارى وحين يرى وكيل النيابة داخلا ينحنى وهو يزيد فى فتح الباب) .

مجدى ـ من ! أهو أنت . . شكرى كيف حالك ؟ وحشتنى والله . . أين كنت طول هذه المدة ؟ آه ! حقا لقد كنت فى الصعيد . . كلانا معذور اذن . .

شكرى ـ كيف حالك يا أستاذ مجدى ؟

مجدى ـ (مندهشاً) ماذا . . يا أستاذ ماذا ؟!

شكرى ـ أسأل عن حالك . .

مجدى ـ طيب . . طيب . . عرفت انك وكيل نيابة فلا لزوم لهذه الكلفة . .

شكرى ـ آه . لا يا صديقى أنا لا أستطيع أن أفعل كما كنت فان زمن التهريج قد انقضى . .

مجدى ـ (وكأنما لا يكلم شكرى) عجيبة ! .

شكرى ـ عجيبة ؟!

مجدى ـ اننا نعرف الوقار الذى يصاب به الموظفون بعد التعيين ، وهو من النوع الذى لا يدوم طويلا ولكن يظهر أن اصابتك كانت شديدة ، بعض الشىء . .

شكرى ـ لا يا أستاذ مجدى إنما يجب أن يضع الانسان نفسه فى موضعه الصحيح . .

مجدى ـ وما موضعك الصحيح ؟

شكرى ـ أنا وكيل نيابة . .

مجدى ـ تهنئاتى الحارة . .

شكرى ـ أما زلت تمزح ! . أهذا جزائى لأننى جئت إليك ؟

مجدى ـ وكيف جئت ؟

شكرى ـ قرأت اللافتة بالأمس فعزمت على زيارتك وقد أخبرتهم الآن فى المحكمة أننى سأكون عندك وجئت أزورك .

مجدى ـ شرف عظيم . .

شكرى ـ أتهزل ؟!

مجدى ـ لقد حرت معك يا شكرى . . إن كلمتك . . كما كنت أكلمك فى عهدنا الأول قلت لى يا أستاذ مجدى وان بجلتك واحترمتك قلت إننى أهزل ! .

شكرى ـ يظهر أنك لا تفهم الأمر . . افرض أنك جئت غدا مع متهم فى قضية أحققها . .

مجدى ـ فرضنا . . وما البأس ؟!

شكرى ـ ما موقفى أنا ؟

مجدى ـ أأنت هنا الآن فى قضية تحققها ؟!

شكرى ـ لا ولكن . .

مجدى ـ هل فى المكتب متهم ؟!
شكرى ـ انتظر على . .
مجدى ـ ماذا أنتظر ؟ هل هنا النيابة ؟
شكرى ـ يجب أن أحترم نفسى فى كل مكان . .
مجدى ـ أى احترام ذاك ! أأنت فى بيتك هكذا . . أيناديك أخوك بيا أستاذ شكرى !. عفوا أقصد بيا شكرى بك ؟!
شكرى ـ الأمر مختلف . .
مجدى ـ افرض أن أخاك محام . . ماذا تفعل ؟
شكرى ـ حينئذ أمتنع عن نظر القضية التى يوكل فيها . .
مجدى ـ طيب هذا لأنه أخوك . . ولكن أصدقاءك وزملاءك لو امتنعت عن كل قضية يوكلون فيها فإنك لن تحقق فى قضايا أبدا !.
شكرى ـ ولكن يجب أن أحافظ على كرامتى . .
مجدى ـ وهل أهان أحد كرامتك ؟! اذا ناديتك باسمك أهنت كرامتك . . اسمع يا شكرى إن بيننا صلة هى الشهادة التى أحملها أنا وتحملها أنت ، أما كرامتك فالمحافظة عليها تكون بالبعد عن مواطن الريبة والارتفاع بمستوى أخلاقك تلك هى الكرامة يا صديقى . .
شكرى ـ وممن ؟!
(يدق جرس التليفون ويرفع مجدى السماعة)
مجدى ـ نعم . . مكتب الأستاذ مجدى . . شكرى بك ! لحظة (يلتفت إلى الأستاذ شكرى) التليفون يطلبك . .
شكرى ـ آلو . . أنا شكرى . . ماذا !؟ الوزارة سقطت ومن أدراك ؟
ـ . . . .
شكرى ـ ومن الذى سيؤلف الوزارة . . الحزب الآخر ؟
(يضع السماعة فى يأس)
مجدى ـ ماذا . . أكنت مرشحا للوزارة ؟!
شكرى ـ أرجوك يا مجدى . .
مجدى ـ ما أهمية سقوط الوزراة بالنسبة إليك . . ماالذى يجعلهم يطلبونك فى غير مكتبك ليبلغوك الخبر ؟
شكرى ـ الوزير . . الوزير الذى بها . .
مجدى ـ أى وزير ؟
شكرى ـ الوزير الذى كان سيشفع لى . .
مجدى ـ أى وزير وأى شفاعة ؟

شكرى ـ لقد طلب الى النائب العام أن أستقيل لأن هناك اشاعات تتناولنى عنده بسوء . ولى وزير فى الوزارة ، أقصد كان لى قريب وزيرا فى الوزارة رجوته فوعدنى خيرا . .

مجدى ـ وبعد . .

شكرى ـ وهل فيها بعد ؟ ! استقالت الوزارة . . استقالت يا أستاذ . . يا مجدى ليس هناك أمل . .

مجدى ـ هون عليك ياشكرى . . هونها تهن . . هذه الإشاعات كانت خطيرة ؟!

شكرى ـ بعض علاقات والإشاعات كانت فى حدود ضيقة يكتفى فيها بالنقل . . لكن . .

مجدى ـ لاتدافع أمامى . . مادامت الإشاعات كانت فى حدود ضيقة فسمعتك مازالت شريفة . .

شكرى ـ مجدى . . أتقبلنى عندك فى المكتب ؟

مجدى ـ ماذا تقول يا شكرى ؟

شكرى ـ هل فى هذا غرابة ؟ ! أعمل معك بالأجر ؟

مجدى ـ لا ياشكرى أما هذا فلا أقبله . .

شكرى ـ أترفض طلبى وأنا فى هذه الحال ؟ . .

مجدى ـ طبعا أرفض ياأخى . . إنك زميلى ولن تكون إلا زميلى دائما . . سوف تكون شريكى فى جميع أرباح المكتب سواء فى القضايا التى تتولاها أو فى غيرها . .

شكرى ـ ليس عندى الآن مايكفى لمشاركتك مصاريف المكتب .

مجدى ـ وأنا على استعداد لقبولها عندما تتوافر لديك . .

شكرى ـ سبحان الله !!

مجدى ـ ماذا ياشكرى ؟

شكرى ـ كنت أظن أن الوظيفة التى شغلتها هى كل شىء ! ظننتها الوظيفة الدائمة الباقية واذا الله يكشف لى فى لحظة أن هناك وظيفة أدوم وأبقى . .

مجدى ـ أى وظيفة تلك ؟

شكرى ـ الصداقة . . من استطاع أن يحافظ عليها فقد استطاع أن يحافظ على الشىء الدائم فى الحياة . . أسأت إليك فأحسنت وتكبرت فكنت أخى الأكبر . .

(يدق جرس التليفون فيرفع مجدى السماعة)

مجدى ـ نعم . . شكرى بك سيكلمك . .

شكرى ــ آلو . . ماذا . . لم تستقل . . حسنا . . اسمع اكتب خطاب استقالة بالصيغة المعتادة على ورق رسمى وأحضرها الى هنا ، أتعرف العنوان ؟ أسرع . . لا شأن لك . . فقط أسرع . .

مجدى ــ انتظر . .

شكرى ــ (يضع السماعة) ماذا أنتظر رجعت فى كلامك ؟

مجدى ــ لا . . ولكن . .

شكرى ــ ان شعورى بأخوتك وتجربتى فى هذه اللحظة البسيطة تساوي وظائف العالم أجمع . . لا ياعم لن أرجع اليها . . لن أرجع اليها أبدا . .

(يعانقه ويدخل عبد البارى فيجدهما متعانقين فيظهر السرور على وجهه)

عبد البارى ــ الست حرم سعاتك . .

مجدى ــ دعها تتفضل . . واسمع ياعبد البارى . . اجعل الخطاط يكتب لافتة باسم الأستاذ محمد شكرى المحامى وعلقها على الباب . .

عبد البارى ــ (فى حزن شديد) ماذا ؟ من ؟ البك وكيل النيابة ؟

مجدى ــ افعل ماقلت لك . .

عبد البارى ــ أمرك . . ولكن . . القضية !!

مجدى ــ اخرج . .

عبد البارى ــ حاضر . .

شكرى ــ أى قضية ؟!

مجدى ــ سأقصها عليك فيما بعد . .

(تدخل زوجة مجدى)

شكرى ــ (مسلما) محمد شكرى وكيل النيابة . . أقصد المحامى . .

مجدى ــ (ضاحكا) أهلا إلهام . . هذا زميلى الأستاذ شكرى . .

الهام ــ أهلا بالأستاذ . .

مجدى ــ لقد قبل الأستاذ شكرى بعد إلحاح أن يترك وظيفتة كوكيل للنائب العام ويشاركنى فى المكتب فتخيرى مكانا نتعشى فيه الليلة احتفالا بهذه المناسبة . .

الهام ــ وهل هناك أحسن من البيت ؟ !

مجدى ــ وهو كذلك . . إلى البيت إذن . . إلى البيت يازميلى العزيز . .

(تسبقهم إلهام فى الخروج)

شكرى ــ (فى عينيه نظرة شكر عميقة) ألف شكر . .

مجدى ــ (رافعا سبابته إلى فمه) اسكت . .

وأنا .. ما ذنبى

لا . . لست فقيراً ، فلو كنت فقيراً فلعلى كنت أسكت أو أرضى بما كتب لى . ولست جاهلا . فلو كنت جاهلا لما أحسست بهذا البلاء الذى قدر لى ، ولا أنا أبله أو مجنون ولا ضعيف أو قبيح الوجه ، لا لست واحداً من هؤلاء جميعاً . . انه عيب واحد الذى أعرفه فى نفسى ، لم أصنعه ، ولا يد لى فيه ولو كنت أعرف طريقة للتغلب عليه لبادرت إلى اتباعها . . ولكن ليست هناك طريقة . . عيب واحد أعرفه فى نفسى . . هو أمى . . نعم أمى . . ماذا أصنع ؟! هل أنا الذى اخترتها ، أو أنا صنعت بها ما هى عليه . . لا . . لقد تم صنعها منذ زمن بعيد . . صنعها أبوها . . أو صنعتها أمها ، أو صنعت هى نفسها . . لا أدرى ولكنى أدرى أننى لم أصنعها !! وأدرى أيضا أننى لم أخترها لتكون أمى . . بل أن أبى هو الذى اختارها من بين نساء العالمين لتكون أما لأبنائه ، ثم وجدت نفسى واحداً من هؤلاء الأبناء . .

لن أنالها بشرٍّ ولن أذكر عنها أى سوء فهى تحبنى ، ولا شرَّ بها أو سوء الا أنها تحبنى غاية الحب . . وحبها من نوع عجيب أوقع بى إلى ما أنا فيه اليوم !!

انها تحبنى حباً عارماً مجنوناً ، لا تطيق عنى بعداً ، وهى منذ أول ما وعيت لا تطيق أن أصنع بيدى شيئاً ، وان أعجب ما أعجب له أننى نجحت ونلت الشهادة العالمية برغم هذا التدليل الذى كانت تسكبه هى سكباً فياضاً بلا تفكير ، ومنذ ذلك الوعى الأول - رأيت لها صديقة لا تفارقها فى نهار ولا ليل حتى تقتضى الضرورة الملحة ، أو تفترقا لترى كل منهما شأن بيتها ثم تعودان لا تفترقان . ومنذ ذلك الوعى الأول رأيت لهذه الصديقة ابنة أكبرها بسنوات قلائل . وقد كانت الابنة ترافق أمها فى زياراتها ، محمولة على الأكتاف فى أول أمرها ، ثم ساعية بخطوات متعثرة ، أذكر أننى كنت

أضحك منها ، ثم استقامت خطواتها وأصبحت عربيدة لا يقر لها قرار . .

وكنت فى ذلك أشكر نفسى أن ألهو مع الطفلة ، ولا أرضى لنفسى أن تشاركنى فى لهوى ولكننى كنت أراها دائما فلا أجد لرؤيتها صدى فى نفسى غير أنها كانت تتعثر فى خطاها وكنت أضحك من تعثرها . .

ودار الزمان دورته وأصبحت الابنة المتعثرة الخطوات فتاة ريانة الصورة ! فيها جمال لا يبهرك فى النظرة الأولى ولكنك تدركه مع طول التأمل ، ومع بعض التفكير ، وهى مؤدبة حسنة الحديث إذا تحدثت ، لا يروعك منها خيال جامح ، أو فكر متوثب . . وانما هى عقلية أكثرت من القراءة وأحسنت فهم ما قرأته ، كانت هكذا سامية . .

وحين أصبحت هكذا كنت أنا قد انتهيت من دراستى وخلفت ورائى الجامع لأستقبل الحياة . ولكن الحياة لم تشأ أن تستقبلنى وحدى ، أو أن أمى لم تفك قيودى وتطلقنى لأستقبل الحياة وحدى بلا رباط يربطنى بها . ففوجئت بها يوما وأنا أهم بالخروج . .

ــ انتظر يا سميح فانى أريد أن أكلمك فى أمر مهم . .
وقعدت بجوارها . .

ــ نعم . .

ــ أنت ــ الحمد لله ــ كبرت وأريد أن أفرح بك . .

ــ تقصدين الزواج ؟!

ــ نعم . .

ــ يا أمى ولماذا العجلة ، انى لم أكد أنتهى من الكلية وأريد أن أستريح قليلا . .
وابتسمت أمى وهى تقول :

ــ وهل الزواج تعب ؟!

ــ أريد أن أجد وظيفة أولا وتستقر أمورى ثم أتزوج . .

ــ لا شأن لك بأمورك سأعطيك كل ما تحتاج إليه . .

ــ نعم يا أمى ولكنك لا تعرفين لذة المال الذى يكسبه الانسان بعمله .

ــ ما هذا الكلام الفارغ ؟!

ــ أهذا الكلام فارغ !!

ــ طبعا .. ابحث لك عن حاجة أخرى ..

ــ أمرك يا أمى .. إذا وجدت فتاة تعجبنى قلت لك لتخطبيها لى ..

ــ ولكنك خطبت فعلا ..

ــ أنا ؟ ..

ــ نعم أنت ..

ــ وذعرت أن يكون كلامها جدا لا مزاح فه ولو أنى استبعدت أن يكون كذلك فاغتصبت ضحكة منعها من الانطلاق بقية خوف مازالت تتردد فى نفسى ..

ــ متى كان ذلك يا أمى ؟! أنا خطبت !!

ــ أنا يا أمى ؟!

ــ نعم أنت ..

ــ أجادة أنت ؟

ــ كل الجد ..

ــ كيف يا أمى ؟!

ــ خطبت لك ..

ــ كيف خطبت لى ؟!

ــ وما لى لا أفعل .. لقد كنت اعمل كل شيء لك ، ألا تسمح لى أن خطب لك !!

ــ شريكة حياتى ؟! المرأة التى سأقضى معها العمر كله !! ألا أختارها ؟! لقد صنعت لى كل شيء ولكنك تسمحين لى أن أختار رباط رقبتى وقميصى وحلتى .. ألا تسمحين لى أن أختار زوجتى ؟!

ــ لقد اخترتها وانتهى الأمر ..

ــ تقولين انك خطبت لى وأنا فى الخامسة من عمرى ولابد أن أهل خطيبتى اعتبروا كلامك هزلا ونسوا ما كان ..

ــ أنت واهم لقد ظللت أجدد خطبتك كل يوم منذ أنت فى الخامسة من عمرك

حتى اليوم . . خمسة عشر عاما وأنا أذكر الخطبة بخطبة جديدة ، وتريد أنت أن تهدم هذا جميعه ؟!

ـ أهدم ماذا ؟ ما شأنى أنا ؟!

ـ انها ليست خطيبتى ، أنا لم أخترها . . لقد اخترتها أنت فتزوجيها أنت . .

ـ أنصت ، انها فتاة من أجمل الفتيات وأبوها غنى واسع الغنى ، وأمها غنية هى الأخرى وليس لها إلا هى ، فأنت بذلك ستأمن على مستقبلك ومستقبل أولادك . .

ـ اذا كان المستقبل هو غنى أبيها وغنى أمها فهو مضمون لا شك . . وما المستقبل ان لم يكن المال؟!

ـ المستقبل هو الحياة جميعها . . المال جزء فيها ولكنه جزء لا يزيد . . من هى هل أحبها أم لا ؟ هل تتوافق روحانا ، هل . .

ـ لا تخرف . . انها سامية بنت عديلة وأنت تعرفها وستتزوجها . .

ـ لا لن أفعل . .

ـ بل ستتزوجها . . وعليك أن تختار بين الزواج بها أو الافتراق عنى إلى الأبد . .

ـ عنك أنت ؟!

ـ عنى أنا فلو أن أصبعى هذا عصى أمرى قطعته . .

ـ نعم . . أعرفك انك تفعلين هذا . .

ـ ستتزوجها إذن . .

ـ أتزوجها . .

وتزوجتها . . مسكينة . . لو أننى أنا الذى اخترتها . . لو أننى الذى خطبتها لعشنا معا فى أهنأ حياة ولكنى لم أخطبها ولم أخترها وانما تزوجتها . كنت أرى فيها أمر أمى وتهديدها وعسفها بى وظلمها لى ، كنت أرى فيها حرمانى من أن أختار أنا شريكة حياتى ، كنت أرى فيها جانبا مظلما من جوانب شبابى ، جانب اختيارى أنا لزوجتى ، فقدت هذه المتعة ففقدت اشراقة من اشراقات الشباب الكبرى ، ثم أصبحت زوجا دون أن تصحب زواجى ذكريات من نظرة التقت بأخرى ، أو ابتسامة أو تفكير . وويل للشباب يمضى دون أن يصحب معه ذكريات !! ذكريات الحب والاستخفاء والتفكير فيمن يحب ، وفى هذا تحبنى هى أيضا . . لا ذكريات لى . . أنا زوج بلا ذكريات . .

ان زواجى حتما لا يحمل معه تلك الذكريات المادية المعروفة .. لم أقصد إلى أمى لأقول لها فى خجل فرحان « أريد أن أخطب فلانة » لم تقصد هى الى العروس ، لأنتظرها بما تحمل من أخبار ، لم أر أبى يفكر بعض الشيء ويتردد بعض الحين ثم يقول : ألا ترى انك متعجل بعض الشيء ؟! على كل حال مبروك .. « لا .. لم يتردد أبى .. فقد كان أبى لا يتردد فى أمر تصدره أمى .. لا ذكريات لى من الزواج إلا أمران : تزوجت إلا أننى وجدت نفسى زوجا ، زوجا لفتاة لا عيب فيها إلا أنها تمثل أمرا مفروضا على أن أنفذه لا ذنب لها وأعرف ذلك .. ولكن أنا أيضا ما ذنبى .. أصبح البيت جحيما لى وأنا الشاب فى ريعان العمر وهى الفتاة فى اشراقة الشباب ، أنا هنا فى الحان مع صديقتى التى اخترتها أنا ، والتى استخفى بها والتى أحقق بها ما حرمتنى أمى من تحقيقه ..

أنا هنا فى الحان ألجأ إليه بعد عمل ، لا أرى زوجتى ولا ترانى إلا مخمورا فى آخر الليل ، ان كانت فى آخر الليل صاحية ، أو مصدوعا فى أول النهار ، ان كانت فى أول النهار خالية ..

مسكينة سامية .. لقد كانت جديرة بزوج رائع ، بل لقد كانت جديرة بأن أحبها أنا لو أننى أنا الذى اخترتها .. ولكن أمها وأمى دبرتا المؤامرة فقضت علينا أن نحيا حياة ؛ الموت خير منها ..

لقد فكرت أمها وأمى فى أن يتزوج الابن من الابنة ولم تفكر منهما فى الابن أو الابنة ، انها رغبة اشتعلت فى نفس كل منهما فكنا نحن وقودها وكانت حياتنا الحريق .

أنا هنا فى الحان أشرب مع صديقتى ، وزوجتى بالبيت لا أدرى ماذا تفعل ؟! أعلم أنها مسكينة لاذنب لها .. ولكن أنا .. ما ذنبى ؟!

هــو اللــه

كانت معربدة مجنونة فى رأس عالم يجب أن تكتب له الشهرة ، ويصعد إلى قمة المجد ولم يسكت العالم عن التفكير وانما أخذ يذيع بين اخوانه العلماء هذه الفكرة التى سيطرت عليه ، وأراد العلماء الناشئون أن تكتب أسماؤهم كمساعدين لذلك العالم الكبير فيقفزون بذلك سلالم كثيرة إلى سماء المجد الذى يحلمون به . .

كانت الفكرة عجيبة ! فهو يريد أن يصنع الآدميين خارج الأرحام ولكن ، ما الروح ؟ هو يعلم أن الجسم متكون من خلايا وهو يعلم عمل كل خلية فى كل جزء من أجزاءهذا الجسم ، بل انه يعلم مما تكون هذه الخلية . . ولكن كيف تسير ، وكيف تؤدى المهمة التى ألقتها عليها الحياة ؟ لم يكن يعرف ، ما هى الروح وكيف يستطيع الانسان أن يحيا ، ويسعى ، ويشعر ويحس ويتكلم ، ويفهم ، ويفرح ، ويحزن ، كيف ؟ لم يكن يعرف ! وهل إذا وضع العناصر التى يتكون منها الجسم بعضها إلى بعض تنتج تلك المعجزة الضخمة التى حيرت العقول ؟! كان يعلم أن وضع هذه العناصر وخلطها لن يؤدى به إلا الفشل الحاسم السريع . .

وعجب العالم من هؤلاء الذين ينكرون الله !! كيف ينكرونه وينكرون معجزاته وهم فى أنفسهم معجزات لم يصل أحد إلى ادراك كنهها بعد ؟! وهداه عجبه هذا أن يحاول بعض الناس أن يثنيه عن فكرته جميعا ، فالنسل فى ازدياد والمشكلة تحل بالإقلال منه لا بالزيادة ، ولكن العالم ركب رأسه وأراد أن يثبت عبقريته . .

وأصبح تفكيره منحصرا فى أن يهيىء فى قوارير زجاجية جوا مماثلا لجو الأرحام يضع فيه الحيوانات الإنسانية تسعة أشهر ثم تكون الولادة . .

واستمر فى تجربته تلك السنين ، ومساعدوه من حوله ينتظرون وفى كل مرة يرى سببا لفشل التجربة ، فيزيله ، وتمر الأعوام والأرحام الزجاجية عاقر ما تزال .. لا تهب البنين ولا البنات .

ثم شاء الله سبحانه وتعالى أن يسخر من هذه الحشرة المتعالمة فأمر وقال للقارورة كونى فكانت .

وكانت التجربة تجرى على قارورتين فأخرجت احداهما ولدا ذكرا وأخرجت الأخرى الأنثى .

وفرح صاحب الفكرة وأذاع فى العالم نجاح تجربته وارتقى إلى سماء المجد فى لحظة واحدة .. لحظة أن بكى الطفل وبكت الطفلة .

وتسلق العلماء الصغار حبال المجد التى علقها كبيرهم ، واطمأنوا نفسا وقروا عينا ، لقد نجحوا فى أكبر تجربة عرفها التاريخ وأرادوا أن ينسوا لحظهم أنهم لم ينشئوا انشاء وانما هيأوا جوا ، وتركهم ربك فى غيهم يمرحون ..

ولكن شيئا واحدا كان يعكر على العالم الظافر فرحته المجنونة .. ذلك أنه كان حين يضع سماعته على موضع القلب من الطفل أو الطفلة لا يسمع تلك الدقات المنتظمة التى يجب أن يسمعها ، وإنما كان يسمع هديرا كهدير البحر الصاخب ، ويحاول أن يجد لذلك من العلم تعليلا ولكن هيهات !! فسكت عن الأمر وحبسه حتى عن مساعديه لينال المجد كاملا ، والتهنئات خالصة ، حتى إذا خفت صوت المجد وهدأ صخب الناس ، وفرغ إلى معمله مرة أخرى بعد ضجيج الصحافة والاذاعة والتليفزيون والسينما همس إلى مساعده الأول بتلك الظاهرة التى تطالعه من هذين المخلوقين وحمل المساعد هذا السر فى احساس بالخطورة وشعور بالرهبة واقترح على أستاذه ، أن يضعا الطفلين تحت الأشعة ..

وفى تكتم شديد أعدت أجهزة الأشعة ووضع قلبا الطفلين موضع البحث .. ولكن ما هذا ؟ نظر العالمان كل إلى الآخر نظرة ملؤها الدهشة والذهول ثم نظرا مرة أخرى إلى تلك الصورة التى ظهرت لهما فى الأشعة .. لكم سخر الإله منهما .. ان الطفلين بغير قلب ، لقد شاء الله أن تقوم الشرايين مباشرة بدون القلب ومحا القلب من أولاد القوارير .. ان حب الأمومة والرحمة التى يفيض بهما قلب الأم هى التى تضع القلب فى الطفل فى رحم الأم . أما الزجاج البارد الأخرس فهيهات أن يهب القلب !! لقد استطاع العالم أن يجعل جوه مثل جو الرحم ، ولكنه لم يستطع أن يجعل فيه رحمة الأمومة ..

كتم العالمان الخبر عن الناس فقاما على الطفلين يهيئان لهما الغذاء الأمثل حتى درج الطفلان وتعلما الكلام وفهماه ، ثم ذهبا إلى المدرسة وهناك سمعا اخوانهما يتكلمون عن أمهاتهم فتعجبوا ! ما معنى هذه الكلمة ؟ ما الذى تهدف إليه ؟ سألا العالمين فى المنزل فشرحا لهما الأمر فتعلماه ، درساه كدروس المدرسة فى الجغرافيا والتاريخ ولكنهما لم يحسا به . .

وحين علم اخوانهما أن لا أم لهما ، أخذهم العجب ، بل إن الأساتذة أنفسهم قد عجبوا من أمرهما ، فهم قد سمعوا أن شخصا يولد فلا يعرف أباه ، وأمه !! وسمع الطفلان فيما سمعا أن شيئا فى الحياة اسمه الرحمة وآخر اسمه الحب وآخر اسمه الحنان وآخر اسمه الفرح وآخر اسمه الحزن وآخر اسمه السعادة وآخر اسمه الشقاء .. سمعا هذا جميعه وألحت هذه الألفاظ على أسماعهما ، فاذا سألا قائلها عن معناها حار كيف يصفها ، ثم لا يجد مخرجا من حيرته إلا أن يقول هذه الأشياء لا يعرفها الناس فى الألفاظ وإنما هى احساسات تضطرب بها النفس .. احساسات ؟ ! ما معنى هذه الكلمة أيضا ؟ ! وهكذا لا يجد الطفلان أحداً يسألانه إلا العالمين بالمنزل ــ فيحاول العالمان أن يترجما لهما ويحاولان أن يضعا التعاريف مثل تلك التى يعرفون بها النظريات العلمية ولكن هيهات أن يفهم الطفلان ولا يستطيع العالمان الكبيران أن يفهماهما .. ولا يجدان أخيراً شيئا يقولانه إلا أنه إحساسات وتزداد حيرة الطفلين ولكن قليلا ما تمكث هذه الحيرة ..

إلا أن اسما معينا كان يسمعانه كثيرا فلا يفهمانه مثل كل ما لا يفهمانه .. الله ؟ ! .. إنهما يسألان العالمين عنه فيقولان الله الذى خلق كل شىء ــ وخلقنا ..

ــ وخلقكما .

ــ فلماذا يحمده من تصيبه سيارة فى الطريق ولماذا يحمده من ينال مالا كثيراً .

هو نفسه الله يحمدونه عندما يقع لهم ما يسمونه حزنا ويحمدونه عندما يتم لهم ما يسمونه فرحا ..

ــ لأن الناس يؤمنون به ..

ــ يؤمنون ! . كيف يؤمنون ؟ !

ــ يؤمنون به أن يهبهم الصبر عند المصيبة ، ثم هم يشكرونه عند الفرح ..

ويسمع ولدا القوارير هذا الكلام فيضعانه من عقليهما حيث يضعان كل ما لم يفهماه من قبل .. إلا أن ذلك ترك فيهما غصة ، ولكن العالمين يضطران آخر الأمر أن يشرحا لهما أنهما يختلفان عن الناس جميعا ويرويان لهما كيف جاءا إلى هذه الدنيا فلا يصيب هذا من نفسيهما شيئا ولا يفسر لهما شيئا ..

وتمر الأعوام ويبلغ الطفلان مطالع الشباب الأولى فتتحكم النزوة فيهما . . نزوة لا تتحكم فيها عاطفة ولا شعور ويخشى العالمان على مصيرهما فيزوجان الفتاة من الفتى ، ويقيمان المراسيم الدينية ولكن الفتاة والفتى لايفهمان من هذه المراسيم شيئا وإنما يفهمان أنهما سيتزوجان ، ويفهمان هذا المعنى مجردا عن كل روحية فيه ، لقد سمعا أن الناس فيما بينهم يتحابون ثم يتزوجون ولكن ما هو الحب ؟ لم يعرف واحد منهما إنما قد عرف الرغبة . . فكان الزواج ثم كان لهما أطفال وكان الأطفال يموتون الواحد تلو الآخر فلا يحسان لذلك ألما ولا حزنا إنما هو شيء جاء فما فرحوا به ثم ذهب فما حزنوا عليه ويريان الناس من حولهما يحزنون ويريانهم يدمعون ويبكون لمصابهما فيعجبان من الناس . .

وتمر الصور أمامهما كثيرة متلاحقة فهما يريان الناس تفرح وتحزن وتغضب وتنبسط وتتألم وتصح وتشقى وتسعد ويريان الحياة أمامهما تضطرب وتموج بهذه الإحساسات والمشاعر ، وهما عنها بمنأى ، بعيدان عن كل ما تزخر به فيثب خاطر واحد إلى رأس كليهما فما يلبثان أن يذهبا للعالمين فيقول الفتى . .

ــ قلتما لنا أنتما اللذان سعيتما لمجيئنا فى هذا العالم .

ــ نعم . .

ــ فنحن نريد أن تخرجانا منه كما أدخلتمانا فيه . .

ــ ولماذا ؟ !

ــ لأننا نعيش فيه ولا نحبه لأننا نأكل كما يأكل الناس ونشرب كما يشربون ونتعاشر كما يتعاشرون ولكننا لانحس كما يحسون . . إننا مشتاقان إلى الإيمان . . إلى السعادة . . إلى الشقاء . . الى الألم . . إلى الفرح . . إلى الحزن . . إلى كل هذا الذى نراه يضطرب فى إحساس الناس ولا يضطرب فى أجسامنا . . لأننا لا إحساس لنا . نريد أن نموت . . ليس هذا العالم لنا . . إننا هنا غلطة . . إننا هنا سخرية . . لقد أراد الله أن يسخر منكما فكنا نحن . . ألم تقولا إنكما حاولتما أن تصنعا مثلنا فما أفلحتما . . نحن سخرية العالم منكما . . ألم تقولا إن من يموت يختاره الله إلى جواره ، نريد أن نذهب إلى هذا الجوار فهناك سيعطينا الله ما حرمنا منه هنا . .

ويقول أكبر العالمين :

ــ ولكننا لا نستطيع . . إن موتكما ليس من عملنا . .

ــ ولماذا ؟ ! إن الذين تقولون عنهم إنهم مجرمون يقتلون فى كل يوم فاقتلانا مثلما يفعلون . .

ــ إننا لسنا مجرمين . .

ــ بل أنتما أشد إجراما منهم . . ألم تفكرا حين قمتما بتجربتكما . . أى شيء هذا

الذى تفعلان وتزعمان أن لكما قلوبا . . وتزعمان إن لكما إحساسا . . إننا نحن ـ ونحن بلا قلب ولا إحساس ـ نفكر فى العواقب ، أما أنت أيها العالم العبقرى فلم تفكر فى مصير انسان ليس بانسان . لقد أراد الله أن يسخر منك فكنا نحن . . فاقتلانا . .

ـ لا نستطيع . .

ـ اذن نقتلكما نحن . .

وأخرج الفتى من جيبه سكينا وأراد أن يطعن به العالم الكبير ولكن كان يعرف ما ينتويان فسرعان ما يخرج غدارته وسرعان ما يسقط ولدا القوارير صريعين مضرجين بدماء هى فى أصلها تنتسب للانسان وإن كانت قد ربيت فى بيت من زجاج ليس فيه من الانسانية عرق . . وتمت كلمة ربك واختار الفتى والفتاة إلى جواره وتكسرت القوارير ، فالرحم وحده هو الذى اختاره الله ليخرج منه الحياة . . والروح ـ قبل ـ من عنده سبحانه . . هو الله . .

●

سماء ولا أرض

تأهبت الجيوش لحرب ، ولم يطمئن الملك إلى قواده فهو يشرف على كل شأن . ولا حديث له إلا الجيش وما اكتمل من عدده ، وعتاده ، والمدينة قائمة لاتعرف قرارا ، والناس مضطربون ، فمن لايذهب منهم سيقدم ابنه أو أخاه أو أباه ، يدفعون ضريبة الدم للوطن والدين ، والألسنة كلها تدور فى أفواه أصحابها لا حديث لها إلا هذه الحرب ، والأعين كلها هالعة ، خائفة فهى تتجه إلى السماء داعية فى خضوع ، راجية فى الحاح ، ثم ترتد إلى الأرض وقد هدأ هالعها واستقر مضطربها ، ولكن إلى حين قريب ، ثم ما تلبث أن تتجه مرة أخرى إلى السماء ، وهكذا تظل مترددة بين لطف السماء ، ورهبة الأرض . . والجيش لاه عن هؤلاء جميعا ، الى الاعداد ، والتفكير فيما يحتاجه فى تلك الرحلة التى قد تطول حتى نهاية هذه الدنيا ، وقد تقصر فهى إذن سنة أو بعض السنة ، يلاقون فيها الموت ويخادعونه عن أنفسهم ، ويقودونه إلى أعدائهم ، والنساء باكيات . . والقليلات منهن القليلات يقفن إلى جانب أزواجهن يلهمنهم العزيمة ، ويوحين اليهم بالمصابرة . . مصابرة النفس ، ومصابرة العدو ، ومصابرة الزمن . .

ويصل الوحى إلى نفوس البعض ، أو هو يرتد عن النفوس الخائرة التى تذهب إلى الحرب لأنها لا تملك إلا ذهابا ، ولعل ذلك الوحى يصل إلى نفوس بعض الجند فيجد ألا عمل له فى هذه النفوس فهى مليئة بالإيمان ، مفعمة بالثقة ، وهبت نفسها لله وفى سبيله تحارب . .

وكان فى المدينة شاعر . . أراد أن يذهب إلى تلك الحرب ، فقد كانت العقيدة تملأ جوانب نفسه ، وقد شب لا أمل له إلا أن يحارب أعداء الله فى سبيل الله ، وقد كان الشاعر يعرف طريقه الى قصر الملك . . بل كان يعرف طريقه إلى جلسة الملك ذاتها ،

فهو يذهب إلى هناك ويجلس .. وما هى إلا لحظات حتى ينتهى الملك من أوامره التى كان يصدرها متلاحقة قاطعة ، فقد كان الجيش فى سبيله إلى الرحلة اذا ما أقبل الصباح ..

ويقف الشاعر فيلقى قصيدة رائعة ثم هو يسأل الملك أن يسمح له بالذهاب مع الجيش فيقول له الملك :

ـ ولكنك الشاعر الفرد ، لو فقدناك وجدنا لك عوضا ..

ـ أبقاك الله يامولاى ، أيمنعنى هذا حقى ؟ !

ـ وأنا أخشى عليك ..

ـ أتخشى على الموت يا مولاى ولا تخشى قولهم ، قد جبن حين نفر الناس إلى الجهاد ، وخاف حين هم القوم إلى النضال ..

ـ إنك يا أخى لتقول الشعر فتهب النفس الخائرة قوة ، وتلهم الروح الناكصة إقداما ..

ـ شكر الله لك يا مولاى ، فأين يكون مكانى إذن إن لم يكن بين قوم يناضلون ، قد يتعرض لهم الموت فيصيب من عزيمتهم .. ألا أكون أنا أجدر الناس بالذهاب إلى الحرب فأرد خوفهم شجاعة ، وتراجعهم إقداما ..

ـ لكم أتمنى أن تبقى ، ولكننى لا أملك أن أبقيك فإليها أيها الشاعر .. إلى حيث تريد لنفسك ، وإلى حيث تريد لك نفسك من شوق .. أما اليوم فاننا سنريح أنفسنا ، من عناء ما كنا فيه ، ونهيىء أرواحنا لما ستقدم عليه بليلة بيضاء ، ينيرها الأمل فى المستقبل والإيمان بالله ، وما لا يغضبه سبحانه .

كان هذا النقاش يدور وقد جلست الجاريات ينتظرن انتهاءه حتى يقمن بالغناء وكان من الجاريات بثينة ، وكان شاعرنا يحب هذه الجارية حبا بعيدا عن الأمل ، فهو يعلم أن فقره يقصيه عن بثينة ، وهو يعلم أن لها فى القصر مكانا ، وأن لها فى قلب الأمير مكانا ..

ولكن هذه الهوة البعيدة لم تمنع أحلامه أن تجمع بين أسوار عقله ، وان للأحلام جموحا إلى المحال ، ولا بأس عليها ، فما هى الا سرحه ثم تصبح تلك الأحلام هباء لم يعرف بجموحها الا صاحبها ، وإنه لكاتم سرها لم يسمح لها يوما أن تذيع .. وهكذا كانت تثور أحلام شاعرنا شهاب به فتفكر فى تلك السعادة التى قد تتهيأ له لو أن حبا مثل حبه وقع فى قلب بثينة ..

كانت بثينة إذن بين الجاريات ، وسمعت ذلك النقاش بين الأمير والشاعر فاشتد إعجابها بالشاعر ، فهى تعرفه شاعرا ينشىء القصائد الرائعات .. وهى تعرفه ينسج المعانى الخالدات ولكن لم تعرفه رجلا يبتكر الكريمات من الأخلاق ويبتدع العظام من التضحية ..

وكانت ليلة ثم كانت الحرب فذهب إليها شهاب وأحلامه ما تزال تجمح به فيرد جماحها وبقيت بثينة وإعجابها بالشاعر قد يصبح بجانبه إعجاب برجولته .

ويند فى الجيش إلى الحرب ، ويحمى الوطيس ، وتهم الهزيمة أن تحيق بجيش شهاب فما يمنعها عنهم إلا الليل ، الذى يرغم الأعداء أن يرتدوا إلى خيامهم قبل أن يتم النصر لهم ، وإن كانوا قد وثقوا منه يكادون يحسون به بين أيديهم .

ويعود جيش الملك إلى جراحه يداويها ، وقد انكسرت العزيمة وخارت النفوس ، وأصبحوا ولا أمنية لهم إلا أن يرجعوا إلى ديارهم بتلك الفلول التى أبقى عليها الليل ، ويرى الشاعر ما ألم بجيشه فيعرف أنه قد آن للسانه أن ينطلق ليرد النفوس الخائرات إلى شجاعتها ، ويعيد الأفئدة الهالعة قوة واندفاعا ، ويذكر بقية الجيش الهزيم أن الجنة تنتظر القادمين .. وينطلق شهاب يخطب ولم يكن حوله حين بدأ الا شرذمة ضئيلة استطاعت أن تخلص من أحزانها وخوفها لتقف قليلا إلى ذلك الفتى الذى استطاع أن يملك زمام نفسه ، فهو يدير الحديث فى براعة وهو يبتكر المعانى النافذة آخذة سبيلها فى قوة إلى قلوبهم ، ولم تلبث هذه الشرذمة إن اتسعت حتى أصبحت تضم الجيش كله ، وإذا الجيش لا يطيق أن يبيت ليلته على الهزيمة فهو يندفع فى قوة عبقرية إلى الأعداء وكأنما هو جيش جديد غير ذلك الذى كان منذ صدر الصباح إلى غسق الليل ، فهو إذن لم ينهزم ، وهو اذن لا يعرف الا أن الأعداء على مرمى القوس منه ، وإنه ليس بينه وبين الجنة إلا أن يهزم هؤلاء الأعداء أو يموت .

ويندفع الجيش وصيحات شهاب ما زالت تدوى فى جميع قلبه ، وكانت جيوش الأعداء تحتفل بالنصر الذى أصبحوا منه أقرب من هذه الأرض التى يجلسون إليها . وكان احتفالهم بالنصر خمرا معتقة تدير الرءوس التقت بها نشوة معربدة فى نفوسهم من فرحة النصر ..

وهكذا التقى جيش المسلمين يدفعه الحرص على الجنة ، وجيوش الأعداء يقعد بهم الحرص على الأرض ، التقمت السماء والأرض ، والحق مدعما قويا ، بالقوة سكرانة لا هية ، التقى الجمعان فكان نصر المسلمين حلما كاملا وما أن انبلج الصبح حتى كانت جيوش الأعداء تولى الفرار وكانت جيوش المسلمين تتأهب للعودة إلى بلادها ، النصر فيها ، والفرح يحيط بها من كل جانب .

وجلس الملك إلى قواده وعرف منهم ما كان من أمر شهاب وخطبته فهو يرسل فى طلبه فما يلبث أن يجىء فيقول له الملك :

ـ هيه يا شهاب لقد كان والله لسانك أقوى من الجيش .

ـ بل كان إيمانى يا مولاى أقوى من العالم.

ـ أريد يا شهاب أن أكافئك .

ـ انما لا يكافأ المرء لمثل هذا يا مولاى ، لقد كانت مكافأتى فى العمل الذى أقوم به ، فقد كنت أحس وأنا أخطب قومى وأرى استجابتهم أننى أسعد الناس جميعا ، ولن تستطيع يا مولاى أن تهب لى مثل هذه السعادة . . أجل يا مولاى كان عملى نفسه هو المكافأة التى أتمنى أن أنالها . .

ـ هو ما قلت يا شهاب وإنما أريد أن أعبر لك عن إكبارى ، ولن يكون هذا التعبير إلا هدية .

ـ وإن رجوتك أن تعفينى من قبولى الهدية . .

ـ أمرتك أن تقبلها . .

ـ ومالى إلى رد أمرك من سبيل يا مولاى . .

ـ قد جعلت لك قطعة من الأرض ، تلك التى تجاور بيتك ، وجعلت لك بثينة جاريتنا ، هى لك هدية .

ـ من يا مولاى ؟ !

ـ بثينة . .

ـ تقصد ذلك القوام الأهيف ، هاتين العينين الصافيتين ، هذا الفم الملائكى ، هذا الشعر الأليل ، هذه . .

ـ أجل إنها هى ومنذ الليلة هى ملكك . .

ويخرج الشاعر من ديوان الملك ، وقد ملك الغنى فما فرح به وملك بثينة ، فهو لا يدرى كيف يشكر الله على ما أنعم ، ثم هو ما يلبث أن يحسب كل ما كان من أمر الملك وأمره حلما من تلك الأحلام الجامحة التى تثور به فهو ينظر إلى الأوراق بيده فيرى فيها أن بثينة قد أصبحت على خالص ملكه . . يراه حقيقة فى يده لا تحتمل تكذيبا فيضع الورقة فى جيبه ولكن هيهات لها أن تستقر فهى خارجة بعد برهة إلى يده وعينيه ، وهكذا تظل الورقة بين طى المصدق ونشر المكذب حتى يصل شهاب إلى منزله فيهيىء أجمل ما يهيأ منزل ، هذا الحلم الجامح الذى أصبح حقيقة يراه بعينيه ويلمسها بيده بل يكاد يلمسها بفؤاده ، ويبحث عن حديث ويطول البحث والجارية صامتة تنتظر ما تنفرج عنه هاتان الشفتان اللتان أصبحتا تتحكمان فى كل خطوة كتب عليها أن تمشيها ، وأخيرا تنفرج الشفتان . . شفتا شهاب فهو يقول :

ـ أتراك تهدرين فقرى وتنظرين إلى غدى .. أعلم أن الفارق بين ما كنت فيه وبين ما أنت فيه كبير .. هل تهدرين ؟

ـ يا لخيبة الأمل !! حتى الشعراء ينظرون إلى الأرض .. ليس الفرق فى المكان يا سيدى ..

ـ يعلم الله أن مكانا أنت فيه هو الجنة ، ولكننى أردت أن انظر من عينيك ..

ـ أو هكذا تبصر عيناى ؟ !

ـ هكذا تبصر عيون النساء .

ـ بل قل هكذا تبصر عيون الإماء ..

ـ أنا لم أقل ..

ـ تريد أن تقول ..

ـ أحسابا على خافية الصدور ؟ !

ـ وهل الشاعر إلا صدره وما يخفى ؟ !

ـ أو شاعرة أنت ؟ !

ـ بغير شعر ..

ـ وكيف ؟

ـ ليخيل إلى أنك لست الشاعر ، هل الشعر عندك هو تلك الألفاظ المرصوفة على وزن ، منتهية بحرف متحد ، ما أشبه الشعر اذن بطريق مرصوف تحده الحدود المستوية ..

ـ بل الشاعر هو تلك الروح العالية ، ترفع عن الناس عبء التعبير عن آلامهم وأفراحهم فتطلقها لهم فى النغمة المتسقة واللفظ الكريم .. الشاعر روح ..

ـ فأين هى فيك ؟ !

ـ أفقدتها ؟

ـ فإننى والله لأجدها فى شعرك فالتذها ، وأفتقدها من شخصك فأفقدها ..

ـ أفقدت الروح ! !

ـ بل فقدها كلامك ..

ـ كأنك لا تعرفين المحب إن لاقى الحبيب !

ـ فأين المحب وأين الحبيب !

ـ فإننى أحبك ..

ـ أو رأيتنى ؟

ـ مرات ..

ـ بين الجوارى ؟

ـ وما فى ذلك ؟

ـ فأنت تحب منى تناسق الوجه وانسجام القوام .

ـ وما فى ذلك أيضا ؟ !

ـ أو هكذا يحب الشاعر ! !

ـ فكيف يحب الشاعر ؟

ـ يحب الروح السامية لا الجسم الممشوق ، يحب التفكير الرفيع فيمن يحب ..

ـ أو تفقدين الروح السامية ، والتفكير الرفيع !

ـ لئن كنت افقدهما فانا لا أعترف ..

ـ فإنني أراهما ..

ـ كيف وانت لا تكلمنى إلا اليوم ..

ـ أو يحتاج الحب الى أيام ؟

ـ بل إلى سنين ..

ـ اى حب ذاك ؟

ـ الحب الأصيل !

ـ أو عرفته ..

ـ عرفته ..

ـ لغيرى ؟

ـ لغيرك ..

ـ وتريدين أن أتركك له ..

ـ لم أقل ..

ـ ألا تطلبين كثيرا ..

ـ إذا كنت انسانا ككل الناس فالطلب فادح ، ولكنك الشاعر ..

ـ ولكنى أحبك ..

ـ خيال .. لو لم يعجبنى الملك لك ما أحببتنى ..

ـ أنت الوهم الذى أجسمه كلما تخيلت الحبيب ..

ـ فأنت مخطىء .. ما هكذا يكون الحب .. ما هكذا يحب الشاعر !

ـ أليس الشاعر انسانا !!

ـ بل هو الانسانية فى أرقى مدارجها .. وما هكذا يحب .. ان كان حبك لى أبن نظرة فما أشبهك بالحيوان يختار زوجة عندما ينظر اليها ، ولكن الانسان يختار حبيبه باتفاق الروح وانسجام الود ، واتحاد المثل الرفيع ..

ـ وحبى لك ..

ـ وهم ..

ـ أحبك . . ولكن من ذلك السابق ؟
ـ فتى ككل الفتيان ، ولكننى أحبه ، عاهدته وعاهدنى فما حنث وما حنثت . .
ـ أتحبينه وأنت لا تملكين نفسك . .
ـ لقد كنت عند مالكى سلعة يشتريها ويهدى بها أو يبيعها وله على حق الطاعة ، ولكن قلبى لم يخطفه الخاطف بعد وما اشتراه منى أو من خاطفى أحد . .
ـ ولكن الفتى خطفه منك . .
ـ بل أهديته اليه حبا بحب . .
ـ فان تبين لك أنه كاذب . .
ـ أعرض عنه . . وأحبه . .
ـ والجرح . .
ـ أضم نفسى عليه ، وأمنعه أن يلتئم فهو بقية حب كريم . .
ـ أتأذنين لى فى الخروج . .
ـ إلى أين ؟
ـ إلى حبيبك . .
ـ أو تعرفه ؟
ـ نعم . .
ـ (ضاحكة) فما اسمه ؟
ـ المحب المخلص . .
ـ وما أدراك أنه مخلص !!
ـ ليس فى العالم انسان يحبه كل هذا الجهال بكل هذا الاخلاص ولا يخلص . . ولا يوجد غير مخلص واحد هو من تحبين . .
ـ فأنت تبارك هذا الحب !!
ـ انما الانسانية هى التى تباركه . .
ـ فأنت تعتقنى ؟!
ـ وهذه أوراقك . .
ـ فأنا حرة ؟!
ـ ليس لمثلك الرق . .
ـ فضل لا أنساه . .
ـ أنت صاحبته ، لقد عرفت منك ـ وأنا الشاعر ـ الحب كيف يكون ؟!

ولا تنتهى الليلة حتى يكون فتى بثينة قد جاء الى بيت شهاب ويتم زواجه بها ويخرجان . . نعم لم يكن الأمر غير حلم جامح من تلك الأحلام الجامحة التى تعربد فى ذهن شهاب وان يكن

فى هذه المرة قد خرج الى عالم محسوس حقق به سعادة اثنين ثم عاد حلما ، كما كان يربط اليه ذكريات فيها السعادة .. سعادة النفس الكريمة تقدم الخير ، وفيها الشقاء .. شقاء الروح الشاعرة تحرم ممن تحب .. ولكنه على الحالين حلم فرحان باسعادة والشقاء جميعا .. اطمأن الى صاحبه فضمه بين أحناء كريمة تزف الى السماء فما تعرف الأرض ..

●

الرحمة القاسية

دخل الساعى الى لطفى أفندى يحمل اليه ظرفا من النوع الرخيص الذى يلاقيك به أطفال الطريق . وقد كتب عليه الاسم « لطفى عبد الكريم » فى حروف واضحة وان كانت شوهاء .

وتناول لطفى الخطاب دون أن يلقى اليه اهتماما ، وألقاه الى جواره ريثما ينتهى من الأعمال التى لا بد له أن يقوم بها واستقر الخطاب فى موضعه ينتظر لطفى أن يفرغ . .

وفرغ لطفى من أعماله ، وكاد ينسى الخطاب ،لولا أن مرت بأذنه كلمة « البوسطة » ألقاها أحد زملائه الى آخر فتذكر تلك المهمة التى أدتها له البوسطة فى صباحه هذا وتذكر ذلك الخطاب الملقى الى جانبه فأخذ يبحث عنه حتى وجده وراح يفتحه فى كسل وهو لا يفكر فيما قد يحمله اليه الخطاب ، ولا يحاول حتى أن يخمن فى من يكون مرسله !!

وانفتح الخطاب أخيرا وبدأ لطفى يقرأ ، ثم ما لبث ريقه أن جف وراح قلبه يخفق فى وجيب متدافع صاخب وتولت يديه رعشة ثائرة ، وعلا وجهه شحوب قانط أصفر ، وانبعثت على جبهته قطرات من الماء فما يدرى أألقتها على جبهته يد صديق ، أم ثورة الدماء فى عروقه ؟ . . أصبح لطفى فى ومضة عين انسانا منفصلا عن العالم الذى يحيا فيه فهو لا يحس من حوله شيئا وانما هو بجميعه يحيا فى هذا الخطاب الرخيص الذى لقيه هذا اللقاء الفاتر . .

لقد كان هذا الخطاب الحقير يحمل أمرا كبيرا . .

وضع لطفى الخطاب أمامه وطلب الى الساعى أن يحضر له كوب ماء ، وانتظر حتى شربه وأغمض عينيه قليلا ثم عاد الى الخطاب ثانية يقرأ . . لا . لم يفد كوب الماء ، ولم تجد هذه الاغماضة التى أصابها . فالخطاب مازال يحمل نفس الكلمات ، أو مازالت هذه الكلمات تؤدى نفس المعانى ، وانها لمصيبة ! . زوجته خائنة ! . سميرة التى بذل لها أجمل أيام الحياة والتى

ضمتها وإياه أحلى الأوقات . . عرفها وهو لم ينته بعد من دراسته فكانت له فى هذه الأيام اشاراته تضىء له الطريق الى المستقبل ، وعرفته هى حين كانت آمالها فى المستقبل حائرة مضطربة فوجدت فيه مرتعا لآمالها وتجسيما لأحلامها . . والتقت الآمال منهما والقبول من أسرتيهما . . فكان الزوج . .

ومشت بهما الأيام ، لا يفكر يوما أنه أساء اليها ، ولا يذكر أنه مس كرامتها فى شىء . نعم انه يسمع عن هؤلاء الأزواج الذين يقبلون زوجاتهم كلما أصبحوا أو أمسوا . ويسمع عن هؤلاء الأزواج الذين لا يخرجون من بيوتهم الا اذا وقعوا بشفاههم على وجوه زوجاتهم ولا يرجعون الى بيوتهم الا وقعوا مرة أخرى . ولكنه لم يأت مثل هذه السخافات وكيف يقبل أن يجعل من وجه زوجته دفتر حضور وغياب ! مثل ذلك الذى تلزمه وظيفته أن يوقع عليه داخلا وخارجا . وهو يسمع عن الأزواج الذين يدللون زوجاتهم فيمتدحون ثيابهن مهما تكن ثيابهن تلك ، ويمتدحون عقصة شعورهن على أية ناحية عقصن ذلك الشعر ،ولكنه هو لم يفعل مثل ذلك مع زوجته . .

لا . . انه لم يكن يدلل زوجته ولم يكن يقبلها مصبحا وممسيا ولم يكن يمتدح ثيابها وعقصة شعرها ، لقد كان يحترمها . . وهو يعتقد أنها ترضى منه بذلك الاحترام فهو يعرف عنها الذكاء الذى لا يقبل الملق ، والحصافة التى تأبى السخافات . نعم انه يلحظ أنها كثيرا ما كانت تغير الطريقة التى تصفف بها شعرها فكانت تجعله كذيل الحصان حينا أو كانت تلمه فى دائرة مكتملة وراء رأسها ولكنه لم يكن يلقى الى هذه التصفيفات بالا ، ولم يهتم اذ ذاك أن يمتدحها لها ، أو يذكر عنها شيئا بخير أو شر فقد كان يحب سميرة . . سميرة التى عرفها يافعا يدرج الى الشباب وشابا يصعد الى المستقبل . وسميره عنده أكبر من عقصة الشعر ومن تغيير الثوب ومن كل مظهر تتخذه انه يحب كيانها الذى أحبه يوما وما زال . .

أحب سميرة التى فضلته على جميع من سعوا اليها خطابا والتى اختارته بقلبها وعقلها من بين الكثيرين الذين تقدموا لخطبتها حين كان هو يكمل دروسه بالجامعة ! سميرة التى رفضت هؤلاء لتنتظره . حتى لقد رفضت ابن عمها نفسه وهو الشاب الواسع الثراء ، الجميل . . الأنيق . . نعم لقد رفضت محيى الأدهم بكل ثرائه وجماله وأناقته لتختاره وهو . . محيى الأدهم . . ألا يكون محيى هو من ارسل ذلك الخطاب ، وما له لا يكون . وما الذى يمنعه ؟ انه شاب حقير وان يكن ثريا ، ألم يجمع ثراءه من التجارب القذرة التى تستخفى من القانون والتى يعظم فيها الربح لعظم المخاطرة التى تحيط بها . .

نعم انه محيى الذى أرسل الخطاب . ومن يكتب هذا الكلام الحقير الا حاقد حقير جاهل ، ويعود لطفى الى الخطاب مرة ثانية : « زوجتك تخونك . . رجل يأتى الى منزلك كل يوم . . بعد خروجك . اسأل زوجتك عن هذا الرجل . . مخلص » . ومن يكون المخلص ان لم يكن محيى ، انه مخلص للشر الذى يغتلى بنفسه والحقد الذى يشتعل بقلبه منذ رفضته ابنة عمه حين تقدم لها وهو يعتقد أن ثراءه لا يجعل لفتاة فرصة لتتردد فى قبول الزواج به . انه

من أرسل الخطاب وانه لكاذب . وحينئذ أحس لطفى بعض الراحة تعاوده . .
ا يعود رويدا رويدا الى تلك الحياة التى انفصل عنها منذ قرأ الخطاب . ثم أخذ يلوم
ذلك الشك الذى ساوره فى زوجته الحبيبة المخلصة وأحس أنه بلومه هذا لنفسه يعيد
لمأنينة التى طارت منه ويقر فى نفسه الهدوء الذى زايلها . . ثم جاوز تأنيب نفسه الى
نها . . كيف يمكن أن يشك فى سميرة الا ما أضعف ثقته ؟ أيكفى خطاب أحمق
، ذلك النوع الذى يلاقيك به أطفال الطريق حتى تتزعزع ثقته فى زوجته الوديعة ،
ى رجل ذلك الذى تقبل سميرة أن تخون زوجها معه ، انه لا يرى فيمن حوله رجلا
ماية من سميرة . أتراه مثلا ذلك الرجل الذى اتخذ المسكن المقابل لمسكنه ؟ ! ذلك
الزوجة الدميمة الغنية ، ولكن أى شىء فيه يعجب سميره ! لأنه يمتدح ثوبها
معرها وحسن اختيارها لحذائها وانسجام الحذاء والحقيبة ؟ ألأنه يلقي هذه الكلمات
الرضى من سميرة فتخون زوجها الذى تحققت فيه آمالها واستقر مستقبلها . لا . .
يكون الرجل هو ذلك الساكن ذو الزوجة الدميمة انه ليس الرجل وليس أىّ رجل
سميرة لعفيفة . .

بلغ لطفى بتفكيره الى هذا القرار حتى دعاه التليفون . من ؟ حمدى أفندى أبو
. . مات ؟ كيف ؟ كيف مات ؟ وهل يحتاج الموت الى انذار ؟ . مات . . فمن
ه . . لا أحد . . لم يبق لها فى هذه الدنيا العريضة غير زوجها كيف يبلغها الخبر ؟
حب أباها الى أقصى غايات الحب ، كانت ترى فيه حياتها جميعها ، فقد حرمت أمها
ما تزال ، فكان الأب منها أبا وأما . ولكم ألحت عليه أن يقيم معها حين تزوجت
و عليه ولكنه أبى ذلك وصمم على أن يعيش وحده لا يعينه الا معاشه الصغير ،
ميرة ، كيف يبلغها الخبر ؟ !

الى منزله وفتح الباب ودخل . . ما هذا المعطف ؟ انه يعرف هذا المعطف ، انه
ر الجديد . اذن فقد كان الخطاب صادقا . اذن فسميرة خائنة . يقصد لطفى الى
ويهم أن يدخل ولكن ما تلبث يده أن تتجمد مكانها . ماذا ينتظر أن يرى ؟ وماذا
ن رأى مايتوقعه . ومرت بذهنه أمثال تلك المشاهد التى قرأ عنها فى الروايات والتى
السينما والتى تصور الزوج المخدوع . اذن فهو الزوج المخدوع ! لماذا ؟ لماذا تخدعه
اب لطفى الى موقفه على باب المخدع وقد تجمدت يده فى منتصف طريقها الى
ب . ثم مالبث أن ترك مكانه وخرج هاربا من البيت الى حيث لا يدرى وانما هى
وقه الى مجهول من أمره وطريق يسير به ولا يعنى منه شيئا . لقد عاش طول عمره
الصغار . عفيفا عن مزالق الشباب ، تأبى عليه كرامته أن يستخفى كما يستخفى
، وما كان يمنعه عن ذلك الا كبره واعتداده بكرامته ، ثم ها هو ذا وقد أصبح على
حميرة بلا كرامة على الاطلاق . . ماذا يفعل ؟ أيطلقها ؟ فيعرف الناس جميعا بزوال

كرامته ؟ أيقيم معها فى منزل واحد فيظل أمام نفسه بلا كرامة ؟ أى الأمرين أكثر أهمية ؟ أن يكون أمام الناس بلا كرامة أم أن يكون أمام نفسه بلا كرامة ؟ وما الكرامة ؟ أليست هى أقوال الناس ورأيهم ؟ اذن فليبق حينا ثم يصطنع غضبة ويطلقها ولكنها لا يطيق أن يرى تلك الزوجة الخادعة فكيف يحيا معها يضمها بيت ، بل وحجرة وفراش ؟ أما الفراش فلا . فسينفصل عنها ، والحجرة أيضا ، انه سينام منذ اليوم فى الحجرة التى كانت مخصصة لأبيها حين كان ينام بها فى زيارة . وعلى ذكر أبيها ، انها لم تعرف بعد ما أصابها فى أبيها وكيف كان يمكن أن ينبئها ؟ ! وعلى ذكر أبيها أين تذهب سميرة ان هو طلقها اليوم ؟ الى الشارع فتعيش فى البؤرة التى صنعتها هى لنفسها ؟ لكن لماذا خانت ؟ أيرضى أن يترك امرأة وحيدة بلا أب وبلا عائل فى الطريق وحدها بلا معين ؟ نعم يرضى ولكن أليست هذه أنانية منه . اذن يظل معها طول عمره ؟ ! طول عمره مع خائنة ، خائنة دون أن يعرف سببا لهذه الخيانة ومع من . مع رجل لايحسن من أمور الدنيا شيئا الا أن يمتدح عقصة الشعر وقماش الفستان ولون الحذاء ، وطراز الحقيبة اذن فماذا يفعل ؟ أيلقى بعمره جميعه لامرأة تافهة تصدق التعلق الكاذب مع عابر سبيل ؟ نعم سيفعل . لقد طالما تغنى بالمثل العليا فليكن هو مثلا أعلى فى . . فى ماذا ؟ نعم ان الناس سينظرون اليه فى مثله الأعلى على أنه مغفل خانع غبى ولكنه هو سينظر الى نفسه على أنه رجل ضحى بكرامته ليستر زوجته ويحميها من طريق موحش تسير فيه وحدها تفترسها ذئاب الطريق وضواريه فتقع يوما فى يد ذلك الجار وربما فى يد ابن عمها محيى الذى أرسل اليه هذا الخطاب . . ويل له من ذلك الخطاب ! لم يكن الخطاب هو السبب فى ذهابه الى المنزل وانما موت حميه . نعم لقد مات حموه فلم يبق لزوجته الا هو وسيظل لها وسيضرب عليها نطاقا من الرقابة فلا تتنفس الا وهو على علم بأنفاسها . .

اتخذ لطفى قراره هذا وهو يحس بهول هذا القرار فعاد أدراجه الى بيته يحاول أن يخفى النار الهائجة فى صدره ولكنها تتوقد وتشتعل فعيناه حمراوان ، ووجهه مضرج باللهب وأنفاسه شعل . ويلتقى بزوجته فيكاد يصرخ فى وجهها بما كشفه من خيانتها ولكنه يجد خبر موت أبيها قد غلب عليه فيقذف به فى وجهها قذفا وتنهار سميرة فلا يدركها وانما يصدر أوامره صارمة قاسية ، وكأنما يشفى بما يعتريها من ذهول حزين جازع وتذهل سميرة من موقف زوجها ذهولها من موت أبيها ولكنه لا يحفل بذهولها هذا وانما يدخل الى غرفة النوم فيأخذ حاجياته منها ويخرج بها الى الغرفة الثانية فيزداد ذهول سميرة ولا تجد الوقت مناسبا لتسأله عن تصرفه الغريب هذا !! ولكنها فى غمرة حزنها لا يفوتها أن تدرك أن شيئا خطيرا طرأ على زوجها . .

ويمضى ذلك اليوم وتتبعه أيام وتجد سميرة نفسها فى موجة عاتية من أوامر زوجها الحازمة الصارمة التى لا تحتمل تعليلا فى ظاهرها وان كانت فى باطنها تحمل الشك الذى يكاد يصل الى المصارحة . ففى اليوم التالى لانتهاء المأتم أخبرها انه استأجر شقة فى حى آخر ألقى اليها النبأ دون أن يبدى سببا ودون أن يجعل لها مجالا للسؤال عن السبب . وأحست يومذاك أنه قد يكون

متشككا فى أمرها . وانتقلت الى البيت الجديد . . كان يخرج الى عمله ثم يفاجئها فى ساعات مختلفة من اليوم ليرى ماذا تصنع ؟ فأحست أن الأمر عنده بلغ مرتبة أعلى من الشك . وأصدر اليها الأوامر ألا تجيب طارقا على باب ، فأحست انه يكاد يكون على يقين من أمرها ، وكانت عندهما خادمة واحدة فاذا هى تجد البيت مليئاً بالخادمات فأصبحن ثلاث فى خدمتها وهى تعلم أنه بخيل لا يحب أن يبذل هذا المال الكثير فعرفت انه على يقين من أمرها . وانتظرت أن يفاتحها ولكن الشهور مرت وهو صامت لا يتكلم ويقيم فى حجرة غير حجرتها . بل بالبيت ساعات مختلفة من النهار فلم يعد له موعد معين أبدا ! هو يعلم اذن أنها خائنة ، فلماذا يبقى عليها ، ان كبره وغطرسته يأبيان عليه أن يعلن الى الناس أن زوجته تخونه ولكن . . لا . . انها تعرفه . . لقد كان خليقا أن يطلقها فور علمه بخيانتها ولكنه لم يفعل ، فلماذا ؟ لعله يشفق عليها . . نعم ان هذا أقرب الى تفكيره وهو أقرب لما تذكره من تغيره هذا المفاجىء والذى بدأ يوم مات أبوها . . نعم انها تذكرت ذلك اليوم . . تتذكره جميعه . .

انه يوهم نفسه الآن انه يضحى بنفسه ليضمن لها العيش ، ولكن أى عيش هذا الذى تحياه فى بيت هو السجن ، زوجها فيه رقيب وليس زوجا ، يرقب أنفاسها التى تتردد فى صدرها . . يفتح باب غرفتها فى المساء ثم يقفله ليرى ان كانت وحدها أم لا ، يترك عمله مرات فى خلال الاسبوع ليفاجئها من حيث لا تنتظر . يحيطها بالعيون الرواصد من الجواسيس ويطلق عليهم اسم الخادمات . لا . لا يمكن أن تظل على هذه الحياة . ولكن الى أين ؟

واضطرب لطفى فى عمله ، وأصبحت الحياة حوله شكا ، فحيثما أدار عينيه وجد القلق والحيرة والهلع . يخيل اليه أن جميع من يلقاهم يعرفون أنه زوج مخدوع . يفر من الطريق . يخشى أن يلقى فيه جاره القديم ، أو ابن عم زوجته محيى ، ويخشى أن يلقى أى جار لمنزله الأول الذى تمت فيه الخيانة لا يستطيع أن يخلو بذهنه ليفكر فى شىء غير الخيانة ، لا يستطيع أن يخلو باحساسه الى شىء غير الشك . يعزم على السفر ويقطع التذكرة ويركب القطار ولكن قبل أن يتحرك القطار يكون هو قد قفز منه وسارع الى بيته ، يذهب الى السينما ويهم بالدخول فيقطع التذكرة ولكنه يسارع بها الى البيت . .

وسميرة لا تخرج من البيت أبدا ! بل باقية لاتبرحه ولكن ماذا تفعل فى ذلك البيت ؟ ! انها تنظفه مرات ومرات ولكنه لا يستغرق مهما تنظفه الا بعض الوقت ثم تفرغ الى هذا الشقاء الذى يحيط بها فى عودة زوجها المفاجئة . وفى تلك العيون المبثوثة حواليها من خادماتها . . وذات يوم تتذكر سميرة انها لم ترتب أوراق زوجها من زمن بعيد فتدخل الى حجرته وتفتح أحد الأدراج فيروعها هذا العدد الهائل من تذاكر القطارات وتذاكر السينما وكلها جديدة لم تستعمل ، وكأنما تمثلت هذه التذاكر أمام عينيها شقاء زوجها بها ولها . وكأنما رأت فى هذه التذاكر السليمة جريمتها وعفو زوجها والعقاب الذى يقع عليها من جراء هذا العفو فى لحظة .

فلا تكمل بحث الأوراق الأخرى وانما هى تمسك قلما وتأتى بورقة وتكتب الى زوجها خطابا .

ويدخل الساعى الى لطفى بالخطاب يخبره أن خادمته قد جاءت به . ويفتح لطفى الخطاب فى لهفة ويقرأ . .

« أعلم انك تبقى على لانى لا ملجأ لى اذا تركتك ، وأعلم انك تقوم بتضحيتك هذه لترضى بها مثلا أعلى أقمته لنفسك ولكنك نسيت شيئا مهما فى تضحيتك هذه . . أنا هو ذلك الشىء لقد قسوت أنت على نفسك ـ ما فى ذلك شك ـ ولكن قسوتك على أشد وأعظم . أنت قاس على برحمتك ، قاس على بعطفك ، قاس على بسترك على ما تعلمه عنى ، ان تكن أنت قد قبلت لنفسك هذه التضحية فأنا لا أقبلها . وان تكن ظننت الرحمة فى نفسك حين تأوينى فى بيتك ، فانى أرى الرحمة بى فى أن أترك هذا البيت ، ان تكن الرحمة عندك أن تضمنا جدران بيت على كره ، فاننى أرى الرحمة بى تتمثل فى الفراق بيننا . فانى أعلم منذ زمن بعيد أن لا حياة بين زوجين أحدهما خائن ولا حياة بين زوجين تقوم على العطف دون الحب . اعطف على اليتيم والمقطوع وابن السبيل أما زوجتك فأحببها أو طلقها . .

« لن تجدنى فى البيت حين تعود وأرجوك أن تعود بعد أن تنتهى من عملك فلم يعد هناك ما يدعوك الى قطع عملك للعودة المفاجئة فأنا لست بالمنزل . وأرجوك قبل أن تعود أن تمر بالمأذون وتطلقنى . أما أنا فسأعمل خادمة ، فان لم أجد عملا سأتسول على أبواب الأضرحة ، وثق أننى بهذا أكون قد أنقذت نفسى من رحمتك القاسية » .

وقرأ لطفى الخطاب وأعاد قراءته واغرورقت عيناه بالدموع . لقد حاول أن يضحى بشىء لا يمكن التضحية به ـ كرامته ـ لم يستطع أن يجعل من نفسه مثلا أعلى ولكنه سعيد بفشله هذا ، سعيد بأنه غير ملزم الآن أن يترك عمله أو يقفز من القطار قبل أن يتحرك ، أو يدخل البيت بتذكرة السينما كاملة بنصفيها . . انه منذ اليوم سيمشى فى الشوارع مرحا لايبالى أى انسان سيلقاه فى الطريق ، لقد تخلص من العار الذى حاول أن يقيم حوله تضحية ومثلا أعلى . .

وتخلص من تضحيته التى كلفته قطعة من حياته ، وكانت الأيام فيها باهته حائلة اللون فمنذ اليوم ، أهلا بالحياة ووداعا أيتها التضحية . .

●

عودة السيد سكر

نعم فان اسمه السيد سكر ، والسيد اسم ، أطلقه عليه أبوه قبل أن تلغى الألقاب لتحل كلمة السيد محلها ، وأما السكر فهو اسم صنعته له القرية ، ولم يكن ذلك عن بله من أهلها ولاغفلة ، وانما كان ذلك فى الحرب الأخيرة ، حين أصبح السكر من المواد التى تشرف الحكومة على التصرف فيها ، فلا يعطى الا باذن . . وتصدى السيد للتجارة ولم يكن له بها شأن ، وانما رأى تجارة التموين رابحة ، ففتح دكانا خاصا لتجارة السكر ، واستصدر رخصة للتجارة ، وهيمن على كل شىء حلو فى البلدة ، فأصبح لا يستطيع أى انسان فى القرية أن يشرب قهوة أو شايا بسكر الا اذا أذن له السيد ، وأصبح لا يستطيع أى انسان فى البلدة أن يصنع فطيرة حلوة أو أرزا بلبن الا اذا كان صديقا صدوقا للسيد . .

وفى القرية كثير ممن حاولوا مصادقة السيد ، فأباها عليهم ، فلم يجدوا شيئا ينفسون به عن غضبهم إلا أن يطلقوا عليه « السيد سكر » فصحبه الاسم منذ ذلك الحين ، وهو فرح به ، راض عنه ، يكاد يوقع به مايضطره الأمر الى توقيعه ، وقد نشأ جيل ما بعد الحرب لا يعرف أن للسيد سكر اسما آخر كان له قبل أن يلتصق به السكر ويصبح جزءا منه لا يتجزأ .

لم تقف تجارة السيد سكر عند السكر وحده ، بل تجاوزته الى مختلف أنواع البقالة ، وأصبح كثير الذهاب الى البندر ليشترى حاجيات دكانه ، وكان يذهب فى كثير من الأحيان الى المعلم حسونة وهو من كبار التجار هناك ، وكان يشترى منه ما يحتاجه دكانه الصغير من بضاعة .

توطدت الصداقة بين السيد والمعلم حسونة ، حتى لقد دعاه المعلم الى زيارة بيته هو فى القرية .

ولكنه كان منذ صباه يحب أن يظهر بالغنى والكرم ، وقد اقتضاه هذا الكثير من المال ، ولم تصده قلة المال عن التظاهر بالكرم والغنى .

وهكذا وجد نفسه آخر الأمر وبعد دعوات كثيرة أجابها للمعلم حسونة .. وجد نفسه مضطرا الى أن يقتطع بعضا من رأس ماله يجدد به منزله ويشترى أدوات مائدة ، استعداداً لدعوة المعلم حسونة .

حتى اذا أتم أهبته ، تجرأ وتقدم للمعلم حسونة ، ودعاه أن يشرف بيته فى القرية .. هو والعائلة ..

وشرف المعلم حسونة مصطحبا معه ابنته وابنه ، وكانت الابنة غاية فى الجمال ، ولم يكن السيد قد رآها قبل يوم دعوته هذه ، فما أن رآها حتى بهره جمالها ..

وقضى الضيوف يومهم يمرحون ، ولكن المضيف قضى يومه حائرا ملتهب الخاطر مشتت الفؤاد مصعوقا بجمال الابنة .. سكينة ..

وكثرت زيارات السيد للمعلم حسونة ، وازدادت الصلة وقويت ، والسيد يهم فى كل يوم أن يخطب سكينة من أبيها ، ثم يمسك بلسانه خجل لا يبارحه .

نعم لم يكن السيد يعرف عن سكينة الا أنها جميلة ، ولكنه أيضا لم يكن يعرف أن هناك شروطا أخرى الى جانب الجمال ، لابد من توافرها فى زوجته .. لا .. لم يكن يعرف ولم يهمه أن يعرف عن سكينة الا أنها جميلة ، والاأنها بنت المعلم حسونة .

وأخيرا لم يطق صبرا فتكلم .. ولكنه لم يكلم المعلم حسونة ، وانما قصد الى خاله هو :

– خال .

– خير يا ابنى .

– أريد يا خال أن تخطب لى .

– وماله يا ابنى ما أحب الى أن أفعل .. أتريد أن أختار لك أم أنك اخترت ؟

– والله يا خال أنا اخترت .

– من العروس ؟ .. أظنها فاطمة ابنة عمتك ، فأنت تميل لها منذ كنتما طفلين ..

– والله يا خال الزواج قسمة ونصيب ، وأنا اخترت من البندر .

وقال الخال ملهوفا :

– من البندر ؟ !

– نعم يا خال ..

– يا ابنى ومالنا نحن وماللبندر .. ألم يعجبك أحد من أقاربك أومن البلد كلها حتى تختار من البندر ؟

– والله يا خال القسمة .

– وأى قسمة ؟ .. اننا مازلنا على البر .. ان شئت خطبت لك فاطمة .

ـ لا يا خال .
ـ يا ابنى بنت البندر لا ترضى عن عيشتنا .
ـ لا عليك يا خال فأظن أنها سترضى .. فقد جاءت هنا مع أبيها وأعجبتها البلدة .
ـ أمرك يا ابنى أخطب لك من تشاء .

وهكذا ذهب السيد سكر الى المعلم حسونة وقد اصطحب خاله ليكون لسانه ـ بدلا من لسانه هذا الذى أعيته الحيلة ـ ويخطب له سكينة .

وتكلم الخال وخطب سكينة فى لباقة أدهشت السيد ، وتم الأمر فى يسر ، وما هى الا بضعة شهور حتى شهدت القرية فرحا رائعا للسيد وهو يزف الى عروسة من البندر .

واستقرت الحياة بالسيد ، وأخذت تجارته تتسع بعد أن أصبح حموه يعينه بالمال والبضاعة ، واشترى السيد راديو وأصبح دكانه مجلس الصفوة المختارة من أهل القرية ، وكثر عند السيد الأوز والبط والفراخ ، وهيأت له سكينة عيشا رضيا ، واستطاعت أن تُحبه فيها ، الا أن بقاءها فى القرية لم يكن يرضيها أبدا ! ولكنها لم تشأ أن تفاتح زوجها فى ذلك ، لأنها تعرف مدى تعلقه بالقرية .

وكانت سكينة خليقة أن تظل على صمتها مدة أطول من الزمان ، لو لم تظل أمها تستحثها أن تذهب الى البندر لتكون بجانبها ، حتى لم تجد سكينة بدا من أن تكلم زوجها .

ـ سيد ..
ـ نعم يا سكينة ..
ـ ماذا تنوى أن تفعل ؟
ـ فيم يا سكينة ؟
ـ فى حياتك .
ـ وأى شىء يمكن أن أفعل فيها ؟ ألست مبسوطة ؟
ـ مبسوطة والحمد لله .. ولكن ..
ـ ولكن ماذا يا سكينة ؟
ـ ولكن ألا تفكر انك قد تصبح أبا ، ويحتاج ابنك الى المدرسة .
ـ أحقا ماتقولين يا سكينة .؟
ـ والله لست متأكدة .
ـ على الله ياسكينة .
ـ ليس هذا ما أسألك عنه .
ـ ففيم سؤالك ؟
ـ سؤالى عن مستقبلك ، لقد أصبحت تاجرا كبيرا فى البلدة ..

ـ الحمد لله .
ـ ألا تريد أن تصبح أكبر من ذلك ؟ . .
ـ ومن هذا الذى لا يريد أن يكبر يا سكينة ؟
ـ أنت
ـ أنا ؟ . . ولماذا . . ؟
ـ وماذا تنتظر فى هذه القرية ؟ انك تاجر كبير مارست السوق وعرفت أسراره وخبرت كل خفية فيه . . لعلك تصبح أكبر من أبى نفسه .
ـ أصحيح يا سكينة ؟
ـ طبعا وسأكلم أبى ليبحث لك عن دكان بجواره وتصبح من تجار البندر . .

وكان الدكان موجودا ، فقد أعدته أم سكينة منذ زمن بعيد ، وما هى الا أيام حتى شهدت القرية عربة نقل تحمل بضاعة السيد ، وعربة أخرى تحمل أثاث السيد وحقائبه والأوز والفراخ والبط ، شهدت القرية أيضا السيد يحمل الراديو معه خشية أن تصيبه العربة بالعطب ، كما شهدت القرية أيضا دكان السيد يقفل أبوابه على فراغ فيه ، ثم شهدت القرية هذا الموكب ينزح عنها ورأس السيد يتلفت خلفه فى حنين ، وينظر الى الأمام فى حيرة ، وأحس الناس أن السيد يترك الاستقرار الى حيث الحيرة والدوامة التى لا يعرف لها قرارا . .

ونزل السيد فى بيته الجديد بالبندر بجوار بيت المعلم حسونة وزار دكانه أيضا فرضى عنه ، وبدأ يضع بضائعه .

وواجهت سكينة مشكلة الغذاء ، وخافت أن تطلب من السيد نقودا لتشترى لحما وخضرا وخبزا ، كما يفعل أهل البندر فقد كانت فى القرية تذبح من الفراخ والحمام اذا أرادت أن تأكل لحما ، وكانت حديقة المنزل الصغيرة تمدها بالخضر ، وكان الفرن يمدها بالخبز . .

ولكنها لم تفكر كثيرا ، فسرعان ماسحبت السكين ، وقصدت الى حيث انزوت الفراخ والأوز والبط ولكن هالها أن وجدت الفراخ كلها ميتة ، ووجدت الأوز والبط يترنح ، فأعملت السكين فيها جميعاً . .

وظل السيد أياما عديدة كلما عاد الى المنزل وجد زوجته تقدم له الأوز والبط ، وعجب من حالها هذا ، ولكنه كان فى غمرة من الكساد التى استقبلته به المدينة ، فنسى أن يسأل عن هذا الاسراف . . نسى هو وظلت الزوجة على عادتها ، ولكن التسمم لم ينس أن يسرى فى الأوز ، وكانت ليلة !! فقد سعى التسمم أيضا الى السيد وسكينة ، فما استطاعا أن يبلغا بيت المعلم حسونة الا بشق الأنفس ، وسارع المعلم بهما الى المستشفى ، وبقيا بها أياما يدفعان ثمن الأكل الدسم المحلى بالسم . .

وعاد الزوجان الى البيت بعد شفائهما ، فوجداه قاعا صفصفا .. حتى الراديو لم يبق عليه اللصوص .. كل شيء أخذوه حتى بقايا الأوز والبط .. كل شيء .. لم يبق في البيت شيء ..

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي شاهدت القرية عربة واحدة تحمل بضائع السيد وحدها بلا حقائب ولا أثاث ولا أوز ولا بط ولا فراخ ، وشاهدت القرية السيد يمشي وراء البقية الباقية من بضائعه وزوجته أمامه ، ويده فارغة .. لا تحمل الراديو ..

ويبلغ الزوجان البيت ، وجلست سكينة على الحصيرة ، والتفت الى السيد ..

– سيد ..

– ماذا تريدين ؟ ..

– ستصبح أبا يا سيد ..

– وماله ..

– أين سألد ..

– هنا .. هنا سيولد ابني ، وهنا سيتعلم ابني ، وهنا سيعمل ابني في الغيط أو في الدكان ، أو في أي شيء ، ولكن هنا .. ستكون حياته ، وهنا سيكون مماته .. هنا على هذه الأرض في هذه القرية .

●

● ذكريات بعيـــدة

ذكـريات بعيـدة

« وفى يوم دخلت إلى حجرتها لأجدها تجفف دموعها وتودع الكراسة صندوقها دون أن تهتم بإدخالها إلى الدولاب فقد أصبحت مطمئنة إننى لم أمد إليها يدى » .

كانت تبيح لى كل مكان فى حجرتها ، فكلها ملعبى وكل شىء فيها من لعبى لا يذودنى عن فيها أحد ، بل كانت تنهر كل من يحاول أن يبعدنى عن شىء لها ، فكل عزيز عندها ن لى وكل آنية أو علبة أو منضدة قربان مقدم لنزوات طفولتى وعبث يدى ، وحين تصل ى مقتنياتها تصبح بين يدى القدر لا ينقذها من الكسر أو التلف إلا الحظ وحده ، ولم يكن رفيقاً بأشياء جدتى . فيا طالما حطمت لها من أشياء ويا طالما أتلفت لها من أدوات ، لما انتهرت جدتى أبى أو أمى إذا حاول واحد منهما أن يعاقبنى أو يردعنى عن حجرتها .

قد كنت أجد نفسى أسيرا لأوامر أبوى فى أى غرفة أدخلها فى البيت ، فأنا مقيد حينئذ أن أحطم شيئاً أو ألمس شيئاً أو ألهو بشىء ، ويظل هذا القيد من الخوف لازمنى حتى إلى غرفة جدتى فأنا إذن حر طليق أحطم ما أشاء أن أحطم وألهو ما شاء لى اللهو ، أحس ، هذه الغرفة أقوى من أمى وأبى جميعا ، أقف منهما بحصن يعجزان أن ينفذا دونه إلى . .

ىء واحد لم تبحه لى جدتى ولم أكن أدرى سر حبها له ومنعى عنه ، ولم يكن هذا الشىء بانتباهى ، ولا مما يغرى الطفل أن يلهو به . . إنما و صندوق قديم لا يبدو من قدمه إلا التى تدل دلالة واضحة على الزمن الذى صنع فيه أما هو فقد كان أنيقا دائما ، فنحاسه

الذى يحليه ذو بريق لم يكن يوما خابياً وخشبه أنيق نظيف لم تستطع السنون أن تعدو على نظافته أو أناقته .

وكنت أرى جدتى فى كل يوم تمسك به وتفتحه فينفرج عن كراسة ذات شريط جديد دائما ، يعلو الكراسة الكثير من غبار السنين أحال بياض أوراقها إلى غبشة كتلك التى تغشى نظرة الناظرة إلى التاريخ البعيد . وكانت جدتى تقلب صفحاتها الواحدة بعد الأخرى وتظل رانية إليها بنظرات حسيرة ، ولا تنتهى إلى الصفحة الأخيرة حتى تذرف سكبا من الدموع وحينئذ تعيد الكراسة إلى شريطها ثم تودعها فى إعزاز صندوقها الأثير .

وهكذا أصبح هذا الصندوق طلبتى الوحيدة ، فهو الشيء الوحيد عند جدتى الذى لم أستطع الوصول إليه ، فكنت كلما أقبلت عليه أريد أن أمسك به تفزع جدتى قائلة :

ـ إلا هذا . .

وتسارع إلى الكراسة تقفلها وتحيطها بالشريط فى عجل ثم تعيدها إلى الصندوق دون أن تصل إلى مرحلة البكاء ، وهكذا كنت أعدو أيضا على هذه الدمعات التى كانت ترتاح لها جدتى فأحرمها منها . وقد كان هذا على إيلامه لها أهون عندها من أن تترك الكراسة أو الصندوق بين يدى ويدى الحظ .

وكبرت رغبتى فى الوصول إلى هذا الصندوق بل أصبحت كلما دخلت غرفة جدتى ألعب حول الدولاب الذى يستقر فيه الصندوق . . أملى ومطلبى . . لم أكن أفكر فيه إلا لأنه الشيء الوحيد الذى منعتنى عنه جدتى . . وحين كبرت بعض الشيء وذهبت إلى المدرسة ووجدتنى أقلب فى كراسات وأكتب فيها وأقرأ أصبحت أعجب من نفسى إننى لا أبكى كما تبكى جدتى حين تنظر فى كراستها . . وهكذا أصبح الصندوق والكراسة التى تستلقى فى أحضانه سراً عجيباً لا يفارق ذهنى غموضه ولا يكف تفكيرى عن محاولة الوصول إلى حقيقته واستجلاء ما يخفيه من أسباب تستجلب هذه الدمعات إلى عينى جدتى . . إننى أقرأ فلا أبكى فماذا يبكيها هى . . إننى قد أبكى حين أعجز عن القراءة وتمتد عصا المدرس إلى ولكننى حين أقرأ لا أجد ما يبكى . . ولقد حاولت مراراً أن أثير فى نفسى مكامن الدموع حين أقرأ فإذا الدموع جامدة وإذا البكاء عصى عنيد لا يسعفنى فيزداد سر جدتى وصندوقها استغلاقا على .

وفى مرة فاجأت جدتى وهى تقفل كراستها وقد بلغت مرحلة الدموع وراحت دمعات تنهمر على وجهها الناصع البياض تركت فيه آثار السمن الذى أصبح نحافة وآثار السنين التى مرت غضونا كثيرة . .

ونظرت إلى جدتى مليا وسألتها :

ـ لماذا تبكين ؟

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى ألقيت فيها هذا السؤال ولكنها كانت دائما لا تقول شيئا سوى أن تنظر إلى صورة جدى التى علقتها بحيث تظل رانية إليها من أريكتها التى لا تكاد تتركها ، ثم هى تتهالك أمر نفسها فى سرعة حازمة وتحيد عن السؤال الذى ألقيته وتقدم بين يدى قربانا جديداً مما تحفظه عندها لألعب به وأحطمه ، وكنت دائما أنخدع بهذا القربان عن السؤال الذى أبحث عن جوابه وأنصرف إلى ما قدمته إلى ألعب به أو أحطمه حسبما يقضى الحظ . وفى هذه المرة حين سألت جدتى أجابتنى بنفس طريقتها وقدمت إلى كراسة وقلما وقالت :

ــ أكتب هنا ما تعلمته اليوم .

وكنت قد إعددت نفسى ألا أنخدع إلا أن الهدية كانت شيقة فقد كنت أحب الكراسات حبا عارما لا أدرى لماذا ؟ ألأنى ظللت سنوات عديدة أهفو إلى كراسة جدتى أم لأن شكل الكراسة الجديدة كان أثيراً عندى دائما . . لا أدرى ! ولكن الذى أذكره أننى خدعت فى هذه المرة أيضا وتناولت الكراسة ورحت أهوش صفحاتها بحروف ما تلبث أن تصبح رسوماً . . وقامت جدتى إلى الدولاب فأودعته صندوقها وعادت إلى جلستها وراحت ترنو إلى وأنا أكتب أو ألهو فى كراستى التى كانت جديدة . . وكان لا بد لعينيها أن تتجها إلى ما أخطه فى الكراسة وثبتت نظرتها فى كتابتى فترة طويلة ثم قالت .

ــ هشام . . أتعلمنى ؟

ونزل على السؤال كحدث مفاجىء لم أتوقعه ولم أجد بين شفتى إلا .

ــ ماذا ؟

فعادت جدتى ترنو إلى فى ابتسامة طيبة ودود وقالت :

ــ أتعلمنى ؟

قلت لجدتى وأنا أضحك :

ــ أتضحكين على ؟

وظلت ابتسامتها الطيبة على وجهها وهى تقول :

ــ لماذا ؟

فقلت فى براءة :

ــ إنك تقرئين الكراسة كل يوم وتبكين .

وعلت وجهها حمرة أكسبت السنين على وجهها جمالا ورونقا وقالت :

ــ آه يا عفريت .

ومدت يدها تدغدغ ملتقى صدرى بذراعى . . موطن تعلم أنه لا يخطىء فى إضحاكى . . فضحكت وضحكنا . . ومرت الأعوام .

كبرت وأصبحت أعرف أن لجدتى فى كراستها سرا ، وأصبحت أدرك أنه لا بد أن يكون هذا السر وثيق الصلة بذكرياتها ، وأصبحت أدرك أيضا أنه لا يجوز لى أن أقحم نفسى على ذكريات جدتى وسنين شبابها ، ولكن شوقى إلى معرفة هذا السر لم تخفف منه السنون بل لعلها زادته تحرقاً .

وعرفت مع الأيام أيضا أن جدتى لا تعرف القراءة والكتابة وزادت معرفتى هذه السر استغلاقاً ، كما زادت رغبتى فى معرفته تغلغلا فى نفسى ولكن حرصى على ألا أقحم نفسى على أسرارها أو على سرها الوحيد بالنسبة إلى جعلنى أحيط رغبتى هذه بسياج محكم من الصمت والتجاهل كلما رأيت كراستها الحبيبة بين يديها . .

وفى يوم دخلت إلى حجرتها لأجدها تجفف دموعها وتودع الكراسة صندوقها دون أن تهتم بإدخالها إلى الدولاب فقد أصبحت مطمئنة أننى لم أمد إليها يدى . حولت جدتى عينيها عن صورة جدى وابتسامة دافئة ما تزال معلقة بشفتيها وقالت :

ــ هشام . . ألا تنوى أن تعلمنى القراءة ؟

وكدت أن أقول ، لماذا ، ولكننى سرعان ما نظرت إلى الصندوق فاختطفت الكلمة من على شفتى قبل أن أطلقها وقلت :

ــ أنا تحت أمرك .

وقالت وقد أشرق وجهها بالفرح

ــ صحيح !؟

فقلت شاعراً أننى أحقق لها أملا كبيراً :

ــ طبعاً . .

فقالت فى حزم والاشراق على وجهها لا يبارحه .

ــ قم إلى هذا الدرج ستجد كراسات وأقلاما هات واحدة وقلما وتعال علمنى .

وبدأت أعلم جدتى ، دون أن أشق عليها فى التعليم فكنت أعلمها حرفين أو ثلاثة فى اليوم ولكن قليلا ما دامت هذه الأيام فقد هاجم جدتى مرض بدا فى أول أمره هيناً ثم ازداد خطورة وحاولت أن ألهيها عن مرضها بالتعليم .

وحاولت هى أن تستجيب لى ولكن المرض كان أقوى منها ومنى فلم تستطع .

مرت أيام مرضها الأول وهى تستطيع أن تصل إلى الدولاب لتحضر الصندوق وتستطيع أيضا أن تصل إليه فتعيده ثم أقعدها المرض فكانت تطلب إلى أن أحضره لها وتطلب إلى أن

أعيده . وكانت دموعها تزداد غزارة . . حتى كان يوم قالت لى فيه :

ــ هشام . . يخيل إلى أننى سأموت قبل أن أتعلم القراءة .

فقلت لها فى تأثر بالغ

ــ بعد الشر عنك يا ستى .

فقالت وقد علت وجهها حمرة من الخجل كخجل العذارى .

ــ أتعرف ما تحويه هذه الكراسة واحتضنت الكراسة فى حب كأنها تحتضن السنين والذكريات وقلت لها :

ــ لا . . .

فازداد وجهها حمرة وعذرية وقالت :

ــ إنها مذكرات جدك . . فقلت :

ــ مذكرات جدى ؟

ــ دخلت إلى مكتبه فوجدته يقرؤها وسألته عنها فقال إنها مذكرات حبى لك كنت أكتبها أيام خطبتنا .

ــ أكان يراك وأنتما خطيبان ؟

ــ ألا تعرف أن أبى عقد عقدى على جدك ثم انتظرنا فترة طويلة حتى يتم جدك التعليم وهكذا كان يرانى دون أن نتزوج . وكان يكتب هذه المذكرات بعد كل لقاء لنا وكنا نلتقى كل يوم تقريبا .

ونظرت إليها فى خبث وقلت :

ــ أكنت ترينه وحدك ؟

فازدادت خجلا وخالط صوتها نغم من الفرح النشوان وهى تقول :

ــ امش يا قليل الأدب . . كنت القاه أمام أمى وإخوتى . .

ــ آه ــ طيب ــ طيب . . لا تزعلى . .

وقالت جدتى والنشوة ما تزال فى عينيها القديمتين وقد خالطها البريق فهما عينا فتاة فى بواكير الشباب حتى خيل إلى أن جدتى عادت بعينيها ووجهها القانى من الخجل إلى تلك السن التى خطبها فيها جدى . . قالت :

ــ هشام

ثم صمتت فقلت :

ــ نعم

فقالت

ــ هشام . . أتقرأ لى هذه المذكرات ؟

فسارعت أقول وقد أحسست أنى موشك أن أصل إلى أعماق سرها :
ــ يا سلام يا ستى .. اقرأها واقرأها واقرأها .

فقالت على عادتها :
ــ صحيح ؟

فقلت :
ــ صحيح جداً

فقالت فى استخذاء .
ــ قم إلى الباب واقفله بالمفتاح فإنك أول من يقرؤها .. فأنا كما تعلم لم أقرأها أبدا ولم أبحها لأحد أبداً .. اقرأها لى أنت .. هل أحسنت إقفال الباب ؟

وكنت قد رجعت عن الباب واستويت على كرسى بجوارها ، وأعطتنى الكراسة فأخذتها بيد ملهوفة وراحت هى ترنو إلى صورة جدى متهيئة لأن تسمع هذا الكلام الذى استغلق عليها السنوات الطوال . وفتحت الكراسة وقبل أن أعلو بصوتى لأسمعها رحت أمر بعينى على الصفحة الأولى .

لقد كانت كراسة ذكريات لا شك فى ذلك . ولكن لم تكن جدتى هى محور هذه الذكريات .. كان جدى يحب فتاة أخرى غير زوجته .. رعاك الله يا جدتى كم أضعت من دموع وكم أفنيت من أوقات وكم بذلت من جهد فى تجديد الشريط الذى يلم الذكريات وفى تنظيف الصندوق الذى ينضم على المذكرات .. وانتاب لسانى نوع من الشلل الداهش الحزين .... واجتاح قلبى عاصف من الألم والحرقة والإشفاق على جدتى والحب لها ، وفى لمحة خاطفة اتجه ذهنى إلى طريق آخر .. هل كانت سدى هذه الدموع .. هل كانت هذه المجهودات التى بذلتها فى المحافظة على الصندوق وتجديد الشريط بلا جدوى .. هل كانت نظراتها الطويلة على السنين الطويلة فى صفحات الكراسة هباء ... أكانت جدتى تسعد بشىء قدر سعادتها بهذه النظرات الجاهلة وهذه الدموع المنسكبة وهذه العناية البالغة ... ألم يستطع جدى أن يترك لها فى هذه الكراسة الخادعة حياة لها تحيا بها فى سنوات الكهولة والشيخوخة .. لقد سعدت جدتى بالكراسة سواء كان ما تحويه حبا لها أم خداعا لها .. لقد سعدت . لقد خيل إلى أن الصفحات قد أصبحت مطبوعة برسوم حروفها فى عقل جدتى وعلى قلبها .. مطبوعة بحروف أكثر ثبوتا وبقاء وعمقا من هذه الحروف الملقاة على صفحات الكراسة . وخيل إلى أن نظرات جدتى قد احتفرت على السنين حفرا فى أوراق المذكرات أكثر جمالا من كل حب وأصدق إحساساً من كل كلام .. أيذهب هذا جميعه سدى .. وأيقظتنى جدتى من سرحتى الطويلة لتقول فى صوت تردد بين الخجل والتشوق والفرح ..

ـ اقرأ

ونظرت إلى جدتى طويلا وقلت :

ـ يا سلام يا ستى .. كم كان يحبك جدى .. كم كان يحبك ...

ونظرت جدتى إلى الصورة المطلة عليها وابتسمت وهى تقول وقد تعثرت الألفاظ بخجلها :

ـ نعم .. أعرف .. اقرأ

ورحت أقرأ جاعلاً اسم الحبيبة التى تروى عنها المذكرات هو اسم جدتى حذرا دائما مبتعدا دائما عن كل لقاء لم يكن فى بيت ، مختارا الكلام العام الذى لا توحيه مناسبة بعينها .. وظللت أقرأ وظل وجه جدتى يتهلل ونظرتها إلى الصورة تزداد إنعاما فإن غشت عينيها الدموع راحت تزيحها عن عينيها وتنعم فى صورة جدى حتى انتهيت من المذكرات ولم تكن طويلة وهدأت .. لقد بلغت آخرها ولم أخطىء ونظرت إلى جدتى ورأيتها فى سبحتها ما تزال رانية إلى الصورة فحولت نظرى إلى الصورة معها وخيل إلى أن جدى يبتسم لى شاكرا فابتسمت له أنا أيضا رغم ما جعلنى أعانى من حيرة وحسرة على ذكريات جدتى ، ورغم المجهود الذى بذلته لأستر حقيقة مذكراته ..

نعم لقد حطمت فى غرفة جدتى كل مقتنياتها العزيزة ولكنى تركت لها أحلامها المودعة فى صندوق الذكريات والسنوات الطوال من الحب التى عاشتها فى ظله لم أحطم منها شيئاً ..

حـــــيرة

« وكانما اهتدى صميدة إلى النجاة من حيرته فما هى إلا دقائق غير معدودة حتى كان جالسا إلى فهيمة ويمتع عينيه بفهيمة التى طالما اعجب بها وطالما تمنى ان تكون زوجته » .

استقيظت نفيسة مع الفجر وراحت تسخن العيش وتعد الفطور لزوجها صميدة ثم قصدت إليه فوكزته فتقلب فى فراشه بين اليقظة والنوم فما هى إلا الوكزة الثانية كان صاحيا يسأل :

ـ مالك ؟

ـ لا شيء . الشمس طلعت .

ـ وما شأنى بها إن طلعت .. هل أنا خفير على باب الشمس ؟

ـ والله فايق على الصبح ... قم ... غير ريقك واذهب إلى المكتب .

ـ المكتب ؟

ـ نعم المكتب ... أليس اليوم موعدك مع إسماعيل أفندى لترى حسابك ؟

ـ آه ... صحيح ... ولكن إسماعيل أفندى لا يذهب إلى المكتب قبل الساعة العاشرة .

ـ وما البأس ... انتظره حتى تأخذ حسابك قبل أن يجيء الفلاحون الآخرون ويعطلونك .

ـ يا ستى وماذا ورائى ، وما البأس أن يعطلونى وهل سأذهب إلى المحكمة ؟

ـ المحكمة . . . العفو . . لا يافالح لن تذهب إلى المحكمة ولكن ستذهب إلى البندر .

ـ البندر ؟ ماذا أفعل فى البندر ؟

ـ ماذا جرى لعقلك ؟ ألا تدرى ماذا ستفعل فى البندر . . . أنا أريد جلبابا وملابس وبنتك تريد أن تجهز . . . أنسيت . . . لقد واعدنا حسنين أننا سنزوجه منها بعد القطن مباشرة وابنك على لابد أن يذهب للدكتور . . . لن يعيش اذا تركناه بهذا الحال .

ـ أمن أجل ضعف بسيط يذهب إلى الدكتور ؟

ـ أهذا ضعف بسيط . . . الولد لا يستطيع أن يمشى خطوتين ، وأنت فى كل يوم تقول إنك ستأخذه إلى الدكتور بعد القطن . . . أجننت . . .

ـ هيه وماذا أيضاً .

ـ وأنت تريد ملابس . . . الشتاء داخل علينا وليس عندك شيء يدفئك .

ـ والفلوس تكفى لكل هذا ؟

ـ ولماذا لا تكفى . . أم ترى يكفينا من الساقية نعبرها . . . تزرع أربعة أفدنة وتشقى طول السنة ثم لا تجد ما يكفى لهذه الأشياء البسيطة . . . تكفى . . . لابد أن تكفى الفلوس .

ـ وإن لم تكف ماذا أفعل بها . . . أرجعها لإسماعيل أفندى .

ـ يا أخى قم وجعت قلبى على الصبح .

ـ وهل هذا صبح؟

ـ ألا يعجبك؟

ـ أيعجبك أنت؟

ـ وما الذى لا يعجبك يا سى صميدة . . . ماذا تغير علينا . . ألست أنا أنا نفيسة التى حفيت رجلاك لتتزوج منى . . أصبحت لا أعجبك اليوم . . . والله عشنا وشفنا .

ـ أنا . . . أنا حفيت رجلاى ؟

ـ لا أنا . . . أظن أنا التى خطبتك . . . هه . . . انطق .

ـ أعوذ بالله . . . يا شيخة اتقى الله . . . ألا تكفين عن النكد أبداً ؟ ! ارحمى . . . ارحمى . . . أنا لحم ودم .

ـ والله أعلم لحم فقط . . . بلا دم . . أين الدم عند أب لا يريد أن يعالج ابنه المريض .

ـ أعوذ بالله . . . أين السم الهارى ؟

ـ على الطبلية . . . قم ألق حبة ماء على وجهك وتسمم وتوكل على الله .

ـ أتعرفين الله أنت ؟

ـ الحمد لله . . أصلى الفرض والسنة ، وشريفة ونظيفة ولا يستطيع أحد أن يقول عنى كلمة . . . أما أنت . . .

ـ نعم . . . مالى أنا؟

ـ ألا تعرف . . . الحشيش قاطع نفسك وكل يوم تجرى وراء امرأة وذيلك نجس .
ـ وما شأن الحشيش بالدين ؟
ـ اخرس . . . وأنت ماذا تفهم فى الدين يا ضلالى . . قم . . . وخل لها نهاية .
ـ وإن لم أخل لها نهاية ماذا ستفعلين ؟
ـ هه . . . سأترك لك المكان لتستريح .
وخرجت نفيسة من الحجرة وقال صميدة :
ـ غورى . . . امرأة نكدة . . . أهذا صباح يا عالم . . . الله يقطعك يا نفيسة ويقطع من أشار على بك . . قال تملك فدانين . . وصدقت . . وكنت عبيطا مجنونا . . . الفدادين تملكها أمها . . . أم ممسكة حريصة ، بلغت التسعين وترفض أن تموت قال تملك فدانين صدقت ، وحسبت الأم ستموت عن قريب ولكن الظاهر والله اعلم — أننا جميعا سنموت وستظل أمها بهانة على ظهر الدنيا تملك الفدانين وتخرج لنا لسانها ونحن فى الآخرة . . .

وقبل أن يكمل دخل إلى الحجرة ابنه على . . . ضعيفا هزيلا لا يكاد يقيم مشيته . واستقبله الأب باشًا أول الأمر ولكنه ما لبث أن قطب جبينه وأحس قلبه كأنما تعتصره يد شديدة البأس قوية . . .
ـ مالك يا على ؟
وصمت على وعاد الأب يقول :
ـ لا والله يا ابنى إنك مريض فعلا . . . يانفيسة . وجاءه صوت امرأته ثم ما لبثت أن تبعت صوتها إلى الحجرة .
ـ مالك . . . ماذا تريد ؟
ـ جهزى على . . . سآخذه إلى الدكتور اليوم .
ـ أزغرد لك . . .
ـ الولد مريض جداً .
ـ ألم أقل لك . . . إنه لا يأكل شيئاً مطلقاً .
ـ جهزيه .

وخرج صميدة إلى الطريق وما لبث ذهنه أن ترك مرض على وفكر فى زوجته هذه التى تأبى إلا أن تصب عليه السخط فى كل يوم . . . ثم عاد يفكر فيما ينتظره من حساب عند الكاتب . . ماذا سيدفع لهذا الكاتب فى عامه هذا . . . ترى ماذا سيبقى له . . . إنه يزرع أربعة أفدنة إن بقى له أقل من مائة جنيه فلا شك أن الكاتب سرقه . . . مائة جنيه على الأقل . . . ماذا أفعل بالمائة جنيه ؟ أولا أهيص الليلة . . . أذهب إلى عبد الباقى أبو سليمان وأشترى نصف قرش . . . لا بل قرشا . . . أنا لم أدخن قرشا فى حياتى أبداً . . . سأدخن الليلة قرشا . . .

وسأمر بطبيعة الحال على فهيمة العضلة وسأجدها واقفة بباب بيتها كعادتها وقد شمرت عن ذراعين ينسكب عليهما ضوء المصباح فهما فى لون العسل النحل ذى الشمع الصافى ويلى من ذراعيها ... لماذا لم أتزوجها ... الفدانان ... قطع الله من أشار على بها وبالفدانين ..

كانت فهيمة أولى ... جمال كجمال الصور فى الجرائد ... ترى هل الحور العين فى الجنة سيكن فى جمال فهيمة .. وأنا من يوصلنى إلى الجنة ... أنا عاص ... أمن أجل الحشيش ... إنما الخمر والميسر ... الخمر ... الخمر ... وما صلة الخمر بالحشيش ... كل مسكر خمر ... كلام مشايخ ... وهم ألا يشربون الحشيش ... إنهم كالأطباء يحرمون الدخان ويشربون مائة سيجارة فى اليوم ... يهيأ لى أن المشايخ ضمنوا الدخول إلى الجنة فهم يفعلون ما يريدون ... وما لهم لا يضمنون الدخول إليها وهم يرشدون الناس إلى الصراط المستقيم ... أهم يرشدون ...

وقطع عليه تفكيره صوت فتوح البرمونى وهو يقول له :

ــ صباح الخير ياصميدة .

ــ صباح الخير يا فتوح .. هل جاء إسماعيل أفندى إلى المكتب ؟

ــ نعم .

ــ أكنت هناك ؟

ــ نعم .

ــ هل تحاسبت ؟

ــ أنا غلطان ياصميدة .

ــ لماذا ؟

ــ لأنى قلت لك صباح الخير

ــ لماذا ... ماذا فعلت لك ؟

ــ مائة سؤال .. يا رجل حرام عليك .. ألا تعرف كيف يكون الحال بعد الحساب ؟

ــ آه ... والله لك الحق ... سلام عليكم .

ــ وعليكم السلام .

وفى عزمة القادم على الخطير من الأمر حث صميدة أقدامه أن تسرع فأسرعت ودخل إلى إسماعيل ، وكأنه يهاجم قلعة عصية الأبواب وقال فى زئير مضطرب بعض الشىء .

ــ السلام عليكم .

ونظر إليه إسماعيل أفندى طويلا ... طويلا ... وكلما طالت النظرة من إسماعيل خمدت الحدة من صميدة حتى إذا أجاب إسماعيل أفندى .

ــ وعليكم السلام .

فى صوت يجمع إلى السخرية عدم المبالاة والهزء . كان صميدة وقد أصبح أقرب إلى الخوف منه إلى اعتدال المزاج أو الجرأة لا قدر الله .

فإن إسماعيل افندى هذا على كل شيء قدير . . . وقال صميدة فى صوت أصابه كثير من التخاذل :

ـ هل حسابى جاهز يا إسماعيل بك ؟

وقال إسماعيل أفندى فى صوته الساخر لا يزال .

ـ نعم يا خلف الحبايب .

وحاول صميدة أن يستمد من مزاح إسماعيل أفندى بعض شجاعة فقال فى صوت يتأرجح بين الرهبة والجرأة :

ـ تشكر . . . كم بقى لى ؟

وأمسك إسماعيل أفندى بدفتره الكبير وراح يردد :

ـ صميدة عبد التواب . . . صميدة عبد التواب . . . ها هو ذا يا سيدى . . . جملة ماله مليم خمسمائة وجنيه مائتان وستة عشر جنيها .

وحينئذ صفق قلب صميدة من الفرح . . . ثروة . . . إذن فسيدخن قرشين من الحشيش . . . قرشين وإن فقد الوعى بعدها سنة بأكملها .

وتابع إسماعيل قراءة الحساب .

ـ منه يا سيدى منه . . . منه . . . أربعون جنيهاً قسط شراء وستة وستون جنيهاً وأربعمائة مليم إيجار وأربعون جنيهاً وسبعون مليما كيماوى وثمانية جنيهات خفر وثمانية جنيهات رى وثمانية جنيهات مقابل استخدام آلات وسبعة جنيهات مقابل إدارة : المجموع يا سيدى مائة وسبعون جنيهاً . . . وأربعمائة وسبعون مليما .

وسقط صميدة مشدوها هلعا على الكرسى .

ماذا !

ودون أن ينظر إليه إسماعيل أفندى تابع حسابه .

يكون مجموع ما بقى له يا سيد . . . تسعة وعشرون جنيهاً وثلاثون مليما .

وعاد صميدة يقول فى لهفة :

ـ ماذا ؟

ودون أن ينظر إليه إسماعيل أفندى قال :

ـ انتظر .

ثم أخذ يمهم بالأرقام همهمة لا تكاد تفصح ثم قال :
ـ تمام تسعة وعشرون جنيهاً وثلاثون مليما .
ـ سنة أسود من الحبر يا أولاد . . . كم يا إسماعيل أفندى . . . كم . . . ؟
كشر إسماعيل أفندى عن أنيابه فى غضبة مستأسدة :
ـ ما سمعت . . . إن كان هذا جميعه من أجل الجنيه الذى آخذه منك كل سنة فلا داعى له .
ـ وتريد جنيهاً أيضاً يا إسماعيل أفندى .
ـ أنت حر . . . وعلى كل حال السنوات القادمة أكثر من الفائتة . . لا تغضب فى السنة القادمة إن جعلت غيرك يقدم عليك فى الرى أو أخرت عنك الكيماوى أو إذا . . وقاطعه صميدة . .
ـ وتريد جنيهاً أيضاً يا إسماعيل أفندى .
وقال إسماعيل أفندى فى جراءة وعدم مبالاة .
ـ يا أخى قلت لك أنت حر . . . قم . . . قم . . .
ـ أمرك يا إسماعيل أفندى . . . أمرك . . . خذ الجنيه يا إسماعيل أفندى .
ـ لا أبداً . . . لا لزوم له .
ـ أنا غلطان يا إسماعيل أفندى .
ـ أبداً . . . لماذا . . .
ـ هات رأسك . . . أبوسها .
ـ لا . . . لا . . . أنا لست بزعلان . . . خذ . . هذه هى نقودك .
ـ وهذا هو جنيهك . . . لا تكن غضباناً يا إسماعيل أفندى . . . سلام عليكم .
وقال إسماعيل أفندى لهجته الساخرة الهازئة .
ـ وعليكم السلام يا سيدى ورحمة الله وبركاته .

وخرج صميدة إلى الطريق . . . أهذه هى نتيجة الشقاء لمدة عام بأكمله . . . ماذا أفعل الآن . . . أظن الولد هو أهم شيء الآن . . . الولد . . . مسكين على .
وقصد صميدة إلى بيته وصحب ابنه إلى البندر .

وفجأة الطبيب هناك بأن الطفل مريض بالزائدة الدودية ولابد أن تجرى له عملية لاستئصالها .
ـ وكم تكلف هذه العملية ؟
ـ عشرة جنيهات .

ولم يزد : حمل ابنه على كتفه ولم يشتر شيئا مما أرادته زوجه أن يشترى وعاد إلى القرية . . . ماذا سيفعل . . . عشرة جنيهات للعملية وجهاز البنت هذه هى السنة الثالثة فى خطبتها كيف يؤخر زواجها بعد الآن . . . لقد قبض مهراً ثلاثين جنيهاً لابد أن يقدم جهازا بأربعين جنيهاً على الأقل من أين لى بالأربعين جنيهاً ونفيسة تريد ملابس وأنا أريد ملابس . . . ماذا سأفعل بهذا المبلغ . . .

سار يفكر تقوده قدماه إلى حيث لا يدرى له مقصداً أو إلى حيث تحدد رغبة خفية اتجاهه ومقصده . . . كان يقصد بيت عبد الباقى وقبل أن يبلغه تصدت له فهيمة وهى تقول :

ـ ماذا بك ياصميدة ؟

وصحا صميدة على صوت فهيمة فإذا هو ينفض عن نفسه كل ماهى فيه من حيرة .

ـ لا شىء يا فهيمة . . . لا شىء .

ـ لماذا لا تزور ؟

ـ أنا خدام .

ـ تعال .

ـ أشترى نصف . . . أشترى قرشاً من عبد الباقى وأجىء حالا .

ـ وأنا ألهب الفحم فى انتظارك .

وكأنما اهتدى صميدة إلى النجاة من حيرته فما هى إلا دقائق غير معدودة حتى كان جالساً إلى فهيمة ويمتع عينيه بفهيمة التى طالما أعجب بها وطالما تمنى أن تكون زوجته . . . وما هى إلا أنفاس قلائل حتى قال :

ـ فهيمة . . . أتتزوجيننى ؟

ـ وكم تدفع مهراً ؟

ـ وكم يرضيك ؟

ـ ثلاثون جنيها .

ـ لا أملك إلا خمسة وعشرين .

ـ لأجل خاطرك . . . لقد كنت عزمت بعد المرحوم ألا أتزوج أبداً . ولكن أنت . . . أنت . . . لا أستطيع أن أرفض لك أمراً .

ـ متى نتزوج ؟

ـ متى تشاء .

ـ الآن .

ـ الآن .

وجاء المأذون وخرج واطمأن صميدة بعد حيرة فلم يعد يحاول أن يفكر كيف سيواجه المطالب المتزاحمة حوله ... لقد انتهت حيرته ... لا لم يعد حائراً ... لم يعد حائراً على الإطلاق .

زواج

« وكان الزواج وأقبلت هبة عليه إقبالة خائفة أول أمرها فيا تدرى ما مصيرها مع شخص لم تفكر يوماً أنه سيكون زوجها وإنما هو ابن العم . »

حلوة هى . . كالأمل . . كالموعد وقد حققه اللقاء . . كالنشوة وقد عربدت . . حلوة كالقلب السكران . . كالفكرة الحالمة . . كالذكريات المأنوسة الهانئة ، عينان ساجيتان فيهما إلى الحب دعوة وفيهما العفة المنيعة وشعر منسرح كآمال الشباب ، وفم دقيق ذو تعبير يختلط بين الدعوة والتمتع فما يدرى من يراها والابتسامة وامضة عن شفتيها ماذا تقول ؟ ولا يجد من يراها بداً من أن يبتسم ثم يقف الأمر به عند الابتسام يردعه جمالها وابتسامتها أن يزيد .

نشأت بين إخوة من الذكور فالبيت لا عمل له إلا أن يتقصىّ رغباتها فيحققها فمطلبها أمر قبل أن تبين عنه إنما هى الإشارة العابرة أو التلميح البعيد فإذا ما أرادت قد تم ، وكان للذكور صحاب وكان للعائلة أقارب ولكن الجميع كان يقف منها موقف المكبر المعجب ولم يستطع أحد أن يقف منها موقف المحب ، والشباب يعدو إلى الفتيات فى خطى واسعة فيلتهم سنوات الطفولة التهاماً فيا أسرع ما كبرت هبة وما أسرع ما أخذت أمها ثم أبوها يتلفتان حولها عن العريس الذى يصلح لها ثم ما أسرع ما أصبحا يتلفتان عن أى عريس ولكن السنين ثقالا بطيئات وجمال هبة الصارخ يقف دون الشباب أن يتقدموا فكأنما هذا الجمال سياج حولها لا يرى أحد من الشباب نفسه أهلا أن يعدوه إليها ، كان الأقارب والأصحاب ينظرون إليها وكأنها فى مستشرف رفيع لا سبيل أن يرقى إليه واحد منهم .

وتستطيع هبة أن تطلب إلى أبيها ما تشاء . ويستطيع أبوها أن يقدم إليها ما تصبو إليه لكنها أبداً لا تستطيع أن تقول كبرت ولا يستطيع أبوها أن يجيب إشارتها إن هى قالت .

فكانت هبة تنظر إلى الأيام نظرة واجفة هالعة . . . ماذا لها فى مطوى الغيب . . . أين تلقى بها خوافى المستقبل . . أتراها تصبح . . لا . . إنها لا تطيق أن تنطق الكلمة . . أتصبح عانساً . . ويلى . . أهذا الجمال كله لا يجد من يقدره . . كيف . . إنها لا تنسى النظرات الحافلة بالإعجاب والإكبار وهى تحيط بها . . يأتى إلى البيت أقرباؤها ويأتى أصدقاء كثيرون ويأتى ويأتى . . إلى البيت ابن عمها مسعود .

وكلهم . . كلهم يرنو إليها فى إكبار ذاهل . . . أما مسعود . . . . مسعود فإنه يتطلع إليها أملا بعيد المنال ولكن الأمر يقف به عند هذا التطلع لا يزيد منذ هما طفلان ونظرته لا تتغير وها هو هذا يسعى فى حياته سعياً حثيثاً موفقاً وينال شهادته ثم يلقى إلى الحياة آماله فتستجيب له الحياة استجابتها الباسمة ويصبح مسعود ذا شأن ولكنه مع ذلك يخشى أن يتقدم لخطبة ابنة عمه فجمالها أعظم من أن يرضى به زوجاً ولا يحس مسعود بهذا الموقف الضنك الذى هيأه جمالها لها . والأب يرى زيارات ابن أخيه ويرى نظراته الوالهة المحبة ثم يرى إحجامه وصمته ويمسك به كبر الأب أن يشجعه ، والأم ترى ما يراه الأب ويمسك بها خوفها من زوجها أن تصطنع ما تصطنعه الأمهات من تشجيع الخطيب أن يخطب بناتهن ولكن الأيام تمر والابنة تكبر والسنون إذا مرت بالبنات الناهدات فهى قلق وذعر والأوقات كالحة والتفكير هلع حتى المرآة لم تعد تستطيع أن تمنح هبة ما كانت تمنحه لها من فرح وطمأنينة بل إن خوفها يزداد كلما شاهدت جمالها . وهى ترى مسعودا وقد كانت تراه منذ هما طفلان ولم يكن يزيد عندها عن فتى مثل كل الفتيان الذين يقفون حول سياج جمالها وقفة العباد أمام الوثن . ولو لم تمر بها السنون القلقة لكان مسعود هذا أبعد ما يكون عن تفكيرها وآمالها . فقد كان لها من أصدقاء إخوتها ومن أقاربها من لا يقارن بمسعود فى لباقته وذكائه أو قوة شخصيته . أما مسعود فما هو إلا تلميذ يحسن أن يذاكر دروسه ويحسن أن ينجح فى الامتحان ثم هو لا يحسن بعد هذا من الحياة شيئاً . وحين أفلح مسعود فى الحياة لم يكن الأمر عندها يعدو أن فتى من أقاربها أطاع رئيسه فأحسن رئيسه إليه بأن رقاه وأصبح الأقارب يتحادثون عن ذكائه وعن تقدمه ولم تستطع يوماً أن تتصور أن مسعودا يستطيع أن يؤدى عملا يتسم ببعض ذكاء أو ببعض لماحية أو بعض فهم . إنما هو مرؤوس يحسن إطاعة الرؤساء أو رئيس يحسن تنفيذ ما رسمه له رؤساء آخرون وهكذا لم تستطع أن تجارى أقاربها فى إعجابهم بمسعود ، ولكنها مع ذلك لا تمنع نفسها أن تفرح بهذه النظرة الذاهلة الدالة على الإعجاب الشديد والإكبار المأخوذ الذاهل التى تعلقت بأهداب مسعود منذ هما طفلان حتى سمت بها الأيام هذا السعى الحثيث فجعلت منها فتاة تكاد تصبح عانساً وجعلت منه فتى ناجحاً يلهج بنجاحه الأقارب والأصدقاء .

وتمر الأيام ويوشك الأب أن يتنازل عن كبريائه وتجد الأم أن خوفها على مستقبل ابنتها أعظم من خوفها غضب زوجها فما أن يأتي مسعود لزيارتها حتى تعمل على أن تختلى به وتلقى الحديث وكأنها لا تقصد ما يرمى إليه :

ــ ماذا جرى يا مسعود يا ابنى ؟

ــ ماذا يا أبلتى ؟

ــ ألا تلاحظ أنك كبرت ؟

ــ نعم .. أعرف ..

ــ وماذا تنتظر .

وفهم مسعود ما تقصد إليه أو كاد ولكنه قال فى تظاهر شديد بالغباء ماذا أنتظر فى ماذا ؟

وأطلقت الست أم هبة تنهيدة . عاجبة طويلة ثم قالت بعد أن مصت شفتيها :

ــ ألا تعرف ؟ .

وكأنما ألصقت هذه الحركات ابتسامة على شفتى مسعود فهو يبتسم فى تخابث ساذج وتقول .

ــ يا بنى الشيء لا يخجل من أوانه .. لابد أن تتزوج يا مسعود وظل مسعود رانياً إلى أبلته فى دهشة وقد اضطرمت فى نفسه آمال عريضة كانت تراود نفسه فى يأس باهت متخاذل ويكاد الآن يراها حقيقة يخشى أن يصدقها ثم تعود إلى خذلانه فيصبح يومه شراً من أمسه وغده أشد قتاما من ماضيه . فإن الآمال مهما تكن واهنة بعيدة التحقيق أحلى مذاقاً من مرارة اليأس ويوشك أن يقول فيخذله لسانه أن يقول وتعينه زوجة عمه :

ــ ألف يتمنى كلمة منك يا مسعود .. والتى أنت ولا شأن لك .

ويقول مسعود ذاهلا :

ــ ألف يتمنى أن يزوجنى ؟

ــ أنت لا تعرف حقيقة مكانتك يا مسعود ..

ــ إذن فانا أتمنى ..

وعاده الخوف فارتج عليه وعادت زوجة عمه إلى إسعافه ..

ــ قل .. قل ماذا تتمنى ولا شأن لك .. اترك الباقى لى أنا .. واستجمع وقال فى سرعة من يخشى ألا يكمل جملته ..

ــ أتمنى أن أتزوج ...

وأشرقت الابتسامة فى وجه أم هبة وهى تطلق .

ـ هه . .

وقال مسعود :

ـ هبة .

وسارعت الأم تقول :

ـ فهى لك . .

وألجمت مسعود الفرحة فصمت حينا ثم قال :

ـ لا . .

وعاد الذعر إلى الأم . .

ـ ماذا . . ألا تريدها ؟

ـ بل أريدها . .

ـ فهى لك .

ـ لا . . لا أريدها هكذا . .

ـ وكيف تريدها إذن ؟

ـ إذا قبلت أنت أن تزوجيها لى فمعنى هذا أنك أنت ترضين عنى . . أو أنك ترضين عن الوظيفة التى أشغلها والمرتب الذى أناله وأنا أريد أن ترضى هى . . وأن ترضى برغبتها الخالصة دون أى تأثير منك أو من عمى .

وعادت الإشراقة إلى نفس الست فقد كانت تدرك ما تعانيه ابنتها من مخاوف .

وكان الزواج وأقبلت هبة عليه إقبالة خائفة أول أمرها فما تدرى ما مصيرها مع شخص لم تفكر يوماً أنه سيكون زوجها وإنما هو ابن العم الخجول ، والمحب الواله الذاهل إذا نظر إليها . ما الزواج من رجل لم تره . . إلا فاغراً فاه من الدهش والفم الفاغر لا ينطق فهو لا ينطق ، أتراه يتفصح عن رجل يجيد فن الحياة كما يجيد أن يفرج شفتيه وكما يجيد أن يطيع الرؤساء وينفذ أوامرهم ؟ أتراه ، يحسن من الحياة ما يحسن من الوظيفة . . ؟ !

وأقبل مسعود على الزواج إقبالة مذهول أيضاً فقد كانت الآمال — إن شاءت هذه الآمال أن تبلغ به أقصى غاياتها — تهيىء له أنه يستطيع أن ينال من هبة نظرة رضا . أما أن تهب له ابتسامة عطف أو حتى ابتسامة بغير عطف أما هذه فإن آماله لم تجرؤ أن تصل إليها ولكنه اليوم ينال هبة بجميعها بابتساماتها بل بقبلاتها . . . ماذا ؟ نعم بقبلاتها بل بكل شىء بل . . . والأعجب من هذا أنها لا تستطيع أن تمنح إنسانا آخر فى العالم ما تمنحه له من نفسها ولا استثناء من هذه القاعدة . لا ينال إنسان آخر فى العالم ما يناله هو من هبة . . لماذا . . ماذا أنا . . وماذا أصبحت حتى أنال كل هذا الهناء أتراها تحبنى أم أنها . . ؟ أم أنها ماذا ؟ . . ما الذى يجعلها

تقبلنى زوجا إن لم تكن تحبنى لتحبنى .. ومالى لا أسألها .. عجيب أمر الناس . أتراها ستقول لى أكرهك إن كانت تكرهنى .. وإن كانت تكرهنى وكانت عندها الشجاعة التى تقول لى أكرهك أترانى أصدقها ... سأقول لنفسى حينئذ .. لا .. إنما هى تريد أن تلهب حبى لها ولا يمكن أن تكرهنى ، فإن أحداً لا يصدق أن من يحبها تكرهه .. وترى هل أصدقها إن قالت إنها تحبنى .. أترانى إذا خلوت إلى نفسى أصدق من أعماق قلبى أنها تحبنى ؟ ! عجيب أمر نفسى هذه .. كثيرة الشكوك لا تصدق ما يحلو لها ولا تصدق ما يسوؤها دائمة الحيرة عديمة الاطمئنان ثائرة متقلبة . وكيف لها أن ترضى أو تطمئن وهى لا تدرى ماذا يرضيها وهى لا تدرى أين الحقيقة فى مشاعر من تحب بل هى لا تدرى إن كانت تريد هذه الحقيقة أم لا تريدها فما كنت لأسعى إلى معرفة الحقيقة لو أن معرفتى هذه ستنتهى بى إلى إن هبة لاتحبنى أنا لا أريد حقيقة المشاعر فالمشاعر لا سبيل لى إليها وإن كان هناك سبيل فأنا لا أريده ... أنا أريد الواقع دون الباعث إليه .. أريد ما أراه أمامى ولا أريد أن أعرف لماذا يحصل . ما لى وللنفوس وما تخفيه إنها أحراش وغابات تستخفى بين شعابها الكثة وحوش أشد ضراوة وفتكا من وحوش الغابات والأحراش ، ما لى وللنفس وماتخفيه ، إن هبة زوجتى ويكفينى منها أنها زوجتى ويكفينى من الحياة أننى زوجها .

وفى اندفاعة محمومة هالعة استبق مسعود الأيام ليتم الزواج فما هو إلا بعض زمن حتى كانت هبة ومسعود فى بيت واحد ولم يستطع مسعود على رغم ما ناقش به نفسه من كذب وصدق لم يستطع إلا أن يسأل هبة .

ـ هبة .. هل تحبينى ؟
ـ لقد تزوجتك ..
ـ ليس هذا جواب سؤالى ..
ـ بل إن سؤالك لن يجاب بأبلغ من هذا .
ـ قد تتزوجيننى دون حب ..
ـ لو كنت نشأت فى بيت غير بيت أبى لجاز لك أن تقول هذا ..
ـ لا أفهم .
ـ أنت تعرف أن أبى لا يمكن أن يفعل شيئاً لا أرضى عنه فكيف يزوجنى دون رضائى .
ـ قد ترضين أن تتزوجى منى ولا تستطيعين أن تحبينى .
ـ هراء ... إن الزواج أشد قوة من الحب .
ـ فأنت لا تدرين الحب .. أنا أحبك حبا لا أجد شيئاً فى العالم أقوى منه .
ـ بل أنك أنت الذى لاتعرف الحب .. اننى حين أقبلك زوجا أضع حياتى وحياة أولادى كلها أمانة بين يديك وليس فى العالم حب أقوى من هذا ..

ـ إذن فأنت . .
ـ لقد تزوجتك . . أليس كذلك ؟

ولم تكن هبة كاذبة فيما ظهرت به من حب فهى منذ تزوجت مسعودا وهى تقنع نفسها أنها تحبه ولما كانت نفسها ذات إباء وكبرياء فقد سرعان ما صدقت أنها تحبه بل أنها زادت فاقتنعت أنها تحبه . . منذ هما طفلان . . وكهذا اطمأنت هبة أنها لم تتزوج زيجة ملهوفة تخشى أن يفوتها القطار فهى تتعلق بالعربة الأخيرة منه وإنما هى تتزوج زواجاً تقوم أسسه على الحب وأنها إنما تستقل من القطار أوفى عرباته راحة تصعد إليها فى لا عجلة لاهفة ولا اندفاعة طائشة هالعة إنها تصعد مطمئنة الخطوات على ريث من أمرها وتدبر هادىء مستريح . فهى إذن تحبه وهى لأنها تحبه تتزوج منه . . اقتنعت ومر عام . . بل لم يكد عام أن يمر . . ودخلت هبة إلى زوجها حجرة مكتبه وعلى كتفها طفلهما الأول سعيد وقالت هبة وهى تغالب الدموع أن تنفجر من عينيها . .

ـ هل أستطيع أن أكلمك ؟
ـ ودون أن يرفع رأسه عما يقرأ قال . .
ـ تفضلى . .
ـ تذكر يوم زواجنا ؟
ـ فقاطعها :
ـ لا زلت تذكرين ؟
وقالت فى غيظ مكبوت :
ـ ليس الوقت طويلا على كل حال . .
ـ لقد جاء فى أثناء هذا الوقت ولد باكمله .
ـ نعم . . ولكن ليس الوقت طويلا مع ذلك . تذكر أننى قلت لك إننى أضع حياتى وحياة أولادى أمانة بين يديك .
ـ نعم . . وهأنت ترين أنى أعمل ليل نهار لأوفر لك ولسعيد كل أسباب السعادة . .
ـ لقد نسيت أن بين طوايا حياتى هذه التى أودعتها أمانة فى يديك كرامتى . إنها أعز ما تضمه حياتى من مقومات . .
ـ فلسفة عالية على .
ـ بل حقيقة إن كنت تجهلها فأنت تجهل الكرامة .
ـ وهل مسست كرامتك ؟
ـ أولا هذه اللهجة التى تكلمنى بها .
ـ ما لها ؟
وعلا صوتها فى غيظ .

ـ أنت تعرف مالها وإلا فأنت تقبل أن يكلمك بها الناس . .

ـ لعلى كنت مشغولا على أننى لم أقصد أن أمس كرامتك . . المثل هذا . . .

ـ لا تكمل . لقد أردت أن أنبهك إلى شيء أخطر من ذلك . . أنت تخرج مع سكرتيرتك . .

وذهل مسعود وقال فى حيرة :

ـ مع من . . . أتتجسسين على ؟

ـ لا . . ولكن أخبارك تصل إلى دون أن أسعى إليها .

ـ وما البأس أن يرانى الناس مع سكرتيرتى . .

ـ فى غير مواعيد العمل . .

ـ وفى أى وقت .

ـ تلك هى إذن كرامتى المضاعة . . فعليك أن تختار . . أن أبقى فى البيت أو تبقى على سكرتيرتك .

ـ لا يمكن أن اختار . . لا يمكن . .

ـ لماذا . . ماذا بينكما ؟

ـ إنها زوجتى .

قالها وعادت إلى فمه الانفراجة البلهاء وإلى عينيه النظرة الذاهلة وحدقت فيه هبة طويلا . . ثم احتضنت ابنها وتركت الغرفة . . وحاولت . وحاولت كثيراً أن تترك البيت ولكن ذراعى طفلها الواهيتين كانتا تمسكان بها ببيت الأب فى عنف جبار لا تطيق التغلب عليه . . . فهى باقية . . . باقية .

خطابان

« أنت ياصديقى أحببت فى مجدك وأحببت فى صورتك التى رسمتها . . أحببت فى رأى النقاد فى عملك . . ولن يبقى من هذا جميعه شىء » .

لم تعرف خطه على الظرف فقد كانت المرة الأولى التى يكتب لها . وبيد مرتجفة أمسكت الخطاب :

أطويل طريقنا أم قصير ؟ إلى أين تقودين خطاى ؟ . عرفتك منذ عرفتك هوى جامحا وحبا عاصفاً ، وأفانين من السعادة يشوبها الخوف، وألوان من الهناء يخالطها الأسى فما استمتعت بسعادة ولا خوف ولا هناء ولا أسى مثل هذه المتعة التى ذقتها من نبرة صوتك وفيها الحنان أو نبرته وفيها غضب ، أو من عينيك أنظر إليهما فهما واد من الحب الظليل الحار العاصف النضير ، ثم أنظر إليهما فهما حينا خوف وهما حينا أسى وهما حينا كل شىء ووميض وابتهال .

إلى أين بنا الطريق . إلى أين ؟ أطويل سبيلنا . . لكم أرجو أن يطول ؟ أم قصير . . لكم أخشى أن يقصر ؟ .

أنت خائفة . . دائماً إذا خلوت إلى فكرك وخلصت من فؤادك . . تخافين ، ثرية أنت باذخة الثراء . وأنا لا أملك إلا هذه الريشة التى أرسم بها . . ولكنى أكسب منها أموالا طائلة إن لم تصل إلى إيراد ثرائك فهى لا تقل عنه كثيراً . ولكنك مع ذلك خائفة . . وتأبين أن تقولى مبعث خوفك ويجيىء لك الوهم أننى لا أعرفه . . لماذا يظن الناس دائماً أن غيرهم أقل منهم ذكاء ؟ إننى أعرف خوفك ومبعثه ، بل إنى أيضاً أمهد لك العذر أن تخافى ويشتد بك الخوف ،

فقد شاء حظك أو شاء حظى أن يتقدم لخطبتك قبلى إنسان كشفت حقيقة نفسه فإذا هو ولا مطمع له إلا مالك فأنت منذ ذلك اليوم تأبين أن تصدقى أن بين الناس من يحبك لأنك أنت . .

أنت وحدك بلا مال ولاثراء . . مسكينة أنت لكم تنظرين إلى المرآة . . ولكم تُكذبين ما تقول لك المرآة . . أنت جميلة . . ألا تدرين أنك جميلة . . ألا تدرين . . أتذكرين أول يوم رأيتك فيه ؟ أتذكرين ماذا فعلنا ؟ لم أكن أعرفك وإنما رأيت هذه الوضاءة تشع من حولك فإذا ما حولك جميعاً لا شىء إلا أنت ، وقد كان ما حولك كثيراً . أضواء باهتة ونساء جئن يشهدن عرض الأزياء فجعلن من أنفسهن معرض أزياء . . ومعرض جواهر أيضاً . وموسيقى حنون ناعمة ونساء صنعتهن أيد ماهرة صناع يعرضن أنفسهن قبل أن يعرضن أزياء المتاجر ، وصخب وتصفيق وضجيج . . تلاشى هذا جميعاً ولم يبق فى عينى إلا أنت . . أنت وحدك وجمالك الصاخب عالى الضجيج حلو الرنين عذب الأغانى باهر وهاب . وظللت أرنو إليك فما شهدت من الأزياء أو النساء أو الأضواء شيئاً . . وحين قارب الحفل الانتهاء كنت أنت وثقت أن عينين من مئات العيون لم ترتفع عنك وكنت أنا قد بلغت من حيرتى يأساً . فما أدرى كيف يتم بيننا اللقاء . . لم أكن أريد حينذاك إلا أن يقدمنى إليك أحد . . وكالغريق فى المحيط المترامى الأطراف تمتد إليه يد لا يدرى من أين امتدت ، جئت أنت . . نعم . . أنت صوب المائدة التى أجلس عليها . . وحملقت . . ولكنك كنت ما زلت قادمة إلى المائدة ، وحملقت، ودارت بذهنى احتمالات فيما ستفعلين . . أتراك ستثورين فى أن ظللت أرنو إليك طوال العرض . . أتراك ستصفعين وجهى . . أتراك ؟ لم يستطع واحد من هذه الاحتمالات أن يمنع الفرحة التى راحت تهز قلبى هزاً . . فإنى سأتعرف بك ، ثائرة كنت أو غاضبة لا يهم . . المهم أننى سأتعرف إليك . . وجئت . . ووقفت إلى مائدتى وظللت جالساً أحملق منتظراً هجومك أو منتظراً ما هو أشد من هجومك ولكنك لم تفعلى شيئاً من هذا وإنما مددت يداً طيبة إلى أختى التى كنت قد نسيتها مع ما نسيت من ناس وأشياء . . وحينئذ وقفت وقبل أن أعرف اسمك قلت . . .

ــ أتسمحين يا سيدتى أن أرسم لك صورة ؟

وكان من الطبيعى أن تنظرى إلى نظرتك إلى مجنون ولم أحفل حينذاك بما تظنين ، وإنما كانت لهفتى إلى أن أرسم صورة لك هى كل ما يسيطر على . . خيل إلى أننى لو رسمت صورة لك سجلت قطعة فريدة من إبداع الخالق لا تتكرر ولا يجوز لها أن تتكرر فالعمل الفنى إذا ما أعيد سقط عنه جلاله . لم أحفل بما قد يتواثب إلى ذهنك من أفكار فما رأيك ؟ وما ظنك بى أننى مجنون إذا ما قارنته بهذا العمل الفنى الكبير الذى أريد أن أسجله . . ولا أدرى لماذا فكرت فى هذه اللحظة العابرة أن حياتى الفنية . . بل حياتى متوقفة على لفظة منك . وأدركت أختى الموقف وسارعت .

ـ أخى فريد حسنى .

ولم تزل عنك دهشتك كلها ولكنك قلت فى نغمة حسية الجرس .

ـ أهلا وسهلا .

وقالت أختى :

ـ طبعاً تعرفين أنه رسام .

وابتسمت فما رأيت ابتسامة أحلى مما رأيت على وجهك .

ـ إن لم أكن أعرف فقد عرفنى هو وضحكت أختى ولم أملك أن أضحك ، وقلت أنت :

ـ أراك متعجلا على أن ترسمنى .

ـ الآن قبل اللحظة الآتية .

ـ يا سلام . . . ولماذا العجلة ؟

ـ أخشى أن تمر الأيام على هذا الجمال . بل أخشى أن تمر الدقائق .

وضحكت وضحكت أختى ثم تجهمت أساريرك فجاة وقلت :

ـ أتعرف من أنا ؟

وقلت وأعتقد أن وجهى كان ساذجاً وأنا أقول :

ـ أبداً . . . ولكنى لم أعرف لجمالك مثيلا .

وعادت الابتسامة إلى وجهك ثم قلت .

ـ أخشى أن يكون هذا غزلا .

ـ أنت تعرفين من أنا ؟

ـ نعم قرأت عنك ورأيت لك بعض الصور .

ـ أتعتقدين أننى أقبل لكرامتى أن أقول ما أقول لمجرد الغزل ؟

ـ إذن . .

ـ أنا يا سيدتى . . رسام . . رسام رأى وجها لم ير له مثلا من قبل وما يعتقد أنه سيرى له مثيلا من بعد . . أنت عندى الآن وجه ، مجرد وجه . أنا لا أعرف من أنت ولا يهمنى أن أعرف . . إنما أعرف هذا الوجه . . ولا أريد أن يمر الزمن قبل أن أرسم هذا الجمال فيه . . وأنا لا أريد منك إلا رسمك . . إنه جمال أراد له الله أن يكون واحة ندية للبشرية العانية . . سيدتى أخشى أن يمر الزمن . . أى قدر ضئيل من الزمن على هذا الوجه وأنا أريده هو الآن .

ـ أتخشى الزمن إلى هذا الحد ؟

ـ قاس لا يرحم الجمال . . لو كان الزمن يعقل لمر بجمالك هذا فتركه دون أن يوقع عليه بغضونه أو يلمس شعرك الزاهى المتكبر بثلجه ولكن الزمن يمر ولا يُعفى أحدا . . وأريد أن أرسمك قبل أن يمر .

وارتسمت فى عينيك أمواج من الخوف وأمواج من الفرح وازداد بهما الشعاع وقلت :
ـ لك أن ترسمنى .

أنت لم تعرفى أى أمل حققته بألفاظك القليلة هذه .. والتقينا بعد ذلك وكانت صورتك التى كتب عنها النقاد أضعاف ما كتبوا عن صورى جميعاً وبلغت من المجد فوق ما كنت أهفو إليه . ولكن شيئاً من هذا لم يجعلنى أطير بهذين الجناحين اللذين كنت أطير بهما وأنا أرنو إليك فى أول لقاء أو هذين اللذين كنت أطير بهما وأنا جالس إليك .. لقد عبدت الله المصور فى صورتك وأحببتك آية من آيات الفن الأسمى الإلهى .. أحببتك منحة من السماء وأحببتك أملا لى وأحببتك جمالاً لا يُطاوله جمال ، وحاولت أن أخطبك ولكنك رفضت .. لم أكن أتوقع هذا الرفض أبداً .. نعم عرفت عن ماضى أيامك هذه الخطبة الفاشلة التى أرادها طامع فى مالك .. ولكنك تعلمين أنى لا أطمع فى مالك .. أتراك من أجل غلطة واحدة من الزمان تعرضين عن الحياة ومن أجل خطيئة واحدة من رجل ترفضين جميع القاصدين إليك ؟ لا أظن ..

فمن تستقبل الحياة إن لم تكن أنت ؟ وعلى من تقبل الحياة إن لم تقبل عليك أنت ؟ أنت فى جمالك هذا الشاهق الأبىّ ، وفى شبابك هذا الزاخر بالحياة .. اجعلى منى حياتك فأنت كل حياتى .

ولم يعرف خطها على الظرف فقد كانت المرة الأولى التى تكتب فيها إليه . وبيد مرتجفة أمسك بالخطاب :

لكم تشبه يا صديقى ذلك الفتى الذى تقدم إلى خطبتى طامعاً فى مالى . لا تجزع .. فإنك مثله لا فارق بينكما ولا اختلاف .. لقد أحب كل منكما شيئاً زائلا منى .. أحب هو المال وما أسرع ما يزول المال وأحببت أنت الجمال وما أسرع ما يزول الجمال . وأنت تعلم وأنت تذكر كم كنت ملهوفاً على رسم صورتى قبل أن تمر بى الأيام فتطمس جمال وجهى وتذهب بشعرى المتكبر المزهو . أنت شبيه بذلك الفتى كلا كما أحب زائلا . أنت يا صديقى لم تحبنى أنا .. أنا جميعاً بكل شىء فىّ ، بروحى وجمالى وفكرى ومالى وكل ما يكون هذا الكيان الذى أمثله فى هذه الحياة .. لو أنك يا صديقى أحببتنى جميعاً إذن لهدأ خاطرى واطمأن ولقبلتك زوجا قائلة لنفسى .. إن ذهب الجمال بقيت الروح وإن ذهب المال بقى الفكر .. ولكنك وا أسفاه .. لم تحب إلا جمال وجهى فقط .. وما أسرع ما يزول .. أجل ما أسرع ما يزول .

أنت يا صديقى أحببت فىّ مجدك وأحببت فىّ صورتك التى رسمتها .. وأحببت فىّ رأى النقاد فى عملك .. ولن يبقى من هذا جميعه شىء .. ستجدد مجدك بصورة أخرى وسيقول

النقاد عما سوف ترسمه كلاماً ينسيك ما قالوه عن صورتى ولن يبقى منى لك إلا وهم تقف دونه من الأيام سدوف وضباب .

لقد التقى جمال وجهى بريشة الفنان فيك ولن يخلق هذا اللقاء حباً . لو التقت الروح منى بالروح منك لو التقيت أنا جميعاً بك لكنت الآن سعيدة ولكنت الآن آمنة حين أقول لك إنى أقبلك زوجا .

إنى يا صديقى قد أحببتك . . وقد أحببت فيك شيئاً خالداً . . أحببت فنك . . وفنك هو روحك ولكم كنت آمل أن أجد خطابك هذا الذى قرأته والذى أرده إليك يخبرنى أن لى عندك ما لك عندى ولكنك ، وهذا ما أحبه فيك ، صريح لا تبدى إلا ما تخفى . . ولقد وجدتك تحب فىّ شيئاً أنا واثقة أنه لن يدوم . فأيام الربيع قصيرة ، وهى للمرأة أشد قصراً فإن جاء الخريف وتلاه الشتاء وبحثت حولى ولم أجدك فواضيعتى يوم ذاك . . واضيعتى . . إننى أيها الصديق الحبيب ممن يعدون للشتاء منذ هم الربيع . ولكم يؤلمنى أن أخبرك أننى لن أقبل عرضك هذا . فالشتاء وبخاصة شتاء المرأة بارد قارس باهت وما أحب أن ألقاه وحدى لقد نعمت بما نلته منك . وبحسبى هذا من جمالى ذكرى . ولن أقول وداعا . . فإننى أحب دائماً أن أراك ، وسأظل دائماً أراك فالصداقة تستطيع أن تمتد إلى كل الفصول . . فإلى اللقاء . . إلى لقاء دائم .

●

عودة الزغاريد

« وكانت فايزة تحس بنظراته سواء كانت تراها أو كانت مولية له ظهرها . . كانت تحس النظرات ولا تراها » .

كانت الحاجة زكية لا تترك فرصة دون أن تطالب زوجها الحاج عبد الرحيم العجل بأن يزوّج ابنهما مدبولي الذى تجاوز مطالع الشباب والذى ترى أمه أن زواجه قد تأخر .

ولم يكن الشيخ عبد الرحيم يؤجل طلب زوجته عن فقر فهو بحمد الله غنى يملك عشرة أفدنة تنتظر الزيادة . وما كان يماطلها عن بخل فهو يحب ابنه أشد الحب ولا يرجو من حياته شيئاً إلا أن يسعد ابنه الوحيد هذا . . بل أن السبب الحقيقى الذى من أجله لا يريد الشيخ إتمام الزواج هو هذا الحب الذى يكنّه لابنه ، وقد كانت مطالبة زوجته تزيده إصراراً على التأجيل الذى قد يصل إلى الإحجام . . وكيف يقبل على تزويج ولده وهو ينظر إلى أمه هذه العجفاء التى لا يكاد جلدها أن يخفي عظامها . كومة من العظام حاول على السنين الطويلة . . الطويلة جداً أن يكسوها لحماً فلم تفلح محاولاته جميعاً .

لا يزال الشيخ عبد الرحيم يذكر ذلك اليوم الأغبر الذى أخبره فيه أبوه أنه كبر وأصبح لابد له من الزواج عملا بالحديث الشريف من استطاع منكم الباءة فليتزوج ولم يصبر أبوه حتى يختار هو العروس بل اختيرت له وتم الاتفاق على زواجهما دون أن يراها ودخل بها . . وكانت ليلة أسود من الحبر . . كانت عظاما ولم تكن زوجة . . وقد كانت أحلامه . . كل أحلامه أن يتزوج من امرأة . . امرأة ثقيلة الأرداف حتى لا تستطيع حملها ، إذا أمسك بذراعها غاصت أصابعه

فى تجاويف وكهوف من البشرية الحية الطازجة . . فإذا زوجته هذه العجفاء الهزيلة وصبر نفسه وقال قد أستطيع على الأيام أن أسمنها فأنا فى تسمين العجول بارع مشهود لى فى القرية جميعاً . ولكن براعته فى تسمين العجول لم تجد شيئاً فى تسمين الزوجة .

وعاش معها عشرين عاماً تزيدها الأعوام هزالا وتزيده هو يأساً وضيقاً بالزواج . وقد جعله ينصب نفسه مبشراً ضد الزواج فلا حديث له إلا أن ينفر الشباب من الإقدام على نصف دينهم وهو لا ينتهى عن ذكر الأيام الحالكة الظلمة التى قضاها فى ظل زواج جاف من امرأة ليس فيها من صفات المرأة إلا أن اسمها فى دفتر المواليد أنثى .

لم يحقق الزواج إذن من أحلام الشيخ عبد الرحيم شيئاً وأنه يريد ابنه أن يستمتع بحياته ويخشى عليه أن يلقى فى الزواج ما لاقاه أبوه من أهوال تطالعه بها الحاجة عزيزة التى ازدادت على الأيام عظاما وازداد وجهها غضوناً وازداد زوجها منها نفورا ولها كرها.

ولم يكن الشيخ يجد شيئاً يُفرح كربه منذ أيام زواجه الأولى إلا أن يظل ليله يستمع إلى فتيان القرية الذين أصبحوا على الأيام شيوخاً مثله وهم يروون مغامراتهم مع نساء . . نساء مكتملات لا كومات من العظام كذلك التى يتركها فى البيت .

وحديث الرجال فى القرية لا ينتهى حول النساء . فالأفواه لا تمل من ترديده والآذان لا تملّ من سماعه . فكيف إذن بالشيخ عبد الرحيم وهو الرجل الذى يعتبر نفسه غير متزوج .

أما مدبولى ابن الشيخ عبد الرحيم فله فى الزواج مذهب آخر . . فهو يفلح الأرض منذ استطاع أن يمسك الفأس . وقد كان يشاهد فايزة وهى تقدم بالطعام لأبيها صالح أبو عرابى الذى يعمل فى حقل الشيخ عبد الرحيم . وكان يعجب بقوامها الفارع وبابتسامتها التى تُومض ومضاً إذا سمحت للخمار الذى تضعه على نصف وجهها أن يسقط وكان يتدلّه بهاتين العينين يشع منهما بريق من الحياة ونشوة من الشباب . وكان يظل رانياً إليها وهى مقبلة ثم يظل رانياً إليها وقد حملت الأوانى فارغة وعادت بها فلا يَمَلّ النظر . . وكانت فايزة تحس بنظراته سواء كانت تراها أو كانت مولية لها ظهرها . . كانت تحس النظرات ولا تراها . وكانت تحس معها نشوة تدغدغ فؤادها الغرير ثم تحس للدعة من الفقر فإن الزواج غير متوقع بينها وبين ابن الشيخ عبد الرحيم الثرى القانط من الحياة والكاره للزواج كرها أصبح فى مثل شهرة الشيخ نفسه .

وكان مدبولى يعلم أن أباه لن يقبل هذا الزواج . . فهو يعلم أن أباه لا يحب من النساء إلا المليئات وفايزة فى مقاييس أبيه عجفاء لا تصلح للزواج . . . كما أنه يعرف أن أباه يحب أن يزيد أفدنته العشرة ببضعة أفدنة أخرى تجلبها له زوج ابنه ولن تجلب ابنة صالح أبو عرابى شيئا يزيد هذه الأفدنة . . بل هى ولا شك ستكلفه مهراً وليلة زفاف وفما يبتلع قد يصبح مع الأيام عدة أفواه من الأطفال . وهكذا كان مدبولى يُدرك أن أباه لن يُرحب بهذا الزواج بحال من

الأحوال . . فلم يجد مناصاً من أن يكتم هواه ويتظاهر امام أبيه أنه يوافقه على رأيه .

وكان من بين أصدقاء الشيخ عبد الرحيم . أحمد افندى متولى . رجل عاش عمره نصف فلاح ونصف حضرى فهو يذهب إلى المدينة كل يوم وللبيت فى القرية كل ليلة . وقد تزوّج من المدينة وجلب زوجته معه إلى القرية وامتدت صداقات الزوجة بزوجات أصدقاء زوجها . . وكانت زكية من بين أولئك الصديقات . وقد استطاع الشيخ عبد الرحيم أن يرى زوجة أحمد أفندى من بعيد ، وقد كانت هذه الرؤية البعيدة تكفيه أن يحكم على جمالها فما كان يعنيه من جمالها إلا أنها ذات قوام ملىء بل هى تزيد عن القوام الملىء فكان يكن لها إعجابا ويكن لزوجها حسدا وتزداد حسرته بامرأته العجفاء .

وفى يوم قالت زكية لزوجها :

ــ يا شيخ عبد الرحيم

وأجابها فى نفوره الذى لا يتغير :

ــ مالك ؟

ــ والدة الست هانم تعيش أنت .

ــ حماة أحمد أفندى ؟

ــ نعم . والمأتم اليوم فى البندر ، ألا أذهب للعزاء ؟

ــ طبعا . . أطلب لك عربة ونذهب معا . .

وذهبا . . وبينما هما عائدان رأى الشيخ عبد الرحيم فى عينى زوجته كلاما يثور بها أن تتحدث فلم يحاول أن يسألها حتى إذا بلغا المنزل واستقر بهما المقام أو كاد قالت زكية :

ــ أما يا شيخ عبد الرحيم ربنا رضى علينا .

ــ خير . .

ــ الست هانم لها ابنة أخت لو أصبحت من نصيب مدبولى . . وقاطعها الشيخ عبد الرحيم :

ــ يا امرأة حطى فى عينك حبة ملح . . أتذهبين للعزاء فتخطبين لابنك ؟

ــ ياأخى الحى ابقى من الميت . . بنت . . أما بنت . . مال وجمال .

ــ يا امرأة اعقلى .

ــ والله لو رأيتها لعرفت أننى أنا العاقلة . . وأمها تتمنى النسب .

ــ ماذا ؟

ــ أمها تتمنى .

ــ هل سألتها ؟

ـ النسوان يفهمن لغة بعضهن بعضا . . أخذت منها فى الحديث وأعطيت فوجدتها راغبة فينا أشد الرغبة . .

ـ فى مأتم أمها !

ـ وماله . . أمها مريضة من عشرين سنة . . أتنتظران تظل البنت عانسا لأن ستها ماتت عن مائة سنة يا أخى أرجو أن نعيش مثل عمرها . . أو حتى أقل بثلاثين سنة . المهم أن أم البنت . .

ويقاطعها الشيخ عبد الرحيم .

ـ خطبت البنت من أمها فى مأتم أم أمها .

وقالت زكية فى حزم :

ـ نعم . . وقبلت . . لو رأيتها تعذرنى . . عود يا شيخ عبد الرحيم . .

ـ وقال الشيخ عبد الرحيم فى سرعة .

ـ هيه . . رفيعه . .

ـ العفو عود . . عود ملىء ووجه كالقمر وأبوها غنى . .

ـ عرفت الأخبار كلها .

ـ بعد الأربعين نتوكل على الله .

ولم يجب الشيخ عبد الرحيم . . ومرت الأيام الأربعون . . مرت على الناس جميعاً سريعة لاسمة لها ولكنها مرت فى بيت الشيخ عبد الرحيم وهو لا يسمع شيئاً إلا عن جمال البنت .

علية وحلاوة علية وعود علية وغنى أبى علية وطيبة أم علية حتى أصبحت علية داء مستعصياً فى لسان زكية وفى أذن الشيخ عبد الرحيم وفى حياته . إنها المرأة حين تريد . . وقد أرادت زكية فهيهات أن يمضى الشيخ عبد الرحيم كان بين اثنتين أن يطيع زوجه أو يذهب واحد منهما إلى مستشفى المجاذيب ، . ولما كان الرجل لا يريد لنفسه ولا لزوجته هذه النهاية فقد أسلم أمره لله وأطاع زوجته . وكلم أحمد أفندى أن يحدد لهم موعدا عند عديله وتحدد الموعد وخرج موكب الشيخ عبد الرحيم ليخطب لابن الشيخ عبد الرحيم .

ولو كنت فى القرية يومذاك لرأيت الشيخ عبد الرحيم فى عمامته الجديدة وجبته المصنوعة من الجوخ الأخضر وتحتها القفطان الحريرى ذو الخطوط الحمراء ولرأيت الشيخ وقد أفلت ذقنه من الحلاق بعد أن سلخها فهى كالجزرة لولا بعض البودرة التى يعذر عليها العرق فتتناقص .

ولرأيت الست زكية فى فستانها الكريب دشين وقد غطته بالمعطف الأسود الحريرى واتخذت على رأسها خمارا يدور حول أسفل ذقنها شأن سيدات المدن .

ولرأيت خادمة المنزل فى فستان جديد وقد صحبتها الست زكية لتكون مظهر غنى ودلالة سيادة أمام الأصهار .. وقد امتنع مدبولى عن الذهاب أول الأمر ولكن أباه تحت وطأة الحاح أمه أمره فأدخل نفسه فى الجلباب الحريرى الجديد والمعطف الصوفى الذى وضعه على نفسه على رغم الحر الشديد وأدخل رأسه فى طربوش أحضره له أبوه .. وخرج الموكب ..

ولم تستطع زكية حين رأت نفسها وزوجها وابنها ، والخادمة فى العربة ذات الجياد المطهمة لم تستطع أن تملك نفسها فأطلقت زغرودة عريضة تردّد صداها فى القرية جميعا ولكنها لم تكتف بها بل ظلت طوال مرور العربة فى القرية تطلق الزغاريد ، وتفسر لزوجها السبب فى كل زغرودة تطلقها .. فهذه للحاجة فهيمة .. حبيبة العمر ولا بد أن تشاركها الفرحة وهذه لفاطمة العدو اللدود التى كرهتها منذ دخلت القرية ، وهذه للحاجة منيرة الحاضنة لتستدعى زغرودتها المشهورة وهكذا حتى خرجت العربة من القرية .

ولو أنك انتظرت فى القرية بضعَ ساعات لوجدت هذا الركب عائدا كما هو لم يتغير منه شيء أبدا إلا الزغرودة وزكية .. كان الركب عائدا بالعربة نفسها وزكية واقفة فى العربة وقد رفعت الخمار الذى كان يغطى رأسها وصفحتى وجهها وأمسكت به بيديها كلتيهما وراحت تحركه ذهابا وجيئة خلف رأسها . ثم راحت فى الوقت نفسه ترسل الأصوات النائحة الصارخة والكلمات الفاجعة .. يا مصيبتى .. يا قلة بختى .. يا خيبتى عملتها بيدى .. وتقلب عينك فى الركب فتجد الجميع لم يغب منهم أحد ولم يمت أحد بل أنك تجد أيضا السعادة فى وجوه الجميع ..

لقد ذهب الشيخ عبد الرحيم وخطب علية فعلا .. الفرق الوحيد أنه لم يخطبها لابنه مدبولى وإنما خطبها لنفسه ولعل هذا يفسر لك كل شيء من حزن زكية ونواحها إلى سعادة الآخرين وفرحهم .

فالشيخ عبد الرحيم فرح لأنه حقق أمله آخر الأمر . ومدبولى فرح لأن أباه قبل أن يزوجه فايزة مقابل أن يتزوج هو علية والخادمة فرحة لأن فرحين سيقامان فى المنزل بدلا من فرح واحد .

وجهات نظر

« ولم أستطع السكوت ، فهاجمتها فى عنف .. وثبت إلى ذهنى الابتسامات التى تومض وتختفى ، ووثب إلى ذهنى ذلك الرجل الذى يلازمها ولا يتركها ،، فثرت » .

قالت الزوجة : نعم إنه كان يشترى لى كل ما كنت أتمنى أن ألبسه .. فساتين ومعاطف من فراء الثعلب ومن فراء أجنة الخراف ذلك الذى نقول عنه الأستراكان شديد الغلاء ومعاطف من الزبلين والأرمين والفيزون .. لا أدرى ما هى هذه الأنواع من الفراء .. أو أننى على الأقل لم أكن أدريها وإنما لبستها جميعا ، وأثرت بها من الإعجاب ما أثرت بل أثرت بها أيضا الحسد والحقد فى نفوس الصديقات وغير الصديقات وكان يشترى لى المجوهرات والحلى .. من الماس واللؤلؤ والزمرد وغير هذا من الأحجار التى يخالها الناس لروعتها صناعية وهى حقيقية بعيدة الجذور والأصول . وكنا نقطن مسكنا إن رآه مخرج السينما لأخرج عنه فيلما وأسماه بيت الأحلام .. أثاث من شتى الدول وبيوت الأثاث فى العالم أسهمت فيه بأوفى نصيب وكانت السيارة لا تكمل العام عندنا ، فهى دائما أحدث طرازاً وهى دائما أغلى نوعاً .

وأشهد لم يكن زوجى زئر نساء ، وأستطيع أن أقول عن ثقة إنه لو أحب أن يكون زئر نساء لأتاحت له نساء كثيرات ـ وكثيرات جداً ـ أن يتحلى بهذا اللقب ، ولكنه لم يكن .. وقد كان زوجى لا يشرب الخمر إلا فى حفلات تضم قوما تصله بهم مصلحة عمل .. وكان حينذاك حريصا كل الحرص ، خبيرا عميق الخبرة .. فإن كان للناس الذين تربطهم به مصلحة ميل إلى الشراب فهو يقدمه لهم إن كانوا فى بيته ، وهو يطنب فى وصف المشروب الذى يقدمه ، ويتحدث عنه فى إحاطة وعلم ومرونة . وإن كان هؤلاء القوم من الذين يميلون إلى الصلاة وذكر

الله والتمثُّل بآياته ، فهو حينئذ يمسك بمسبحة من المرجان الأحمر ذات حِلية من خالص الذهب ، ثم هو يدير الحديث إلى النحو الذى يستهويهم فيتحدث بالإحاطة والدربة والمرونة نفسها التى يتحدث بها عن الخمر وأنواعها . . وإذا أبدى أحد الجالسين إعجابه بالمسبحة نظر إلى هذا المُعجَب فإن كان ذا مكانة قد تنفعه ، عاجل يُهدى إليه المسبحة ، ويُصر على هذا الإهداء ، حتى يأخذها المعجب ، وإن لم يكن ذا مكانة كبرى استطاع فى لباقة أن يلوى الحديث إلى وجهة تبعده عن المسبحة . وكان منظر زوجى طريفاً حين يدعو إلى بيته فريقين ممن يرجو لديهم نفعا ، أحد الفريقين من هواة الخمر ، والفريق الثانى من هواة الدين ، فكنت تراه يمسك كأسه بيد ، وإحدى مسابحه المرجانية باليد الأخرى ، ويدير الحديث على الناحيتين موجها إلى كل فريق الحديث الذى يُرضيه .

كانت مصالحه هى كل شىء فى حياته ، وما كان هذا ليغضبنى لولا أننى وجدت نفسى فى بيته مصلحة من مصالحه ، ووسيلة من وسائله للبلوغ إلى أغراضه ، فهو لم يقدم لى هدية من حلى أو ملابس إلا وشفعها بجملته الخالدة أحضرت لك هذا لأننا سنتناول العشاء الليلة عند فلان بك أو فلان باشا .

كان يخيل إلى أننى معرض يضع عليه غناه ليرسل الثقة بما ألبس أو أتحلى به إلى نفوس المتعاملين معه . لم ألبس شيئاً غاليا إلا لأعرض على فلان أو فلان من الناس لم ألبس شيئاً له ولم ألبس شيئاً لنفسى ، ولم ألبس شيئاً لأننى أستحقه . . . ينسى عيد ميلادى وعيد زواجى وأعياد ميلاد أولادنا ، ولكنه لا ينسى أبداً أن يحمل لى معطفاً أو حلية غالية ، لأننا سنتناول العشاء أو الغداء فى مكان يضم قوما ذوى أهمية .

وكانت حياتى معه أشبه ما تكون بحياة الزائرين الرسميين فى البلاد الأجنبية فهو كل صباح يطالعنى ببرنامج اليوم من زيارات ومواعيد ، فأترك بطاقة فى بيت فلان ، أو ألبى دعوة من فلان ، أو أدعو فلانا آخر إلى وليمة . . قد يجد الزائر الرسمى ضمن البرنامج فترة يقضيها فى حرية ليشاهد معالم المدينة التى يزورها أما أنا فلم يكن لى هذا الحق ، فالبرنامج لا يفوت يوماً ، والبرنامج كامل لا يترك ساعة ، وقد يداخل الزائر اليومى أمل أن تنتهى الزيارة الرسمية ويعود إلى بلاده وحريته أما أنا فلا أمل لى ، فهو زوجى ومصالحه تزداد كلما تقدمت به الأيام ، والبرنامج ثابت لا يتغير فيه إلا الأشخاص .

تقطعت صلتى بالبيت ، تقطعت صلتى بالأولاد ، وأصبحت جزءاً من سيارته ، ومعرضاً لغناه ، ووسيلة لآماله .

ومرضت يوما فاعتذرت عن عدم تنفيذ البرنامج ، لازمت سريرى وجاء هو من الخارج وسأل أمه عنى ، فقالت إننى خرجت ، ولكنه دخل لوجدنى نائمة فى السرير فسألنى :

ـ أين كنت ؟
ـ هنا .
ـ أمى تقول إنك خرجت .
ـ لم يحصل .
ـ أمى لا تكذب
ـ وأنا لم أخرج .

وشتمني وشتمته ، وتركني وخرج ، قمت إلى ملابسي فجمعتها وخرجت تاركة الحلى والمعاطف لتنفع زوجته القادمة فى الدعوات التى ستلبيها .

ولم يطل بى الانتظار فى بيت أبى فقد جاءت ورقة الطلاق .

* * *

وقال الزوج : لا أعرف سيدة تملك من الفراء أو الحلى ما كانت تملكه زوجتى . . . لم أقدم إليها إلا أغلى الأشياء وأثمنها . ولم أر يوما ابتسامة شكر على وجهها . . لم ترض عن شيء أهديته إليها ، لم أر فى عينيها تلك السعادة التى طمعت يوما أن أرها فى عينيها . . لم يكن ينقصها شيء ، ولكنها مع ذلك كانت ساخطة دائماً مغضبة دائما ، لا ترضى ولا تدع لى فرصة أهنأ فيها بالسعادة التى حاولت أن أخلقها فى بيتنا بالمال الوافر الذى بذلت فى سبيله دمى وأعصابى .

كان الأصدقاء يدعوننا إلى الحفلات فتعتذر بوعكة ، أو تدعى المرض ، وحين أعود أجدها قد خرجت مع أصدقاء آخرين ، وإذا سألتها أين كنت ثارت وغضبت وراحت تصرخ فى وجهى ، فأسكت أو أذهب إلى أمى فى غرفتها حتى تنام زوجتى فأعود إلى غرفتى . . وكنت أخشى أن أطلقها فأجنى على أولادى ، وإن كان هذا التفكير فى ذاته يحتاج إلى إمعان . . فهى لم تكن تهتم بالأولاد ولا تعبأ بهم ، بل كنت أنا أراقب سيرهم فى الدراسة ، وأرعى من أمرهم مالا ترعاه هى ، وإن شغلتنى الحياة قامت أمى على شأنهم فى حدب يفتقدونه فى حضن أمهم فلا يجدونه . . إلا أننى — مع ذلك — كنت واثقا أن الأم ضرورة للأولاد لا يطيقون عنها غناء فصبرت طالما ألحت أمى أن أقسو أو أطلق ، فكنت أتغاضى عن قولها وأصبر . . فالطلاق فى حياة رجال الأعمال فضيحة ، وأنا لا أحب أن يلوك الناس اسمى ، فقد يؤثر هذا على مصالحى وعلى أولادى .

تكرر منها الاعتذار عن الحفلات التى تدعى إليها ، وتكرر اعتذارى أنا أيضا بمرضها ، وكنت ألمح على الوجوه التى تسمع الاعتذار شبح ابتسامة لا تبدو حتى تفنى ، ولكن بعد أن تترك فى نفسى هاجسا قوى الوخز ثم لاحظت أنها تلازم مجموعة معينة فى خروجها ، ولاحظت أن

بين هذه المجموعة رجلا فى مثل سنها غير متزوج ، ولا حظت أن هذا الرجل بالذات هو الذى يأتى بها إلى البيت ، ولا يفارق الجماعة حتى تفارقها هى وداخلنى الشك ، ولكنى أبعدته عن نفسى بحرصى على بيتى وسمعتى وسمعة أولادها . . أولادى . .

وفى يوم ادعت المرض وخرجت إلى عشاء كنت مدعوًا إليه عند « . . . » باشا وحين رجعت ذهبت إلى أمى أسألها هل زوجتى بخير فأنبأتنى أنها لم تعد إلا منذ دقائق . . . وقصدت حجرة نومنا فوجدتها فى السرير .

ـ أين كنت ؟

ـ هنا .

ـ أمى تقول انك خرجت .

ـ لم يحصل .

ـ أمى لا تكذب .

ـ وأنا لم أخرج .

ولم أستطع السكوت ، فهاجمتها فى عنف . . وثبت إلى ذهنى الابتسامات التى تومض وتختفى ، ووثب إلى ذهنى ذلك الرجل الذى يلازمها ولا يتركها . . فثرت . . وتركت لها الحجرة لأنام فى حجرة أخرى . وفى الصباح كانت قد غادرت البيت تاركة المجوهرات والفراء . وكانت الابتسامات ما تزال تلح على تفكيرى ، وكانت صورة صديقها مازالت ماثلة أمام عينى . . فطلقتها .

* * *

وقالت أم الزوج .

لم أر رجلا كان يهتم بزوجته مثل ما كان يهتم ابنى بزوجته ، ولم أر امرأة تقابل الهدايا الثمينة التى يقدمها إليها زوجها بهذا البرود والتعالى اللذين كانت تقابل بهما زوجة ابنى هدايا ابنى . . ومع ذلك لم يكن ابنى يكف عن إحضار الهدايا إليها ، ولم تكف هى عن برودها وتعاليها . . ولو اقتصر الأمر على ذلك لهان . . إلا أنها كانت تهمل أولادها . . أولاد ابنى ، فأقوم أنا على شأنهم ، وأرعى أمرهم مع أن صحتى لا تحتمل هذا ، ولكن ماذا كنت أفعل وأنا أراهم ضائعين ، ولا يهتم بهم أحد أو يراقب مأكلهم وملبسهم إلا الخدم . وانتهى بهم وبى الأمر أننى كنت أقرب إليهم من أمهم ، يحبوننى أكثر من حبهم لها ، ويلجأون إلى فى مطالبهم ، ولا يلجأون إليها . . فما كانوا ليجدوها فى البيت لو أرادوا اللجوء إليها .

ولو كانت تصاحب زوجها فى الدعوات التى يضطره عمله إلى تلبيتها لسكت . . فإن ابنى من رجال الأعمال الكبار ، وأصدقاؤه من الأغنياء ذوى الجاه والسلطان ، ولكنها مع ذلك لم

تكن تأبه بهؤلاء الأصدقاء العظام ، بل كانت تخرج دائما مع أصدقاء لها ، لا هم فى العير ولا فى النفير ، ومع ذلك لم أكن أتكلم ، وكم . وكم جاءنى ابنى يشكوها إلى فكنت أقول لا عليك يا ابنى إنها زوجتك على كل حال وأم أولادك فاحتملها فيسكت — يا عينى يا ابنى — ولا يتكلم .

إلا أننى سمعت من صديقاتى أن همسا يدور حول صلة بين زوجة ابنى وبين صديق لها فى الجماعة التى تخرج معها دائما . وسمعة النساء هى شرفهن وشرف أزواجهن وأولادهن . . ماذا أفعل ؟ إن كان ما سمعت صحيحا فهى مصيبة ، وإن لم يكن صحيحا فإن هذه أمور الكذب فيها كالصدق ، والسمعة هى ألسنة الناس ، ومادامت الألسنة تتحرك فى الأفواه فالفضيحة واقعة ، يستوى فى ذلك الكذب والصدق . . هل أخبر ابنى ؟ . . . لم أجرؤ فقد أشفقت عليه أن أفعل . أأطلب إليه أن يطلقها ؟ . سيسألنى لماذا وقد كنت تدافعين عنها .

وجاءت من عند ربنا . . عاد يوماً من عشاء كان مدعوا إليه ، ولم تذهب هى بدعوى المرض : وسألنى عند عودته عن صحتها ، فأخبرته أنها لم تعد إلا منذ قليل . . ولم أكن كاذبة . . الحمد لله لقد أصبح ابنى سعيداً فى بيته . . ولم يشعر الأولاد بنقص فى حياتهم . .

* * *

أتسألنى ما الحق فى هذا جميعه ؟ . . . وهل أدرى ؟ . . وكيف أدرى ؟ . . . أتستطيع أنت أن تدرى ؟ . .

استغفر الله

« وبلغت به الجرأة أنه صار يعلق البندقية على كتفه ويطلب البهائم فى رائعة النهار فإذا مقودها فى يده ثم ما هى إلا يوم أو بعض يوم حتى تلحق به الفدية » .

بكرت الشمس إلى مكانها من السماء فوجدت جماعة من قرية المهدية قد خرجوا من ديارهم وأخذوا سمتهم إلى طريق القرية الرئيسى الذى يؤدى إلى موقف السيارات العامة وكأن بينهم اتفاقا صامتاً على المكان الذى يقصدون ، فقد ألقى كل منهم إلى الآخر تحية وحاول كل منهم ما وسعه الجهد أن يكسو صوته برنين من الفرح . وساروا طريقهم . كانوا خمسة رجال عبد الصمد الحيانى ومسعود عبد الخالق وراضى عبد الرحمن والسيد أبو الليل ومحمد العضل ، وكانوا يقصدون إلى السجن ليستقبلوا سعد الله الحيانى بعد أن قضى فى السجن خمسة عشر عاما لارتكابه جريمة سرقة .

فأما عبد الصمد فهو أبو سعد الله . وأما مسعود وراضى والسعيد أبو الليل فهم أفراد العصابة القديمة وأما محمد العضل فهو شاب لم يعد الثانية والعشرين من عمره . أطبق الصمت عليهم بعد أن تبادلوا التحية وذهل كل منهم إلى الماضى والحاضر والمستقبل يفكر فيما كان وما هو كائن وما يحمله خروج سعد الله من جديد على حياته .

أما عبد الصمد فهو يدعو الله أن يهدى ابنه إلى صراط مستقيم حتى يتيح له الأمن على حياته ومستقبله وما تلبث الآمال أن ترنو إليه بعين طيبة . خمسة عشر عاماً لا شك أنها قد هدت العاصى وأسلست من طباع سعد الله ما كان جامحا . . وها قد تهيأ له من الأرض ما يكفيه فلو

أنه فلح أرضه لا ستغنى عن الليل وما فيه من سرقات مضرجة بالدماء . . . أكان سعد الله يسرق للمال أم هو حب المخاطرة والتلهف على مديح من معه والحرص على هذا الخوف يشيعه فى كل من حوله من ناس وبلدان . . . . ولكن خمسة عشر عاماً قد مضت فأى طريق يا ترى يسير فيه سعد الله . وأما مسعود فقد كان يفكر فى خروج سعد الله تفكيراً يختلف كل الاختلاف عن تفكير عبد الصمد . فقد قضى هذه السنوات يفلح الأرض فى غير معرفة بأسرار ها فامتنعت الأرض أن تكافىء جهده فهو منذ ذلك الحين فى فقر مدقع صاحبه احتقار قوم كانوا يُظهرون له الولاء فى ظل سعد الله حتى إذا خلوا به بعيدا عن زعيمه أنزلوا به المذلة والهوان وقد كان يعلم أنه لا يقدر على الليل وحده فهو منذ بدأ حياته فيه تعود أن يكون مقوداً غير قائد . وهكذا رضى عن المخاطرة التى تعود عليه بالربح الوافر بكسرة من خبز يغمسها فى الزجر العنيف الذى يأخذه به صاحب الأرض متولى العضل . فهو اليوم فى فرحة غامرة . . لقد عادت أيام المجد أو هى بسبيلها أن تعود ولينزلن الأهوال بكل هؤلاء الذين اعتدوا على كرامته وليكونن متولى العضل فى الطليعة منهم .

وأما راضى عبد الرحمن فهو حائر لا يدرى مصيره . فهو فى هذه السنوات قد أخذ نفسه أن يقوم بالسرقات الصغيرة التى لا تحتاج إلى كثير من شجاعته وليس يدرى اليوم أيستطيع أن يخاطر بحياته مرة أخرى ويشارك سعد الله فى مغامراته التى تغلب عليها الجرأة المجنونة التى لا تعبأ بالعواقب . . . فلقد تزوج وأصبح له طفلان وهو يريد لهذين الطفلين أن يجدا أباهما حتى يشتد عودهما ويتمكنا من لقاء الحياة .

وأما السيد أبو الليل فقد تجشم المسير حفاظا على الود القديم ، فما عاد له من الليل مأرب فقد أصبح اليوم عجوزاً يتوكأ إلى الستين من عمره .

وأما محمد العضل فهو ابن متولى العضل شب منذ وعى الحديث وهو لا يسمع من مسعود حديثا إلا حديث سعد الله وأيام مجده الأول فأحلامه منذ ذلك الحين ومسالك فكره لا موضوع لها إلا سعد الله إن نام رآه وإن صحا تخيله وإن لعب مع الأطفال كانت اللعبة حوادث سعد الله إذا سعى به السن إلى الشباب كان سعد الله مثله الأعلى .

وشاءت الأقدار أن يكون محمد العضل ضامر الجسم هزيلا ضئيلا وأدرك — منذ توقف جسمه عن النمو ألا سبيل له أن يكون شبيها لسعد الله أو رفيقا له فى مغامراته . . فالتفت إلى أرض أبيه يزرعها فأتقن زرعها وأخذ يحمل عن مسعود بعض عبثه راضيا أن يكون الثمن حديث مسعود عن سعد الله . . فما منعه ضعف جسمه أن يحب سعد الله بل لعل هذا الضعف قد زاده حبا له وإقبالا على الحديث يجرى عنه . فهو لهذا يتخذ سبيله مع هؤلاء القوم ليرحب

بالقادم العزيز ويراه فى أول لحظة يتمكن فيها من رؤيته لا يريد أن تفوته هذه الفرصة التى قضى الأعوام الطوال فى انتظارها .

ويبلغ القوم السجن والشمس تعلن الظهيرة ولم يطل بهم الانتظار حتى خرج إليهم سعد الله الجيانى . وتعانق الأب وولده ثم فرغ سعد الله إلى أصدقائه حتى إذا بلغ إلى محمد قدمه إليه مسعود بأنه ابن متولى العضل فصافحه وأشار الأب إلى سيارة أجرة قريبة من السجن وركبوا فيها جميعا واتجه الركب إلى القرية . وحين اقتربت السيارة من المهدية . وجدوا جماعة كبيرة من الناس منتظرة بظاهر البلدة تعلن فرحها بالطبل والمزمار . وأصر المستقبلون أن ينزل سعد الله من السيارة ويدخل بلدته بين مظاهر الحفاوة هذه التى ينتظرونه بها . . وكان ما أرادوا .

وحين استقر بهم المقام فى بيت عبد الصمد دار الحديث بعيدا عن السجن وإنما هى أنباء القرية وما جرى فيها . واستمع سعد الله واستمع ولكن سؤالا ما يزال يلح عليه إلحاحا غير هين يريد أن يلقيه ولكنه ينتظر من القوم أن يفصحوا عنه دون سؤال ولكن الأحاديث تدور والأنباء تلقى إليه واحدا بعد الآخر وليس عن جواب هذا السؤال كلام . وكأنما دبر القوم مؤامرة صمت فيما يتصل بهذا الموضوع وطال صبر سعد الله وطال حتى لم يعد يستطيع صمتا .

ـ أين عبد الهادى الأكتع ؟

وكأنما كان الحديث آلة عظيمة الضجيج أصابها العطب فجأة فهوم الصمت المفاجىء على أجزائها . . صمت الجميع ونظر كل منهم إلى الآخر وعاد سعد الله يقول :

ـ خير يا جماعة . . هل أصابه شىء ؟

وعاد الصمت مرة أخرى وعاد سعد الله يقول :

ـ لابد أن شيئا أصابه وأنتم تخفون . . . لا يمكن أن يتأخر الأكتع عن لقائى .

وكان سعد الله محقاً . . فعبد الهادى رفيق العمر . . لعب وسعد الله فى الملعب الصغير فى ظل الطفولة ثم كان صديقه الأول ويده اليمنى فى مغامراته — لقد صاحب سعد الله حياة الأكتع جميعاً . . بل لقد شاهد الحادثة التى جعلت اسمه الأكتع . فى ذلك اليوم السحيق البعد من تاريخها يوم داست الجاموسة على ذراعه وتناوله حلاق الصحة بما زاده سوءاً حتى إذا أدركه الطبيب أصلح ما أمكنه إصلاحه من الذراع المهشم فظل عبد الهادى بعد ذلك بذراع ينثنى ولا يمتد ولم تكتف القرية بهذا الذى أصابه وإنما أطلقت اسم الأكتع فلازمه وظل يكبر معه ومع الأيام حتى اندثر اسمه الأصلى وهو عبد الهادى أبو جراد . وحين كان سعد الله يمازحه .

ـ أراك لم تغضب من قول الناس عنك الأكتع .

فكان يقول فى ابتسامة خالية من الغضب :

ـ الحقيقة أن اسم الأكتع أحسن عندى من اسمى الأول فسعد الله محق إذن حين يسأل

عن الأكتع ويلح فى السؤال ولم يجد مسعود بداً آخر الأمر من أن يقول :
ـ لقد كون عصابة وأصبح رئيسها وأظنه يخشى أن يجىء حتى لا تجعل منه مساعداً مرة أخرى .

وتصعق القوم دهشة آخذة حين يجدون سعد الله قد انفجر ضاحكا مقهقهاً لا يتوقف ثم يقول والضحكة مازالت عالقة بألفاظ حديثه :

ـ .. لا .. حد الله بينى وبين هذا .. دعوه يأت ، فلن يجد عندى ما يخشاه .

ويفرح الأب بهذه الإجابة تدنيه من الأمل الذى طالما داعبه ، وتهدأ الحيرة فى خاطر راضى ويقول فى نفسه « بركة يا جامع .. » ويأخذ الجزع بمجامع مسعود فإنه يرى الأمل الذى عاش له طول هذه الفترة يوشك أن يولى ولكنه ما يلبث أن يقول لنفسه يطمئنها لعله ينتوى أمراً جليلا لا يصلح له الأكتع وتوشك نفسه أن تصدقه . ويظل محمد العضل حائراً لا يدرى ما يقصد إليه سعد الله بهذا الحديث الذى يسوقه .

ويأتى الغداء فهو غداء ضخم فخم يتصدره خروف بأكمله ويعود الحديث إلى الضجيج يصاحبه ضجيج آخر من مطالب الطاعمين حتى إذا رفعت الأطباق والصوانى علا فى السماء صوت الأذان فإذا بسعد الله يصاحب كلمات الأذان .

ـ الله أكبر ... الله أكبر ... هيا يا أبى تقدمنا لنصلى العصر .
ويقلب ملىء بالفرح تقدم عبد الصمد وخلجات السرور تهز صوته هزا .
ـ الله أكبر .... الله أكبر ....

وانتظمت الصفوف من خلفه ولكن مسعود لا يطيق . لم تعد الأيام القادمة تحمل له من المجد الضائع شيئاً فهو ينفتل من باب البيت ويلحق به محمد العضل .. أهذا هو سعد الله ! ها هو ذا يقيم الصلاة شأنه القرية جميعا .. لكم غررت به الأحلام .

شاع أمر سعد الله بين الناس وتسامعت القرى من حوله أنه قد تاب إلى صراط مستقيم وأنه يقيم الصلاة ولا يقبل الحرام ... وباركوا منه هذه التوبة وفرح هو بمباركتهم وسعت به وبهم الأيام .. عجيب أمر هؤلاء الناس ما له يرى من كان يحييه خائفاً مرحباً قائماً غير جالس قد أصبح اليوم يلقاه فى يسر وهدوء وجالساً غير قائم ؟ أتراه اختار طريقا غير جدير به ؟ أين التحايا الهاتفة ؟ أين الترحاب المشرق .. أين الإجلال والإكبار حيث بدا ؟ أين هذا جميعه ؟ بل إن بعضهم قد زاد الهوان هواناً فأصبح يطالب بحقه فى رى أرضه قبل أن تروى أرض سعد الله .. وأن بعضهم ليطالب بالجرن قبل أن يدرس قمح سعد الله حاول أن يقول « اختشوا » أو « النار لا تأكل حطبها كله » أو يقول « أنا سعد الله » فلا يرى إلا ابتسامة متهافتة

ووجها مزوراً وحديثا على الشفاه يوشك أن يقول « كان زمان » لولا أن تمسك به بقية من خوف أو بقية من ذكرى

بل إن مسعود لم يعد يأتى إليه فإن مر أحدهما بالآخر فتحية عابرة لا أثر فيها من الماضى الطويل . . . بل الأدهى من ذلك . . محمد العضل الذى أحس فى أول لقاء لهما أنه يحمل له إكباراً وتقديساً . . هذا المحمد العضل الهزيل الضامر القمىء ينظر إليه فى سخط وكأن بينهما ثأراً دفينا . هيه يا دنيا . . أهكذا . . ألا بد لى أن أحمل السلاح الصاحب القاتل حتى أنال التبجيل والاحترام ؟ أما يكفى سلاح الإيمان والطيبة ؟ والاسم القديم ألا يكفى ؟ ألا يكفى ؟

تحمل سعد الله هذه الأيام فى صبر رَاض نفسه عليه لا يبدو منه غير الصمت ولكنه فى دخيلته كان مرجلا يغلى وكان يحس أنه يصبر فيزيده شعوره بأنه يصبر ثورة على ثورته .

وفى يوم صحا سعد الله من نومه فلقيه من أهله وجوم وصمت ، ما لبث أن عرف أسبابه . . . لقد سرقت البهائم فى الليل . . جاموسة وثور وبقرة .

لم يكن بين البركان فى نفسه وبين أن يثور إلا قشرة رقيقة إن هى انتزعت فهى الثورة الآخذة الماحقة . ولم يكن ما انتزع قشره . وإنما هه ضربة تغور فى أعماق النفس وتغور حتى تصل إلى القاع . . هل قدر لسعد الله أن يقبل هذا ؟ لا ودون ذلك الحياة والموت .

لم يتمهل سعد الله فقد طالما تمهل . . . انطلق إلى مسعود

ــ سلاحك عندك ؟

ــ نعم .

ــ هاته واتبعنى .

وانسعر سعد الله الهادىء الطيب ليعود سعد الله الجامح الذى لا يقف به أحد أو شىء . . . هو النار . . قتل الأكتع أول ما قتل واسترد بهائمه . . ثم أصبح يقتل الناس ويأخذ بهائمهم . . ثم أصبح يأخذها ويردها بعد دفع الفدية عنها . . ومحمد العضل يتسمع هذه الأنباء فتعود نفسه إلى إكبارها لسعد الله ويزداد الإكبار ويزداد . . فقد أصبح يسمع الأحداث ويشهد آثارها . . . وإنه اليوم ليتقرب إلى سعد الله ولكن سعد الله اليوم يشيح عنه فى عزة واستكبار . . . وعادت القرية تقف لسعد إن لاح ظله أو شبيه لظله من بعيد ، وعادت الحياة تسقى أرض سعد أول ما تسقى . وأصبح الجرن يدرس قمح سعد الله أول ما يدرس . . . . عاد سعد الله على أروع ما يمكن أن يعود .

وبلغت به الجرأة أنه صار يعلق البندقية على كتفه ويطلب البهائم فى رائعة النهار فإذا مقودها فى يده ثم ما هى إلا يوم أو بعض يوم حتى تلحق به الفدية .

وفى يوم قصد سعد الله إلى حيث يربط محمد العضل بهائمه وطلب إليه البهائم . وذهل العضل . . . فهو لم يفكر يوما أنه سيكون ضحية لسعد الله . . إنه يحبه ويعجب به ويقدره على أن تكون الضحايا قوما آخرين . . . أما هو . . . إنه لم يتصور هذا فى يوم من الأيام . . . . وبفم فاغر من الدهشة وقلب كسير من الحزن أسلمه مقود البهائم . . وعاد إلى أبيه يخبره أن سعد الله يطلب خمسين جنيها فدية للجاموسة والبقرة والحمار وثار أبوه ثم خرج يدبر أمره . لم يهتم العضل بالخمسين جنيها وإنما راعه هذا الذى حدث . . . . إذن فهذه هى البطولة التى كان يحلم بها . . إذن فتلك هى آماله وأحلامه ومثله العليا . . . . يا لضيعة عمره . . . أهذا هو المجد الذى لم يتصوره إلا ويشب اسم سعد الله إلى ذهنه وروحه وقلبه ؟!

عادت البهائم بعد أن دفعت الفدية ولكن نفس سعد الله لم تكن قد شفيت من محمد العضل الذى ظل فترة طويلة يتجاهله . . . ونفس مسعود أيضا لم تكن قد شفيت من الهوان الذى لقيه خمسة عشر عاما على يد متولى العضل . فما هى إلا أيام قلائل أخرى حتى ذهب سعد الله ومسعود إلى محمد العضل وقد أبى سعد الله أن يصحب أحداً آخر من أفراد عصابته فما كان محمد العضل جديراً بغير اثنين وإنهما لكثير . . وحين بلغ الاثنان مكان محمد وجدا إلى جواره رجلين آخرين يرقبان جملين لهما يرتعيان فقال سعد الله .

ـ لقد تضاعف الصيد .

ودون أن يكلف نفسه عناء استعمال البندقية المعلقة على كتفه تقدم إلى الرجلين وطلب إليهما أن يسلماه جمليهما ففعلا صامتين . وأمسك مسعود بزمام الجملين وتقدم سعد الله إلى محمد يطلب إليه البهائم ونظر إليه محمد نظرة حسيرة ثائرة . . هذا الهوان الذى لا هوان مثله . . أمرتين فى أيام قلائل أيكون هذا إلا تحديا ؟ وقبل أن يجيب ؟ بل وقبل أن يمعن التفكير وجد نفسه يرفع الفأس فى ثورة مجنونة ويهوى بها على سعد الله وفى لمحة خاطفة كان واحد من صاحبى الجملين قد هوى على مسعود فجرده من سلاحه ثم انهال عليه ضربا ، ولم تمض لحظات حتى كان سعد الله ومسعود خبراً مضى وجثتين يتولى أمرهما النهر الصغير الذى يروى قرية المهدية فيما يروى .

وأدهش القرية هذا الهدوء الذى ران عليها بضعة أيام . . . ثم ما لبثت دهشتها أن زالت يوم أعلن موت سعد الله ومسعود ولكن دهشة أخرى صغيرة كانت تنتظر القرية . . لقد أصبح محمد العضل تقيا لا يترك فرضا أو سنة . . ولاتنى شفتاه عن التمتمة وأصابعه عن تحريك حبات المسبحة . ولو قدر لأحد أن يسمع حديثه إلى الله لما سمع منه إلا استغفر الله . . استغفر الله . . . . استغفر . . .

طوق حول العنق

« وقرأت خطابها على أمين .. ولم يصدق أمين أذنيه .. أصحيح ما تتلوه عليه زوجته .. أحقاً يتحقق الأمل » .

وكيف لا يحبها فيبلغ حبها أقصى غايات الحب ، وكيف لا تحبه فتفنى فيه وترى الدنيا فلا تراها إلا من خلال عينيه ، تلتقى بالحياة فلا تلتقى بها إلا من خلال نفسه .

إنها هواه القديم الجديد ، إنها هواه الطفل وهواه الفتى وهواه الشاب إنها حياته .

وإنه هوى الأيام الخالية من الطفولة وهوى الأحلام الغريرة من الشباب وإنه هوى المستقبل النشوان الضاحك الجذلان .

تعارفا فى المهد وقد جمعت بينهما أخوة تجمع بين أميهما وصداقة تجمع بين أبويهما وتعارفا فى ذلك السجن الصغير من الطفولة ، وذلك الملعب الذى تحيط به الأمهات أطفالهن أن تقودهم الخطوات الجاهلة إلى سلم لا يرحم الطفولة أو تقودهم هذه الخطوات إلى مقتنيات فى البيت غالية لا ترحمها الطفولة القاسية . . . لعبا فى ذلك السور الصغير الذى كان يحيط بهما ، وما لبث هذا السور أن أصبح حجرة ثم نما معهما فكان فناء ثم نما ونما فكان الحياة .

استقبلاها أول أمرهما لهواً ولعبا ونظرة إلى المستقبل مشرقة الابتسام ونظرة إلى الماضى ندية الحنين . لم يخطبها أبوه ولم تخطبها أمه . . . فقد كان زواجه بها أمراً مقرراً معروفا . . الكلام الرسمى فيه يضفى على حقيقته وواقعه شكا وما كان هناك شك كان يعرف أنه سيتزوجها كما يعرف أنه ذاهب إلى كلية الهندسة وكانت تعرف أنها ستتزوجه كما تعرف أنه لابد لكل فتاة أن تتزوج .

وفى انتظار انتهائه من كلية الهندسة انتظمت هى فى كلية الآداب . وقالت فى نفسها سأسبقه فى التخرج بعام ، ويكفينى هذا العام لأجهز بيت الزوجية .

وفى هذه الشعاعات الحلوة من الأوهام استقبل كل من العروسين الحبيبين حياته فى الجامعة . وانطلق كلاهما لاهثا يعدو السنين يدفعه الحب ويجذبه الأمل فما عرفت كلية الهندسة طالبا انتهب علومها فى إقبال ووعى كما كان أمين ، وما عرفت كلية الآداب ، طالبة تقبل على موادها فى إشراق وثقة ونجاح كما كانت وفاء .

ومرت السنوات الأربع قصارا باللقاء النشوان ، والأمل المزدهر ... طوالا بالأيام العصيبة من المذاكرة والساعات المفزعة من الامتحانات . مرت السنوات وتخرجت وفاء فى كلية الآداب وفرغت إلى تجهيز بيتها وظل أمين يعانى عامه الأخير فى كلية الهندسة باذلا أقصى غايات الجهد أن يكون نجاحه خليقا بما يرجوه لنفسه من مستقبل وما يرجوه له حبه من مكان .

ونال أمين شهادته وأصبح معيدا بكلية الهندسة . وكانت وفاء قد انتهت من جهاز البيت . وكانت ليلة أصبح عليها الصباح فإذا الحلم واقع ، وإذا آمال السنين كلها حقيقة يعيشها كلاهما بكل نبضة سعيدة من قلبه وبكل خلجة فرحانة من دمائه .

اجتمعت السنون الماضية جميعها والآمال التى كانت آمالا . والوعود التى كانت وعودا ، والأحلام التى طالما طافت بعيونهما الوسنانة الهائمة الراضية الآمنة ... اجتمعت جميعها فإذا السعادة بعض من أيامها ، وإذا الحياة وقد طالعتهما بأيام صافية هى الحلم وهى الأمل وهى الواقع .

وكانت كلية الهندسة قد رشحته لبعثة إلى انجلترا وما هى إلا أشهر قلائل حتى تقررت هذه البعثة وقرر هو وهى أن يذهبا معا فتدرس هى فى الآداب ويدرس هو فى الهندسة ويرجع كلاهما يحمل شهادة الدكتوراه .

وهكذا شاءت الحياة أن تشغلهما بالبعثة عن الملالة التى يجدها السعيد من السعادة فانطلق كل منهما يجهز لها فى انشغالة فرحان يجتمعان عند الليل أو يتواعدان على لقاء فى المحال لهيفا كلاهما أن يفرغا من الشراء قبل يوم السفر .

وكان يوم .. طلبها بالتليفون واتفقا على لقاء ... وهناك التقيا وفى يدها الورقة التى كتبا بها ما يحتاجان إليه .

وقال أمين :

ـ هل ما زالت أمامنا أشياء كثيرة ؟

ـ أوشكنا ننتهى .

ـ أين تريدين أن نذهب أولا ؟
ـ نذهب إلى الترزى فاليوم موعد البروفة .
ـ آه فعلا . . . ولكن أخشى أن يعطلنا .
ـ لا تخف
ـ لنذهب أولا للشراء ثم نذهب إليه قبل الرَّواح .
ـ ما تشاء .

ولم يذهب أمين ووفاء إلى الترزى بل ولم يذهبا للشراء وإنما قادته إلى سيارة للاجرة أنزلتهما عند باب البيت وقادت خطواته إلى حجرة نومه . ملهوفة جازعة فما استقر بها المقام حتى كانت يدها على التليفون تستدعى كل من تعرفه من الأطباء .

عمى . . . عَمَى كامل . . . ولا أمل فى الابصار . لم تكن عبثاً هذه السعادة الطويلة فقد كانت الأيام حُبالى عن مستقبل شائه أسود مقيت ، عَمَى . . . وهو المهندس . . . ماذا يصلح للدنيا بعد اليوم . . . لا شيء . . . لا شيء إلا هذا الكرسى وذلك الفراش وذلك الطعام الذى يلقى فى جوفه لا يعرف لونه إلا بالذكرى . . . لا شيء إلا آلة خربة تدور واقفة فلا تغنى فإنها لا تغنى إلا إذا تحركت ورأت . . . لا شيء إلا ظلام يراه وظلام فى مستقبله . . . لا شيء .

أيَعمى أمين . . . زوجى . . . . فديته . . . بعينى . . . بحياتى وبأغلى من العين والحياة إن كان هناك أغلى من العين والحياة .

وهل ينفع الأسى أو ينفع الفداء . . . هيهات .

مرت الأيام سوداء قاتمة السواد لا وميض فيها من الأمل إلا هذه الخطابات التى راح أمين يمليها على زوجته إلى جميع الأطباء العالميين يشرح لهم حالته شرحاً دقيقاً مفصلا مستعينا بالأطباء الذين حملوا إليه نبأ الفاجعة ، وعاد البريد بالإجابات فكانت وفاء تقرأها وحدها وكانت وفاء تحرقها وحدها فقد كانت جميعها تحمل حريق الآمال ، وكان أمين يسأل وكانت تجيبه أن الرد على الخطابات لم يأت بعد فيتردَّد أمله بين اليأس والرجاء وتذوى هى وحدها فى وهدة اليأس .

ثم جاء خطاب من لندن . . . أن عملية يمكن أن تتم لهذه الحالة لو تبرع له شخص بإحدى عينيه . وفى حزم مستقر ويد ثابتة كتبت وفاء خطابا آخر . . . إن عملية يمكن أن تتم إذا جاءت هذه الحالة إلى لندن حيث يمكن العثور على عين سليمة من بنك العيون .

وقرأت خطابها على أمين . ولم يصدق أمين أذنيه . . أصحيح ما تتلوه عليه زوجته . . . أحقا يتحقق الأمل . . . فما هذه النبرة الواجفة الحزينة التى شاعت فى صوت وفاء فلم تستطع أن تتغلب عليها بمظاهرة الفرح التى قدمت بها للخطاب التى قرأته بها . . .

كانت البعثة للدكتوراه فلتكن بعثة للحياة . . . وللدكتوراه أيضاً . . . ولم لا ياوفاء . . . إذا نجحت العملية . . . إذا نجحت . . . نحقق آمالنا . . . وفاء . . . لم لا . . . فيم أنت مفكرة ياوفاء . . . وفاء . . . واستطاعت وفاء أن تصحو مما تفكر فيه لتقول له فى نبرة تترجح بين الأسى ومحاولة الفرح :

— آه . . . نعم . . . ولم لا .

وسافراً يداً تمسك يداً ، وقلبا واجفا يهدى قلبا واجفا ، وأملا حزينا خائفا يقود أملا سعيدا خائفا . . . سافرا .

وتمت العملية ، بل تمت العمليتان . . . انتزعت عين مليئة بالحياة من وجه وفاء ووضعت مكانها عين جامدة موات . وانتزعت عين جامدة موات من وجه أمين ووضعت مكانها عين مليئة بالحياة . . . هى عين زوجته أطل منها إلى الحياة . . .

فداك عيناى أمين . . . أما كنت أرى الدنيا فلا أراها إلا من خلال عينيك . . . وفداك نفسى أمين أما كنت التقى بها إلا من خلال نفسك . . . فداك أمين فداك .

ورأى أمين . . . رأى الحياة مرة أخرى ، وهتك هذا الستار الذى أسدله عماه بينه وبين الدنيا وقد كان أعظم ما يكون إقبالا عليها . . . رأى ورأى إلى نفسه فى المرآة . . . فأما عينه التى لا ترى فهى كما هى حوراء جميلة لا يستطيع أحد أن يعرف أنها لا ترى . . . فما كان بها من عيب إلا أنها لا ترى . . . وفاء . . . إنى إنى أرى . . . وفاء . . . إنى . . . ونظر إليها ثانية . . . وثالثة . . . ثم حدق . . . ، وأطال التحديق أطرقت وفاء فرفع وجهها إليه فرأى الدموع تسيل ورأى عينا حمراء من أثر الدموع وعينا جامدة . . . وفاء . . . وفى صرخة أطلقها الخوف والحب والشعور بالتضحية التى بذلتها له عرف كل شىء . . . أهذه عينك التى أرى بها . . . وفاء . . . ودون أن يبالى بأوامر الأطباء ، أو يحاذر على الأمل الذى انفسح أمامه انتفض من سريره وركع تحت أقدامها يقبل أقدامها . . . بل يقبل حذاءها .

ـ أصبحت بعين واحدة يا أمين .

ـ أحب عينك التى لا ترى أكثر من حبى لعينك التى ترى . . بل أكثر من حبى لعينى التى ترى . . . وفاء . . وبكى وبكى . . . وقالت وفاء :

ـ لقد وهبت لك عينى فاحرص عليها ولا تضع عينى عبثا .

ورنّت الكلمة فى أذنه واستقام معناها فى عقله فامتثل أمرها وأطاع أوامر الأطباء . . . ونجحت العملية وخرج إلى الحياة .

وعاد الزوجان إلى أملهما القديم من الدكتوراه . وانتظم كل منهما فى عمله .

وتعود أمين أن يرى زوجته بعين ترى وبأخرى جامدة . وتعود أن يرى حبها له فى عين حين يرى عينها الأخرى باردة خامدة لا حب فيها ولا مشاعر ولا حياة . . . ويكاد يضيق ثم يذكر أنه لولا هذه العين ما رأى حبا ولا حياة ، وأنه لولا هذه العين لظلت عينا وفاء لها تنظران إليه بإشفاق ما أبغضه . . . سواء رآه أو لم يره . ثم يحس خليطا من المشاعر بعضها ساخط لأن زوجته لا ترى بغير عين واحدة ، وبعضها ثائر لأن تضحية زوجته من أجله لا سبيل إلى ردها أو شكرانها ، وبعضها ضائق لأنها بتضحيتها قد أحاطت عنقه بمثل طوق الكلب الوفى لا يستطيع عن سيده فكاكا وبعضها خزيان لأنه يسمح لهذه الأفكار أن تمر بخاطره .

وألح عليه شعوره بأنه كلب يدين بالوفاء لزوجته . . . وكان هذا الشعور لا يبارحه بل هو يطالعه حتى وهو فى دراسته . . . وكثيرا ما فكر أن يتحرر منه ثم ما يلبث أن يعود إليه مرغما كارها . وكانت سكرتيرة الكلية التى يعمل بها فتاة فى ريق العمر . . . وكانت ترى بعينيها كلتيهما . . . وكانت عيناها جميلتين تفيضان بالحياة وبالجرأة . . . وكانت بينهما صداقة . . . واستطاعت الصداقة أن تتطور فى يوم من الأيام إلى موعد . أول موعد يعقده أمين مع فتاة أخرى غير وفاء .

عاد أمين إلى البيت ولم تكن وفاء به ووضع على نفسه أنفس ما يملكه من ثياب وتأنق فبالغ فى التأنق ونظر إلى المرآه فطالعه وجهه جميلا وطالعته قامته ممشوقة ونسى أنه ينظر بعين وفاء ولم يعد يذكر إلا أنه يرى مشاعر تنبعث من عينين معا لا من عين واحدة وإلا أنه يريد ألا يصبح كلبا . . . وملأه الزهو بشبابه وجماله ونزل إلى الطريق وسارها خطوات . . . خطوات قليلة ثم أراد أن يعبر الشارع فى زهوه ما يزال فإذا سيارة فى الطريق تغول الطريق فى سرعة نافذة تندفع إليه ، وكانت آتية من جهة عينة التى ترى فإذا هو ينسى زهوه ينتفض فى لهفة محب للحياة يوشك أن يموت فإذا هو على الطوار الآخر لم تمس منه السيارة إلا طرف حذائه . . . الحمد الله . . . ماذا لو كانت هذه السيارة قادمة من الجهة الأخرى . . . الجهة التى لا تبصر . . . بل ماذا لو لم تكن لى عين وهبتها لى زوجتى . . . زوجتى الحبيبة وفاء . . . وفاء . . . وفاء التى لا ترى إلا بعين واحدة الأخرى هى التى أنقذتنى الآن ، . . . يالى من كلب .

وظل واقفا على الطوار حائرا خزيانا ثائرا يضع أصبعه بين ياقة قميصه وبين عنقه . . . إن الطوق ما يزال حول عنقه .

ربيـــــــع

«واليوم عاد الربيع .. هكذا يقول الوقت ولكن أين الربيع مع الخوف ... أين الربيع» .

أهلا ربيع ... جئت فى موعدك لم تستطع قوة أن تدفعك عن أن تعود فى موعدك ، جئت لم تتأخر وما كان لك أن تتقدم ، جئت وقال الناس جاء الربيع ، لفظة تحركت بها ألسنتهم ثم استكانت الألسنة وانطبقت الشفاه على الشفاه وهوم حول الناس صمت وانقطع حديث وتطلعت العيون إلى فراغ حولها يملأه وما حاولت أذن أن تمتد فالناس ، كل الناس وأنا منهم يعلمون أن ليس فى الأجواء موسيقاك ، ولا نظر الناس يبحثون عن آثارك ، فليست هناك الأزاهير والورود ، لا ولا هناك المدى الأخضر المنبسط مثل كف طيبة حنون ، وليس فى الماء صفاؤك ولا فى الجو أنسامك ، بل إن العبق الذى كان ينتشر مع مجيئك تخلف اليوم عنك فما فى الجو من عبق شذاك شذى .

أين أنت إذن أيها الربيع ؟ أين أنت ؟ ألم تعد إلا موعدا يحل وموعدا ينقضى ؟ فهل أنت إذن الربيع ؟ أين الجمال فى موكبك أين البهجة التى كانت تسير فى ركابك ؟ أين البدع الذى كان صديقا لمقدمك ؟

أين أنت فى نفوسنا ؟؟ .. أين هذا السرور الذى نحس به قبل أن نحس بك يدب فى خوافى خلجاتنا دبيبا وانى الخطو واضح الأثر ، يتمشى فى هدوء ولكن فى نشوة .. أيها الربيع هل جئت حقا ؟ نعم لقد جئت فهذا موعدك وما أحسب إلا أننى أقسو عليك قسوة منتظر لموعد أخلفه صاحبه ، أو قسوة من ينتظر الخير فلا يجده ، وإننى لأعلم أنك براء من كل تهمة ألصقها

بك ، فما ذنبك أيها المسكين فى موسيقى تخلفت عن مواكبك وجمال انحسر عن رفقتك وعبق صدف عن مسيرك . . لا ، لا ذنبٌ لك فى هذا ولا جريرة ، إنما نحن البشر . . لكم أسخر من نفسى حين أضم نفسى فى البشرية إلى هؤلاء الذين وقفوا دون رفقتك فصدوهم عن المجىء وما أنا ؟ شخص يعيش على هامش الدنيا لا تحس به الدنيا وتجتمع فى نفسى كل أحزان الدنيا وآلام البشر . ولكن ما ذنبى ؟ يلهو كنيدى هناك فى الضفة الأخرى من العالم أو يعبث خروشوف هناك فى عالم آخر لا أدرى من أمره شيئا ، فإذا لهو كنيدى وعبث خروشوف ينصبان على أنا . . أنا هنا فى مصر فالرعب يملأ قلبى ونفسى ومشاعرى فلا أرى من الربيع إلا تاريخه معلقا على صفحة ملصوقة بجدار .

لعلك أيها الربيع قد جئت ومعك هذه الرفقة التى تعودنا أن ترافقك كلما جئت ولكن أنا . . . أنا لا أحس شيئا منك ، وما لى أنا إذن كانت موسيقاك معك مادمت لا أسمعها أو كان جمالك فى ركابك مادمت لا أراه أو كان العبق منك ينتشر شذاه مادمت لا أشمه وكيف لى أن أحس بشىء من هذا وأنا خائف إن خلا قلبى من الخوف فليتسع للغضب الثائر تصبه على زوجتى . . . زوجتى المقيمة ببيت يضل عنه الهواء ، وتتعثر دونه الشمس فى زقاق متفرع عن حارة صادرة عن شارع نابت عن طريق عام بحى اسمه باب الشعرية .

زوجتى هذه آفتها قراءة الجرائد وقد انصبت هذه الآفة على حياتى أنا تنغصها ، فأنا من حياتى هذه فى إظلام الظلام أعظم منه إشراقا . زوجتى خدوجة بنت الشيخ عبد الصمد تعلمت القراءة على يد أبيها فى الكتاب وشقيت أنا بما تعلمت وبما تقرأ . زوجتى خدوجة بنت الشيخ عبد الصمد تتابع كنيدى واجتماعاته وخروشوف وأحاديثه فإن اختلفا — وهما لا يتفقان — فنهارى أسود من الحبر ، والحرب تقوم فى بيتى متوقعة الحرب فى العالم ، وويل لى من خدوجة وويل لى من كنيدى . وويل لى من خروشوف . . يا لسخرية الحديث ، جاء الزمن وأصبحت خدوجة توضع مع ساسة العالم . . العالم جميعه . . البشرية برمتها ، خدوجة . . خدوجة عبد الصمد توضع معهم جملة واحدة وسبحان الذى يغير ولا يتغير . ترى هل أحس كنيدى إذا ما دعا لحديث صحفى أو أحس خروشوف فى تفكيره السياسى ، هل أحس واحد واحد منهما أن هنا . . . هنا فى مصر . . وفى زقاق من حارة من شارع من طريق واحدة اسمها خدوجة عبد الصمد تسود عيشة زوجها ، بل وعيشة أولادها أيضا تبعا لركاب كل واحد منهما .

ما هذا العالم العجيب ؟! كيف يتاح لفردين مثلى لا يزيد واحد منهما عنى شيئا فكل منهما يأكل ويشرب ويمرض ويقطع طريقه إلى الموت ويقع فى الخطأ أكثر مما يصادف من الصواب ، كيف يتاح لهذين . . . وحدهما أن يؤثرا فى حياتنا كل هذا التأثير ؟! كيف استطاعا أن يدخلا إلى بيتى . . بيتى المنزوى عن البشرية ، المستخفى وراء الأزقة والحوارى والبيوت وبقايا البيوت بل والخرابات كيف استطاعا أن يدخلا إليه ويسيطرا عليه ويتحكما فى مصائر من به ؟! بل كيف

استطاعا أن يجعلا موسيقى الربيع قصفا من القنابل وزهر الربيع دماء من الجراح ، وجمال الربيع رعبا من الغد وهلعا من المستقبل ؟! من أعطاهما هذا الحق من حوله لهما ؟! أنا لم أنتخب كنيدى ولم أشارك فى اختيار خروشوف ، فلماذا يمنعان عنى الربيع ؟! ولماذا يثيران بيتى على فهو جحيم لا أطيقه ولا أجد لى ملجأ غيره ؟!

هأنذا فى الطريق العام ، لا أستطيع أن أعود إلى البيت والبركة فى كنيدى وخروشوف وأزمة ألمانية الشرقية وألمانيا الغربية . . أيصدق هذا أحد يا عالم ؟! أهذا معقول ما لى أنا ولألمانيا ولكنيدى ولخروشوف ؟! هل قلت لهما اختلفا ؟! زوجتى بثاقب نظرها تريدنا أن نهاجر إلى بيت أبيها فى الريف ، تريد ابنى الأكبر أن يترك الكلية الحربية ، وابنى الأصغر أن يترك كلية الطب وهذه الرغبات جميعها على أنا وحدى أن أنفذها مضافاً إليها مطلب آخر بسيط . . أن أترك وظيفتى فى القاهرة . . نعم تلك حالها منذ الحرب العالمية الثانية .

فقد فقدنا فى إحدى الغارات طفلنا الأول وكنت موظفاً آنذاك فى الإسكندرية ويعلم الله وأعتقد أن الجميع يعلمون انى لم أكلم هتلر بشأن الحرب ولا فاتحت تشرشل فى أمرها ، وإنما قامت الحرب بينهما وانضم إلى كل منهما من انضم دون أن أتدخل أنا فى هذا الموضوع على الإطلاق ، ولم تكن لى صلة بالحرب ولدى الذى فقدته وزوجتى التى فقدت عقلها أو تكاد منذ ذلك اليوم . أصبحت كلما ثارت بوادر خلاف عالمى تثور ثورتها ، وتروح تهيأ المنافذ من الخطر المحدق بها وبنا وأخرج من البيت وأظل هائما على وجهى لا أمل لى إلا أن تنام فأعدو فى خلسة من نومها وأنام لأعد نفسى لغد لا يختلف كثيراً عن اليوم وأظل عمرى طريد الأفكار والأخبار ورعب زوجتى ولا أجد ما يخفف على بعدى عن البيت إلا الجلوس إلى المقهى . . ولكن الأصدقاء هناك أيضا لا يسلمون من الخوف . . هم يتحدثون عن الغد فى رعب يخافون أن يلاقوا الحياة وليس فى يدهم من مال ما يستطيعون به أن يواجهوا الحياة ويخافون أن تقوم الحرب فتتخطف أرواحهم أو أرواح أحبائهم ويخافون ألا تقوم الحرب فيظل الكساد ناشراً عليهم بلواه ، ويخافون من رؤسائهم . . ويخافون من مرؤوسيهم . . خوف . . خوف فى نفوسهم .

أحاول أن ألعب أى شيء مما يلعبون ولكن أين لى بأرواحهم تصفو للعب وأين لى بروحى أنا تصفو للعب ، فأطوى اللعب ونعود إلى الحديث أو نعود إلى الخوف . . هلع يحيط بى . . هلع يحيط بى فى البيت وفى المقهى ، ولا أحب الوحدة ، وأخشى نفسى إذا انفردت بى فقد تعودت أن تخلق من الحديث ما يملؤنى رعباً أو ما يملؤنى ضيقاً .

واليوم عاد الربيع . . هكذا يقول الوقت ولكن أين الربيع مع الخوف ؟! أين الربيع ؟! ويل لهؤلاء الزعماء . كيف استطاعوا أن يحطموا الربيع . . . الربيع ؟! يحطمون الربيع . وبيتى ؟! أيحطمون بيتى ؟!

كم أحب الجلوس إلى ولدى .. كلاهما شاب فى بواكير الشباب الأولى .. أريد أن اتمتع بهما ... بنظرتهما إلى المستقبل ، وبحديثهما عما ينتظران من الحياة .. ولكن ما لهما صامتين يرنون إلى الحياة بعين ذاهلة ... جاهلة ... نعم ... أعلم .. لقد تدخل كنيدى وخروشوف فى حياتهما هما أيضا .. ماذا ينتظران من غدهما .. ألهما غد ... ويلى أين أذهب ... مالى ولهذا جميعه ... أريد أن أترك هذا جميعا وأريد أن أرى الربيع أليس فى مصر ... مصر جنة الله فى الأرض .. ربيع .. أين أجد الربيع .. ؟ .. فى النيل أبى الدنيا وأعظم ما جرى فيها من أنهار .. أصل الحضارات وأولها وقبرها .. النيل الضخم العريض الطويل .. أما أجد حوله ربيعا .. ظلا من الربيع .. إن لم يكن إلى ربيع سبيل ويل للنيل .. ما له يجرى هكذا صامتا .. أين الضحك فى موجاته ، أين الربيع فى رقراق مائه .. أين النيل ؟!

أترى أجد الربيع فى الحديقة .. أية حديقة .. حديقة من حدائق القاهرة الكثيرة البهيجة المترامية الأطراف .. لا ربيع هناك .. !

ويلى لم أكن فيما مضى من سنوات أبحث عن الربيع بل كان هو من يبحث عنى ، وكان دائما يجدنى .. لا .. لا ربيع .. ومع ذلك فهناك فى بيتى ورقة معلقة على الحائط تقول حل الربيع .. فأين الربيع .. ؟؟

ترى ماذا تفعلين الآن يا خدوجة ؟ .. ماذا تراك تفعلين . أنت بجوار الراديو كشأنك دائما تتصيدين الأنباء لتذكى بها الرعب فى نفسك .. وكأن ما بنفسك من رعب لا يكفيك . ألا يكفيك ما فعلت من تشريد زوجك لا يعود إلى البيت أو تنامى ، وتشتيت ولديك يجاهد كل منهما أن يترك البيت ما أمكنته الفرصة .. وأنت أنت تتابعين خروشوف وكنيدى وتتكهنين وترين المستقبل وليس فيه إلا الحرب .. رحماك يارب .

أين أذهب الآن ؟ ضاقت بى الطرق .. تمنيت أن أجد الربيع فى الطريق العام فلم أجد الربيع وفقدت نفسى ولم أجد إلا خوفى .. خوفى الذى لا يتركنى وكرهى أن أعود إلى البيت . ومالى من سبيل غير العودة إلى البيت .

أتراى أجد أحدا من ولدىّ قد عاد .. أتراى أستطيع أن أجلس إلى واحد منهما بعض الوقت .. أريد أن أجلس إلى واحد من ولدى .. ها هو ذا النور ينبعث من منزلى .. إنه نور خافت لا إشراق فيه .. نور المصباح الذى تضعه زوجتى على الراديو .. إذن فهى وحدها .. حسبى الله ونعم الوكيل .. لا بد أن أدخل لقد تعبت قدماى .. نعم أعرف أول سؤال ستقوله .. أعرفه .. أعرفه هل أحضرت جريدة بعد الظهر .. ! لا يمكن إلا أن تسأل هذا السؤال .. هيه ... بسم الله الرحمن الرحيم .. ها هى ذى قد سألت سؤالها ... هل

أحضرت جريدة بعد الظهر ؟ . . يارب . . . يارب . . . أنت وحدك من تستطيع إنقاذى من كنيدى وخروشوف . . . و . . . خدوجة . . .

ولدى .. ألا تعود

« وماذا يهمنى من أمره مادمت أنت لى ويداك الصغيرتان تعرفان طريقهما إلى وجهى ولسانك المضطرب الصغير يعرف طريقه إلى قلبى » .

ولدى .. لماذا يا ولدى .. لماذا ... أنت كل شيء فى حياتى ، وليس فى حياتى معنى أعيش له وبه إلا أنت ، أنت كذلك منذ عرفتك ، ومنذ عرفت أنت الحياة فقد جئت إلى يا بنى وأنا أضيق بحياتى مع أبيك ، فقد تزوجته على غير رغبة منى .. أنت تعلم ذلك — نعم تعلمه .. لقد أخبرتك بقصة زواجى من أبيك ، نعم وكنت تضيق بها وأرى ضيقك فى عينيك كلما أعدت عليك القصة ولكن لماذا تضيق ؟ .. ولمن أقول إن لم أقل لك ؟ وعلى من أعيد قولى إن لم أعده عليك ؟ حملتك تسعة أشهر وحملت عبئك اثنين وعشرين عاما وخمسة أشهر ، ألا تحتمل أنت فى مقابل هذا الكثير الذى بذلته وأبذله لك أن تستمع إلى أكرر قصة يريحنى أن أكررها .

أخبرنى بربك .. أكنت تضيق بهذه القصة لو كانت ميرفت هى التى ترويها لك وتكرر روايتها .. لا أظن . قد رأيتك وهى جالسة أمامك تتحدث — وعلى فكرة — هى لا تجيد الحديث ، ورأيتك أنت تستمع لحديثها بعينيك ووجهك وكل ومضة فى جبينك ، وكل ابتسامة على فمك .. لكم كرهت ميرفت وهى ابنة أختى ، بل لكم كرهت أختى لماذا تنال منك ما لا أستطيع أن أنال ؟ أنا التى لم أعرف حياتى إلا يوم عرفتك ، والتى لا أعرف لحياتى معنى إلا بك . فقد تزوجت أباك كما قلت لك وأنا لا أحبه فقد كان أبى يعمل فى وزارة المالية وكان يتوق إلى زواجى بأى إنسان . فكان أباك . كان زميلا له فى المكتب وقد رقى بعد عامين رئيسا لأبى

وقد كان أبى يكبره بسنوات وسنوات وكانت حجة الحكومة فى تعيين أبيك رئيساً لأبى حجة عجيبة تدعو للدهشة . فقد قيل يومذاك إن أباك حاصل على الشهادة العالية فى حين لم يكن أبى حاصلا إلا على الإبتدائية . ولعل هذا كان صحيحاً ولكن الحكومة نسيت فى ذلك الحين أن الإبتدائية التى حصل عليها أهم بكثير من الشهادات العالية مهما تكن عالية . ولكن الحكومة أرادت أن أتزوج من أبيك فجعلته رئيساً له .

وفى يوم اجتمع أبى وأمى ليجهزا لزواج أختى — خالتك — وكان أبى يرى أن الظروف المالية تقتضى أن يقتصر الزواج على الزواج وحده بغير شىء حوله ولكن أمى وقد كانت قوية الحجة بارعة فى التأثير على أبى أصرت على الفرح . وما أقرب الحجة إليها . أول فرح يدخل بيتى . أول ابنة نزوجها إن لم نفرح بها ولها فبمن نفرح ولمن . . وتقرر الفرح . وتقرر معه أن نشترى فساتين جديدة لى ولأمى واشتريت الفستان ، كنت أفكر فى هذا الفستان كثيرا قبل موعد الفرح ، حتى إننى لم أكن محتاجة للبحث حين أخذت أمى ثمن الملابس من أبى . كنت أعرف المكان وأعرف ما أريد واشتريته . يا ليتك رأيتنى يومذاك . لا تقل ميرفت ولا غير ميرفت .

جمال طبيعى لا يحتاج إلى يد تصنعه ، شعر مرسل وعينان واسعتان وفم صغير أحمر ودماء فى وجنتى تزرى بأحمر هذه الأيام الباهت . وشباب وفرح . جمال لم تعرفوه أنتم يا أبناء هذه الأيام . حتى إننى — وهذا سر بيننا — خشيت أن تغار منى أختى وهى العروس ، بل إنه يخيل إلى . وهذا أيضاً بيننا . إنها فعلا كانت تغار منى ، فكنت اختفى عن عينيها كلما تلاقينا أثناء الفرح . ولكن ماذا كان بيدى أن أفعل . كانت العيون جميعها مصوبة إلى لا تريد أن ترتفع عنى ، حتى لقد كنت أريد أن أقول للناس . عيب بصوا للعروس فلست أنا العروس ، ولكن كنت واثقة أننى مهما أقل لهم فلن يفيد قولى شيئاً . كانوا يا حسن يا ابنى مشدودين إلى بعيونهم كأنما هو السحر . كلام بيننا ، كنت فرحة بهذا الاهتمام وكنت زعلانة فى الوقت نفسه أن تغضب خالتك ، ولكن ما يهم . لقد كانت آخر ليلة لها معى فقد كانت فى طريقها إلى بيت زوجها . وكنت أحسب فى ذلك اليوم أنه ليس فى العالم شخص يستحق هذا الجمال الذى كنت عليه

كان أبوك طبعاً ضمن المدعوين . ورآنى فى ذلك اليوم ، الفستان الجديد فى لونه الزاهى الخاطف للعيون والشباب يملأ الحياة من حولى والعيون كأنما هى جزء من تفصيلة الفستان لا تنفصل عنه . أحبنى . . لم أحس به فى ذلك اليوم . إلا أننى اضطررت أن أقدم إليه الشربات تنفيذا لأوامر والدى ، وكان شكله . . ماذا أقول ؟ أخاف أن أقول لك إنه لم يكن جميلا فتظن أن ذلك ليس صحيحا ، أو أننى أقوله لأنه هجرنى قبل موته ، ولكن هذه هى الحقيقة . لم يكن جميلا — اعجبك قولى أم لم يعجبك — فأنت دائما تغضب كلما ذكرت أباك بما لا يُرضى حبك له . . . قل لى . . . لماذا تحبه ؟ النهاية ، أنت دائما ناكر للجميل ، وهل أدل

على ذلك من تركك لى الآن . لم أحب أباك فى النظرة الأولى . وقد كانت الطامة الكبرى حين جاء أبى فى اليوم التالى وهو لا يستطيع أن يتمالك نفسه من الفرح وأخبرنى أن أباك خطبنى لم يكن رفضى ذا قيمة . وتزوجت أباك . ولم أعرف الفرح فى يوم فرحى ولم أعرفه فى الأيام التالية . كنت أعتقد أننى أستحق من هو خير من أبيك أعلم أنك ستقول فى نفسك الآن كما كنت تقول دائما ليس هناك خير من أبى . نعم كنت دائما تقاطعنى بهذه الجملة التقليدية كلما بلغت من حكايتى إلى هذا الموضع . ولكن ماذا يهم رأيك ؟ إن رأيى أنا هو المهم ، أنا التى عاشرته وتزوجته فلم أر منه يوما أحكى عنه . لم يقل يوما كلمة تشرح قلبى ، أجمل نفسى ما وسعنى الجهد فلا يقول إلا كلمة عابرة « أنت حلوة من غير تجميل » ويسكت أو يتكلم فى موضوعات أخرى . كنت أرى جمالى فى المرآة ولا أجد منه ما يؤكد رأيى فى نفسى . ولكن حين كان يجد تقصيرا منى فى شئون البيت كان يغضب كل الغضب ويتهمنى بأنى لا أهتم بغير جمالى ولو كان يفهم — لا تغضب — لعلم أن جمالى هذا شيء عظيم يستحق كل ما كنت أبذله للمحافظة عليه . كانت حياتى جحيما حتى جئت أنت فعرفتُ الحياة يوم جئت أنت . كم كنت أحبك وكم أحبك . أذكرك ويداك الصغيرتان على وجهى ولسانك يشوه الحروف ويجمّلها وتقول فى براءة

« إنت حلوه . . حلوه حلوه يا ماما » كنت حياتى . حتى لم يعد يهمنى غضب أبيك فى كثير أو قليل . وماذا يهمنى من أمره مادمت أنت لى ويداك الصغيرتان تعرفان طريقهما إلى وجهى ولسانك المضطرب الصغير يعرف طريقه إلى قلبى . . أفرغت فيك حبى جميعاً . . حبى كله ، حب الطفولة فى أحلامها الباكرة الغريرة وحب الشباب فى أوهامه المجنونة ، وحب الماضى الذى أدخرته ولم أجد من أقدمه له ، وحب المستقبل الذى كنت أفكر فيه فترتاح نفسى من ضوضاء أبيك وشجاره . وأردتك لى ، لى وحدى لا يشاركنى فيك أحد . كم كنت أحسد مريم العذراء لأنها أنجبت المسيح بغير أب وكم كنت أرجو فى وهمى وأنت بين يدى ووجهى بين يديك لو كنتَ مثل المسيح بلا أب أنت أيضاً .

وحين ذهبت إلى المدرسة . كان أبوك يريد أن تذهب ماشياً شأنك شأن الطلبة جميعاً ولكنى رفضت وأصررت على أن تأتى إليك عربة كل يوم لتذهب بك إلى المدرسة . وجاءت العربة . وجئتنى تبكى لأمنع العربة وأجعلك مثل إخوانك لأنهم يسخرون منك ومن هذه العربة ولكنى كنت أعلم أنك صغير لا تعرف مصلحة نفسك نعم لم أقبل رجاءك فى هذا اليوم . فقد كنت أخشى عليك عوادى الطريق . وكان لابد لى أن أكون أنا عقلك مادمت لم تعد بعد ذا عقل يعرف الخير لك . وكان هذا السبب نفسه هو الذى جعلنى أرفض أن تخرج فى رحلات مع الطلبة ، كيف كان يمكن أن أتركك إلى حيث لا أدرى ، لقد ذهبت إلى المدرسة لأنى لم أكن أستطيع أن أمنعك عنها أما أن تذهب إلى الرحلات أيضاً . فهذا ما لم أكن أستطيع أن أقبله مهما تكن الدموع التى تسيل منك غزيرة كبيرة .

اسمع يا حسن لقد كان أبوك يغار منك ولهذا كان يريدك أن تبتعد عنى ما وسعه الجهد . لهذا كان يريدك أن تذهب إلى الرحلات ولهذا كان يريدك أن تخرج لتلعب مع من كان يسميهم أصدقاءك ولهذا كان يحاول أن يُوقع بينى وبينك حين نذهب لنشترى ملابس فكان يريدك أنت أن تختار ويمنعنى أنا أن أختار لك فقد كان لابد لى أن أكون أنا ذوقك مادمت لم تعد ذا ذوق يعرف الجميل اللائق بك .

ولما أعيت أباك الحيل تركنى . نعم تركنى لأنى كنت أحبك ولم أكن أحبه . ولما تزوج هذه المرأة التى تزوجها أراد أن يغيظنى ولكن ماذا يهمنى من أمره مادمت أنت قد بقيت لى .

وظللت طوال أيام دراستك ، أنا التى أعد لك مأكلك وأنا التى أشترى لك ملابسك وأنا التى أختارها — وأنت تعرف ذوقى — وأنا التى لا أتركك وحدك أبداً حتى فى المذاكرة . نعم . . لم أكن أقبل أن تذهب إلى أحد لتذاكر معه . وحتى حين كان أصدقاؤك يأتون إليك ليذاكروا معك كنت أحاول أن أكون معكم طول الوقت ، ولا أدرى لماذا كف أصدقاؤك فى الأيام الأخيرة من دراستك أن يحضروا إلى البيت ؟ الشىء الوحيد الذى لم أستطع أن أثنيك عنه هو إصرارك على الدخول إلى الجامعة فى حين كنت أنا قد أعددت لك وظيفة بالبكالوريا ساعدتنى على تهيئتها لك صديقة العمر تفيدة . ولكنك أصررت وكنت أعلم أنك ستدخل إلى الجامعة سواء رضيت أنا أو لم أرض فأبوك فى ذلك الحين كان قد مات وأصبح المجلس الحسبى هو أبوك الجديد ، وكنت أعلم أن أباك هذا الجديد سيؤيدك فيما تريد فقبلت على مضض ولكن لعلك اليوم ترى أننى كنت على صواب فلو كنت قبلت الوظيفة لكنت اليوم متزوجا من زهيرة ابنة تفيدة وكنت موظفاً مهما ولكنك ركبت رأسك فسكت وتزوجت زهيرة . الفتاة الوحيدة التى كنت أحب أن تتزوجها فهى مثلك ربيتها على يدى ، وكنت تقول إنها لا تعجبك ولكنى كنت واثقة أنك ستقبل الزواج بها أخيراً .

المهم . . ما فات فات فقد دخلت إلى الجامعة وحصلت على ليسانس الآداب كما كنت تحب ولكنى رأيت منك بعد ذلك عجبا ، فأنت تحب أن تخرج من البيت وتحب أن تذهب إلى بيت خالتك وأتممت المصيبة بأن طلبت منى أن أخطب لك ميرفت ابنة خالتك . أتظن أننى أرضى لك هذا ؟ قلت لك لا . ورحت أبحث ولكنك فجاة ودون أن أعرف سببا تركت البيت ولم تعد . . لماذا ؟ .

ماذا فعلت أنا حتى تتركنى . . أى أم فى العالم كانت تفعل لابنها ما فعلته أنا لك . لقد حملت عنك عبء الحياة جميعا ولو كان فى استطاعتى أن أذاكر بدلا منك لذاكرت عنك ولكنك كأبيك تجحد المعروف وتنكر ما حباك الله به من نعم ، فلو كان يعلم أى زوجة يضمها بيته ما ترك بيته وتزوج غيرى ولو كنت تعلم أى أم متفانية أنا لما فعلت ما فعلت . ماذا فعلت لك حتى تتركنى ماذا فعلت ؟ أمن أجل ميرفت ؟ لا أظن . فأنا أعلم أن أمها لن تقبل أن تزوجك

بها إلا إذا وافقت أنا وأنا لن أوافق بل إن أمها حين علمت برفضى أقسمت ألا تزوجها لك على أية حال ، فمادام الأمل فى زواجك منها قد انقطع فلماذا تتركنى ؟ ومن يرعى شأنك اليوم من يختار لك ملابسك فى الصباح ومن التى تستطيع أن تعرف أى لون من أربطة الرقبة يتفق مع الحلة التى ترتديها ؟ بل من سيشترى ملابسك ومن سيعد طعامك ويصنع لك من الأصناف ما تحب ، ومن ؟ ومن ؟ ولدى عد إلىّ . . فأنا وحدى فى هذا العالم أنا التى لا ترى العالم إلا أنت . . حسن . . هل تعود ؟

الانتظـــــار

« ويتركه الأطباء ليختلوا بأنفسهم وطبهم وليصدروا القرار النهائى على يده . ؟ يدى . . ماذا فعلت يدى . . إن آخر ما فعلته يدى هو تسلم هذا المبلغ » .

كان مفيد فى عجلة من أمره فهو لا يطيق هذه الفترة من الانتظار التى أرغمه عليها الدكتور عبد الوهاب العجلان رئيس مجلس إدارة الشركة الهندسية الفنية . . وكم قفز مفيد من كرسيه يريد أن يعود إلى الموعد الآخر الذى ينتظره فى مكتبه ولكنه يذكر المبلغ الذى سيجنيه من لقائه بالدكتور عبد الوهاب فيعود إلى كرسيه فى إذعان مكره وهدوء محتاج . . وتمر الدقائق وتتكرر القفزات ويتكرر التذكر فيتكرر الإذعان ثم الهدوء . نعم إن الموعد الذى ينتظره فى مكتبه ذو ربح هو الآخر ولكن أين الربح الفردى من ربح الشركات ؟ وأى الشركات ؟ الشركة الهندسية الفنية ؟ لا . . . لا سبيل إلى القيام ولا إلى الغضب ولا سبيل أيضاً إلى الخروج . . . عجيب أمر الناس هأنذا فى مكتب مفتح الأبواب وليس بينى وبين الخروج إلا أن أخطو فإذا أنا خارج الغرفة فأتخلص من هذا الضيق الذى أحسه فى الانتظار وأذهب إلى حيث أريد وأثأر لكرامتى التى أحس دقائق الانتظار وكأنها خناجر تتوالى عليها فتنزف كرامتى وتنزف . . . ولكنى هل بقى من كرامتى دماء ؟ لكم انتظرنا . . . ولكم نزفت الكرامة . . . لئن بقى من دماء الكرامة بعدما فقدت شىء فقد كانت كرامتى إذن ذات ذخيرة من الدماء عظيمة المقدار . . . ترى هل بقى من الكرامة شىء . ؟ ويل . . لكم أظلم نفسى وأحمل كرامتى فوق ما تحتمل . . لقد أكلها العمل ، نحتها ذرة ذرة وقطرة قطرة فهى هباء من الهباء أو هى كما يقول هواة الأدب أثر من بعد عين . . وإلا فمالى مازلت جالسا إلى الكرسى ، والأبواب مفتحة أمامى ، مالى لا أخطو خطوتى

إلى الخارج . . . إنه لا يقيد الإنسان إلا نفسه . . . إنما الحرية مقدار ما أحس به أنا فى نفسى من حرية نفسى . . لن يستطيع أحد ولا شيء أن يمنع الحرية عن نفسى وإنما أنا . . . أنا وحدى الذى أكبل نفسى بالأغلال وهيهات لكل حريات العالم أن تحرر نفسا أراد لها صاحبها أن تكبل بالقيود . . . أضاع بالسوق كرامتى وحريتى وأكل كل شيء فى حياتى . . . ها أنذا أبدو مثل حر وأنا أشد عبودية من العبيد ، وإلا فما بقائى وقد تأخر الرجل . . . تأخر . . . أنا أعرف أن أصول الصنعة تجعله يتأخر . . يريدنى أن أشعر بأهميته ، ويريد أن أشعر بحاجتى إليه وعدم حاجته إلى . . . لقد درت فى السوق وعرفت أسراره ، أما كان الأجدر بالدكتور عبد الوهاب أن يدرك أن هذه الصغائر لن تكون ذات أثر فى الصفقة ؟

. . . ألم يعلم الدكتور عبد الوهاب أى رجل أنا . ؟ ولكن يبدو أن صفة الأدب التى غلبت على أول اشتغالى بالسوق لا تريد أن تفارقنى . . . إن كل من يعاملنى لا ينسى أننى كنت أعمل بالأدب أى أننى كنت فنانا . . . فأنا إذن فى عرفهم سارح فى دنيا من الخيالات والأوهام . . . ما كان أعذبها . . . لقد أقفلت ما بين نفسى وبين الأدب منذ الشهور الأولى التى نزلت فيها إلى دنيا الأعمال . . . تلك حسنة أثبتها لنفسى ولا أنساها . . . كيف أقول للناس كونوا شرفاء . . . أحبوا إخوانكم . . . الهناءة فى رضا النفس . . . . اسعدوا . . . عيشوا . . . تمتعوا . . . أحسوا بالجمال . . . أقول وأقول . . . وأنا . . . أنا نفسى أتغاضى عن الشرف . . . و . . . . .

وقبل أن يكمل دخل الحجرة رجل وحياه وجلس . . . وأمعن مفيد فيه النظر . . . شخص أصلع الرأس واسع العينين تبرز منهما الحدقة بروزا يشعر الناظر إليه أنه يبحث عن شيء لا يدريه ولكنه لا يزال يبحث عنه . وأحس الرجل بعينى مفيد الفاحصة فعاجله قائلا :

ــ الأستاذ مفيد ؟

ودهش مفيد شيئا ما . . . ولكن ما أسرع ما تغلب على دهشته فقد علمه السوق أن يتغلب على كل الملامح التى تلدها المشاعر على وجهه وقال :

ــ نعم يا أفندم . . . أنا هو .

ــ لعل حضرتك مندهش لأنى عرفتك ؟

ــ لا أبدا . . .

ــ طبعا أنت رجل شهير . . . وأديب معروف . . . وقال مفيد فى نفسه . . . وهذه مصيبة أخرى فى السوق . . . دائما يستعملون الأدب فى التأثير على . . . لم يبق لى من الأدب إلا أن يتملقنى به من يريد أن يسلبنى شيئا . . . كم هو مجرم هذا السوق . . . يقطع صلتى بالأدب ولا يكتفى بهذا بل يتخذ منه سلاحا لنهبى . . . مجرم هذا السوق . . . مجرم . . . وصحا مفيد على الرجل يقول له فى ود :

ـ لماذا لم تعد تكتب أنا من عشاق أدبك ؟
وفي شعور بالمرارة العميقة قال مفيد :
ـ حضرتك تريد مقابلة الدكتور عبد الوهاب ؟
ـ وأخذ الرجل وقال فى تردد يوشك أن يكون لعثمة :
ـ نعم . . . نعم .
وقال مفيد فى لهجة لا تتسم بالود :
ـ ولكنى على موعد معه .
ـ الواقع أننى لم أجد السكرتير .
ـ أليس بالخارج ؟
ـ لا . . .
ـ اسمح لى أذن أبحث عنه ليحدد لك موعداً .
وهم مفيد أن يقف ولكن الرجل عاجله :
ـ ولكنى أريد أن أجلس معك وأتعرف بك .
ـ ولكنى الآن على موعد مع الدكتور عبد الوهاب .
ـ وما البأس . . . نتحدث حتى يجيء . . . فأنا منذ زمن بعيد من المعجبين . . .
ـ أتعتقد أننا يمكن أن نتكلم فى الأدب الآن ؟ !
ـ ولِمَ لا ؟
ـ اسمع يا سيدى . . . لقد مرت على بالسوق سنوات عديدة . . . فأرجو أن يدخل هذا فى اعتبارك عند حديثنا فى الأدب .

ونظر الرجل نظرة باهتة إلى مفيد وتراجعت حدقتاه قليلا إلى محجريهما . . ثم تغلب على نفسه فى هدوء وكأنما لم يحس بما يخفيه كلام مفيد . . . وقال فى نفس اللهجة التى كان يتكلم بها عن الأدب .
ـ الصفقة التى تريد فيها الدكتور عبد الوهاب . . .
أهى لحسابك الخاص أم لحساب شركة أخرى ؟ وأحس مفيد أن الحديث أصبح يتفق وجو الحجرة التى يجلسان بها . . . فقال فى مداورة :
ـ بماذا تراك تجيب لو كنت فى مكانى ؟
وعادت النظرة الباهتة وأعقبها الهدوء ولكنه لم يملك نفسه أن قال :
ـ يظهر أننى لم أكن أقدرك حق قدرك يا مفيد بك
ـ كلنا معرضون للخطأ
ـ ما هو الربح الذى تنتظره منها ؟
ـ نفس الربح الذى تنتظره أنت على الأقل

ــ فما رأيك لو أخذت نصفه الآن وتنازلت لى عنها ؟
ــ هذا يتوقف على مقدار تقديرك للربح والدعاية التى أحصل عليها عند نجاحى فى هذه المهمة . . . وغير هذا مما لا يخفى على ذكائك . . . وأرجو أن يدخل . . . وانتهت المساومة بمفيد يضع فى جيبه شيكا بمبلغ خمسة آلاف جنيه ويخرج مسرعاً دون أن يقابل الدكتور عبد الوهاب .

لم يكن مفيد يتوقع أن تتم الصفقة على هذه الصورة . . فهو سعيد بما ناله من سعادة غامرة . . . حتى لقد نسى هذا الحديث الطويل عن الأدب ونفسه وما صنعه السوق . . . ونسى ما كان يرمى به نفسه . . . بل هو الآن راض عن نفسه كل الرضا يسكب عليها ألوانا من المديح وأفانين من الإعجاب . فإن حاولت نفسه أن تصده عن هذا الغرور ارتفعت يده فى لا شعور مأخوذ إلى مكمن الشيك فى جيبه فما هى إلا أن يعود المديح لنفسه والإعجاب بها يملآن عليه آفاق الحياة فلا يرى من الطريق أمامه إلا الفرح والبهجة والإعجاب والسعادة . . ولما كانت هذه الأشياء جميعاً لا تغنى مع السيارات التى تقطع الطرق وتريد الناس أن ينظروا بعيونهم لا ببهجتهم فقد صدمته سيارة . . وصحا من رضائه عن نفسه مسجى بسرير مستشفى وبجانبه ممرضة .

ــ أين أنا ؟
سؤال ما أسرع ما تبين غباءه فسارع يقول دون أن ينتظر إجابة :
ــ هل الإصابة خطيرة ؟

ــ خير إن شاء الله . . . حمداً لله على السلامة . . . دقيقة واحدة أنادى الدكتور

وجاء الطبيب وفى كلمات قلائل تبين ما حدث له . . لقد مرت السيارة على يده اليمنى فأحدثت بها تهشيما فى العظام وتهتكا فى الأنسجة — والطبيب وحده لا يستطيع أن يقرر ما يفعله فهو يرسل فى طلب كونسلتو ليقرر ما يتخذه إزاء هذه اليد . . . ويخرج الطبيب ويعود مفيد إلى نفسه . . . يدى . . . ماذا يصنعون بيدى ؟ لماذا ؟ ماذا فعلت يدى ماذا فعلت ؟. ويأتى الكونسلتو وتجتمع حول يد مفيد وجوه متجهمة وما تلبث أن تنصرف عنه لتنظر إلى صور الأشعة التى تمثل الحالة التى صارت إليها يده . . . ويسأل مفيد . . . ويسأل . . . فلا تجيبه إلا همهمة تترجح بين الأمل واليأس ويتركه الأطباء ليختلوا بأنفسهم وطبهم وليصدروا القرار النهائى على يده . . . يدى . . . ماذا فعلت يدى ؟ إن آخر ما فعلته يدى هو تسلم هذا المبلغ . . . خمسة آلاف جنيه . . . أكنت صاحب حق فيه . . . أى مجهود بذلت لأناله . . . اسمى فى السوق وسمعتى ومقدرتى البارعة على إتمام الصفقات . . . نعم أوهمت الرجل أننى كنت سأكسب عشرين ألف جنيه ولكن هو أيضاً كان يطمع فى الربح ولو لم يكن كذلك لما أعطانى هذا المبلغ . . . كذبت عليه . . . نعم كذبت ولكن هل يعرف السوق إلا الكذب ؟ لو لم يكن

مقدراً لنفسه ربحاً يزيد عن عشرين ألف جنيه لما أعطانى هذا المبلغ ولكننى كذبت . . . خالفت ضميرى . . . أين ضميرى . . . ألم أقل إننى فقدته منذ زمن طويل ؟ منذ نزلت إلى السوق . . . كان آخر عمل تدخل فيه ضميرى هو تحولى عن الأدب وإبائى أن أبشر بالفضيلة وأنا غارق فى الرذيلة . . . ولكن . . . ألم تكن يدى هى التى كتبت ما كتبت من أدب ؟ وكنت أدعو إلى الأخوة والحب والتسامح والسعادة . . . ثم بعد . . . أصبحت من رجال الأعمال فالحياة أصبحت عندى لا شيء إلا أن أكسب . . . أصبحت يدى التى كانت تعمل للناس جميعاً . . . الناس فى كل العالم . . . الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم . . . الذين يقرأون والذين لا يقرأون . . . أصبحت يدى هذه لا تعمل شيئاً إلا أن تضع فى جيبى نقوداً أصبحت فائدتها الوحيدة أن تجعلنى غنياً . . . دون حتى أن تفكر فى سعادتى . . . كنت سعيداً بيدى وهى تكتب للناس . . . ألم أكن سعيداً وهى تكسب لى أموالا ؟ قدمت بها الرشاوى . . . حطمت بها ضمائر الناس . . . مالى ولهم . . . لقد كانوا على استعداد لبيع ضمائرهم لأى مشتر . . . فما البأس بى أن أشترى بضاعة معروضة فى السوق . . . وأصبح غنياً . . . وألقى الأمن على مستقبل ولكن أترى أحسست بهذا الأمن . . . أبداً . . . كلما زادت ثروتى زاد خوفى من المستقبل . . . مخيف هذا المستقبل لمن يكسب مالا . . . فقدت ضميرى وقلمى . . . و . . . و . . . لا . . . لا أريد أن أفقد يدى . . . إنها لم تصنع شيئا تستحق من أجله أن . . . أن . . . أخاف أن أقول الكلمة . . . أتراهم يحكمون عليها بالبتر؟ أنا لم أسرق ما لهم لا يعودون . . . إن بقيت يدى عدت للكتابة . . . أتراى أصلح اليوم أن أكتب . . . أبشر مرة أخرى بالسعادة والأمن . . الأمن من داخل نفسى لا من خارجها . . الأمن من القلوب لا من المال . . . هذه القلوب الواجفة الهالعة التى تطير شعاعا من الخوف والتى ترمى بنفسها إلى مستقبل الأيام ارتماء يائسا مذعوراً أتراى أستطيع أن أقول لها إن أمنك فى ذاتك لا فى خارجك وحريتك من داخلك لا يجرؤ إنسان أن يعدو عليها حتى تقبل أنت أن تتخلى عنها ؟ فما عرف الأمن إلا فى ظل الحرية وما عاشت الحرية إلا فى ظل الأمن . . . هل أستطيع أن أقول هذا للناس . . . إن بقيت يدى أقول . . أقول . . ولكن هل تبقى يدى ولكن . . . إنى أستطيع أن أقول حتى لو فقدت يدى . . . الأمن يشيع فى نفسى . . . حريتى عادت إلى . . . فليقطعوا يدى فسيبقى لى أمنى وحريتى وحبى للناس وسأستطيع أن أقول بلسانى وإن لم فبقلبى وسيفهمون . . . فما سمع الناس حديثا أوضح من حديث صادر عن قلب . . . سأقول . . . وسأكتب وسيفهمون . . .

ودخل الأطباء وعلى وجوههم هذا القناع من الجمود الذى ألقاه العلم على وجوههم منذ أصبحوا كباراً وفوجئوا بمفيد يقول فى مرح :

ــ اضحكوا أيها الأطباء . . . مهما يكن قراركم فهو أقل قبحا من هذا الجمود على وجوهكم . . . لا . . . أنا لم أجن ولكننى عدت إلى الأمن . . . وإلى الحرية . . . إلى نفسى .

على رغم الأيام

« وشاعت ابتسامة حلوة فى وجهها ثم أقفلت الكتاب دون أن تعتنى بثنى الورقة التى كانت تقرأها » .

على مقربة قريبة من قريتنا تقع قريته ، وقد تعود أن يقيم بقريته أكثر أيام العام لا يمل منها ولا يضجر ، وهو من تلقى علومه بانجلترا . وهو منى بمثابة العم فى القرابة والسن معا . . . فهو فى آخر الحلقة السادسة من عمره . عهدته منذ بدأت أتبين الأشياء فضى الشعر فى جمال فكان يخيل إلى حين يداعب الهواء شعره أن شعره موجات صغيرة من الفضة تتجاوب مع النسمات التى تتواكب إليه وعهدته منذ تبينت الأشياء أنيقا لا تتخلى عنه الأناقة أبدا . . . فهو أنيق بمعطفه الأبيض وجلبابه الحريرى الذى يلبسه فى صيف القرية . . . وهو أنيق بمعطفه الصوفى وجلبابه الذى يتخلله فى الشتاء . . . وهو أنيق غاية الأناقة إذا قصد القاهرة فهو يرتدى من الحلل أحسنها وأبدعها ذوقا ، يصاحبها رباط العنق من أغلى طراز والجورب المنتقى بأجمل عناية . . . لا تستطيع حين تلقاه فى القاهرة إلا أن تذكر لوردات الإنجليز اللذين رُبى بينهم .

عاد إلى القاهرة فى أول الحرب العالمية الأولى وتولى الإشراف على أرضه وأرض إخوته ، ولم تكن مساحة الأرض كبيرة ، ولكنه كان لا يتركها أبدا ، ويتولى زراعتها بنفسه ، يجد فى ذلك لذة لا تدانيها لذة . . وقد حاول إخوته منذ عاد أن يزوجوه ، ولكنه كان يرفض دائما دون أن يبدى لرفضه سببا . وإنما هى لا قاطعة ، أو لا لطيفة رقيقة شأن أحاديثه جميعا ، ولكنها لا دائما ، وبلا سبب .

كنت أقصد إليه كلما ذهبت إلى القرية . وكنت آخذ رأيه فى المسائل الزراعية التى أحتاج فيها إلى رأى . وقد كان رأيه دائما مدعما بالعلم والتجربة معا . . فدراسته فى انجلترا كانت زراعية وطول عهده بالأرض زوده بالكثير من التجارب البصيرة . . وقد سألته فى يوم . .

— لماذ لم تتزوج .. ؟

فنظر إلى الأفق البعيد وبدت على شفتيه الرقيقتين ظلال ابتسامة حنون ، ثم قال :

— غافلتنى السنون فوجدت نفسى حيث لا أستطيع الزواج ..

— ولماذا كنت ترفض ..

وعادت الابتسامة وطال تحديقه إلى الأفق البعيد ، ومرت بعينيه طيوف تتباين بين السعادة والحزن ، وظل صامتا ، فأكرمت صمته ، ولم أعد إلى السؤال .

تعوّد كلما جاء إلى القاهرة أن يدعونى بالتليفون فأقضى معه بعض الوقت وفى يوم جاء إلى القاهرة والتقينا على منضدة فى مينا هاوس وانساب الحديث بيننا وقد تعوّدت أن أسعد بنغمات حديثه ، فهى همس منغوم فيه عذوبة ورقة وهدوء .. وكانت عيناه إليه الباب .. عينان هادئتان فارقتهما الدهشة لكثرة ما مر بهما ولكن بريقا من أيام الشباب مازال يطل منهما .. وإن كان بريقا عجوزا عدت عليه السنون .

وفى لحظة خيل إلى أنه ليس هو ، أو أنه قد عاد إلى شبابه الذى رأيته عليه فى الصورة المعلقة ببيته بالقرية ، بل خيل إلى فى ومضة عابرة أن شعره الفضى لم يعد فضيا .. وجمد على حاله هذا ونظرت إلى حيث ينظر فإذا سيدة وقور ليست مصرية على أية حال شعرها فضى كشعره وإن كان غزيرا ، طويلة القامة فى غير امتلاء ولا نحافة ، تطل السنون من عينيها ولكنها إطلالة فيها حنان ودعة . وقفت السيدة على الباب وكانت تنفض المكان بعينيها تبحث عن مكان حتى إذا يئست أوشكت أن تولينا ظهرها وتتركنا ، ولكنى شعرت بزلزال فى النضد الذى أجلس إليه ، وإذا الشيخ الذى كان بجانبى قد أصبح بجانب السيدة ناداها فالتفتت ونظرت إليه فإذا هى أيضا يطوف بها ذلك الطائف الذى مس الرجل وإذا أنا يخيل إلى فى لحظة أنها لم تعد هى . ورأيته يحتضن يديها فى راحتيه ويظل كل منهما يرنو إلى الآخر بعض الحين فى صمت ثم يفيضان وقد أقبل فوج جديد يريد أن يدخل إلى المكان .. فيتركان الفندق جميعا ويخرجان دون أن يحفل بى العم ودون حتى أن يلتفت إلى .

تركت مكانى وقمت ، وفى باكر الصباح دق جرس التليفون وكان هو المتحدث .

— أريدك اليوم .

— أنا تحت أمرك .

— اليوم جميعه .

— اليوم جميعه .. منذ متى تريدنى ؟

— منذ الآن .

وما هى إلا بعض دقائق حتى كنت عنده . لم أسأله فقد وجدت الذكريات تفيض على

لسانه يريد أن يرويها لأى إنسان يلاقيه . وكنت أنا . قال ونظرة تقطر سعادة تنسكب من عينيه :

— فى أول عهدى بانجلترا دعانى أحد أصدقائى إلى حفلة يقيمها بيته وقد لبيت دعوته ملهوفا ، فما كان لى من أصدقاء إلا ندرة جمعتنى بهم فصول المدرسة . . لم يكن ضيوف صديقى إلا قلة من الصفوة وكان من بينهم أختان ، كان جلوسى إلى جانب بيسى ، وكان حديثها منطلقاً فى خفة وكانت مرحة اللفتة ، قريبة الفهم ، سريعة الإقبال . لم يطل بنا الحديث حتى سألتها إن كانت تسمح لى أن أزورها فرحبت وكانت أختها ليزا تمر بنا فاستوقفتها وقدمتنى إليها فصافحتنى وانصرفت لم تلبث وانتهى الحفل . وفى ضحى اليوم التالى ركبت دراجتى قصدت إلى بيتهم ، فقد كان فى مكان لا يمكن أن أصل إليه إلا بالدراجة ، أو بعربة خاصة لم أكن محتاجا أن أدق الجرس ، فقد وجدت ليزا جالسة فى شرفة البيت تقرأ . أسندت دراجتى إلى درابزين الشرفة الخشبى ورحت أصعد السلم متعمدا أن أثير بحذائى تثير انتباهها ولكنى لم أفلح فى انتزاعها من الكتاب ولم أجد بدا آخر الأمر من أن ألقى تحية متعثرة توشك أن تسقط فى الطريق إلى أذنيها ، ولكنها مع ذلك أفلحت فى أن تجعلها ترفع رأسها عن الكتاب لتلقى إلى تحية باسمة قد تتسم بالأدب أو قد تتسم بالرقة ولكنها أبدا لا تتسم بالترحيب ، كما أنها لا تحمل معنى واحدا يدل على أنها تعرفنى أو حتى تذكر أين التقت بى ، لم أجد بدًا من أن أذكرها بنفسى ، وليس أثقل على نفسى من أن أقدم نفسى . . . فقلت أسألها عن أختها لعل فى سؤالى عنها ما يذكرها بى . سألتها :

— أين بيسى .

وتذكرت . . . أو بدا لى أنها تذكرت . . فقد عادت تبتسم ابتسامة أخرى أكثر إيناسا من الأولى ، ثم قالت :

— إنها خرجت تشترى بعض أشياء ، ملكنى الإعجاب بليزا ، تمنيت لو كانت هى من جلست إليها فى حفلة الأمس وتمنيت أن أجد سبباً يبقينى معها فتستبدلنى بهذا الكتاب فى يدها ، وتقرأ ما بنفسى من الإعجاب لها وأقرأ فى عينيها الخضراوين من بساطة الأمل ، وربيع الشباب . . تمنيت ولم أجد ما أحقق به أمنياتى إلا سؤالا متعثرا آخر .

— لعلها لن تتأخر .

وظلت الابتسامة الأنيسة على وجهها وهى تقول :

— بل ستتأخر على ما أظن .

كانت الإجابة أمرا صريحا لى بالانصراف ، لم تبعث ابتسامتها ، ولا كلمة أظن الشك فى نفسى من أنها تريدنى أن انصرف . ووجدت نفسه ألقى بتحية وداع متعثرة واستدير إلى السلم

أنزله فى تفكير عميق . . ماذا يمكن أن يبقينى هنا ؟ أيمكن مثلا أن أقع على السلم فأعرج فأبقى ! . . ولكن ماذا تفعل هذه الدرجات القلائل ، إنها أهون من أن تصيبنى بجرح يستحق البقاء . . ماذا يمكن أن يحدث . كنت قد وصلت إلى دراجتى ، ودون أن أنظر إلى اتجاه يدى مددتها لأمسك بالمقود فإذا مسمار فى الدرابزين يجرحنى . . . آه . . قلتها فى صوت مباغت واهن ، ثم ما لبثت أن تذكرت أملى فى أن أجرح ، فنظرت إلى الجرح ثم هززت رأسى ، لقد كان الجرح أهون من أن أطلب له دواء ، وأهون من أن أذكره ، ولكن فكرة ما لبثت أن ومضت فى ذهنى . نظرت إليها فوجدت الكتاب قد اختطفها مرة أخرى فما لبثت أن نزعت المسمار من مكانه وأهويت به على عجلة الدراجة فأفرغتها من الهواء ، كنت أحس بهواء العجلة وهو خارج وكأنه يقضى على الحيرة التى خالطتنى وعلى اليأس الذى ملك نفسى حتى إذا استقر حديد العجلة على الأرض اطمأنت نفسى وهدأ مضطربى ، وعدت أصعد لأقول فى صوت مازلت أذكر رنة الفرح فيه حتى اليوم .

— لقد فسدت دراجتى فكيف السبيل أن أعود إلى البيت وشاعت ابتسامة حلوة فى وجهها ثم أقفلت الكتاب دون أن تعنى بثنى الورقة التى كانت تقرأها . . وقالت :

— انتظر حتى تأتى بيسى ، فقد أخذت العربة معها .
وقبل أن تتم جملتها كنت قد أخذت مكانى بجانبها ، وأنا أسأل :

— أتقود بيسى العربة ؟
فقالت والابتسامة على وجهها ماتزال :

— نعم .
— ألا تخاف الجياد ؟
— إنه جواد واحد يحبنا ونحبه ولا نخافه .

وتحادثنا . . وتحادثنا . . وتأخرت بيسى وأنا أدعو الله أن تزيد من تأخرها وأقبلت على ليزا إقبالة محب قديم لا صديق جديد ، وأقبلت هى على حديثى . . فما قلت رأيا إلا وجدتها تراه ، وما ذكرت من ميلوها ميلا إلا وجدتنى مثلها فيه ، وكانت عيناى دائمتى التحديق فى عينيها يجوس فى أطواء نفسها فأجدنى أزداد حبا لها . . كان لابد أن تعود بيسى وقد عادت . ونظرت إلى جلستنا ، وابتسمت :

— أراك قد لبيت الدعوة .
وقلت فى فرح :

— وهل كان يمكن ألا أُلبيها .

وقصت ليزا على أختها ما كان من أمر الدراجة . . وبدا على بيسى أنها لم تكن محتاجة إلى هذا الشرح فيما كنت فى حياتها غير عابر سبيل أو عابر سفر إن صح التعبير . قالت :

— فهلم اركب لأذهب بك إلى بيتك .

فنظرت إلى ليزا وأنا أقول فى حسرة :

— هلم . . .

كم كانت الدراجة مباركة فى يومنا هذا ، فإنه ما لبثت أن وجدت فيها الملجأ مرة أخرى .

— ماذا سأفعل بالدراجة !

— وسكتت ليزا وقالت بيسى .

— اتركها .

— وماذا أفعل ؟ إننى لا أسير إلا بها . .

وقالت ليزا :

— اسمع . . امسك بدراجتك وسر وسأسير معك على أن تصاحبنا بيسى بالعربة لتعود بى .

ونظرت بيسى إلينا ثم ما لبثت أن أغرقت فى الضحك ثم قالت :

— ألم تقولى إنه ينتظرنى منذ ساعة أو أكثر لأعود به بالعربة ؟

وكأنما أدركت ليزا ما يخفيه ضحك أختها ؟ ولكنها قالت فى بلاهة حبيبة :

— نعم .

وأكملت بيسى حديثها .

— ففيم كان انتظاره مادام سيعود سائرا على أية حال ؟ أم تراك كنت تريدين له العربة لتسير إلى جانبه لا ليركبها ، أم تراك كنت تريدين العربة لتعود بك أنت ؟

ثم عادت تضحك مرة أخرى . . وقالت ليزا :

— وماذا نفعل ، مادام لا يريد أن يترك الدراجة .

واصطنعت بيسى الجد وهى تقول :

— نعم أنت مُحقّة . ماذا يمكن أن نفعل . . هلم بنا .

وسرنا . . أمسك بدراجتى وليزا إلى جانبى وبيسى تقود العربة تسبقنا أحيانا أو يطيب لها أن تضحك منا فتبطىء حتى تظل بجانبنا . وفى مرة من المرات التى شاءت فيها بيسى أن تتيح لنا خلوة من الحديث قالت ليزا :

— أتعبت ؟

قلت فى فرح :

— أنا ؟! أبداً .

فقالت وابتسامة ماكرة على فمها .

— على كل حال عليك أن تتحمل تبعة فعلتك .

وأخذت بحديثها وقلت :

— أيّة فعلة ؟

— ما ذنب الدراجة حتى تفسد إطارها ، وما ذنب درابزين بيتنا حتى تخلع مساميره .

ظل حبى لها ينمو مع الأيام حتى كان يوم عرضت عليها فيه أن نتزوج فقالت :

— نعم أتمنى ذلك ؟ ولكن أمهلنى بضعة أيام .

— متى أعرف الجواب .

— فى أى يوم نحن .

— اليوم الأحد .

— إذن ففى يوم الأحد .

لم يكن ساسة العالم على علم بهذا الوعد ، فإنه لم يقدر لى أن أشهد هذا الأحد فى انجلترا وإنما وجدتنى بين عشية وصباح على مركب ينقلنى إلى مصر . . . لم أبال الأوامر وقصدت إليها فى البيت قبيل الرحيل فلم أجد بالبيت أحدا ؟ فتركت خطابا دسسته تحت الباب ، ثم وُضعت فى المركب لأجد نفسى بمصر ، لا تسألنى كم من الخطابات أرسلت بعد ذلك ولا تسلنى كم خطابا تسلمت . فأما ما أرسلته فلا أذكر عدده لكثرته وأما ما تسلمته فأذكر عدده لانعدامه . لم تصلنى منها كلمة . ولكننى مع ذلك ظللت أكتب . وأكتب فقد أصبحت الكتابة إليها هى كل ما بقى لى من حبى ومن شبابى ومن حياتى كلها إلى بلا زواج ولا ولد فأنا بلا أمل . لم يكن لى إلا هذه الخطابات فظللت أكتبها حتى أمس . . أمس صباحا قبل أن ألقاك . . كنت قد أودعت البريد خطابا إليها . لا لم أستطع السفر . . خشيت . . خشيت أن تصدمنى الحقيقة هناك فأعلم أنها ماتت أو تزوجت ففضلت أن أحيا بأمل الواهن الشاحب الضئيل عن لقاء الحق الواضح الصريح القوى ، فلم أسافر . . حتى كان يمس ولقيتها . . لقد تركوا بيتهم وتركوا الحى وتركوا المدينة ، فلم تعد إليها منى كلمة . . . ولقد . . .

وانسكبت الدموع من عينيه وهو يقول :

— ولقد جاءت إلى مصر بين الحربين ، وعادت تجىء بعد الحرب الثانية على أمل واهن أن تلقانى أو تسمع عنى حتى أمس ولقد . . .

وازدادت الدموع انسكابا من عينيه واختلج صوته فى أجهاشة حب والهة شابة . .

— ولقد انتظرتنى فلم تتزوج .

لم تنته حكاية الشيخ . فقد كان يريد منى كمحام أن يعد الإجراءات لزواجه . . . نعم زواجه هو ابن الستين أو أبو الستين منها . . . منها هى . . نعم وانها فى الرابعة والخمسين .

وبعد أيام ذهبت إلى العم فى القرية أهنئه بالزواج وأهنىء به العمة الجديدة . . كانا جالسين هناك بين النخيل فكنت أرى فيهما قوة أقوى من النخيل ومن الأيام ومن الحروب ومن القادة الذين يشعلون نيران العالم . . لقد تغلبا على كل السفاكين الذين أراقوا دماء البشرية . وتزوجا آخر الأمر وإن كان هو فى الستين وإن كانت هى فى الرابعة والخمسين ولكن ماذا يهم . . . لقد التقت فيهما حياة واحدة عاشت سنين طويلة . . . طويلة جدا حياتين .

قال ودمعة فرحانة تتلألأ فى عينيه مترددة بين بقاء أو انهيار .

— لقد تزوجت شبابى يا بنى . . . لقد تزوجت شبابى . . ووجدت دمعة تطفر إلى عينى أنا الآخر جعلت العمة ليزا تقول فى فرح :

ولم يسمح له تأثيره أن يعيد ما قال واستطعت أن أتغلب على خلجاتى الفرحانة لأترجم لها جملته . وطفرت إلى عينها هى الأخرى وهى تقول :

— إنه زوجى من أربعين عاما .

●

يا لها من أيام

« زوجان .. أحدثها عن شأنى وما عرض لى فى يومى ..
وتحدثنى عن شأنها وما مر ما بين أمور .. وما كان أتفه
ما أرويه لها .. وماكان أبسط ما تحكيه لى » .

طويل هذا الليل ولكن ، أين هو من الزمن .. إنه نقطة لا تزيد من كتاب الزمن الكبير الذى حارت فى بدايته العقول وجهلت المقادير نهايته .. نقطة هذا الليل لا تزيد .. ولكنه طويل ... وما أنا الذى أحسه طويلا ... رقم من ملايين الأرقام .. بل من ملايين الملايين ... ولكن أنا كل شىء ... أنا هذا العالم .. فما العالم بالنسبة إلى إن لم أكن أنا فيه ، أحس بذاتى .. بعظمتها وقد يرانى الناس لا شىء .. ولكن مالى وللناس وما يظنونه .. ما يضيرنى رأيهم مادمت أرى نفسى شيئا خطيرا جديرا بالاحترام .. آه .. يا لها من فلسفة بائسة أصطنعها لنفسى اصطناعا فما تجدى ، وأظل يومى وليلى هذا الطويل ألقنها كرامتى الجريحة فما تشفى الجراح ولا تبرأ الطعنة ولا هى تلهمنى من الصبر بصيصا أذود به عن نفسى هذا البؤس الذى يحيطها .

أعظيم أنا .. يا لها من سخرية كبيرة ... أخطير شأنى .. يا لى من ضائع لا قيمة له .. ويا لى من أحمق أعجل إلى الأمر لا أدرى بواعثه أو عواقبه .

أحببتها .. نعم أحببتها كما أحببت طفولتى الباكرة ، وشبابى الندى ، وأيامى الفتية ، وأحلامى المنضورة .

أحببتها منذ الأيام صغار قصار يملأها مرح الطفولة وبسمات الملعب وعبث الصغر وكبرنا

فكان للقلب عند اللقاء وجيب عرفناه منذ دقاته الأولى . . . إنه الحب يعلن نفسه باسمه الصريح بعد أن كان متخفيا وراء كرة الملعب وعبث الصبية . . هو الحب كاملا كما عرفه قيس وليلى . . وجميل وبثينة . . وروميو وجولييت وغيرهم ممن دمغوا التاريخ بحبهم أو ممن خلق الكتاب حبهم .

وكان أبى وأبوها صديقين . . وفى ظل هذه الصداقة اتصل الحب دون أن ينمو فقد كان بالغا مداه لا يملك بعد عنفه ولا بعد نموه نموا . ومرت بنا الأيام أروى حبى بلقاء قصير ، أو ابتسامة حلوة ، أو كلمة منغومة . . لم أخطبها ولم أكن فى حاجة إلى خطبتها فقد كان زواجنا أمرا مقرر لا يحتاج إلى خطبة .

كان أبى ينتظر أن أتم تعليمى حتى يزوجنى لها ، وكان أبوها ينتظر الشيء نفسه حتى يتم هذا الزواج .

وكنا جارين ، ولعل هذا الجوار فرض علينا رقابة أشد والعجيب فى الأمر أن أبى كان أشد دقة فى رقابته من أبيها فلم يكن يسمح لها أن تخلوا إلى لحظة . . فإن جاءت البيت فهو فيه لا يبرحه حتى تخرج مهما يكن وراءه من أعمال . وإن حاولت أن أذهب إلى بيتها كان حريصاً أن يعلم بوجود أبيها هناك .

نعم . . كان يتيم الأم منذ الطفولة الباكرة ، وكانت ترعى أمرى امرأة كبيرة السن وأنا فى المهد وظلت قائمة على شأنى حتى اليوم . . وكان أمرها كأمرى . . امرأة كبيرة ترعاها منذ لا تعرف متى ومازالت فى بيتهم حتى اليوم . . نعم حتى اليوم . . .

لم يكن أبى ؛ ولا أبوها ، يكتفى برقابة هاتين الحاضنتين ، وكانتا تفرضان علينا قيودا قاسية نلقاها بالبشر ، والابتسامة المختلسة ، وبالمجادعة الطويلة أن نحظى بلقاء مهما يكن قصيراً بعيداً عن أعين الرقباء .

أتسألنى ماذا كنا نقول فى هذه اللقاءات . . ؟ زوجان يعلمان أنهما زوجان ويتحدثان كزوجين بلا قبلات ولا عناق . وما حاجتنا إلى ذلك ونحن ننتظر الغد القريب فنتقبل ونعانق ما اشيء لنا الهوى المشبوب والحب الطاهر العميق .

زوجان . . أحدثها عن شأنى وما عرض لى فى يومى . . . وتحدثنى عن شأنها وما مر بها من أمور . . . وما كان اتفه ما أرويه لها . . وما كان أبسط ما تحكيه لى . . ولكن كان لنا نحن الدنيا بما وسعت . . كانت سعادتى وحياتى التى أحياها وأملى الذى أسعى إليه ، كان حبى كمل شيء لى . . . وما أظنه إلا كان كل شيء لها . .

كنت أحدثها عن المدرسين حين كنت تلميذا صغيراً ، وكانت تحدثنى عن المدرسات ، ثم صرت أحدثها عن الجامعة والمحاضرات ، وكانت تحدثنى عن البيت وما تلقى فيه من كسل

الخادم والحاج الباعة حين بلغنا بواكير الشباب . وأظل بعد اللقاء ساعات أعيش اللقاء مرات ومرات ، وأتمثلها وهى تحكى أو تسمع . . تضحك أو تغضب ثم أفيق إلى كتبى أنصب عليها فى وعى وإصرار ، أتعجل الأيام والسنين ليجمعنا البيت بلا رقيب إلا الحب ، ولا أعين من أبيها ولا أبى .

لم يكن أبى غنياً ولا كان أبوها . . فقد كانا من الموظفين القدامى الذين يعتمدون على الستر أكثر اعتمادهم على الريع وكان الستر يكفينا ، فملابسنا نظيفة وبيوتنا توفر لنا ما نهفو اليه من راحة ، وكان أبوها يعلم دخل أبى ، يعلمه كما يعلم دخل نفسه ، كما كان أبى يعلم خاصة شأنهم لا يجهل من أمرهم أمراً . . وكانا متفقين عليه الزواج وكل منهما على علم تام بحال الآخر . كاغن الزواج مقرراً لا شك فيه . . كان كذلك . . حتى نجحت فى السنة الثالثة فى الكلية وأصبحت على أعتاب السنة النهائية وكان رأى أبيها ورأى أبى أن نقضى جميعا الصيف فى الإسكندرية . . فانتقلنا إليها .

وهناك كنا نقضى يومنا جميعاً معا لا نفترق حتى لقد كنا نأكل معا وتولت هى القيام بشأنها وأعطها أبى نصيبا من المصاريف . . وكأنما أراد أبى أن يشعرها بقرب الزواج ، وكأنما أراد أن تضم العائلة حياة واحدة . . فلم يكن يفصل بين سكناها وسكنانا غير جدار . . عشناها حياة واحدة تزيدنا الرقابة المفروضة علينا شغفاً ومتعة ، وتلتقى العيون منا فى عناق طويل يسخر من الرقابة ويفضى بنا إلى عالم علوى ملىء بالهوى والأحلام والآمال .

يالها من أيام . . إن كنت أحسست بذاتى ، أو كنت أحببت حياتى فمن ضياء هذه الأيام . .

كنا نجلس إلى الشاطىء . . البحر تحت أقدامنا ، يعدو الماء على أقدامنا وقد يعدو على ملابسنا ونحن من نجوى العيون فى حديث يشغلنا عن الله والبحر . . ويرتفع بنا إلى سماوات هيهات أن يبلغها سمو .

وكنت إذا انفردت بنفسى . . لم أفكر إلا فى هذه الأويقات الهنيئة التى جمعتنا ، فلا أنشغل عنها إلا بها . وكان أبى يعلم ما أنا فيه . . فنظرته إلى نظرة العالم بشأنى ، يخيل إليه أن الحب الذى بنفسى هو نفسه الحب الذى عرفه الناس منذ عرف الناس الحب . . ويا طالما فكرت . . أهذا الحب الذى أحمله هو نفسه الحب الذى عرفه الناس . . أم هو أشد عنفاً وأعمق جذوراً وأبعد غوراً . . ثم يخيل إلى أن حبى فرد لم يعرفه أحد قبلى ولن يعرفه أحد بعدى .

وبينما أنا فى هجعة الأصيل أفكر فيما تعودت أن أفكر فيه . . نادى أبى من حجرته فسارعت إليه ، فوجدته يعانى آلاما بدت آثارها على كل نأمة فى وجهه ، ماذا بك يا أبى . .

سؤال أطلقته وأنا أرى ما به ولا أدرى ما أصنع ، ولم أجد ما أفعله إلا أن أتركه عدوا إلى الدار المجاورة إلى أبيها أستصرخه أن يغيثنا ، وعاد الرجل معي يسارع الخطو ثم يعدو حتى إذا بلغنا أبي وجدناه وقد زواد به الألم حتى لا تكاد شفتاه تبين .. تركتهم ونزلت عدوا أبحث عن طبيب وما كدت أجد لافتة تحمل اسم طبيب عليها حتى وعدت به إلى المنزل .. لم يكن الأمر محتاجا إلى طبيب .. وإنما إلى مغفرة الله .. لم يقل الطبيب إلا جملة واحدة كانت كل شيء . يرحمه الله .

وداعا أيام الهناء .. لقد مات أبي والتقيت لأول مرة بالحياة وحدى .. كم هى قاسية عاتية ، وكم نلهو فى رعاية الآباء ، وكم كانت أعبائها صغيرة بقدر ما نرى من الحياة .. تلك الحياة التى يحمل عنا آباتنا عبثها جميعاً .. كم يحملون العبء .. كم نجهل نحن ما يحملن .. لكم فكرت فى ضآلة شأنى حين طالعت الحياة وحدى .. كيف أشكر أبي على ما كان يرده عنى من شؤون الدنيا .. لكم كنت عاقا وإن لم أخالفه يوما . كيف أستطيع اليوم .. وقد مات .. أن أشكره .. وأى شكر يجزى غدق فضله .. وسكب خيره وموفور بره .. لا .. لا شكر يفى .

ذهبنا إلى القاهرة .. وأقمنا ليالى المأتم وظل عمى سعد يرعى شأنى .. كما كان يرعاه أبى .. وظل يهديني إلى مالا أعرف .

ومر بعض الحين .. ثم فوجئت بعمى سعد ينقطع فجاه .. وانتظرت يومين ثم ذهبت إليه .. فإذا الوجه الضاحك أصبح كاشراً ، واللقاء الرحب أصبح ضيقاً وإذ بنجوى لا تلقانى ، وأسأل عنها فيجيبنى أبوها فى عنف .. إنها مشغولة .. وأخرج .

وداعاً أيام الهناء .. وداعا أحلام الطفولة والصبا والشباب .. وداعا .. فما الأيام بالأيام التى عهدت ، ولا الآمال بمحققة .. وإلا فما هذا العنف بعد اللين ، وما هذا الجفاء بعد الرقة .

لم أشأ أن أترك الظنون تقودنى إلى اليأس .. فعدت إليه مرة أخرى فى اليوم التالى .. فوجدت الجفاء كما تركته فى الأمس .

— عمى ، أأخطأت فى شيء .. ؟

قال فى غلظة ..

— لماذا ... ؟

— أرى عنفا فى اللقاء وجفاء فى الحديث .

— أنت واهم .

— فلماذا لا تلقانى نجوى .

ووجدت وجهه قد أدير وازداد غلظة وهو يقول . .

— ولماذا تلقاها . .

— لماذا ألقاها . . ؟ . .

— نعم . . لماذا تلقاها . . ؟

— أليست . . أليست خطيبتى . .

— هل خطبتها . . .

نعم . . إنه الحق ما يقول . . لم أخطبها . . ولكن ألم يكن كل ما كان بيننا خطبة ولكن . .

لم أجد ما أقول إلا :

— فإنى أخطبها الآن . .

وازداد صوت عمى غلظة وهو يقول . .

— وأنا أرفض الخطبة . .

أصبح الظن إذن حقيقة . . فوداعا إذن أيام الهناء . . وداعا آمال الحياة جميعا . . ولولا بقية من إيمان لقلت للحياة جميعها وداعا . . . وداعا بائسا . . . أى شيء فيك أيتها الحياة أبقى له . . هذا الصديق الذى يخون الموت ، أم هذا الحب الذى قضيت له وبه حياتى ، ثم لم يخلف إلا ذكريات كانت هناء فأمست تعاسة ، وكانت منى أصبحت يأساً .

تركت الحى الذى كنت أقطنه ، وحاولت أن أقطع ما بينى وبين هذه الحياة التى كنت أعيشها ، وحاولت أن أمزق هذه الخيوط الضخمة من السنين الطوال التى تربطنى بذلك الماضى . . حاولت . . ولكن هيهات . . وكيف للنفس أن تنشطر جزءين وكيف للحياة إن ينفصل أولها عن آخرها وماضيها عن حاضرها . . إنها حياتى . . واحدة لا تنقسم ولا تنشطر ولا تنفصل . .

ومرت الأيام . . ثقيلة بطيئة . . حاولت أن أقطعها بالمذاكرة . . وكنت قد تعودت أن ألهو بالمذاكرة عن كل شيء . . ونجحت ، ولم أفرح بالنجاح . . وماذا يجدى النجاح . . وأى أمل يمكن أن يفسحه لى . .

وفى يوم طالعتنى الجريدة بنعى عمى سعد . . فوجدت نفسى أسارع إلى الحى ودخلت إلى البيت فوجدت وجوها أعرف أصحابها فهم أقرباؤه ولكنى عبرتهم أبحث عن نجوى فلم أجدها . . ولم أجد إلا الحاضنة التى كانت تقوم بشأنها . . سألتها فى لهفة .

— أين نجوى . .

فإذا بالمرأة فى نشيج يمزق الأفئدة . . وأعدت السؤال فى لهفة أشد . .

— أين نجوى . .
وأجابت المرأة . .
— لقد ماتت من شهرين . . !!
— ماذا . . .
— ماتت . لقد كانت مريضة بالسل .
— منذ متى . . ؟
— منذ كنت تخطبها .
— أمن أجل هذا . . .
— نعم من أجل هذا رفض أن يزوجها لك . . لقد اتفقنا على أن يرفض خطبتك حتى لا تدفعك الشفقة إلى الزواج بها . .
وصرخت فى وجهها أسألها . .
— وأين هو . . ؟
وظنت المرأة أنى جننت . . وسألت فى ذهول . .
— من . . ؟
— أين هو . . أين عمى سعد . .
وقالت المرأة :
— ألا تعرف . . ؟
— نعم . . أعرف أنه مات . . أين هو . . ؟
— فى حجرته يا ابنى . .
ودخلت إلى الغرفة ووقفت أمام هذا الوفاء الراحل ، وأطرقت إلى الأرض وأنا أقول . .
— أشكرك . . وأعتذر إليك . . !!

عودا إليك يا أبى

« لقد كنت هناك فى الحانة ولكن أصحابى هم الشاربون وكنت جليسهم .. أصدقاء الدراسة وأرادوا أن يحتفلوا بنجاحهم بالشراب وأبيت أن أشاركهم ، ورأيتنى فماذا أقول لك وماذا أصنع » .

اليوم أبى .. اليوم فقط أستطيع أن أجثو عند قدميك أسألك والعفو والغفران ... عفوا وإن لم أرتكب ذنبا .. ولكنى بحسبى من الذنب أنك غاضب ... وبحسبى من الأيام سوادا أن ألقاها وأنت عنى غير راض .. سنوات يا أبى منذ تركتك .. لم تغب عنى ذهنى لحظة .. كنت أتمثلك فى كل طريق أروده ، فأنت الأصل الذى كنت أسعى إليه .. لا شىء إلا أنت ... أنت وحدك يا أبى ، فما أطيق وحقك الحياة بغير تلك البسمة التى تشرق على وجهك وتشرق لنا بها الأيام والأزمان والآمال والمستقبل . لا ... أطيق ...

تركتك لأضرب فى الأرض فكانت ابتسامتك هذه أملى أراها أينما أدرت وجهى .. لقد كانت قطعة من نفسى .. بل لقد كانت أغلى قطعة فى نفسى .. أبى إن أكن أصبت فى الحياة نجحا ، فلأننى كنت أطالع هذه الابتسامة دائما ... كنت أراها عند الشدة الآخذة فينفرج من الأزمة ما كان مستحكما ، وكنت أراها عند النصر فيزداد النصر عظمة وازداد أنا تواضعا ... كانت ابتسامتك المصباح فى الظلام وكانت عند الفجر مجلاه وإشراقته .

أبى أتراك أتذكّركم من الأعوام مرت لم ترنى فيها بل إننى حتى الآن لم أكتب إليك .. عشرة أعوام كاملة ، وقد قصدت أن أكتب إليك اليوم لأننى احتفل اليوم بعيد مولدى .. لقد ولدت فى نفس اليوم الذى غضبت منى فيه وطردتنى ... فأردت يا أبى أن أكتب هذا فى نفس

اليوم . . يوم مولدى . . فإنه يخيل إلى أننى ولدت فى هذا اليوم مرتين . . مرة يوم التقيت بالحياة وعطفك يحيط بى ، ومرة يوم التقيت بالحياة وحدى بلا عون حين طردتنى .

أبى أتظننى غضبت أن طردتنى . . أتظن أننى انقطعت عنك طوال هذه المدة لم أعتذر ولم آت ولم أجث عند قدميك لأننى ذو كرامة . . لا وحقك . . فإننى عندك أنت لا كرامة لى . . فأنا أعلم أن حبك يرعى من كرامتى ما لا أرعاه . لم يكن انقطاعى لشىء من هذا . . . وإنما لشىء آخر ستعرفه فى نهاية هذا الكتاب . . .

أبى أتذكر يوم طردتنى . . نعم يا أبى . . إنك تذكر ولكنك لم تعرف الحقيقة حتى اليوم ولم أشأ أن أخبرك بها . . فقد كنت أخشى ألا تصدقنى ، وقد كنت ومازلت أحبك حبا يمنعنى أن أخالف إشارة منك مهما تكن هذه الاشارة صادرة عن ظن لم يثبت ، أو اعتقاد لم يتأكد . كنت ومازلت لا أجد لكلمة تصدر منك إلا الطاعة فأطعت ، وخرجت .. ومرت عشر سنوات . أما أنا فلم أكتب إليك لفكرة تسلطت على ذهنى وألحت عليه وملكت على كل أمرى وأما أنت فلم تسأل عن ولدك لأنك كنت تعرف من أمره كل شىء وكنت تطمئن على حياته دون أن تظهر له ذلك .

نعم يا أبى . . لقد كنت أعلم أنك واقف على كل خطوة فى حياتى لا تخفى عنك خافية وقد كنت أبيح لمن أعرف أنه يلقاك أن يعرف من أمرى كل شىء . . .

أبى . . أتراني جاحداً لأنى انقطعت عنك طوال هذه الفترة . . أبى . . أتراني ظالما لحِقّ الأبوة إن لم أقصد إليك هذه السنوات جميعها . . . أتراني أبى كذلك . . . لا وحقك لم أكن . . .

أبى . . . طوال عشر سنوات كنت أراك فى كل أسبوع مرة أو مرتين أو ثلاثة . . . كنت يا أبى أتخفى وراء الجدران فى مواعيد خروجك من المنزل وأطمئن وأترقبك وأزود نفسى بمحياك ثم أعود إلى الحياة وحدى . . . ولقد مرضت يا أبى فكنت أرسل إلى عمى زيدان خادمك الذى تولى أمرى بعد وفاة أمى . . . كنت أرسل إليه وأنا خارج الدار أعرف دقائق مرضك انصرف بعد أن استحلفه بأغلظ الأيمان ألا يخبرك بمقدمى . . . نعم يا أبى . . أدرى أنك كنت تتمنى فى لحظات مرضك هذا أن ترانى . . . ولكن هذه الفكرة التى تسلطت على ذهنى ووجدانى منعتنى أن أفعل . . منعتنى أن أنتهز فرصة مرضك لأستمنحك الرضا وأسألك الغفران . . . تذكر يا أبى أنك طردتنى فى اليوم ذاته الذى ظهرت فيه نتيجة الليسانس وكنت ناجحا بتفوق . . . طردتنى يومذاك وأنا عائد إلى المنزل فى الهزيع الأخير من الليل . . . رأيتنى قبل عودتك أجلس إلى مائدة فى حانة أشرب الخمر . . . وأنت رجل يخاف الله . . . واغضبك أن يشرب الخمر ابنك الذى تعرفه يقيم الصلاة فى مواقيتها . . . كبر فى نفسك أن يخادعك ولدك فيصلى فى

البيت ويشرب الخمر فى الحانة . أعرف أن فكرة مخادعتى هذه هى التى أثارتك أعلم ولكن . . .

أبى وحياتك لم أشرب الخمر . . . لم أشربها يومذاك ولم أشربها حتى اليوم ، ولكن أكنت تصدقنى حينئذ لو دفعت التهمة عن نفسى . . . لقد رأيتنى رأى العين فكيف ينهض إنكارى دون رؤيتك .

لقد كنت هناك فى الحانة ولكن صحابى هم الشاربون وكنت جليسهم . . أصدقاء الدراسة وأرادوا أن يحتفلوا بنجاحهم بالشراب وأبيت أن أشاركهم ، ورأيتنى فماذا أقول لك وماذا أصنع .

طردتنى يومذاك وأعلم أنك كنت تُقدر أننى سأغيب عن البيت بضعة أيام أعود بعدها . . . وإلا فأين أولى وجهى وأنا خريج جديد بلا مال ولا مأوى ولا وظيفة . . . كان تقديرك معقولا حكيما ، وقد أردتنى أن أحس سوء الذنب الذى ظننت أننى ارتكبته . . . ذنب المخادعة ولكنك حين طردتنى يا أبى أردتُ أن أثبت لك حبى كاملا خالصا عميقا متينا فكانت هذه الفترة الطويلة التى لم ترنى فيها .

كان فى جيبى تلك الليلة خمسة جنيهات هى كل مالى ، قضيت الليل سائراً وكان الصيف عطوفاً حانياً فلم أكن فى حاجة إلى مكان أبيت فيه . . . قضيت الليلة مع أريكة فى حديقة . . . عجيبة . . نعم أنا ابنك الذى كنت ترعاه رعاية مرهفة مدللة ابنك الذى كانت له حجرة خاصة منذ لا يذكر متى ، والذى كان يسعى بين يديه الخدم . . ابنك هذا قضى ليلته مع أريكة فى حديقة .

وفى الصباح الباكر قصدت صديقاً أبوه من كبار المحامين ورجوته أن يلحقنى بمكتب أبيه ورحب بى المحامى الكبير وجعل لى راتبا ظنه هو رمزيا وأاتبرته أنا حياتى التى لا حياة لى ألا به . . .

كان مرتبى عشرة جنيهات فى الشهر . . . وعملت . عملت بكل جهدى وبكل ضميرى وبكل إحساسى وأشهد يا أبى أنك نشأتنى فأحسنت فكان العمل عندى واجبا مقدسا ، لا أتخلف عن أقل دقائقه شأنا وقرأت وتأملت القضايا وكنت أطالب بالمزيد منها فما مر عامان حتى كان اسمى معروفا لدى المحاكم وحتى كان مرتبى ثلاثين جنيهاً ولكنى رجوت أستاذى أن يسمح لى بتركه لأفتح مكتبى الجديد . . . وفتحته وثابرت واجتهدت وقرأت اسمى يا أبى فى الجرائد مرات عديدة فقد أصبح الناس يعتبروننى من أحسن المحامين . وإننى أملك اليوم ثروة تقينى إلى المدى الطويل ، وأنا ما أزال فى بواكير الشباب الأولى وأنى أحب عملى ولا أتركه .

لهذا يا أبي أجدني خليقاً بأن أجثو عند قدميك أطلب الصفح والغفران فهل تراك تصفح . كنت أعيش هذه السنوات مع كفاح .. لا أمل لي إلا في هذه اللحظة التي أنا فيها الآن أن أراك تقرأ خطابي الذي كتبته وقدمته لك بيدي وأنا راكع عند قدميك حتى تقيمني بيديك .

أبي أردت أن أقصد إلى رحابك وأنا غني من المال قادر على مواجهة الدنيا لا أحتاج من كريم يديك إلا لمسة الأب وإلا هذه الابتسامة التي شققت بها وإليها طريقي .

إن هذا الخطاب الذي بين يديك قديم ... ولد في ذهني وفي قلبي يوم طردتني ومازلت أكتبه كل يوم وأعيد كتابته ... فهو أملي .

لم يكن أملي منذ ذلك اليوم أن أنجح ، لا ولا أن أكون غنياً ، لا ولا أن أصبح بين المشاهير وإنما كان أملي أن أركع في مكاني هذا عند قدميك وأنا غني ناجح مشهور لا ألتمس منك إلا الصفح والرضا والأبوة وإنها لكثير .

أردت أن أعوذ بك أنت لا أن أعوذ بمالك ... وأردت أن ألجأ إليك ... إليك أنت لا إلى بيتك .. أردت أن أطلب صفحك ورضاك وأنا في غنى عن الحاجة المادية ... فأنا أحبك حباً ما كنت لتدريه لولا هذه السنوات ... كيف كنت تدرى مدى حبي لك إن لم ترني مرتمياً عند أعتابك أطلب حُبك في غنى عن مالك .

حرمت نفسي منك عشر سنوات وحرمتك مني هذا السنوات من أجل هذه اللحظة .. أبي إني أرى هذه اللحظة تعدل العمر جميعه ... ألا تراها أنت كذلك ...

فكرة — أهي مجنونة أم حكيمة ؟ — لا أدرى وإنما سيطرت علي منذ طردتني ... أقسمت ألا أعود إليك إلا بعد أن أستطيع القيام بأمر نفسي ولا أطلب الصفح إلا من أجل رضاك وحبك ...

إن تكن صفحت يا أبي عن هذه السنوات التي حرمتك مني ، وإن تكن راضياً فمد يديك قبلها وضمني إليك ، وإن لم فدعني إذن في مكاني حتى ترضى ... فما أحب أن أظل عمري جميعه في مكاني هذا منك وأنت في مكانك هذا مني .

* * *

وبيد بلّلتها الدموع أقام الأب ولده ، وبقلب يفيض بالشوق ارتمى الفتى على يد أبيه يقبلها ويضمّها ... ذخره وحياته وأمله وأبوه .

● هذه اللعبــة

هــذه اللعبــة

عادت ناهد إلى البيت فرحة غاية الفرح ، يصفق قلبها سرورا ، وراحت تبحث عن أمها فى غرف البيت جميعا حتى إذا لم تجدها نبتت فى نفسها غصة صغيرة سرعان ما طفت على فرحها ، وراحت تلجأ إلى التليفون ولم تجد أقرب اليها من صديقتها ليلى لتخبرها بهذا الفرح الذى يملأ نفسها وأدارت القرص وسرعان ما جاء صوت قاتم من الطرف الآخر . عاجلته قائلة :

— ليلى موجودة ؟

— موجودة . .

— وترك الصوت التليفون وجاء صوت ليلى قاتما هو الآخر ولكن ناهد سارعت قائلة :

— هيه ياليلى . .

— هيه ياناهد . .

— هل نجحت . .

— لا .

— لم تنجحى . .

وخفتت الفرحة فى نفس ناهد ولم تستطع أن تخبرها أنها هى نجحت ، وانما كل ما فعلته أن قالت فى صوت شاحب :

— لا عليك . . سأمر عليك

ووضعت السماعة وعادت تفكر فيما يمكن أن تفعله . وضاقت بالبقاء فى حجرة مغلقة فقامت إلى الشباك ففتحته . . إنه هناك . . ذلك الفتى فى البيت المقابل الذى لا يكف عنها فلا تجدى معه كل هذه القسوة التى تعامله بها . ونظر اليها وابتسم فأقفلت الشباك وعادت إلى

الانتظار مرة أخرى . حائرة بفرحتها . . جلست إلى مكتب زوج أمها . فهو مكان لا تستطيع الجلوس فيه إن كانت أمها أو زوج أمها بالبيت . وراحت تفتح الأدراج وكأنها تقوم بمقامرة تريد بها أن تفتح المنافذ لفرحتها الحبيسة . وفجأة التقت بمسدس ملقى فى الدرج ونظرت اليه طويلا . . وكأنها لا تصدق ان هذه الآلة الصغيرة تقتل وتقطع حياة انسان ضخم يملأ الحياة ويروح ويجيء ويتكلم وقد يكون ذا سلطان فهو يتحكم فى نفوس البشر فهذا يعيش وهذا لا يجد العيش . . نظرت إلى المسدس الصغير كيف تستطيع هذه الآلة الصغيرة التى تشبه اللعبة . . . بل هى أدنى إلى فكرة اللعب أن تجتث حياة انسان من بين أهله وذويه . . . وكيف تقضى عليه حتى وان كان جبارا ذا سطوة ونفوذ وسلطان . . . كزوج أمها مثلا ذلك الذى يسيطر عليها فى عنف وبأس وجبروت . . . والذى رأت موظفيه فى الشركة وهم يرجفون من ذكر اسمه رجفة تتضاءل أمام هولها رجفة العابد المؤمن العميق الايمان ان ذكر أمامه اسم الله أو اسم الشيطان . بمسدس كهذا . . نعم كهذا . . بل برصاصة منه صغيرة دقيقة أهون فى سمكها من سمك هذه الفتحة فى مقدمة المسدس حتى ولو كان زوج أمها . وسارعت تقفل الدرج وعادت إلى فرحتها وإلى حيرتها بهذه الفرحة . وفجأة طغى تفكيرها على ضجيج فرحها من تنتظر ؟ أتنتظر زوج أمها الشرعي . . وماذا سيفعل قد يتفضل فيخرج كلمة مبروك ، وكأنه يفرج حنجرته عن دمية ميتة لا تحمل معنى . . وقد لا يقول شيئا الا أن يوم‍ء أما أمها فقد تفرح حقا ولكن ماذا تراها فاعلة أمام زوجها الباطش الجبار . . قد تضحك وقد تقول مبروك ياحبيبتى ثم تمسك بعنان عواطفها فى عنف فقد أمرها زوجها ألا تدلل ابنتها وهى له مطيعة . . ماذا ترجو اذن ناهد لفرحتها . لا شيء . . فقد عاشت فى ظل زوج أمها لا تجد لفرحتها عند أمها أو زوجها مكانا أو تجد لحزنها عند أى منهما يد آسية أو قلبا عاطفا . كالزهرة البرية التى تشق طريقها فى الجو وحيدة فريدة لا من يؤنس ولا من يتعهد . إنها ما تزال تذكر أباها ولكن ماذا تفيد الذكريات مع الواقع الأليم الا أن تزيد الألم قسوة وعنفا . . فكم كانت ترجو أن تنسى حنان أبيها حتى لا تستهول قسوة زوج أمها . . فلو كانت لم تر الحنان لما عرفته ولما احتاجت اليه ولحسبت أن الدنيا كل الدنيا ليس فيا آلام تشقى بها من صلف وترفع وتأنيب وخشونة . ولو كانت تجد أباها لاستطاعت أن تقول نجحت ولاستطاعت قبل ذلك أن تقول له الكثير الذى لم تستطع أن تقوله لأحد ولاستطاعت من بعد أن تقول الكثير الذى تعرف انها تحتاج أن تقوله ولكن لمن تقول . . ألا بد لها أن تقول . .

وما الحياة ان خلت من القول وقلب يعطف على قلب ونفس تؤنس وحشة نفس ؟

ودخل زوج أمها وطالعته هى فرحة مبتدرة .

— نجحت ياعمى .

ونظر اليها لحظة ثم قال « هيه » . . وما لبثت أن جاءت أمها فابتدرت قائلة :

. نجحت يانينا .

وفى حركة لا شعورية احتضنتها أمها فى نشوة طبيعية وهى تقول :

— مبروك . . ألف مبروك وأحست ناهد أن عينى أمها التقتا بعينى زوجها . . أحست بلقاء العيون فى صوت أمها وهو يعاجلها قائلا فى شىء من الجفاء المصطنع .

— كان لابد أن تنجحى . . أكنت تنتظرين غير هذا .

وانسحبت الأم من أحضان ابنتها وقصدت إلى غرفتها وما لبث زوجها أن تبعها وخيل لناهد أنه يريد أن يعاتبها على مابدا منها من فرحة لم تحكم زمامها . . وأطرقت ناهد لحظات . . ثم أحست أنها تريد أن تفتح الشباك . . ولا تدرى لماذا أرادت أن تفتح الشباك ولكنها توجهت اليه وفتحته بيد ثابتة كمن صممت على شىء . . وفى الشباك المواجه وجدت الفتى يطاردها بابتسامته . . ووجدت ابتسامته مستقرة على فمه كما تركها منذ أغلقت الشباك فى المرة الأولى . . وابتسمت . ولم يصدق الفتى عينيه فراح يفرك عينه وعاد ينظر اليها وقد رسم الابتسامة على فمه فوجد الابتسامة ما تزال على شفتى ناهد لم تتركها . . ورقص الفتى فى الشباك فضحكت ناهد من أعماق قلبها . . وكأنها أحست أنها قالت « نجحت » للشخص المناسب ، وأشار لها الفتى أن يلتقيا وأومأت أن نعم وأشار اليها أن الآن وأومأت أن نعم وقصدت إلى أمها فأبلغتها أنها تريد أن تزور ليلى ، ووافقت الأم ونزلت إلى الطريق .

ومنذ ذاك اليوم لم تكن تحتاج إلى أحد تفضى إليه بفرحتها ، أو تزجى اليه بآلامها فقد أغناها ماجد عن هذه الحاجة . . فهو كل شىء لها فى الحياة . شاب من الريف يقيم وحده فى القاهرة ليكمل تعليمه فى كلية الآداب قسم الفلسفة ، عذب الحديث عطوف عليها يتلمس رغباتها لينفذها ، ولم تكن رغباتها كثيرة فما كانت تريد الا أذناً وقلبا ، وقد كان ماجد ما تريد .

وبيت ماجد خال وبيتها هى لا رقيب فيه فالأم كثيرة الخروج وزوج الأم كثير المشاغل .

واستطاعت الصلة بينها وبين ماجد أن تظل بريئة فترة من الزمان ولكن البيت الخالى . . والرقيب الغائب . . والحنان من ماجد . . والقسوة من زوج الأم . . كل هذا استطاع أن يجعل الصلة غير بريئة .

ولم تجزع ناهد أول الأمر ولكن عارضا عرض كان لابد أن تجزع له . . لقد أوشكت أن تثمر هذه الثمرة التى يتمناها كثير من الآباء والأمهات فلا يصيبون من أمنياتهم إلا خيبة والتى يتمنى كثير آخرون من ذوى الصلات المستورة أن تظل مستورة فتتمرد عليهم الطبيعة وتصمم على أن تهب لهم ما هم عنه فى غنى أى غنى . . كانت ناهد تحمل ثمرة بحثها عن الحنان عند ماجد .

وأخبرته . . وجزع الفتى ولجأ إلى صديق له فى كلية الطب ولكن صديقه خذله ، وذهب إلى طبيب ممن يتقاضون من أجل هذه العملية أجرا فاحشا ولكن الطبيب ما لبث أن قال لهما :

— لا . . لا يمكن أن تحتمل العملية . .

وخرجا وقصدا إلى بيت ماجد . . وأطرق ماجد حزينا ونظرت هى اليه طويلا ثم قالت له :

— فى أى سنة أنت من سنوات دراستك ؟

ونظر اليها مندهشا بعض الحين ثم قال :

— ألا تعرفين ؟

— قلت لى إنك فى السنة النهائية ولكن الآن أريد أن أعرف الحقيقة .

— إذن

— إنها الحقيقة .

— إذن ماذا ؟

— أراك لا تريد أن تفهم .

— وهل تظنين أن ما يمنعنى عن الزواج هو دراستى ؟

— إذن فماذا ؟

— إنى فلاح .

— وهل لا يتزوج الفلاحون .

— يتزوجون ولكن . .

— ولكن ماذا .

— ألا تفهمين ؟

— أكاد أفهم .

— الفلاحون لا يتزوجون هكذا .

— ألست تعرف أنك أول انسان عرفته .

— ليس هذا ما أخشاه .

— فماذا تخشى ؟

— أخشى ألا أكون الأخير .

ونظرت إليه ناهد طويلا . . القسوة . . كل قسوة فى الوجود أرحم من هذا الذى سمعته الآن .

وقامت إلى بيتها كسيرة حزينة . . وقصدت إلى البهو وحيدة . . تريد أن تبكى فلا تجد الدموع . انها ليست الأولى فى هذا الموقف لا ولن تكون الأخيرة ولكن السعيدات الأخريات

يجدن فيه من يقف إلى جانبهن .. يجدن أمهاتهن .. فأين أمها .. لا يعرف أى انسان هذه الكارثة التى تشقى بها الا أمها .. فمن لها .. من .. لا أحد .. لا أحد .. لماذا .. فعلت بنفسها هذا .

انها تدرى لماذا .. تدريه حتى لتحسب أنها تعود إلى ما فعلته مرة أخرى ان عادت الأيام القهقرى الا أنها كانت تتمنى أن تجد فى ماجد الرجل الذى توهمته .. أو تجد من الزمان بعض عطف يعوضها عن عطف الأبوة أو الأمومة ولكن لا .. فالزمن المفترس لم يشأ أن يهب لها شيئا مما يهب للأخريات . أى فضل للأخريات إن يكن شريفات لماذا يسقطن .. وهل كل الرجال مثل ماجد .. هذا الذى صرع مستقبلها بما فعل وشرفها بما قال .

وجلست إلى المكتب وراحت تفتح أدراجه والتقت مرة أخرى بالمسدس .. هذه اللعبة التى تجتث حياة الناس انها تريدها الآن .. تريدها بكل خلجة من خلجات نفسها .

أمسكت بالمسدس وجلست ولم تطل بها جلستها فسرعان ما دخل اليها زوج أمها وقبل أن يقول فى صوته العنيف الطاغى ماذا تفعلين كانت هى قد أطلقت الرصاصة الأولى وترنح الرجل الشامخ فاتبعت رصاصتها ثانية فثالثة فرابعة حتى صارت تضغط على الزناد فلا يطلق الا فراغا .. ولم تبال فراغ المسدس من رصاصه بل راحت تضغط وتضغط .

●

الظل

تفضل ياسيدي بالجلوس . لا لن تجد منضدة خالية . . ان المقهى الآن بالذات لا تخلو فيه منضدة . لعلك لا تعرف هذا المقهى ياسيدى ، انه مقهى الموسيقيين وأفراد الكورس وهم الآن يتناولون غداءهم ليعودوا إلى الاذاعة وهكذا تجدهم يزحمون المقهى . فى هذا الوقت بالذات يزحمون المقهى . ثم هم إذا فرغوا يجلسون هنا أيضا ليجدهم من يريدهم فى عمل . . لماذا تظل واقفا ياسيدى . . تفضل ياسيدى بالجلوس . لا لا تندهش ان كلمتك دون سابق معرفة فانى كثيرا ما رأيتك ، وجهك مألوف بالنسبة لى . ثم انك ستسدي الى معروفا كبيرا إذا جلست فانى أريد أن أتكلم . . أريد أن أقول وكل هؤلاء سمعوا ما أريد أن أقوله ولكنى مع ذلك أريد أن أقوله مرة أخرى تفضل بالجلوس وأعدك انك لن تشعر بالملل فحكايتى — على كل حال — لا تجلب الملل . . شكرا . . والآن هل تأمر بقهوة أم بكازوزة . . أنا الذى سأدفع فانه يسعدنى أن أجد من احكى له . . لا شك أنك تريد عبد المنعم قاصد . . انت شاعر وهو يلحن لك . . أليس كذلك . . نعم أنا متأكد . . سيأتى عبد المنعم حالا . . كازوزة ؟ حسنا . . ياكوشة . . ياكوشة . زجاجة كازوزة وحسابها عندي . وعجل ياكوشة أتريد أن تسمع الآن . أولا أحب أن أعرفك بنفسى . أنا ياسيدى جزء على عشرة من انسان وأحيانا أنا جزء على عشرين من انسان . وأحيانا ولكن قليلا ما أصبح جزءا على ثلاثين من إنسان . وعلى كل حال أنا لست انسانا كاملا لم أكن كذلك فى يوم من الأيام . تصور انى حتى وأنا فى بطن أمى كنت نصف انسان . نعم إن لى أخا توأما شاركنى المكان الوحيد الذى يمكن أن أكون فيه انسانا كاملا ، واحدا صحيحا . وحين نزلنا إلى الحياة ظللت أحس انى لست انسانا كاملا . العجب ان هذا الشعور لم يكن يراود أخى أبدا كنت أسأله :

— أتحس انك انسان كامل .

وكان يقول فى عظمة بلهاء :

— كامل ونصف .

يظهر أن الشعور بالكمال تسرب اليه جميعا ونحن فى بطن أمنا ولم يبق لى منه شىء .

وأكدت الحياة معنى هذا النقص فى نفسى ، لم أتفرد بشىء أبدا ، كنا إذا أكلنا تقاسمت أنا وأخى الطعام ، واذا ما اشترى أبى لى شيئا كان لابد أن يشترى نفس الشىء لأخى كنت أخشى أن ينسى يوما ويحضر لى فردة حذاء ولأخى فردة حذاء وذهبنا إلى المدرسة . وكان أخى ذكيا يحسن المذاكرة ويحسن الاجابة على المدرس ويحسن الاستماع ويحسن أن يجعلهم يقولون عنه انه تلميذ ممتاز . وكنت فى أول عهدى بالمدرسة مثله . ولكن حين تقدمت بى السن والدراسة بعض الشىء نبتت فى رأسى فكرة لا أدرى مأتاها . . جميع الأفكار تأتى من حيث لا ندرى ولكنها تؤثر فى حياتنا حتى نهاية الحياة . . مصاير الانسان ياسيدى مرتبطة بفكرة كهذه الفكرة التى نبتت فى رأسى ونفذتها . . تصور ياسيدى مجرد فكرة طيف من ظن ، لمحة من أوهام . ظل من رأى ، مجرد فكرة فإذا أنا الذى ترانى اليوم وإذا أخى — والعقبى لأمالك — مدير خطير يحرك بسبابته عشرات من الكيانات البشرية من أمثالى . . كانت فكرة ياسيدى . . لا . . لا أريد أن أكون مثل أخى أريد أن أكون . . أنا . . أنا . أنا فقد بحثت عن أنا هذه كثيرا وقررت — ما دمت لم أجدها — أن أخلقها أنا . . وخلقتها ياسيدى فاذا هى هذا المخلوق الشائه الذى تراه الآن أمامك . . جزءا من عشرة من انسان أو جزءا من عشرين أو جزءا من ثلاثين . . كانت فكرة مجرد فكرة . . كثيرا ما تطوف بأذهان أقوام لكنهم لم ينفذوها ، وانما . . أنا . . أنا . . نفذتها . . قلت فى نفسى لن أكون صورة لأخى . . لا لن أكون . . سأكون أنا منفردا فى كيانى لا أماثل هذا الأخ فيما يسعى اليه من آمال ولا فيما يسير فيه من طريق . . انى شبيه له فى الخلقة ولكنى لن أكون شبيها له فى الآمال والأحلام . . كنت قد مللت أن أكون نسخة كربون من أخى . . كانت فكرة . . لو تركتها تذوب مع الأفكار الأخرى التى تراود عقلى ، لو انى لم أتمسك . . لو . . بغيضة (لو) هذه ياسيدى الشاعر أليس كذلك . . أتعجبك (لو) هذه ياسيدى . . انها لفظ الحسرة على ما فات والألم على الماضى . لفظه لا تحمل الا اليأس لعلك تحبها فى شعرك لأنها تعطيك الفرص للظهور بمظهر الحزين الأسى . . هذا المظهر الذى يحب الشعراء دائما أن يتخذوه . . أكره أنا (لو) هذه ياسيدى لو كنت تركتها تذوب لكان شأنى غير شأنى . . المهم أنى نفذتها . . أهملت المذاكرة وكنت أجاهد ألا ألتفت فى الحصة وأجاهد أن أجعلهم يقولون عنى تلميذ فاشل أتعرف ياسيدى انى لم ألاق النجاح الا نادرا فى حياتى أقول نادرا لأخادع نفسى الحقيقة انى لم ألاق النجاح الا فى هذه المرة . . نجحت ياسيدى فى أن أكون تلميذا فاشلا . . نجحت فى ذلك نجاحا جعل أبى ينتهى إلى اليأس الكامل من أن أكمل دراستى . . وأخرجنى . .

كان يومى الأول مع الفراغ وزملائى فى المدرسة يوما عجيبا بالنسبة لى ياسيدى حتى لقد خطر لى أن أعدل عن فكرتى وأعود إلى مدرستى ولكن هذه الفكرة . . فكرة العدول ياسيدى

سرعان ما ذابت وتلاشت ورحلت إلى حيث لا أدرى ولا يدرى أحد .. أتعرف أين تذهب الأفكار ياسيدى .. لا ما أظنك تعرف ، بل ما أظن أن أحدا يعرف .. قضيت اليوم وحيدا ، ولكنى كنت فردا .. شعرت بالتوحد . لم أجد نفسى بين صفوف التلاميذ ولا وجدت نفسى جزءا من جماعة ، بل وجدت نفسى فردا كاملا . ولكن لسبب لا أدريه لم أشعر بهذه الانفرادية وإنما شعرت بالضياع .. كم هو مر مذاق هذا الضياع يا سيدى حتى لقد أضاع على شعورى بالتفرد .

وكان لى زميل سبقنى إلى الطريق فذهبت اليه فوجدته قد حقق آماله فى كمنجة يحملها وتخرج له أنغاما . وكان سعيدا ، وأصبحت فى أيام افلاسى وأنا لاعمل لى إلا أن أستمع للموسيقى التى ترسلها كمنجة صديقى الذى سبقنى إلى الطريق .. لا لم أكن حينذاك أقدر النغمة الحلوة ولا النغمة الرديئة . وانما كنت أستمع .. أتشرب فنجان قهوة .. يسعدنى أن أقدمه لك .. أتشربها مضبوطة .. ياكوشة فنجان قهوة مضبوطة .. لا .. لا تشكرنى .. فانه يسعدنى أن أقول .. خيل الى بعد حين اننى أستطيع أن أفهم النغمات ، ورحت أستحسن موسيقى صديقى وشيئا فشيئا واتتنى الجرأة أن أدندن وما لبثت أن غنيت .. نعم كنت أغنى مع موسيقى صديقى وقال صديقى الله وحين سمعتها وجدت (أنا) التى كنت أبحث عنها .. وجدت نفسى أحس بالتفرد ياسيدى .. أصبحت أغنى وأجد من يقول الله ..

وتمسكت بلفظة الاستحسان هذه واسترسلت .. غنيت ، وكان صديقى يدعو بعضا ممن يعرفهم ويعزف هو وأغنى أنا .. والعجيب ياسيدى أنهم كانوا يقولون الله .. لا أدرى أى دافع كان يبعثهم إلى قولها .. أصبحت الآن لا أدرى .. أما فى ذلك الحين فقد كنت واثقا أن صوتى رخيم .. كنت واثقا ياسيدى .. ولا أدرى كيف استطاع صديقى أن يدبر لنا ليلة نغنى فيها فى فرح .. فرح كامل يجلس فيه المدعوون والعريس والعروس وأغنى أنا ويعزف هو على كمنجة ويعزف آخر على عود ويدق ثالث على طبلة .. وأغنى .. وغنيت ياسيدى وقال الناس الله .. لا لم يكونوا ساخرين .. قالوا الله ولكن ما أقل ما قالوها .. إن هى إلا دقيقة أو اثنتان وإذا بالكراسى تقذف الينا وإذا الفرح يصبح ميدانا للمصارعة وإذا نحن وأهل المغنى والموسيقى نتلمس مخبأ نحتمى فيه ولكن كأنما كان المدعوون لا يريدون أن يضربوا أحدا الا العازفين ..

نجونا بحياتنا ولكن لم ننج من الجروح والكدمات ضع القهوة هنا يا كوشة .. هل الماء بارد .. شكرا يا كوشة .. العجيب يا سيدى أن هذه الحادثة كانت تتكرر فى الأفراح التى ندعى إليها بطريقة منتظمة لا تخطىء .. لم نكمل حفلا أبدا . يئست ياسيدى . وكفرت بالتفرد وكفرت بنفسى وكفرت بكل شىء الا السماء .. أتعرف يا سيدى أن فكرة الكفر بالسماء لم تخالجنى أبدا .. ان عقلى لا يتصور أن السماء تتركنا ، كما لا يتصور عقلى أن تكون هذه الدنيا هى نهاية القصة . أنا مؤمن بالله وبالحياة الأخرى ، ولم أفقد ايمانى هذا فى أشد الأوقات حلكة

وسوادا . مات أبي يا سيدى وأنا أقطع طريقى فى الفشل . وازدادت الدنيا سوادا أمام عينى ولكنى لم أكفر بالله . . وفجأة قال صديقى صاحب الكمنجة إنه تعرف على شخص يستطيع أن يجعلنى أغنى وحين سألته (ولا يضربنى المستمعون) قال (ولا يضربك المستمعون) قلت (كيف ؟) قال (ستغنى فى كورس) كورس ؟؟ وأعود شخصا غير كامل مرة أخرى . . طلبت إليه ألا يذكر هذا العرض أمامى . . طلبت منه ذلك فى صلف وكبرياء ولكن قليلا مادام هذا الصلف وذلك الكبرياء . . كان أبى موظفا وكان يعولنى وهو حى ولكنه حين مات لم يترك لى شيئا الا خوفى أن أشعر بأننى انسان لا يكتمل الا بغيره ، جعت يا سيدى فذهبت الى صديقى ولم ينتظر أن أطلب . . يبدو أن منظرى وحده كان كافيا ، وأصبحت أحد أفراد الكورس أغنى مع غيرى ولا يتبين أحد صوتى انما صدى بين الأصداء ظل يختلط بظلال جزء على عشرة أو عشرين أو ثلاثين من انسان . . انسان لا يعرف جنسه فهو خليط من رجال ونساء وأطفال أحيانا . ولكنى لم أعد جائعا وان عدت الى شعورى بعدم الاكتمال لا يا سيدى ان قصتى لم تكتمل . . كنت يا سيدى ملزما أن أشترى بدلة سهرة . . كنت أبدو فيها أنيقا . فحين كنت أغادر منزلى وأنا لابسها تسارع بنات الحارة الى النظر من الشبابيك وكنت أحس بالزهو فى داخلى . . زهو سرعان ما يزاملنى حين أجد نفسى أكمل الانسان الظل فى الحفل . ولكن فتاة من بين أولئك الفتيات أعجبتنى وخطبتها وتزوجتها وعشنا معا سعداء أول الأمر . . لم تكن تعرف معنى أننى كورس . . لم تكن تتصور اننى جزء من ظل انسان . . حتى جاء التلفزيون فكانت ترانى فيه . . أجل اشتريت جهازا فيمن اشترى فلعلك لا تعرف يا سيدى ان مهنتى تدر على ربحا لا بأس به . . أترى السيارة التى هناك . . هى قديمة نعم . . ولكنى أملكها . . رأتنى زوجتى فى التلفزيون . . رأت المهنة التى أمتهنها . . سيدى عدت يوما من إحدى الحفلات فوجدت زوجتى قد غادرت البيت وحين ذهبت اليها أحاول ارجاعها . . قالت أريد شخصا موجودا لا ضائعا خافيا لا يبين . . أريد انسانا لا جزءا من انسان . . ما حزنت يا سيدى . . لقد تركت أنا فترة الحزن من زمن بعيد . . انما أقص عليك لأنى لم أعد أجد حزنا فيما أقص . . لا ياسيدى أنا لست سعيدا وانما أنا قانع . . لا تصدق يا سيدى أن السعادة هى القناعة . . وإنما القناعة هى الشقاء . . هى ركود يا سيدى ولكنى أرتضيه . . أرتضيه لأنى لا أملك له دفعا ولا عنه حولا . . ماذا يا سيدى ألا تنتظر عبد المنعم قاصد . . لابد أنه قادم الآن . . لا بأس يا سيدى . . أمرك . . سأخبره بقدومك . . مع السلامة يا سيدى . . مع السلامة . . يا كوشة . . يا كوشة كم تريد . . نعم كازوزة وقهوة . . وهذه خمسة قروش لك يا كوشة شكرا يا كوشة .

●

رحلة

كان مكانها فى الطائرة بجانبه ولم تعره التفاتا ، فقد كانت المرة الأولى التى تركب فيها طائرة ، وكان كل ما يسعى إليه ذهنها أن تقرأ ما تحفظه من القرآن : قليلا ما كانت تلجأ إلى القرآن وهكذا كان محصولها فيه يقل كلما لجأت اليه ، فهى تجهد ذهنها بحثا عن السور القصار . ويخونها ذهنها الخائف المذعور فلا تذكر الا « قل هو الله أحد » وتكمل السورة وتبحث عن غيرها فلا يقودها ذهنها إلى غير (قل هو الله أحد) فتعيدها وتعيدها ولا تقول غيرها وهو بجانبهاينظر اليها وطيف ابتسامة يطيف بفمه . وتظل هى تقرأ قل هو الله أحد حتى تجد نفسها آخر الأمر قد اطمأنت إلى تحليق الطائرة فى الهواء وتفيق إلى نفسها من ذعرها وتنظر حواليها وتراه وترى الابتسامة وتوشك أن تلاقيها بابتسامة . وتتفرس فيه . فتى أسمر الوجه سمرة غير مصرية حلو الملامح ذلى العينين حليق الشعر أسوده . فى وجهه سماحة وطيبة وحب . . حب للحياة ولكل شىء فى الحياة وينتهز فرصة نظرها إليه فيقول فى انجليزية نقية :

ـ أخائفة أنت إلى هذا الحد ؟

وتدهش أنه عرف بخوفها على رغم جهله بالعربية فتقول :

ـ كيف عرفت انى خائفة ؟

ـ لكل دين تعاويذه .

ـ نعم إنى خائفة . . الحقيقة أننى كنت خائفة . ولكننى الآن أشعر بالطمأنينة .

ـ أترى كان لما تتمتمين به أثر فى هذه الطمأنينة .

ـ لا أدرى . . ولكنى الآن غير خائفة .

ـ أنت مصرية ؟

ـ نعم .

ـ ما هذا الذى كنت تقولينه ؟
ـ كلام من كتابنا .
ـ مسلمة أنت ؟
ـ نعم .
ـ أهذا هو القرآن ؟
ـ كلمات قليلة منه .
ـ أنا أيضا أقول كلاما حين أكون خائفا .
ـ من الانجيل ؟
ـ لست مسيحيا .
ـ إذن ؟
ـ أنا بوذى .
ـ من الهند أنت ؟
ـ نعم .
ـ وهل كنت خائفا ؟
ـ فى هذه المرة لا .. إنها ليست المرة الأولى التى أركب فيها الطائرة .
ـ هل خفت فى المرة الأولى ؟
ـ المشاعر الانسانية واحدة فى جميع أنحاء العالم ومهما تختلف الأديان .
ـ أنت مسافر إلى لندن ؟
ـ نعم وأنت ؟
ـ إلى لندن أيضا .
ـ للدراسة ؟
ـ نعم وأنت ؟
ـ للدراسة ... كنت فى أجازة وهأنذا عائدة منها .
ـ ألا تشعر بالغربة فى لندن ؟
ـ إننى أشعر بالغربة بمجرد بعدى عن بيتى .
ـ أخاف من الغربة .
ـ هى المرة الأولى التى تفارقين فيها أهلك ؟
لم أبت ليلة خارج منزلى .. بل لم أبت ليلة بعيدة عن أختى .
ـ أظنها غير سعيدة بسفرك ؟
ـ مسكينة كانت تحاول أن تخفى الدموع حتى لا أراها .
ـ لم تحاول أسرتك أن تمنعك من السفر ؟

ـ حاولت أمي ولكن أبي متحرر التفكير ورأى أنني متقدمة فى دراستى فلم يشأ أن يحرمنى هذه الفرصة .

ـ وجرى الحديث . . حدثته عن أبيها وأمها وأختها وأخيها . . وحدثها عن إخوته الثلاثة من الذكور والأربع من النساء فعرفت أسماءهم وأسماءهن وعرفت المتزوجة منهن ومن لا تزال تنتظر الزوج وعرفت ماذا يفعل إخوته من الذكور عرفت أعمالهم جميعا . . ساعة واحدة كان كل منهما يعرف كل شيء عن الآخر وجرى الحديث ونسيت الطائرة ونسيت الخوف ونسيت أباها وأختها وأخاها نسيتهم بالحديث عنهم . . نسيت لهفتهم فى يوم سفرها ونسيت الجزع فى عينى أمها والضياع فى عينى أختها والشعور بالمغامرة فى عينى أبيها والشوق إلى المجهول فى عينى أخيها . . نسيت المشاعر التى ودعوها بها فى غمار الحديث وعن حياتهم اليومية ، وفجأة اهتزت الطائرة هزة عنيفة وهوم الصمت على المسافرين وعاد إليها الخوف ولم تشعر بنفسها وهى تمسك بيده فى ذهول ولم تشعر أيضا بيده وهو يطبقها على يدها المرتجفة . وبعد لحظات أنبأهم صوت قائد الطائرة انهم فى خطر وانه يحاول أن يتغلب على هذا الخطر .

ونظرت إلى جارها الذى أصبح صديقها وتكلمت عيناها وتكلمت عيناه وساد الصمت دقائق طويلة . . طويلة . . ثم ارتفع صوت قائد الطائرة .

الطائرة .

ـ اقتربنا من لندن . . الله معنا .

وعادت إلى « قل هو الله أحد » تقولها بقلبها ونظرت إلى جارها ووجدته يقول كلاما لا تفهم منه شيئا . وحين لامست الطائرة أرض المطار وجدت نفسها فى حضن هريش وهى ما تزال تردد « قل هو الله أحد » وحين انفصلت عنه انفجرت باكية ضاحكة متمتمة بكلمات السورة الوحيدة التى أصبحت لا تحفظ غيرها .

واستمرت الصلة بينها وبين هريش حتى أصبحت تقضى كل أوقات فراغها معه . حسست فى صحبته أمنا . واستطاعت برفقته أن تتغلب على الغربة أغلب ساعات النهار . ولكن الوحدة كانت تفغر لها فاها كلما تلقفتها الحجرة التى استأجرها لها عند أسرة صديقه .

وفى يوم سألها هريش ونظرة الحب تشع من عينيه :

ـ سلوى . . أريد أن أتزوجك .

ـ كيف ؟

ـ هكذا .

ـ ولكن ديننا يحرم الزواج بك .

ـ أعلم .

ـ وصمتت بعض الحين ولكنها ما لبثت أن وافقت على الزواج وتم الزواج على غير علم من أحد إلا الموظفين المختصين .

ـ ومرت الأيام وسلوى تكتب لأهلها لا تجسر أن تخبرهم بما تم فى أمرها حتى كان يوم شعرت بألم فى جنبها ، لم تحفل به أول الأمر ولكن الألم ازداد ولم تستطع أن تكتم أمره عن هريش . وطالعها الطبيب بالحقيقة القاتلة .. المرض قاتل لا سبيل إلى التغلب عليه .

ونظرت سلوى إلى هريش وأنعمت النظر ولم تجد شيئا تقوله الا ..

ـ أنا آسفة .. لم أستطع أن أحقق لك السعادة التى كنت أتمنى أن أحققها لك .

ولم يستطع هريش أن يتحمل العبء وحده . وفوجئت أسرة سلوى بخطاب موقع من هريش أن ابنتهم مريضة . وظن الأب أن التوقيع لأحد زملائها ولم يفكر إلا فى مرض ابنته فسرعان ما ذهب اليها فى لندن .. ووجدها على فراش الموت ووجد معها هريش . وما هى الا لحظات حتى تبين ما فعلته ابنته . وأوشك أن يتركها ليعود إلى القاهرة ولكن سلوى نادته فى صوت واهن ضعيف :

أبى .

ووجد نفسه يقول دون ريث وتفكير .

لم أعد أباك .

انى هنا وحيدة .

ـ لى رجاء لا يستطيع أن يحققه لى هريش .

ـ لا تنطقى اسمه .

ـ فهو رجاء لن يحققه لى إلا أنت .

ـ لا أريد أن أسمع .

ـ أريد أن أدفن كمسلمة .

وانهار الأب الحزين باكيا .. انها مازالت مسلمة ..

ـ هل أشركت بالله ياسلوى .. هل أشركت بالله .

ـ أريد أن أدفن كما يدفن المسلمون .

فرحـــــة

أمسك شريف بالجريدة فى لهفة جامحة وراح يبحث عن نتيجة المسابقة التى تقدم إليها بكتابه الأول . وطال بحثه عن هذه الأسطر التى ينشدها حتى عثر عليها آخر الأمر . وإذا هو يجد اسم قصته يشرق فى العنوان . وإنها الأولى . لقد اختيرت قصته أولى القصص على كل هذا الحشد الذى تدافع إلى المسابقة . لم تكن آماله جريئة إلى هذا الحد . إن آماله لم تحدثه يوماً أنه قد يكون الأول . لقد كانت غاية الآمال عنده أن يذكر اسمه من بين عشرة أوائل . وهو ما يزال يذكر كيف كان يردع هذه الآمال ويلزمها مكاناً قصياً فى بعيد نفسه ولا يتيح لها أبداً أن تلح عليه فقد كان يخشى أن تعده بما لا تطيق الأيام تحقيقه .

ولكن ها هى ذى الأيام تهب له حقيقة قائمة لم تستطع الآمال أن ترسمها له ، أسرع شريف إلى البيت وعدا السلالم عدوا حتى دخل إلى زوجته .

ـ سهير .
ـ هه شريف .
ـ تصورى . . تصورى .
ـ خـيـراً .
ـ الأولى . . ليست الثانية ولا العاشرة . . الأولى .
ـ من هى ؟
ـ قصتى الأولى . . اختاروا قصتى . الأولى . . الأولى .
ـ الأولى . . مبروك . . وكم سيعطونك ؟
ـ لا أعرف ولكنها . . الأولى . . الأولى . . تصورى .
ـ طيب يا أخى تصورنا وبعد . .

ـ وهل فيها بعد .. الشهرة المجد .
ـ عظيم .. مبروك .
ـ ولكنك لست فرحانة .
ـ وماذا تريدنى أن أفعل لأكون فرحانة ؟

وعندئذ أفاق شريف من فرحته .. فعلاً .. ماذا يريدها أن تفعل لتكون فرحانة .. ومنذ متى استقبلت أخباره بأكثر من هذا الهدوء الذى لا ينبىء عن شىء من فرح أو حزن أو أى شعور لو كانت امرأة غيرها لو كانت امرأة جياشة الشعور لطلب إليها أن ترقص .. نعم ترقص يقفل هو باب الحجرة وترقص هى ، وتقبله ، ثم تعود فترقص وتقبله دون أن تقول مبروك .. هذه المبروك الجامدة العاجزة .. لو كانت امرأة أخرى لما قالتها .. كان يريدها زوجة تستقبل معه المبروك إن ألقيت إليه ولا تقولها .. ولكن هذه هى زوجته ولن يملك لها تغييراً .. أفاق شريف إلى نفسه وإلى فرحته هذه الطفلة وعاد إلى حقيقة سنه . رجل فى الثلاثين من عمره وقور الملامح ثابت التفكير يحب أحياناً أن يكون طفلاً فيجد أمامه هدوء زوجته فيعود مرة أخرى إلى سابق وقاره .

ينزل شريف إلى الشارع يبحث عن صديق يفجر أمامه فرحته ولكن إذا كانت زوجته تنكر عليه هذه الفرحة الطاغية فكيف بالصديق .. لا إنه لا يريد صديقاً .. بل صديقة .. أنثى تقفل عليهما حجرة ويأخذها بين ذراعيه ويتبادلان الفرحة حيناً والحب أحياناً فيتزود من ساعة اللقاء طاقة كبرى من الاشراق يلقى به هذه الحياة المعتمة حوله .

صديقة . ومن الصديقة .. نجوى زميلته فى الصحيفة التى يشتغل بها .. فكثيراً ما أبدت اعجابها بما يكتب .. ولكن نجوى .. نعم نجوى .. لا .. لا يمكن .. لقد كانت تبدى اعجابها مليئاً بالنقد والموازنة والمقاييس الفنية .. كان إعجابه منهجياً لا تبعثه الأنثى التى فى نجوى بقدر ما هو صادر عن نجوى خريجة الآداب ، إن الذى ينشده ، إعجاب امرأة برجل اعجاباً ساذجاً بلا نقد ولا مقاييس ولا موازنة ولا دراسة .. يريدها معجبة بكل ما يكتب وبالطريقة التى يكتب بها ، بل وبالطريقة التى يمسك بها قلمه ويميل بها على صفحاته .. لا .. نجوى لا تصلح .. فمن اذن ..

وفى غمرة هذا التفكير كانت سيارة شريف قد وصلت به دون أن يحس إلى الجريدة فلم يفق إلا وهو ينزل من سيارته فى طريقه إلى مكتبه بالجريدة ، وحينئذ تذكر أنه لا عمل لديه بالجريدة فى مثل هذه الساعة ولكن هذا لم يثنه عن الدخول إلى مكتبه . فقد كان خالياً من كل عمل فرحان تتجمع فرحته فى قلبه ولا يجد لها متنفساً ، فتمنى لو يجد أى شىء يفرج عن فرحته المكبوتة تلك .. أى شىء حتى ولو كان عملاً .

وسرعان ما تحققت أمنيته .. لقد وجد على مكتبه كومة من رسائل القراء تنتظر فراح يفتحها الواحدة بعد الأخرى ، وأخذ يكتب رده على كل منها وأحاط به عمله فنسى كل شيء عن فرحته وعن الصديقة التى يريدها ، وعن تجهم زوجته وجمودها ، فلم يبق أمامه إلا هؤلاء الغربان الذين يعانون الآلام فى حياتهم ويلجأون إليه يسألونه لها شفاء .

وفتح باب الغرفة عن فتاة حلوة تسأل فى رقة وعذوبة :

ــ الأستاذة نجوى موجودة ؟

ودون أن يرفع شريف عينيه إلى هذه الفتاة المطلة عليه قال :

ــ لا .

فعادت الفتنة تقول :

ــ ممكن أنتظرها ؟

ودون أن يرفع نظره قال :

ــ تـفـضـل .

وراح هو فى دوامة الرسائل مشغولاً عن الفتاة وعن نجوى وعن كل شيء .. ولم تمض دقائق حتى قال شريف وهو فى غمرته ما يزال :

ــ مصيبة .. مسكين .

فقالت الفتاة :

ــ نـعـم ؟

ــ مسكين .. لا حول ولا قوة إلا بالله .

فقالت الفتاة :

ــ أتكلمنى يا أستاذ ؟

وحينئذ رفع شريف رأسه إلى الفتاة وهى تقول مرة أخرى :

ــ أتكلمنى ؟

فتلعثم شريف أمام هذا الجمال الذى أهمله وقد ساءه هذا الجمود الذى عامل به الزائر فراح يقول فى تردد :

ــ نعم .. لا .. أقصد .. مسكين مسكين ذلك الرجل .. أقصد ..

وانفجرت فى الحجرة ضحكة مدوية أعقبتها قهقهة عالية تتحدى الجريدة التى تموج بمن فيها ، وتتحدى كل أصول يضعها العرف ، ضحكة خالية متخلصة من كل شيء يعوقها ، وإنما هى تبحث عن طريق لها لتجد نفسها متفجرة فى الجو حرة مرحة بهيجة بلا عراقيل ولا عوائق .

وانفتحت عينا شريف دهشاً فأصبحتا فى اتساع فمه المذهول ، ولكن قليلاً ما لازمه الدهش فقد أطلق هو الآخر ضحكة عالية مقهقهة طال احتباسها فى نفسه فنمت وشبت حتى أصبحت ضحكة قوية رائعة جذلانة لا يذكر أنها صدرت عنه منذ كان طفلاً .

وفى خفوت الضحك اختلط صوت شريف والفتاة وهما يقولان :

ـ مالك يا أستاذ ؟

ـ ما الذى يضحكك يا ست ؟

وعادا يضحكان مرة أخرى وراحت هى تقول بألفاظ يقطعها الضحك :

ـ أنا أضحك منك وأنت ؟

وتجهم وجهه فجأة وقال :

ـ منى .. منى أنا .. أكل هذا الضحك .. منى أنا .. أنا يا ست ؟

ـ نعم منك .

ـ هل أنا مضحك إلى هذا الحد ؟

ـ وأكثر .

ـ ولماذا ؟

ـ ألا تعرف ؟ !

ـ إن كان وجهى على ما أعهد فأنا لا أعرف أنه يضحك إلى هذا الحد .

ـ لا ليس وجهك .

ـ أهي ملابسي اذن ؟

ـ أبداً .. أبداً .

ـ اذن ؟

ـ أتقصد أنك لا تعرف ؟

ـ لا أعرف فى شيئاً يضحك إلى هذا الحد ..

ـ أفهم من هذا أنك لم تحس أنك كنت تكلم نفسك .

ـ ماذا قلت لنفسى ؟

وراحت تقلد صوته وهى تقول :

ـ مسكين .. لا حول ولا قوة إلا بالله .

ـ أهذا يضحك ؟

ـ وهل يمكن ألا أضحك ؟ !

ـ ألم تقدرى أنى أقرأ شيئاً يستدعى الشفقة .. أكل ما أهمك من الأمر أنى كنت أكلم نفسى .. ألم تفكرى لحظة قبل أن تضحكى فى هذا الذى كنت أقرأ خطابه .

ــ يبدو أنك تريد أن تقلبها إلى نكد .

ــ قولى لى يا آنسة .. هل عرفت النكد طوال عمرك ؟

ــ يا أخى افرجها .. ألا تعرف أنت الفرح .

ــ الـــفـــرح ..

وعاد إلى فرحته الحبيسة ونظر إلى الفتاة الفاتنة ولاحظ فتنتها لأول مرة .. ولكنه لم يحس نفسه مأخوذاً بجمالها .. أحس فيها شيئاً يمنعه أن يعجب بها وعادت تقول :

ــ ألا تعرف الفرح ؟

ونظر إليها ملياً ثم وضع الخطابات فى درج مكتبه وقال فى جد :

ــ عن اذنك .

وخرج من الغرفة .. يحمل فى نفسه فرحته الحبيسة وآلام القراء وضحك الفتاة وجمالها الذى لم يذهله تختلط المعانى والصور جميعها فى نفسه فلا يكاد يفكر فى شىء حتى يثب آخر إلى سطح تفكيره ، ولكن فكرة الفرح الحبيس كانت أقوى هذه المعانى فى نفسه .. لماذا لم تفرح زوجته معه .. لماذا .. وركب وفكر فى القصة التى فازت .. إنها عن الحب الزوجى .. عن الحياة الحلوة فى ظل الزوجية .. كلام قصاصين .. من يقرأ قصته يظنه أسعد زوج فى العالم .. كلا .. نعم إن زوجتى لا بأس بها .. فهى تحبنى وأحبها ولكن لماذا لا تنتشى معى حين أكون سعيداً .. ولماذا لا أرى الشقاء كاملاً على وجهها حين أكون تعساً .. لماذا .. أكنت أحب أن أرى الشقاء على وجهها حين أنا تعس ؟ إذن فتعاستى حينئذ تعاستان ، بؤسى بؤسان ، ولكنى أحب أن أراها طائرة من الفرح إذا سعدت .. ولكن لماذا لا أنخدع أنا بكامن الفرح فى نفسها .. أنا فرحان لماذا لا أدعوها الليلة إلى العشاء فى الخارج ثم نذهب معاً إلى السينما أو إلى الهواء فى الهرم .. أو إلى أى مكان .. وبلغ بيته ودخل إلى البهو وكانت زوجته بجانب التليفون ورآها وهى تضع السماعة دون أن تتكلم وسألها :

ــ ماذا .. لماذا وضعت السماعة ؟

ــ النمرة مشغولة .

ــ آه ..

وتركها ودخل إلى حجرته دون أن يدعوها إلى شىء .. لماذا .. لا يدرى .. استلقى على السرير وراح يفكر مرة أخرى .. إنه فرحان .. وراح يفكر أيضاً أنه لم يقدم إلى نفسه شيئاً يشعرها به أنه فرحان ، وجاءه صوت قرص التليفون وهو يستدير ثم صوت زوجته وكأنه يهمس فأصاخ السمع :

ــ آلو نينا .. أطلبك من ساعة مع من كنت تتكلمين .. أنا .. كنت أكلم صاحباتى .. لا عليك .. تصورى .. تصورى يا نينا .. شريف طلع الأول فى مسابقة القصة أنا فرحانة

جداً يا نينا .. أنا فخورة به .. لا .. المسألة ليست مسألة فلوس .. إنما أنا فرحانة .. لماذا .. لماذا كيف . لأنه فرحان .. و لأنه فنان .. ولأنه زوجى أنا فرحانة يا نينا .

وأحس شريف لأول مرة منذ طالع الجريدة أن فرحته قد أفرج عنها وأنها موجودة وأنه سعيد وأنه أسعد انسان فى العالم .. وفى صوت يرتعش بالنشوة نادى من غرفة النوم ..

ـ سهير .

وقالت سهير دون أن تبين فى صوتها نبرة خاصة .

ـ هـه .

ـ الليلة نتعشى فى سميراميس فى السطح .. ونذهب بعد ذلك إلى الفيلم الذى قلت لى عليه .

تقرير الطبيب

دخل الشيخ حمادة الطيب إلى ساحة داره ونادى فى حزم :

ــ محمود . . يا محمود .

وسرعان ما جاء محمود يجيب نداء أبيه :

ــ نعم يابا .

ــ تجهز للسفر .

ــ ماذا يابا ؟

ــ سنسافر باكر لمصر لأشترى لك ملابس الأزهر وأشوف لك مكاناً تسكن فيه .

ــ باكر يابا ؟

ــ نعم باكر .

ووجم محمود لحظات وقال الأب وقد أوشك صبره أن ينفد :

ــ مالك . . ألم تكن تعرف أنك ستسافر ؟

ــ يا بابا أنا لا أريد أن أسافر .

ــ لماذا يا ولد ؟

ــ يابا . . يابا . . أنا لا أريد أن أسافر .

ــ ستسافر غصباً عنك .

وأطرق محمود إلى الأرض ودون أن يحس تسللت دمعات من عينيه جاهد أن يخفيها فتأبت عليه وراحت تسيل ، ودخلت أمه وهالها أن ترى وحيدها يبكى هذا البكاء الصامت العميق فدقت صدرها وقالت :

ــ ماذا يا أبا محمود . . ماذا فعلت للولد ؟

ـ أريده أن يسافر إلى الأزهر .
ـ وماله يا محمود .. ولماذا لا تريد أن تسافر ؟
وراحت تربت ظهره فى حنان .
ـ يا أم أريد أن أبقى هنا .
ـ لماذا يا بنى .. العلام حلو .
ـ يا أم أريد أن أبقى مع ..

ولم يكمل الجملة واستحثه أبوه فى صوت يجمع الحنان إلى الحزم .
ـ مع من يا ولد ؟
ودون ريث تفكير انطلق محمود قائلاً :
ـ مع صاحبى عبد الواحد .
وقال الأب فى غضب فقد كان يرجو أن يرغب ابنه فى البقاء معه هو أو مع أمه على الأقل :
ـ مع من يا ولد ؟
ـ مع صاحبى عبد الواحد .
ـ عبد الواحد ابن الشيخ سالم ؟
ـ نعم .

وكثرت الدموع حتى أصبح الصمت لا يسعها فإذا محمود ينشق عن بكاء علنى من العبث أن يحاول إخفاءه .. وراح الحاج حماده يضرب كفاً بكف وخرج وهو يقول :
ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .. لا حول ولا قوة إلا بالله .
وراحت الأم تهدىء ثائرة وحيدها فى حدب وإشفاق ولكن البكاء كان يزيد كلما تذكر أنهما لن يسيرا معاً عبر الحقول ، ولن يخوضا الماء معاً ، لا ولن يركبا النورج ، ولن يطالعا الشمس عند بكورها ولن يودعاها عند الغروب ، لن يرى عبد الواحد .. ويزداد البكاء .

ويذهب الشيخ حماده إلى حيث تعود أن يجلس فى كل يوم هناك على مصطبة العمدة وما يكاد يجلس حتى يقبل إليه الشيخ سالم عوضين أبو عبد الواحد فما أن رآه حتى يبتسم له قائلاً :

ـ تعال يا سيدى .
ويحس الشيخ سالم أن فى صدر الشيخ حماده شيئاً يخصه .
ـ خير ؟
ـ ابنك عمل لنا إشكالاً اليوم فى البيت .
ـ لماذا ؟
ـ تركت الولد ابنى يبكى بكاء يفتت القلوب .
ـ لماذا .. إنهما أصحاب لا يفترقان .

ـ وهذا هو السبب .
ـ لا أفهم .
ـ الولد محمود لا يريد أن يترك عبد الواحد ويذهب إلى الأزهر .
ـ مـاذا ؟
ـ هذا ما حصل .
ـ الله يجازيه . . وماذا فعلت ؟
ـ أنا والله حائر .
ـ لا حيرة ولا غيره إن شاء الله .
ـ أعندك حل ؟
ـ أحسن حل .
ـ مـاذا ؟
ـ متى تريد أن تصحب محمود إلى الأزهر ؟
ـ باكر إن شاء الله .
ـ تصحب محمود وعبد الواحد على بركة الله .
ـ هل أنت جاد يا شيخ سالم ؟
ـ كل الجد يا شيخ حماده . . يذهبان معك إلى الأزهر باكر إن شاء الله .

وهكذا يذهب عبد الواحد إلى الأزهر مع محمود . . ويسكنان معاً فى غرفة واحدة ويتلقيان علومهما على شيخ واحد . وتتحد بينهما الحياة فى كل دقيقة تمر بهما من دقائق الحياة . ويقضيان فى الأزهر الشريف سنوات طويلة ويعجز كلاهما أن يبلغ شيئاً من شهادات الأزهر العليا فيعودان معاً إلى القرية يصحبان عجزهما هذا ويصحبان أيضاً عمامتين لا يتنازلان عنهما ويحملان لقبا لا يفارقهما . هو الشيخ محمود والشيخ عبد الواحد .

ويختار الله الشيخ سالم إلى جواره فيصبح الشيخ عبد الواحد هو القيم على شئون بيت أبيه وعلى أخته نعمات .

ويمر عام ويسمع الشيخ عبد الواحد وهو فى قاعة بيته صوتاً عرفه لتوه .

ـ يا ساتر .
وينهض إلى الباب .
ـ يا مرحبا بالشيخ محمود . . يا أهلاً وسهلاً .
ويدخل محمود إلى القاعة ويتخذ مجلسه .
ـ كيف حالك يا شيخ عبد الواحد .
ـ الحمد لله يا شيخ محمود .

ـ رحنا الأزهر وجئتنا فما أحضرنا معنا إلا الشيخ محمود والشيخ عبد الواحد .

ويقول عبد الواحد وهو يغالب الضحك :

ـ أبي وأبوك حصلا على المشيخة دون أن يبرحا القرية . وحين يهدأ بهما الضحك تبدو على وجه محمود علامات جد ويقول :

ـ جئت إليك فى أهم شىء فى حياتى .

ـ حياتك هى حياتى يا محمود .

ـ الصداقة التى بيننا ليست كافية .

ـ قل ما تشاء .. وإن كنت أراها فوق الكفاية .

ـ أريد أن تصبح قرابة .

ـ هى أقوى من القرابة .

ـ ولكنى أريدها قرابة .

ـ يتهيأ لى أنى فهمت .

ـ أنت ذكى منذ نحن أطفال صغار .

ـ تريد أن تخطب نعمات .

ـ هو ذاك .

ـ هى لك .

ـ لا .. أبدا .

ـ مـاذا ؟

ـ كنت أعلم أنك ستوافق ولكن يهمنى رأيها هى .

ـ أتعصى لى أمراً ؟

ـ أنا لا أريد منك أن تأمرها .. أريدك أن تسألها .

ـ وهو كذلك .

ـ أمر عليك باكراً .

ـ أبداً والله .. لا تخرج إلا وأنت خطيبها .

ـ يا رجل اتق الله .. إنى أريدها أن تفكر فى الأمر .

ـ فيم تفكر ؟ إنك من أغنى أبناء النوافعة ....

ـ الأهم من ذلك أنى صديق عمرك يا عبد الواحد .

ـ إذن فانتظر حتى أسألها .

ـ أمـرك .

ولا يخرج الشيخ محمود إلا وقد قرأ الفاتحة مع عبد الواحد على أن يزوجه أخته التى وافقت دون أن تفكر فكأنها كانت تحس بغريزة المرأة أن مصيرها المحتوم هو الشيخ محمود .

ويتم الزواج بعد أسابيع قلائل وتبدأ الأيام رحلة جديدة مع الشيخ محمود وزوجته نعمات .

أيام عقيمة . . يمر الشهر وتليه الشهور ونعمات لا تبشر زوجها بما يبشر به الزوجات أزواجهن . . ويموت الشيخ حماده فينشغل الشيخ محمود بموت أبيه وبالتركة عن الإنجاب . ولكن الزمان واسع وحادثة الوفاة لا تلتهم منه إلا شهراً أو شهرين ثم يتسع الزمان مرة أخرى أمام عيني محمود . . يتسع عن فراغ . . فراغ قاتل . . لا ولد سيموت هو أيضا بعد حين . . طال هذا الحين أو قصر . . ويومئذ لا ولد . . لن يذكر الشيخ محمود أحد كأنما لم يكن .

لا يجد بدا من أن يذهب إلى القاهرة وهناك يمر بالأطباء جميعاً ويبذل المال عن غدق ولكن المال لا يجدى كما لا يفلح الأطباء والسنوات تغول العمر ويمر الشباب وتتخطر الكهولة إلى الشيخ محمود فى ردائها الأبيض الباهت وينظر الرجل إلى ما فاته من عمره وما بقى منه فتروعه النظرة ، لن يبقى له قدر ما فات .

وينظر إلى زوجته . . طيبة هى حنون لا تعصى له أمراً ولا تناقش له رأياً ولكنها عقيم . . أو لعله هو العقيم . . لا يدرى إنما المؤكد أن زواجها عقيم ويأتى إليه يوماً الشيخ عبد الواحد . .

ـ محمود . . لقد أطلت البحث عند الأطباء .

ـ أمر الله يا عبد الواحد .

ـ تزوج من أخرى .

ـ على نعمات . . على أختك . . أموت ولا أفعل هذا .

ـ أنا الذى أطلب هذا .

ـ والله وإن طلبت نعمات نفسها .

ـ لقد وافقت .

ـ أقلت لها ؟

ـ نــعــم .

جزاك الله . . لقد روعتها بغير داع . . والله لن يكون هذا أبدا . . لا والله لن يكون هذا . . أنا والله لا أدرى إن كنت أنا العقيم أم هى ، وما كنت لأتزوج وأختك فى بيتى أبدا . . انك حياتى كلها ياعبد الواحد . . ولو لم أكن أعرف أننى سأكرم أختك حتى يختارنا الله ما تزوجتها .

ويرفض الشيخ محمود رفضا قاطعا وتمر السنون . ويدرك الشيخ محمود أن لا أمل إلا أن يكثر من اصطحابها إلى القاهرة وينزل بها فى أفخر الفنادق وينفق عن سعة فإذا قصر المال الناتج عن الأرض باع بعض أرضه وأنفق وعاشا سنوات فى بحبوحة وهناء .

حتى خطر لها يوما أن يحجا إلى بيت الله .. وكان هو يفكر فى شىء آخر .. كان يفكر أن يبيع البقية الباقية من الأرض وينفق منها ما بقى لهما من سنوات ثم يترك لها الباقى عند وفاته مالا فى يدها حتى لا يشاركها فى الميراث أحد من قرابته وحتى لا تضطر إلى الإشراف على الأرض وهى السيدة التى لم تمارس الحياة ولا أعمال الرجال .

واستطاع الشيخ محمود أن يبيع أرضه بسبعة آلاف جنيه وقدر فى نفسه أنه إذا عاش بعد ذلك عشر سنوات فقد يكفيه خمسمائة جنيه فى العام ويترك لزوجته ألفى جنيه فى رعاية أخيها لها وما تركه لها أبوها من ميراث قليل .

وحين أخبر زوجته بتفكيره هذا قالت له :

ـ لا أريد الا أن أحج إلى بيت الله الكريم معك .

وابتهجت نفسه للفكرة .

ـ نحج هذا العام على بركة الله .

وجهز للحج أمره .. ولم يفكر أين يدع مبلغه فى البنك أو فى الخزائن وعنده عبد الواحد ، أودع المبلغ جميعه عند عبد الواحد وقال عبد الواحد :

ـ أعطيك ورقة .

ـ هل جننت ؟

وانتهى الأمر عند هذا وسافر هو ونعمات إلى الحجاز وعادا وأقبل عبد الواحد .

ـ الحمد لله على السلامة ياحاج .

ويقول الحاج محمود :

ـ سبقتك إلى هذه ياشيخ عبد الواحد .. العقبى لك العام القادم .. ان شاء الله .

ـ وينصرف المهنئون ويهم عبد الواحد بالقيام ولكن محمود يستبقيه حتى إذا خلت بهما الحجرة قال له :

ـ عبد الواحد .. هل المبلغ عندك فى البيت ؟

وينظر اليه عبد الواحد مليا .

ـ المبلغ .. أى مبلغ ؟

ويصمت محمود لحظة ثم يبتسم .

ـ أتمزح ..؟

وأصر عبد الواحد على نظراته الجريئة .

ـ بل يخيل إلى أنك أنت الذى تمزح .

وصمت محمود .. لقد عاش عمره كريما على نفسه وعلى الناس . ماذا يفعل الآن .. هل يستجدى ماذا يفعل .. الآن . انه أصبح وهو لا يملك شيئا على الإطلاق .. حتى الصحة ..

وأين الصحة لمن ترك وراء الستين .. لا شيء لا شيء على الاطلاق .. لم يكن له إلا هذا المال وهذا الصديق وقد فقدهما فى لحظة .. أغمض عينيه وفتحهما .. إنه ليس حلما .. ما زال عبد الواحد أمامه بنظراته الخائنة المصرة على الخيانة .. ورأى نفسه يمر ببيوت الناس يقول :

إحسانا لله .

وأغمض عينيه ثانية وحين حاول أن يفتحهما لم ينفتحا ولكنه همهم .

ـ المبلغ ياعبد الواحد .. ألا تعرف المبلغ ؟

ـ أى مبلغ يامحمود .. هل جننت ؟

ويحاول أن يقول شيئا .. فيخونه لسانه أن يقول ثم لا يشعر بشيء .. وبعد لحظات يمد عبد الواحد اليه يدا مرتشعة ويجس نبضه .. لقد مات .. ولا يدرى من أين انبعث هذا الصوت الذى جاءه يقول له فى لهجة تقريرية حاسمة « قتلته » .

ويقول هو دون أن يحس ولكن بلا سلاح وبعد حين يأتى الطبيب الشرعى ويفحص الجثة ويكتب تقريره « وفاة نتيجة أزمة قلبية » ويصرح بالدفن فليس فى الأمر جريمة .. لا ليس فى الأمر جريمة .

رضوان أفندى

وبدأت الأجازة الصيفية حيث تتداح الأيام فى غمار الزمن فلا ينفصل يوم عن يوم ولا ساعة عن ساعة وإنما هو فراغ طويل يفغر فاها مخيفا يرسل الملل والضيق والسأم .

لم يعد يهمنى ماذا يكون اليوم أهو السبت فأصحو فى باكر الصباح أم هو الاثنين فاتئد قليلا عند اليقظة وأتقلب فى راحة وسرور فوق السرير فما يبدأ يومى فى المدرسة الا بعد الحصة الثانية . ولم يعد يهمنى إن كان اليوم الأربعاء فأتقلب مرة واحدة أو مرتين على الأكثر فقد كان لابد فى العام الدراسى المنقضى أن أكون فى المدرسة بعد الحصة الأولى .

وما أفكر الآن فى يوم الخميس لأهيىء سهرتى مع أصدقائى حول الراديو لأتيح لنفسى أن أنام فى يوم الجمعة حتى يحين موعد الصلاة . تشابهت الآن الأيام ، فكلها جمع ، فما عاد السهر يحلو لى وما عدت أستمتع بنومى فى يوم الجمعة . الأيام جميعها جمع .

بل إنها خالية حتى من فرض الصلاة الجامعة . أصبح يوم الجمعة هو أكثر أيامى مشغولية . وأصبحت الأيام الأخرى فضاء . ما عدا التفكير الذى يسيطر على اليوم .

لقد كنت فيما مضى من أعوام أهفو إلى هذه الأجازة وأرنو إلى أيامها المقبلة فى ضمير الزمن بعين مترقبة ونفس متشوفة وروح مشوقة . ماذا حدث للأيام . أتراها تغيرت أم ترانى أنا الذى تغيرت . كنت قبل زواجى مقبلا على أيام الفراغ لأقضيها مع زوجتى . . ومرت الأيام فاكتملت شهور واكتملت الشهور سنين . . فمالى لا أجلس مع زوجتى .

عاقر هى . . ما أبغض المرأة العاقر إلى قلبى . . شجرة لا تنبت ولا تخضر سائرة إلى الجفاف بلا ربيع لها . . لا تتجدد ولا تتجدد الحياة فيها ، فالحياة حولها طريق إلى النهاية ، طريق لا ينيره أمل من طفل ولا ابتسامة من طفلة ولا وعد من الحياة إن لى فى الحياة من بعدى

وجودا من اطفالى ، أنا جذورهم ، وهم الفروع مثلما كنت فرعا لجذور من قبلى .. إننى بزوجتى العاقر قد أوقفت الحياة ، لن تتجدد وتسير وتزدهر ، كأنى كتبت على هذا الجزء الذى أمثله من الحياة « ينتهى بانتهاء صاحبه » أنا فى الحياة فناء ، أنا نهاية شجرة بدأها آدم ورعاها أجدادى على مر الأجيال فهى قائمة مزهرة منتجة باقية حتى إذا بلغتنى توقفت عن الازدهار والتجديد فهى إلى الفناء تجف كلما مر بها يوم ، لا نماء لها ولا أمل فى النماء .. لا أمل ؟ ألا أمل هناك .. وهب زوجتى عاقرا فهل أنا أيضا عاقر .. فإذا لم أكن فكيف أقبل أن أشترك معها فى انهاء الحياة .. فى توقفها كيف أقبل أن أمثل النهاية فى عالم يتجدد فى كل لحظة ببدايات جديدة مع أطفال جدد سيكبرون فى غد ويصبحون جذورا جديدة للحياة ، لا لن أكون هذه النهاية . مسكينة زوجتى لقد خلق فيها عقمها نوعا من الغيرة الطاحنة . لا أنسى يوم جاءتنى فوقية والدة شحاته عبد الموجود ترجونى أن أعطى درسا لابنها اليتيم .

لا أنسى يومذاك حين انتفضت زوجتى فاطمة عن ثورة مشبوبة لاهية :

ـ امرأة بلا زوج .. ألا تستحى ؟

ـ زوجها مات .

ـ ترسل أخاها .

ـ ولماذا ياستى .. لقد جاءت إلى فى بيتى وكلمتنى أمامك وسألت عنك قبل أن تسأل عنى .

ـ طبعا .. تدافع عنها .. امرأة بلا زوج وحلوة .. وليست عقيما .. لماذا لا تدافع عنها .. طبعا .

ـ ياستى أبدا .

ـ طبعا . أنا عارفه حظى .. بختى مائل طول عمرى .

وبكاء وصراخ وضجيج ووجه استمر منقبضا فى غير انفراج أياما عديدة لم أعد أذكر عددها . ماذا تراها فاعلة .. علمت بما أفكر فيه .. ولم لا .. لماذا لا أتزوج .. أجدد الحياة .. لو كان عندى الآن ولد لما ضقت بالأيام الفارغة .. كنت أجلس اليه ألاعبه وأفرح به مبتسما ضاحكا بل وأفرح به عابسا باكيا وأنشغل . ويملكنى القلق إذا ما مرض .. إنى لأحسد الأب حين يقلق على ابنه المريض .. انه بقلقه يشعر بالحياة .. بالحياة جميعها .. ويأخذه البهر ويملكه الخوف ويتجه إلى الله وإلى الطبيب وإلى الصلاة وإلى الدواء .. ولا ينام الا نوما يختطفه الجسم المتعب من الروح الهالعة خطفا لا يطول فهو إغفاءة ثم يصحو مفزعا فى إغفاءته ويقظته وتمر الأيام فإذا طفله يتماثل للشفاء . وتهدأ الروح وينام الجسم نوما مفعما بالحياة .. هذه هى الحياة .. حتى الخوف والقلق والرعب مشاعر حلوة عند الآباء يذكرونها إذا ما انحسر الخطر فى هدوء قرير وحديث ناعم حنون . لماذا أحرم نفسى من هذا جميعه .. الآن زوجتى عاقر ..

فمالى لا أتزوج غيرها . وأبقيها وماذا على أن أفعل . فى القرية كثيرون يتزوجون الزوجة الثانية دون أن تكون زوجاتهم عاقرات .

ولم يصبر رضوان أفندى حسين طويلا . . ولم يترك الزمن يراود الفكرة فى ذهنه . . وإنما سرعان ما اقتنع بها دون ريث أو تدبير . . وقام إلى بيت عباس فرغلى وما أن تبادلا التحية حتى سارع رضوان قائلا :

جئت أخطب أختك هنية ياعباس .

وقال عباس مندهشا .

ـ خادمتك ياسى رضوان أفندى ولكن . .

ـ ولكن ماذا ؟

ـ أنت سيد العارفين .

ـ ألأنى متزوج ؟

ـ طول عمرك ذكى وتفهم ياسى رضوان .

ـ ياسى عباس . . الحال من بعضه . . وهى أيضا ألم تكن متزوجة ؟

ـ أنا لا أقصد .

ـ فماذا تقصد ؟

ـ لا أريد أن أغضب الست فاطمة .

ـ ليس فى الحلال ما يغضب ياعباس .

ـ زوجتك ست كريمة وطيبة .

ـ أريد أطفالا ياعباس .

ـ ياسى رضوان أنت متعلم وتفهم . . كيف عرفت ان أختى ستهب لك الأطفال وكيف عرفت أنك ستكون سعيدا بهم .

الذى أعرفه أننى لابد أن أحاول . . والذى أعرفه أيضا أنى لست سعيدا بدون أطفال .

ـ ربنا يكفيك شرهم .

ـ زينة الحياة الدنيا .

ـ ويجعل من يشاء عقيما ياسى رضوان أفندى .

ـ أريد أن أحاول .

ـ فإذا لم تنجب أختى ياسى عباس تطلقها ؟

ـ تكون مشيئة الله تمت وأمره لا مرد له .

ـ وإذا أنجبت لك الست فاطمة ؟

ـ وهل هذا معقول ؟

ـ يعنى إن حصل ؟
ـ لا ياشيخ لا تخرف .. على كل حال ستبقى هنية على ذمتى .
ـ وهو كذلك توكلنا على الله .

ويتم الزواج ويظل سرا على فاطمة ولكن ما أقل ما يظل السر سرا .. سرعان ما يذيع وتعلم فاطمة فهى فى حريق .. يلهب كيانها جميعا .. وتحاول أن تكتم ما بها كلما رأت زوجها ولكن دموعها تخونها فهى تتساقط فى صمت .. ويصيح بها زوجها :

اصرخى .. اصرخى كما كنت تصرخين .

وتقول والدموع تتساقط توشك أن تكون حمراء فى لون النار :

ـ لا يفيد الصراخ الآن .. أمر الله .. أمر الله ..

ويروح يهدىء خاطرها .

ـ ليس فى القلب غيرك .
ـ لا تقل هذا .. فهو أشد على نفسى وقعا .
ـ أحبك والله يافاطمة .. أحبك كما كنت أحبك منذ تزوجتك .
ـ ولم تستطع أن تضحى من أجلى .. وتفجعنى بضرة لا تدرى إن كانت ستلد لك أم لا وتفجعنى من أجل أطفال لا تعرف شكلهم ولا تعرف ماذا سيفعلون .. ان هم كبروا ، لا تقل انك تحبنى .. لا تقل .

وكان إذا ذهب إلى هنية وجدها فى جزع آخذ ألا تلد هى الأخرى فتنتهى حياتها مع زوجها رضوان أفندى الذى رفع مكانها فى القرية ، وجعلها ست بيت لا تملأ الجرار ولا تذهب إلى الغيط .

ـ وهكذا لم يعد رضوان جازعا من الفراغ أو الملل فقد ملأت مشكلات زوجتيه حياته بل أصبح فى حاجة إلى وقت آخر من الزمن ليواجه هذا الشغل الذى فرضه على نفسه فرضا .

ولا ينقضى وقت طويل حتى تنقطع الدموع عن عينى فاطمة وان كان الجزع يزداد احاطة بهنية .. ويعجب رضوان بعض الشىء ولكنه لا يعلق على الأمر كثير أهمية .. وان كانت آماله فى إنجاب طفل أخذت تتهافت وتضعف وتوشك أن تضمحل .. ويمر وقت آخر وتقول له فاطمة :

ـ رضوان .
ـ نعم .
ـ أريد أن أذهب إلى الطبيب .
ـ أى طبيب تريدين ؟

ــ ذلك الطبيب الذى صحبتنى إليه ليعالجنى من العقم .
ــ ماذا . . أبك مرض ؟
ــ لا ولكنى أشك فى شيء وأريد أن أتاكد منه .
ــ ويذهل رضوان ويحملق فيها بعينين مأخوذتين . . فاطمة وليست هنية وينظر وينتظر ثم يقول :
ــ هل أنت متأكدة ؟
ــ لو كنت متأكدة ما طلبت أن أذهب إلى الطبيب .
ــ تذهبين . . اليوم تذهبين .

وحين خرجا من عند الطبيب لم تقل فاطمة شيئا وإنما تركت رضوان للدوامة التى ألقاه فيها . . انها حامل . . لا يدرى رضوان ان كان يفرح أم يخجل . . ماذا يقول لها . . كيف يفرح . . ماذا يقول لهنية . . هل تبقى على ذمته . . وما ذنبها . . وما كان ذنب فاطمة . . أى جرم فعلت . . أى جرم فعلت . . ويظل رضوان فى دوامة من الخجل يشوبها الفرح حتى يصل بفاطمة إلى البيت وينفتل هو إلى الفضاء ليخلو إلى نفسه الحائرة التى لا تكاد تصدق ما وقع .

وتكتمل شهور الحمل . . وتضع فاطمة طفلها الأول ويسميه أبوه إبراهيم تيمنا بابراهيم ابن النبى وتمر الأيام وتكتمل الشهور سنين ولا ينجب رضوان من زوجته غير وحيده إبراهيم .

وفى يوم يمرض إبراهيم ويسارع رضوان بولده إلى الطبيب ويعالجه الطبيب فلا يفلح العلاج ويتركه إلى الطبيب آخر والهلع يقتلع قلبه من بين ضلوعه . . لا . . ليس القلق على الولد حياة لا ولا هو موت انه شيء أشد بشاعة من كل شيء . . لا شيء يماثل هذا الهلع . . لا شيء مثل هذا الخوف . . انه شر من كل شعور . . ما أحلى العقم بالنسبة إلى هذا الخوف . . بل ما أحلى ألا نوجد على الاطلاق ولا نلتقى بهذا الذعر .

ويلجأ رضوان إلى الطبيب والى الله وإلى الدواء وإلى الدعاء . . ولكن الله كان قد أعد لابراهيم مكانا فى الجنة .

وحين عاد رضوان من وداع ابنه الاخير . . وكان اليوم الأول من الأجازة . . كانت الدموع تملأ عينيه فى إصرار فهى تثب اليهما كلما جففها . . لم يجلس رضوان إلى الفراغ ولم يفكر فى الأجازة . . وكل ما كان يفكر فيه هو فاطمة . . إذ أنجبت له ولنفسه الشقاء . . ما كان أسعدها قبل أن يجيء ابراهيم . . ويدخل إليها وهى فى حزنها القاتل .

ــ فاطمة . . أنا آسف .
ــ الآن .

ـ لم أقلها الا اليوم . . لم أقلها حين تزوجت ولم أقلها حين بشرك الطبيب بإبراهيم أما الآن فلا أجد غيرها . . أتراها تكفى ؟

ـ أتراها أنت تكفى ؟

ـ لا أملك غيرها .

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل .

ـ وفى نشيج عال صاخب يقتطع من فلذات القلب اقتطاعا قال رضوان :

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل .

لأنه يحبها

وقف حسن عبد الفتاح أمام باب كلية الحقوق ينتظر وزملاؤه نتيجة الليسانس . لم يكن يحس بأحد حوله . انفصل كيانه عن المجموع المتزاحمة فهو فرد فى نفسه وفى آماله وفى مخاوفه لا يحس الا هذا الوجيب الآخذ الذى يهز جسمه هزا . . أنجاح فانطلاق إلى الحياة بكل ما فى الحياة من حلاوة الكفاح ؟ فما كان يرى فى النجاح والانطلاق إلى الحياة الا الحلاوة . أم سقوط فهو تلميذ سيظل . وهو حينئذ سيعود إلى أمه كسيف البال مخذولا يخاف من غضبها خوفا قد يطغى على حزنه من السقوط . ان تفكيره فى أمه يمازج تفكيره فى النتيجة فهو حينا يفكر فى المواد مادة مادة ويذكر كيف أجاب فى كل مادة منها وهو أحيانا كثيرة يفكر فى أمه كيف قامت على شأنه بعد موت أبيه وكيف بذلت له من دمائها ومالها وجهدها حتى جعلته يصل إلى نهاية المرحلة العالية من التعليم .

لقد قامت بواجبها نحوه . بل بذلت أكثر من واجبها فكم يمضه أن يقصر هو عن واجبه . كان إرضاء أمه أساسا تقوم عليه حياته جميعا فقد كان يرى نفسه نفحة من جهودها وقبسة من دمائها ، بل كان يرى نفسه أملها الضخم الذى عاشت له وبه سنوات طويلة ثمينة شابة من حياتها .

وفى ظلال هذه المشاعر عاشت حياته جميعها ؟ أحب . أحب بكل ما فى الحب من نبض جياش وبكل ما فى الشباب من اندفاع وقوة . أحب زميلته فى الكلية الهام . ولكن أمه عرفت بحبه وقالت لا . فإذا نبض الحب يصبح نبضا خائفا هالعا أن يغضب أمه . وإذا هو يبتعد عن حبيبته مذعورا ويعود إلى طاعة أمه راضيا بها عن كل ما فى الحب الشاب من أحلام وآمال ورؤى .

وها هو ذا اليوم ينتظر نتيجة الليسانس . تلك الشهادة التى جاهدت أمه فى سبيلها أكثر ما جاهد هو . . انه يريد الشهادة ليذهب إلى أمه ويعلن اليها أن جهودها قد كللها النجاح . . وينطلق إلى الحياة . . كان فى البعيد البعيد من نفسه يخيل اليه أن هذه النتيجة التى ستعلن الآن ستحمل فى طواياها معنى آخر غير معنى النجاح . . إنها ستجعل له قرار الافراج عنه من سيطرة أمه . . شعور يخامره ولا تعلنه نفسه إلى نفسه . كأنما كان يريد أن يقول لها فى غير ألفاظ . لقد جاهدت لأحصل على الشهادة فهل تكفيك الشهادة مكافأة على جهادك . وكأنما كان ينتظر أن تقول أمه فى غير ألفاظ هى أيضا لقد صرت رجلا فافعل مابدالك ، آمال تهجس فى الخوافى البعيدة من نفسه وهو واقف بباب الكلية عينه لا ترتفع عن الباب الكبير ينتظر أن يخرج منه الموظف المختص ليعلق أسماء الناجحين على تلك اللوحة الماثلة بجوار الباب ، التى قدر لها أن تحمل أغلى ما يطمح اليه جميع هؤلاء الواقفين فى لحظتهم تلك . هذه اللوحة الكالحة ستحدد مصير كل فرد منهم وعينا حسن عبد الفتاح شاخصة إلى الباب الكبير والباب صامت لايبين عن أحد .

وأخيرا ظهر الموظف وبيده الأوراق . وبعد محاولات عسيرة وقعت عينا حسن على اسمه بين الناجحين . ولم يحس بنفسه الا وهو واقف أمام أمه يخبرها وعيناه تموجان بالدموع . . « لقد نجحت » .

وفرحت الأم . . ولكنه لم يجد عندها ما كان يتوقعه من فرح ، كانت واثقة من نجاحه كأنما كان نجاحه أمرا تصنعه بيديها فهى واثقة من نتيجته ، وقد أكد هذا المعنى فى نفسه أنه وجدها قد أعدت له الوظيفة دون أن تسأله عن الاتجاه الذى يريد أن يشقه فى الحياة ، وخيل اليه أنه قبل الوظيفة سيستطيع أن ينعم بحريته من ربقة أمه فهو يقبل الوظيفة فى غير مناقشة ويصبح موظفا .

ولا يمضى كثير وقت حتى تفاجئه أمه :
— حسن .
— نعم يانينا .
— لقد خطبت لك .
— ماذا ؟
— سناء بنت عمك على أبو العلا .
— تقصدين بنت صديقتك شريفة هانم ؟
— ما رأيك ؟
— أتسألين عن رأيى حقيقة ؟
— طبعا .

ـ أتسألين عن رأيى بعد أن تخطبى ؟
ـ انت حر .
ـ أنا حر ؟
ـ طبعا .
ـ فأنا لا أريدها .
ـ ماذا ؟
ـ أنا لا أريدها .
ـ لماذا ؟
ـ لأنى لا أريدها .
ـ ولكنى أريدها .
ـ إنه أنا الذى سيتزوج .
ـ ولكنى أمك .
ـ هذا شىء لا يمكن أن أنساه .
ـ ماذا تقصد ؟
ـ أقصد أنه لا فائدة . . فسواء عندك وافقت أم رفضت .
ـ تعنى انك موافق .
ـ أمرك .

وما هى إلا أيام حتى يتم كتب الكتاب وما هى الا أيام أخرى حتى يحل يوم الزواج ويترك حسن البيت ويخرج إلى الطريق . فى هذه المرة لم تكتف أمه أن تفرض سيطرتها عليه ولكنها فرضتها بقوة وعنف على فتاة لا تمت لها بصلة . ما ذنب هذه الفتاة . . كيف يتزوج من فتاة لاتحبه ولا يحبها . انها أمه . . ماذا يصنع ، وماذا صنع قبل اليوم إنه هو ، هو لم يتغير ولم تتغير أمه . ويجول فى الطرقات يسلمه شارع إلى شارع ورأسه يموج بالسخط والضيق بلا أمل على الاطلاق .

ويعود إلى البيت فى الموعد المقدور . وتنطلق الزغاريد وتتعالى الموسيقى وينظر إلى وجه زوجته وتنظر إلى وجهه وكأنما هما متفقان على المعانى التى تدور بنفس كل منهما ولكن ماذا يصنعان ، كان يحس أنها واقعة تحت سيطرة أبيها وأمها كما يخضع هو لسيطرة أمه . إن أمه تستطيع أن تفعل به ما تشاء . . استطاعت أن ترغمه على اختيار كلية الحقوق واستطاعت أن ترغمه على المذاكرة بل واستطاعت فى قوة عاتية أن تحطم حبه الأول ولكن أتستطيع أن تنشىء حبا ؟ هل تستطيع أمه أن تجعله يحب هذه الفتاة أو تجعل هذه الفتاة تحبه . كيف ؟ لماذا لا يقول « لا . . لا » صارخة واضحة جهيرة لا لبس فيها ولا غموض ولا إبهام . لا . . ويترك أمه ويعيش وحده حتى يجد هواه .

نعم . . إن أمه قد بذلت فى سبيله الجهد والخوف والعطف ولكن ألا تبذل كل الأمهات .
وهل معنى هذا أن تنتهب حياته جميعا بل وتنتهب حياة فتاة أخرى لا ذنب لها إلا أن أمها صديقة أمه . .

أليست كلمة لا تنقذه وتنقذ هذه الفتاة المسكينة الجالسة أمامه . . ما ذنبها . . مسكينة إنها حلوة . . جميلة غاية الجمال . . لعله كان يختارها إذا ترك وشأنه . إنه يحب هذه العيون الحالمة المذعورة . ويحب هذا الشعر الأسود المنساب . ويحب هذه الابتسامة التى تجرها إلى فمها جرا . . ويحب هذا العود الواهن وكأنه طيف ، الرقيق كأنه فكرة ، الشفاف كأنه حلم . هو يحب هذا جميعه ولكنه لا يحب سناء . وكيف له أن يحبها ؟ هو لم يفكر فيها زوجة إلا حين أمرت أمه أن يتزوجها . فإذا هى زوجته .

كلمة واحدة هى : « لا » يستطيع أن يقولها فى هدوء وفى حزم فينهى هذه المأساة التى تحيط بها الزغاريد وتتعالى لها الموسيقى الفرحة وتنطلق لها الأغانى وتدق الطبول ، « لا » حرفان يمنعان المأساة من أن تتم فصولا . وليكن بعد ذلك ما يكون .

ورنا إلى زوجته . . ترى أيرضيها هذا . . كم هو قاس ذلك المجتمع . . إن فعل ما يريد أن يفعل أصاب هذه الفتاة التى يشفق عليها بطعنة لا سبيل لها أن تنجو منها . ستتطاير الأقاويل وتتدافع لها الشائعات . . ان العروس لا تعجبه . . طعنة تصيب المرأة فى أعظم ما تزهى به . . أيهما أحسن لها عندها . . أن يخلصها من حياة لم يكن لها يد فى اختيارها . . أم أن تظل زوجته ولا يقول الناس عنها انها لم تعجب زوجها فرفض أن يتم الزواج . وأين كانت « لا » هذه قبل اليوم ، لماذا خضع حتى تم هذا جميعه ثم انتفض فجأة يريد أن يمحو ما كان . . وهل يمحى ؟ كيف ؟ ما ذنب هذه المسكينة حتى ترمى إلى هذا الموقف الضنك وما ذنبه هو ؟

والموسيقى تتعالى والزغاريد تنطلق والأغانى تصدح والشعور بالفرح يفيض على وجوه الجميع الا وجهين . . وجهه وقد تشنجت عليه ابتسامة ووجه العروس وقد جمدت على فمها ابتسامة مثل ابتسامته .

وانقضى الليل وتخافتت الموسيقى ووهنت الزغاريد وتشتت الجمع وخلا الزوج إلى زوجته وأقفلت من دونهما الحجرة . وكان بها كرسيان . وجلسا وهوم الصمت حينا . ثم طال هذا الحين . هو مطرق خزيان وهى مطرقة مذعورة . فى رأسه دوامة من الأفكار وفى رأسها أمواج من الحيرة .

وفجأة نظر إليها وهم أن يقول شيئا ثم أطرق . وهمت هى أن تقول شيئا دون أن ترفع رأسها ولكنها ما لبث أن عادت إلى الصمت .

وأحس بطول الصمت وصمم أن يقول شيئا .. أى شيء .. ورفع رأسه وفتح فمه وفكر وفكر .. وأخيرا قال دون أن يهتدى إلى ما يجب قوله :

ـ آسف .

ونظرت اليه فى غير دهشة وقالت دون تريث :

ـ وماذا تفيد آسف الآن ؟
ـ وماذا كان يمكن أن أفعل ؟
ـ ألست حرا ؟
ـ وأنت ؟
ـ أنا .. أنا على كل حال لست مثلك .
ـ انني أمام أمي .
ـ ولم يستطع أن يكمل جملته .
ـ لماذا .. لماذا ؟
ـ ليس لها غيرى .. وليس لى غيرها .
ـ ولكنها حياتك .
ـ المصيبة أنها حياتك أنت أيضا .
ـ هل أمك قاسية إلى هذا الحد ؟
ـ إنها تظن أنها رحيمة أكثر مما ينبغى .
ـ ألا تؤمن بحريتك فى الاختيار ؟
ـ انها تؤمن بحريتى التامة مادمت لا أعصى أوامرها .
ـ ولكنها حياتك .
ـ هى لا تفصل كثيرا بين حياتى وحياتها .
ـ وحياتى ؟
ـ ستصبح حياتك هى حياتى وهكذا ترين أنها جميعا حياتها هى .
ـ وماذا ستفعل الآن ؟
ـ لقد تعودت منى الطاعة .. ولا أظننى الآن أستطيع أن أتخلص من هذه العادة .
ـ تعودت أن تطيع فى شأن نفسك أما فى شأنى أنا .

ونظر اليها طويلا .. إنها حلوة .. خيل إليه أنه يحبها .. بل كاد يوقن أنه يحبها .. هى الفتاة التى طالما كان يرسم صورتها لهواه .. وهى مستكينه تشكو إليه الظلم الواقع عليها فى غير عنف ولا ثورة ولكن فى حنان وفى دفء ووجد نفسه يقول :

ـ أيغضبك أن تصبحى زوجتى ؟
ـ لعلى كنت أتوق إلى هذا لو انك سألتنى وأنا لست زوجتك .

ـ فلماذا لا تحبرين وقد أصبحت زوجتى .
ـ الا تعرف ؟
ـ نعم . . أعرف .
ـ أتحبين غيرى ؟
ـ أبدا .
ـ إذن ؟
ـ أيرضيك أن أحس دائما أنك فرضت على فرضا . . أترضى لنفسك هذا ؟
ـ لقد تعودت أن أرضى لنفسى ما لا أحب أن أرضى .
ـ أيرضيك هذا لى ؟
ـ أعرف أننى أحببتك .
ـ أحسست .
الا يكفينى هذا الاحساس ؟
ـ وماذا عنى أنا ؟
ـ فأنت لا تحبيننى ؟
ـ وأنت زوجى المفروض على . .
ـ جميلة هى الحرية .
ـ أعرفتها ؟
ـ تمنيتها .
ـ فلماذا لا تسعى اليها ؟

ـ لم أستطع فيما مضى .
ـ فلا أمل لى إذن .
ـ بل يخيل إلى أن هناك وميضا من أمل .
ـ كيف ؟
ـ لن تكونى زوجتى .
ـ وأمك ؟
ـ أطعتها فى كل ما يتصل بى ولكنى لن أطيعها فيما يتصل بك .
ـ اذن فأنت تحبنى حقا ؟
ـ لقد أدركت هذا بإحساسك . . أتعودت أن يكذبك إحساسك ؟
ـ لا .
ـ إذن ؟
ـ أخشى أن يمنعك حبى عن تنفيذ ما تفكر فيه .

ـ بل إن حبك هو الذى سيدفعنى أن أنفذ ما أفكر فيه .
ـ سنرى .
ـ متى تريدين أن يتم هذا ؟
ـ متى تشاء .
لا أريد أن يمسك أحد بسوء .
ـ فمتى اذن ؟
ـ بعد عام .
ـ أليس طويلا ؟
ـ متى تشائين .
ـ نصف عام .
ـ ونام على الأريكة ونامت على السرير وظلت الأريكة مكان نومه ستة أشهر .
ـ ثم قال حسن لزوجته :
ـ أتدركين كم أحبك ؟
ـ نعم .
ـ وسيزداد يقينك اليوم .
ـ إذن فأنت تذكر ؟
ـ نعم .
ـ إذن ؟
ـ فأنت طالق .. طالق لأنى أحبك .. نعم إنى أحبك .. ولعلك بعد أن تصبحى حرة .. لعلك ترضين .
ـ لا تكمل .
ـ أهو الرفض اذن .
ـ لا .. ولكن لا أريدك أن تطلقنى بشرط .
ـ لا .. وبغير شرط .
ـ وأمك ؟
ـ سأطلقك .

ولم تمض ساعات حتى كان المأذون يحرر ورقة الطلاق .. وكانت ابتسامة فرح ترفرف على شفتى سناء وأخرى على شفتى حسن . وكانت الدموع تنهمر من عينى أمه .. لقد أدركت أنها فقدت سيطرتها عليه إلى الأبد .

ثمن الدواء

اذن الفجر وتقلبت زكية فى نومها . فقد تعودت أذناها أن تلتقطا آذان الفجر منذ أن ينبعث من حنجرة الشيخ عبد المقصود الخشنة ، وما لبثت أن أفاقت من نومها وألقت إلى زوجها نظرة ثم نظرت إلى الشباك والظلام ينبعث منه مهزوما مدحورا وجلست زكية فى السرير ومدت يدها إلى زوجها حمدى فربتت كتفه :

حمدى . . حمدى .

ـ وأحس حمدى بيد زوجته وهو يغالب اليقظة ويهفو إلى النوم . وأدار ظهره يعتصم بالجهة الأخرى من السرير من إيقاظ زوجته له . . وما كانت هذه الحركة جديدة على زوجته وإن كانت قريبة العهد بالزواج منه . فهى تربت الكتف الأخرى التى أصبحت تواجهها .

قم ياحمدى لتصلى الفجر .

ـ ويهمهم حمدى ببعض ألفاظ ثم لا يجد مناصا آخر الأمر من أن يصحو ، وتقول له زوجته فى حنان :

ـ صباح الخير .

ـ صباح الخير .

وينزلق حمدى عن السرير ويتوضأ ويصلى الفجر حاضرا ويجلس إلى مائدة الإفطار التى كانت زوجته قد أعدتها له . وتجلس زوجته أمامه . ويقول حمدى :

ـ الولد أيقظنا كثيرا فى الليل .

ـ مسكين المغص لم يتركه طول الليل . نام قبل الفجر بساعة واحدة .

ـ الزجاجة فرغت . . ألم أقل لك . .

ـ ألم يكن باقيا منها شيء ..
ـ أبدا .
ـ يظهر ان دواء هذا الدكتور غير نافع .
ـ وماذا نعمل .. لقد قال لنا كرروا الدواء .. أتذهب إلى دكتور آخر
ـ تقصدين ندفع جنيها آخر .
ـ هذا أوفر .
ـ أوفر ؟؟؟
ـ أوفر من الدواء الذى لا ينفع .
ـ نجرب الدواء مرة أخرى ونرى .
ـ نجربه .
ـ طيب .. هات خمسين قرشا .
ـ ربنا يبعث .
ـ ماذا تقصد ؟
ـ ألا تعرفين ما أقصد ؟
ـ أليس معك خمسون قرشا ؟
ـ من أين ؟
ـ من البقشيش
ـ ومن أين يأتى البقشيش ؟
ـ عجيبة .. من الزبائن
ـ وأين هم الزبائن ؟
ـ فى الحمام .
ـ ألا تلاحظين أن الشتاء أوشك أن ينتهى والزبائن أصبحوا قلة .. لا نرى إلا واحدا أو اثنين على الأكثر فى اليوم ..
ـ ولماذا تتعبون أنفسكم وتفتحون الحمام ؟
ـ وماذا يهم اللوكاندة أن يأتى الزبائن أم لا .. المهم أن يكون الحمام مفتوحا فى اللو الكبرى .
ـ ونموت نحن ؟
ـ إننا نأخذ مرتباتنا وهذا كل ما يهمهم ..
ـ ولكن مرتبك لا يكفى .. إننا بدون البقشيش لا نستطيع العيش .
ـ ربنا يبعث .
ـ يظهر أنك أنت الذى لا تحسن معاملة الزبائن ..

— ربنا أعلم .. أنا والله أريحهم وأكلمهم بكل أدب .. مرة .. بالانجليزى ومرة بالفرنساوى ومرة بالطلياني .. وأضحكهم وأبسطهم .. ولكن أين هم ؟

— المهم .. ماذا نفعل فى الدواء ؟

— بمجرد أن أحصل على الخمسين قرشا سأشترى الدواء من الأجزخانة المجاورة للحمام وأبعثه لك ..

— ربنا يفتح عليك .

— أفوتك بعافية .

— مع السلامة .

وخرج حمدى من المنزل يفكر فى الدواء وفى ثمنه . وينظر إلى الشمس تتوسط السماء وخيل إليه أنها ترسل اليه نظرات عداوة شديدة . ومن مجنون يأتى إلى حمام بخار وهذه الشمس ترسل أشعتها الحارقة .. السياح سافروا والحمد الله ، وزبائن الحمام من المصريين لا يأتون والجو على هذه الحرارة .. من مجنون يأتى .. الأمر لله .. ومن أين لى بثمن الدواء .. أستلف من اللوكاندة وهل تقبل اللوكاندة .. هل أقصد إلى صاحب الأجزخانة وأرجوه أن يعطينى الدواء وأدفع له ثمنه عند ميسرة ؟ ومتى تأتى الميسرة وكيف لصاحب الأجزخانة أن يثق بى وهو لا يعرفنى ؟ ويصل حمدى إلى الحمام ويفتحه ويعد الأدوات ويجلس ينتظر الزبون والفرج ولا يطول انتظاره . فما يلبث الباب أن يفرج عن رجل طويل فى الأربعين من عمره أبيض البشرة سمح الملامح .

— السلام عليكم .

— وينظر اليه حمدى .. زبون جديد لم يره قبل اليوم يافرج الله .

— وعليكم السلام يا سعادة البك ورحمة الله وبركاته ..

— هل أستطيع أن آخذ حماما ؟

— ويجد حمدى فرصة ليقدم نفسه على أنه ممن يتكلمون الانجليزية راجيا أن يكون لذلك أثر فى الارتفاع بالبقشيش ..

— اوف كورس ياسعادة البك .. تحت أمرك ..

— وتختلج عين الزبون لحظة .. ويفكر فى المبلغ الذى سيخسره فى هذا الحمام .. ان كان الخادم متعلم الانجليزية فكم تراه سيدفع ثمنا لهذا الحمام .. شورة سوداء .. لقد أوقعه ابن عمه سامح فى المحظور .. وأوشك أن يعود ثانية إلى الباب الذى دخل منه ولكنه تريث لحظة وسأل :

— بكم أجر الحمام ؟

ونظر اليه حمدى ودارت فى رأسه الأفكار .. إن الزبون الذى يسأل عن أجرة الحمام لا يبشر بخير .. ولكنه يسارع إلى بقية الأمل قبل أن يضيع ..

ــ حاجة بسيطة ياسعادة البك .. بسيطة جدا ..

ــ يعنى كام ..

ــ أتريد سعادتك حماما واحدا أم ..

ويسارع البك قائلا ..

ــ واحدا .. واحدا ..

ــ جنيه .

ــ ماذا ؟

وتوشك آمال حمدى أن تنهار .. ان كان يستكثر الجنيه الذى هو أجر الحمام فأى بقشيش سيدفع .. ولكن لا بأس ليدفع أى شىء ومن هنا إلى آخر النهار يحلها الذى لا يغفل ولا ينام ..

ــ ماذا ياسعادة البك .. أهو كثير؟

ــ لا .. لا أبدا ..

ويهدأ حمدى بعض الشىء ويقول الزبون لنفسه الأمر لله ويأخذ طريقه إلى الداخل ويخلع ملابسه وحمدى بجواره يساعده كلما سنحت له فرصة أن يساعده .. وحين يطول الصمت بعض الشىء يقول حمدى فى محاولة صادقة أن يستكثر من البقشيش ما أمكنه إلى ذلك من سبيل :

ــ شرفت ياسعادة البك .

ــ كثر خيرك .

ــ أهذه أول مرة تشرفنا فيها ؟

ــ نعم .

ــ ولم تأخذ حمام بخار قبل اليوم ؟

ــ أبدا ..

ــ ستكون مسرورا جدا ياسعادة البك .. تريه كونتا .. ويتوقف البك لحظة عن خلع ملابسه .. ويتكلم الفرنسية أيضا .. لابد أن يكون صاحب الحمام .. ويكمل خلع ملابسه ويستأنف حمدى حديثه ..

ستحس أنك انسان جديد .. نشاط وحيوية .. سترى ياسعادة ..

ــ ايه .. عظيم ..

ويفكر الزبون .. لماذا يلاطفه هذا الرجل كل هذه الملاطفة .. أليجعله يعود ثانية ليفعل

ما يشاء ليجعل من نفسه بهلوانا ولكنه لن يعود .. إنها مرة ولن تعود ..

ــ ويعود حمدى إلى الحديث ..

ــ أتحب أن تبدأ بالبخار ؟

ــ والله أنا لا أعرف ما يجب أن أفعله فعليك أن ترشدنى .

ــ تحت أمرك ياسعادة أفوتر سرفيس .. تفضل .

ــ ولا يملك الزبون نفسه فيسأله :

ــ هل حضرتك صاحب هذا المحل ..

ــ لا ياسعادة البك .. إنه ملك اللوكاندة ..

ــ أنا فاهم ولكن هل أنت الذى تستأجره من اللوكاندة ؟

ــ نومونشير .. أنا موظف فى اللوكاندة ..

ــ ويقف الزبون عاريا لا يستره الا قماط أعطاه له حمدى الذى كان يسير من خلفه ..

ويلوى الزبون رأسه إلى حمدى .. موظف .. ولا يكتفى بالتفكير .. بل هو يقول دون وعى ..

ــ موظف .

ــ بيان سير مونشير .. موظف ياسعادة البك .

ــ وتتكلم الانجليزية والفرنسية ..

ــ والايطالية وبعض الجريجية أيضا ياسعادة ...

ويدخل الزبون إلى غرفة الحمام وهو يفكر .. لابد من البقشيش إذن ولابد من بقشيش مرتفع .. خمسون قرشا على الأقل .. على الأقل .. شورة سودة الله يجازيك ياسامح ياابن عمى .. منك لله .. وبعد فترة يطل رأس حمدى من الباب ..

أتحب سعادتك أن تبقى أكثر من هذا أم تكتفى بهذا ؟

ــ كما ترى .

ــ يكفى هذا لأنها أول مرة .. تفضل ويقوم الزبون ويمشى خلفه وهو يقول :

ــ إلى أين ؟

ــ إلى التدليك .

ــ آه عظيم .. ومن الذى سيدلكنى ؟

ــ أنا .

ــ أنت ؟

ــ اختصاصى ياسعادة البك .. اكسبير .. سترى وتحكم بنفسك .

ويفكر الزبون .. اختصاصى واكسبير أيضا .. لا يمكن أن تكفيه خمسون قرشا .. وتمتد يد حمدى إلى جسم الزبون تدلك .. توشك يداه أن تقولا اعطنى بقشيشا ويحس الزبون بخبرة

حمدى وبيديه اللتين تعرفان تفاصيل العضلات فى جسمه معرفة لا يتقنها الا طبيب أو على الأقل خريج من معهد التربية الرياضة . . ويقول حمدى فى نغمه طيبة حنون توشك أن تفضح حاجته للخمسين قرشا :

ـ مبسوط ياسعادة البك . . فوزيت كونتا .

ـ بيان سير . . حاجة عظيمة ياأستاذ . .

أستاذ تقع الكلمة على أذن حمدى موقعا حلوا ويحس فيها أن الرجل سيجزل له العطاء . . لقد جعله أستاذا وينهمك فى عمله ويسلم الرجل نفسه ليدى حمدى الخبيرتين ويفكر فيما يمكن أن يعطيه له . . خمسون قرشا . . مستحيل إنه سيجرحه لو أعطاه هذا المبلغ المهين . . ماذا يمكن أن يعطيه . .

وينتهى التدليك ويقول حمدى :

ـ والآن تأخذ الدوش ياسعادة البك .

ـ متشكر ياأستاذ .

ويزداد الأمل فى نفس حمدى . . ان الأستاذ لا يأخذ أقل من خمسين قرشا بقشيشا فان تضاءل المبلغ وتضاءل فخمسة وعشرين قرشا ولا أقل . . لا يمكن أن يكون أقل من ذلك . . ومن يدرى لعل زبونا آخر لا يعبأ بالجو الحار ويأتى مثل هذا المغفل الذى يستحم . . وكان الزبون تحت الدوش يفكر فيما يمكن أن يقدمه بقشيشا . . الله يجازيك ياسامح منك لله أهذه عملة . . ماذا أعطى هذا الأستاذ الذى يتقن ثلاث لغات ويتكلم رابعة وهو بعد هذا كله أو قبل هذا كله على هذه الخبرة العظيمة بالتدليك وبتفاصيل جسم الانسان . . خريج معهد عال على الأقل . . إن لم يكن سافر إلى الخارج وتخصص . . طبعا . . وإلا فكيف له بهذه اللغات جميعا . . وراح يسخط على ابن عمه سامح الذى أوقعه فى هذه المشكلة . . وينتهى الزبون من الحمام ويذهب إلى حيث ترك ملابسه ويأخذ فى ارتدائها ويأتى اليه حمدى :

ـ أتحب أن أساعد سعادتك ؟

ـ العفو ياأستاذ .

فرجت . . هى الخمسون قرشا . . على الأقل ان لم يصل الأمر إلى جنيه كامل . . ويقف حمدى بجانب البك ويروح الزبون يختلس النظرات إلى حمدى ، وفجأة يستقر رأيه على أمر . . ويطمئن . . ويتم ارتداء ملابسه ويخرج إلى الغرفة الخارجية من الحمام ويخرج حمدى من ورائه ويذهب حمدى إلى المنضدة التى يستقبل عليها نقود الزبائن وقد كاد قلبه أن يقفز من بين جنباته فى انتظار البقشيش الذى سيقدمه البك إلى الأستاذ . . ويخرج البك المحفظة ويفتحها ويخرج منها جنيهاً . . جنيها واحدا ويبتسم حمدى لابد أن الخمسين قرشا فى جيبه لا فى المحفظة . .

كثيرون يفعلون ذلك . . كثيرون لا يضعون فى محافظهم فئات أقل من الجنيه حتى لا تنتفخ المحفظة بالأوراق قليلة القيمة . . ويقدم الزبون الجنيه إلى حمدى ويأخذه ويظل ناظرا إلى الزبون ولكن الزبون يقول فى حزم :

ـ ألف شكر يابك .

ويستدير إلى الباب الخارجى ويدلف منه إلى الخارج .

ـ وحين يعود حمدى إلى البيت تسأله زوجته فى لهفة :

ـ هل أحضرت الدواء ؟؟

ـ لا . . ولكن أصبحت بك .

ـ ماذا ؟

ـ ويرتفع صراخ الطفل من جديد .

الست عيشة

كان نجاحها فى الحياة قوامه أن أثرياء الزمن الماضى كانوا لا يسمحون لزوجاتهم أن يخرجن إلى الأسواق ليشترين ما يحتجن إليه . فلم يكن هناك بد من أن تنتقل الأسواق إلى السيدات فى بيوتهن . . وهكذا أصبحت بقجة عيشة أم أمين هى محلات الموسكى وتحت الربع والمغربلين بل ومحلات شيكوريل وعمر أفندى وصيدناوى وغيرها تجتمع جميعها على تنافرها وتباغضها فى بقجة الست عيشة وتنتقل هى بين البيوت تعرض ما اختاره ذوقها أو هى تتلقى الرغبات فتحفظها فى دقة ووعى دون أن تكتبها لأنها بطبيعة الحال لا تكتب وتعود بعد ذلك حاملة كل هذه المحلات بين أعطاف بقجتها العتيدة .

وقد كانت عيشة فى ذلك الحين البعيد من الزمن مليحة الوجه أكسبها حمل البقجة تنغيا فى الخطوات فكأنما هى ترقص حين تسير ، وقد كانت ذات قوام فارع مياد يغرى العين والخلجات المعربدة فى نفوس الرجال .

وقد كانت وظيفتها تلك تثير فى نفوس رجال كثيرين مكامن الطمع . فهى أولا تكسب الكثير من تجارتها وهى أيضا ذات مدخل إلى بيوت العلية من القوم ، وان لها عندهم لكلمة وإن لها فى الحديث دهاليز . وقد استطاعت بعد أن مرنت على حمل البقجة أن تحمل فى ثناياها صوراً لفتيات وفتيان وأصبحت تبيع مع الأقمشة وحاجيات الستات حديثا عن فلانة بنت فلان أو فلان ابن فلان . . ويتم زواج وتقبض عيشة الثمن . . وهكذا كثرت حول معاصمها الأساور ، كما كثرت العقود التى تلفها حول عنقها .

وقد كان غباشى السائق بمنزل مصطفى باشا جمال الدين ذا عين خبيرة . تسقط فى سرعة لاهفة على الأساور اللامعة وتستطيع تلك العين فى خبرة ومران أن تعرف أن ما تلفه عيشة حول عنقها ليس عقدا واحدا وإنما هو عقود . وقد كان غباشى شابا فتى الجسم جميل الوجه . وكان ذا

طموح فى الحياة وهمة . . فوقع فى حب الأساور اللامعة والعقود التى تتواثب حول رقبة عيشة وتقدم اليها . وقبلته وتزوجا .

ومرت أيام ، أصبحت شهورا . . واستطاعت عيشة أن تعرف فى سهولة ويسر أن غباشى أحب ما تملكه ، ولم يحبها هى فإنه سرعان ما طلب إليها أن تبيع ما تملكه ليشترى هو سيارة يشغلها بالأجرة . وطبعا حاول أن يفهمها أن الربح سيعود إليهما كليهما حاول أن يضخم لها هذا الربح ولكن الكلام مهما يكن منمقا جميلا ما كان لينطلى على عيشة وهى تاجرة الكلام التى جمعت ثروتها جميعها منه . واشتد الطلب من غباشى واشتد الرفض من عيشة . وانتهى الأمر بطبيعة الحال إلى الطلاق . وقد كان الأمر من شأنه أن ينتهى عند هذا الأمد . لولا أن غباشى ترك فى أحشاء زوجته التى أصبحت مطلقته أملا فى طفل أو طفلة لا يعلمه الا الله . وما هى الا بضعة شهور حتى أصبح الأمل طفلا وصار اسمه مجدى . . وفرحت عيشة بما أعطاها الله وأقسمت ألا تعود بعدها إلى الزواج أبدا ويكفيها من حياتها أن تعيش لترعى هذا الطفل ولتجعل منه شيئا عظيما منذ ألقمته ثديها فى اللحظة الأولى من رضاعته ، أزمعت عيشة فى نفسها أن تجعل من هذا الطفل ثروة . . ثروة كبيرة لها ولمستقبلها . . لقد أزمعت أن تعوض به نفسها عن كل تعب تلقاه فى عملها ، وعن ذلك اليأس اللذى أطل عليها من زواجها . وفى تدبر وحكمة وهدوء راحت تعد الخطة وتنفذها . . وحين مرت الأيام وحين قضت هذه الأيام على تجارة عيشة لم تذهل ولا هى اندهشت فقد كانت تعد للتطور عدته . فما هى إلا سنوات قليلة حتى خرجت السيدات إلى المحلات العامة يشترين ما يروق لهن . . وماهى إلا سنوات أخرى حتى سفرت السيدات جميعا فأصبح العريس يختار عروسه بالحواس الخمس جميعا . . لا بالسمع وحده . . وكانت عيشة قد ادخرت لهذا التطور بعض المال ولكنها لم تلجأ إليه . . وإنما لجأت إلى ما ادخرته من صحة وعافية . . عرضت على إحدى السيدات اللواتى كانت تزورهن أن تقبلها عندها خادمة . . وقبلت السيدة وأقامت عيشة فى بيت السيدة خادمة وكان لها على صاحبة البيت دلال قديم فهى تجالسها من حين إلى آخر ، عيشة على الأرض والسيدة على الكرسى وهى من حين إلى آخر تدلك لها أقدامها . وهى تستطيع دائما أن تلقى على مسامعها ما تشاء من حديث وهى تستطيع أيضا أن تستجدى منها لمجدى حلة أو حذاء أو قميصا أو أى شىء تستغنى عنه السيدة أو تنجح لباقة عيشة فى اختطافه .

ومجدى منذ السنوات الباكرة من الطفولة تلميذ . . فى مدرسة إلزامية أول الأمر . . ثم هو فى مدرسة ابتدائية وحين حصل على الابتدائية قالت السيدة لعيشة :

ــ يكفى ما تلقاه مجدى من العلم . . سأجعل زوجى يوظفه وتصرخ عيشة :

ــ لا .

ثم تتهالك فى تؤدة :

ـ ربنا يطيل عمرك ياستى ويبقيك .. أملى فى الدنيا أن يتعلم مجدى .

ـ أخذ الابتدائية .

ـ ربنا يبقيك لى .. أنا عندك آكل وأشرب .. وما آخذه منك يكفى لتعليمه وزيادة العلم حلو ياستى ..

وتسكت الست ويمضى مجدى فى تعليمه وعيشة تبذل غاية جهدها أن تستر أمره فهى تشترى له مما أدخرت أحسن الملابس وتجعله يبدو فى أحسن مظهر .. وقد سمح له وجهه الذى اقتبس فيه كثيرا من سمات أبيه وأمه أن يبدو جميلا متسقا مع الثياب الأنيقة التى تختارها له أمه الخبيرة .

وتمر سنوات البكالوريا وينالها مجدى وعيشة ما تزال تعمل بمنزل سيدتها وتحاول الست مرة أخرى أن تعرض على عيشة أن توظف مجدى .. ولكن عيشة فى ذكاء ولباقة تقول :

ـ فات الكثير ما بقى إلا القليل .. أتحمله ياست هانم السنوات القليلة الباقية والبركة فيك ..

وتسكت الست ويقصد مجدى إلى الجامعة .. كان مجدى فى سنوات عمره جميعا لا يفارق أمه أبدا .. فقد استطاعت أن تخلى له حجرة فى أسفل البيت الذى تعمل به وكانت تصر على أن يلازمها ما مكنتها هى الفرصة أن يلازمها .. وقد قطعت كل صلة كانت تقوم بينه وبين أى صديق .. حتى لم يبق له من أصدقاء آخر الأمر إلا أمه . وقد صار أمره فى الجامعة مثلما كان وهو فى المدرسة الابتدائية أو الثانوية فلم يزد عليه إلا أنه صار طالبا بكلية الهندسة بعد أن كان تلميذا بمدرسة المنيرة الابتدائية أو الخديو اسماعيل الثانوية ، أمه هى آفاق حياته جميعا وليس له من آفاق سواها .. ولم يكن هذا إلا جزءا من الخطة التى أحكمتها عيشة فى اللحظة التى ألقمت فيها ابنها ثديها .. وكان الجزء المهم من الخطة يبدأ يوم دخل مجدى الجامعة .

أصبحت تستمنح سيدتها كثيرا من الأجازات وتذهب لتقضيها مع أقاربها الذين نزحوا عن القرية وأقاموا فى القاهرة . وقد عجب هؤلاء الأقارب أول الأمر من هذه الزيارات ولكنهم لم يلبثوا أن تعودوها حتى أصبحوا يسألون عنها إن غابت ولم تزرهم . ولو أن هؤلاء الأقارب بحثوا عن الصفات التى تجمع بينهم والتى تجعل عيشة تزورهم لفطنوا إلى ما تدبر لهم عيشة ولكنهم لم يجتمعوا ولم يبحثوا وظلوا واهمين أن رابطة القرية وحدها هى التى تجعل عيشة تزورهم ولو فكروا قليلا لوجدوا أن لعيشة أقارب أكثر قرابة لها ومن القرية ويقيمون بالقاهرة ومع ذلك لا تزورهم عيشة ولكنهم لم يفكروا .. ولو تدبروا الحديث الذى كانت تلقيه عيشة ولو تناقلوه بينهم لأدركوا ولكنهم لم يتناقلوه وإن كانوا قد تدبروه .

وتمر السنوات وتزداد الصلات بين عيشة وأقاربها ويقترب مجدى من نيل الشهادة فلا يبقى إلا شهور . وتقصد عيشة إلى بيت قريبها الذى تعودت أن تزوره وتكثر من زيارته أحمد أفندى على اسماعيل موظف القرية الذى يمتلك فى القرية ستة أفدنة وفى القاهرة وظيفة تدر عليه دخلا يقدر بخمسة وعشرين جنيها شهريا . وليس فى الدنيا إلا ابنة واحدة . . تخطبها عيشة لابنها مجدى . . الباشمهندس . . وأين يجد أحمد أفندى على اسماعيل خيرا من هذا .

الباشمهندس سيخطب ابنته ولا يفكر أن ابنته ليست رائعة الحسن ولا هى حتى على شيء من الجمال وإنما يقتنع وتقتنع زوجته معه أن الست عيشة أرادت لابنها زوجة ترعى شأنه وتقوم بأمره وأن مسألة الجمال لم تكن تخطر لها على بال . . وتتم الخطبة ولا يعارض مجدى فقد تعود أن يكون كلمة من أمه وإشارة من يدها .

وتمر أيام وتهمس الست عيشة فى أذن أحمد أفندى اسماعيل .

ـ العين بصيرة واليد قصيرة ياأحمد أفندى .

ويفهم أحمد أفندى . . ولا يقيم بالقاهرة إلا ريثما يحصل على أجازة من وظيفته ويقصد إلى القرية يبيع فدانين ويأتى فلا يقصد إلى بيته وإنما يقصد إلى الست عيشة فى السر . . دون أن يحس أحد ويضع فى يدها ثمن الفدانين ليستعين به مجدى على شأنه ويشترى الهدايا أمام الناس ويقدم المهر ويشترى لنفسه ملابس أيضا . ويرد الدين بعد ذلك حين يفرجها الذى لا تغفل له عين .

وما أن أستقر المبلغ فى يد الست عيشة حتى انقطعت عن زيارة أحمد أفندى على اسماعيل وأمرت ابنها هو ايضا أن ينقطع فانقطع . . وحين قصد إليها أحمد أفندى على اسماعيل وسألها :

ـ خير ياست عيشة .

قالت فى خبث :

ـ الامتحانات ياسى أحمد أفندى .

ـ وأنت أيضا عندك امتحانات .

ـ أقعد إلى جانبه وأشوف طلباته . .

ـ وينصرف أحمد أفندى اسماعيل وتقوم الست عيشة إلى قريبها الثانى توفيق أفندى عبد المطلب . . وهو موظف أكبر قليلا من أحمد افندى على اسماعيل فمرتبه ثلاثون جنيها . . ويملك أيضا أكثر مما يملك أحمد أفندى على اسماعيل فهو يملك ثمانية أفدنة .

ـ العواف ياسى توفيق .

ـ العواف ياستى عيشة .

ـ كيف حالك ياستى أم ابتسام .

ـ نحمده ياست أم مجدى .

ـ عذبنى ابنى مجدى ياست أم ابتسام .
ـ خير ياأختى .
ـ لقد جئت خصيصا لأجعل سى توفيق يكلمه .
ـ أنا تحت أمرك ياست عيشة .
ـ الولد ياسى توفيق يرفض الزواج من بنت سى أحمد .
ـ وكيف ؟
ـ الظاهر انه شايف حاجة ثانية .
ـ هل تظنين هذا ؟
ـ الحقيقة هو قال لى إنه حط عينه على ..
ـ وتبتسم عيشة أم أمين ويفهم سى توفيق وتفهم ست أم ابتسام .. ويصمت الرجل وتتكلم الست .

على من ياست عيشة ..
ـ لا حول ولا قوة الا بالله .. ماذا أعمل ياسى توفيق .. أنا مرتبطة مع أحمد أفندى على اسماعيل .
ـ ويتنحنح توفيق أفندى عبد المطلب الابيارى ويقول :
ـ أظن أن مركزى حرج جدا ياست عيشة .
وتكمل الست أم ابتسام .
ـ صحيح ماذا يمكن أن يقول ؟
وتطرق عيشة أم مجدى وتقول :
ـ لك حق ياسى توفيق .. خل هذه المسألة على .. فقط .. وأمعنت فى إطراقها .
وقال توفيق أفندى :
ـ فقط ماذا ياست عيشة ؟
ـ الولد مصمم على أن أخطب له ابتسام ..
وتسارع أم ابتسام قائلة :
ـ ابتسام تحت أمره ياست عيشة .
ويقول توفيق :
ـ أخاف أن يزعل أحمد أفندى على .
وتقول عيشة :
ـ لا يريد بنته ياسى توفيق .. وأنا ماذا بيدى .. انه رجل ولا أستطيع أن أخبره ويفكر توفيق أفندى فلا يطيل التفكير إذ ما تلبث أم ابتسام أن تقول له :
ـ نميل بخت بنتنا ياسى توفيق .. شرع الله عند غيرك .

ويقول توفيق أفندى :

ــ على بركة الله ياست عيشة . . مبروك وتقول عيشة .

ــ مبروك عليكم إن شاء الله . .

وبعد أيام قليلة تقصد عيشة إلى توفيق وتقول :

ــ العين بصيرة واليد قصيرة ياسى توفيق . .

وما هى إلا أيام أخرى قليلة حتى يكون فى يد عيشة ثلاثة أفدنة هذه المرة لا فدانان وتتكرر الخطبة ويتكرر الفسخ وعائشة سعيدة بتجارتها لاهية بعض الشىء عن رأس مال التجارة مجدى حتى أصبحت لا تراه الا ليفسخ خطبة أو يعلن خطبة . . وهكذا تمتع مجدى بحريته وتعرف على أصدقاء .

بل إنه تعرف على صديقات وتطورت المعرفة والصداقة .

ــ فهو يدخل إلى أمه يوما ويجلس صامتا بعض الحين وتسأله عيشة :

ــ مالك يامجدى ؟

ــ لا شىء ياأمه .

ــ أنت على غير عادتك .

ــ أمه .

ــ نعم .

ــ لقد تزوجت .

ــ ماذا ؟

ــ بالأمس .

ــ وتبهت عيشة ثم تقول :

ــ أهى غنية ؟

ــ موظفة معى لا تملك إلا المرتب .

وتنظر إليه مليا . . ثم لا تلبث أن تقول :

ــ الأمر لله . . منه العوض وعليه العوض . . حسبى الله ونعم الوكيل .

ملالة

ملالة تملأ وقتى ، تملأ يومى وليلى ، تملأ أمسى وغدى ، أى جديد فى هذه الحياة ، وماذا فى الجديد إذا جاء ، كيف أزيل عن نفسى هذه الملالة ، أحس طعمها فى فمى كريها شائها ، وأحسه يتمشى فى دمائى رتيب الخطوة ، رتيب النغمة . أغير ما أغير من حياتى ، وأفعل ما أشاء أن أفعل ، وما تشاء لى أفكارى ، المحدودة التى لازمتنى ولا أذكر متى ، وأفعل ما يشاء لى عقلى هذا الذى لا جدة فيه ولا طرافة ، فإذا كل ما أفعله مكرر لا يزيل عنى الملالة ولا ينشلنى من وهدة الخمول الذى يحيط بى إحاطة لا مخرج لى منها ولا مفر .

زوجتى فى البيت تزوجتها منذ عشرين عاما ونيف وظللت أراها فى كل يوم ، فى كل لحظة هى هى فى الصباح والمساء ، هى هى فى الشباب والكهولة ما تغير منها إلا الجمال الذى ولى لتحل مكانه خطوط من السن وتجاعيد من الكبر وترهل من الحمل ، جاءت بالبنين والبنات ، لعلنى فرحت بالولد الأول ثم ماذا بعد ذلك ، ملالة ، ملالة ، لم تلد زوجتى إلا الملالة والصراخ ثم كبرت الملالة وكبر الصراخ فإذا هو مطالب ، وطنين من الإلحاح ، مطالب معقولة لا عيب فيها إلا أنها مكررة لا جديد فيها ولا ابتكار بل أنها تزيد ملالتى ملالة وتزيد ضيقى ضيقا ، فأنا من الملالة فى بحران .

تركت بيتى وعشت وحدى لاحقتنى من زوجتى القضايا ، ومن أولادى المطالب ، ولم أستطع فى غمرة القضايا والمطالب أن أتخلص من الملالة . فحياتى وحدى مملة كحياتى مع زوجتى وأولادى . فعدت إلى بيتى والملالة تلاحق مواكبى أنى سرت .

خضعت ورضيت من بيتى أن أكون المصنع الذى يخرج لهم ما تحتاجه حياتهم من مال .

وأنا فى وظيفتى ملول ، الديوان هو الديوان والجدران هى الجدران ، وان تبدل الزملاء بزملاء ، إلا أن الأحاديث هى هى ، لا تتغير ، تعليق على أخبار الجرايد وليس فى الجرائد شىء جديد ، من قرأ من التاريخ ما قرأت استطاع أن يعرف عن ثقة مؤكدة أن ليس فى الجرائد جديد ، ما كان فى التاريخ البعيد هو أخبار الساعة ، قوى يقهر وضعيف يشكو ، ودول تتطاول وتستكبر ودول تتطامن وتستذل . هكذا التاريخ . . ولكن صحبى لا يقرأون التاريخ وأنا قرأته . فهم يعلقون على الأخبار وكأنها جديدة . . ولو عرفوا الذى عرفت من الماضى ما أحسوا من حاضر أيامهم حلاوة . بل إننى أستطيع بما قرأت أن أقول لهم ما تخبئه الأيام من أخبار . فالتاريخ أيضا ممل يتكرر ولا يتجدد ، يعيد نفسه فى كسل وتراخ وكأنما أدركه الكبر أن يأتى بجديد .

وقد يعلق بعضهم على الكرة ، وتلك عجيبة من العجائب بلا جدة فيها أيضا ، ولست أدرى كيف يمكن الحديث عن الكرة إنما هى فريقان يتلاعبان ويغلب فريق فريقا ، كل ما أفهمه فى هذا الأمر أن أشهد ثم لا أعلق . وإنما اخواننا من الزملاء يعلقون ويتمادون فى الحديث فيطول ويطول . وأنا أكاد أموت غيظا وملالة فلا جديد فى هذا الحديث أيضا . فقديما عرف الناس التفاهة فى اختيار موضوع النقاش وما تنازلوا عن تفاهتهم حتى اليوم .

وقد يحدث ـ ولكن قليلا ما يحدث ـ أن يتناقش اثنان فى الأدب وفيما تكتبه الجرائد من قصص ، هذا الوباء الذى أصبح متفشيا فى أيامنا هذه . ولا أجد فيما يقدمونه جديدا . فقديما قال عنترة بن شداد : هل غادر الشعراء من متردم ؟ فإذا كان هذا الشاعر الجاهلى قد يئس أن يقع على جديد منذ هو فى الجاهلية وقد عدوناها اليوم بألف وأربعمائة عام وتزيد . فأى جديد يمكن أن يأتى به الأدب ؟ أجل لقد قرأت الأدب القديم حتى أفنيته ثم قرأت فى الأدب الحديث حتى مللته وأصبحت لا أجد فيما أقرأه طرافة ، ومن أين وقد قطع عنترة عليهم الطريق منذ عشرات القرون والأجيال .

قرأت المسرحيات فأما ما كان منها على نمط قديم فهو يزيدنى ملالة وأما ما كان منها على النمط الجديد فقد طوح بى إلى مجاهل القدم أكثر مما فعل المسرح القديم ذاته . . متى كانت الخرافة شيئا جديدا ، إنها قديمة قدم الأوثان بل إنها أعظم منها قدما وأشد منها إيغالا فى غياهب الأزمان الغابرة .

لا شىء جديد فى هذه الدنيا . . لا شىء جديد . . أم ترى أنا وحدى الذى أحس بهذه الملالة لكثرة ما قرأت . . لست أدرى . إنما ما أدريه أننى كنت أحسد كل من يبتسم وتقتلنى الغيرة من كل ضاحك ، فإذا رأيت اثنين يتحادثان منهمكين فى الحديث رحت أصوب إليهما عينين نهمتين وكأنما يتقاسمان أموالا مكدسة لا تخصنى . إنهما يتبادلان الحديث ومعنى هذا أن هناك موضوعا بينهما يشغلهما . فهما يتحادثان فيه . ويهتمان به وينسيان الملالة ولو لمدة لحظات .

سافرت . سافرت إلى جميع مدن القطر المصرى ، ماذا ؟ أى جديد فى هذا ؟ ما رأيته فى الوجه القبلى هو ما رأيته فى الوجه البحرى ، ولا تسلنى عن القرية . ويل من الريف والقرى . ما أكذب هؤلاء الكتاب الذين يتحدثون عن هدوء ومتعة الريف . أجل ما أكذبهم .

وعدت إلى القاهرة وقد ازدادت ملالتى ملالة . لم أجد شيئا أفعله آخر الأمر إلا أن أنظر إلى وجوه الناس إنها الشىء الوحيد الذى لا يتكرر . لا تصدق أنه يخلق من الشبه أربعين ، لا أربعين ولا حتى اثنين . لكل وجه ملامحه الخاصة وهى تعبر عن أخلاق خاصة ولن يشترك اثنان فى الملامح أبدا . ومهما يكن التشابه فلابد أن تجد فارقا . وفارقا مميزا واضحا .

حذار أن تظن أن نظرى إلى وجوه الناس أبعد عنى الملالة أو قللها ، إنما كان هذا مظهرا من مظاهرها ولم أجد ما أنفق فيه ملالتى إلا الوجوه . ولا أخفى عنكم لقد كنت أحب وجوه الناس . واسخر معى ما شئت من هؤلاء الذين يحبون الجمال الطبيعى بغير أحمر أو أبيض . إن هذا الأحمر والأبيض شىء جميل وكم صعقت يوم تفتق ذهن أساتذة المودة عن الدهان الذى يضعونه على شفتى المرأة بلون الطبيعة .. أغبياء .. من قال لهم إننا نريد أن نرى اللون الطبيعى فلماذا تضعنه إذن مادام المطلوب هو اللون الطبيعى ، صدقنى .. كلما رأيت واحدة منهن يخيل إلى أنها أكلت زبدة ثم تجمدت الزبدة على شفتيها .

المهم لقد وجدت أن خير ما أنفق فيه ملالتى هو النظر إلى الوجوه وأخص بالنظر وجوه السيدات طبعا ولم أجد مكانا خيرا من السينما أذهب إليه لأجد المعرض مليئا بالمعروضات فالسيدات ــ لسر أجهله ــ يبذلن أقصى جهدهن فى التزين وهن ذاهبات إلى السينما . وكأنهن يجهلن أن الظلام سيغطى كل شىء يضعنه على وجوههن . على كل حال كان هذا من حسن حظى أنا . فقد كنت أحب عنايتهن هذه بوجوههن .

وفى يوم دخلت السينما وجلست بجانبى فتاة بل سيدة يبدو أنها فى أول عهدها بالزواج . فهى كالوردة أشرفت على التفتح ، النضارة تفوح منها كأنها عبق وهبته لها السماء كل شىء فيها جديد حتى لقد ذكرتنى بملالتى وكيف أنى قديم قديم ، وأفكارى قديمة ، وكل ما يتصل بى قديم ، كم نحن متناقضان ، هى فى جدتها وأنا فى قدمى ، كيف يمكن أن يلتقى القديم والجديد بهذا التقارب ، متجاوران على الكرسى لو لم أكن أرتدى جاكتة ذات أكمام للامست ذراعها ذراعى .

وفجأة ومضت فى ذهنى فكرة ، أبعدتها فألحت على .. لماذا لا أقبل هذه الفتاة الجالسة إلى جوارى ، ماذا سيحدث ؟؟ واحدة من اثنين .. إما أن يلقونى فى السجن .. وما ضر لو فعلوا ..؟؟ كم من مساجين هناك ذهبوا إلى السجن بجرائم لا لذة فيها ولا طرافة ولا تجديد . أما أنا فسأذهب إلى السجن وقد حطمت عن نفسى سجن الملالة الأكبر الذى أعيش فيه وهل أنا الآن طليق . مرحبا بالسجن ولو أرسلوفى إليه .. وإما أن يقودونى إلى سراى المجاذيب ،

ومرحبا بهذا أيضا ، ارى هناك البشرية المستريحة قد طرحت عن نفسها قيود العقل وارتاحت إلى الحياة تقطعها لذة وأحلاما وأوهاما وخيالا . سأكون سعيد الحظ لو أنهم ألقوا بى إلى سراى المجاذيب .

ودون أن أمعن فى التفكير أكثر مما فعلت ملت على السيدة التى بجانبى وطبعت على خدها قبلة مطمئنة هادئة ثم اعتدلت وجلست .

ومدت السيدة يدها على مكان القبلة فى ذهول هادىء أول الأمر ثم فجأة استعادت يدها وكأنما وجدت على خدها أثر القبلة مجسما وكأنما تأكدت أن هذا الذى حدث حقيقة لا خيال ولا وهم . وإذا هى فى كل ثقة تتجه إلى وتصفعنى قلما لم أكن محتاجا إلى أن أضع يدى بعده لأتحسس أثره ، فقد كانت النيران تلهب وجهى ، وكان يمكن أن ينتهى الأمر عند ذلك ، قبلتها قبلة فصفعتنى قلما . . فنحن متعادلان لا لنا ولا علينا . . ولكن ماذا تفعل فى الآخرين . . هل يمكن أن يسكتوا . . أيضيعون هذه الفرصة الذهبية فى كسر ملالتهم وتسلية أنفسهم . . ؟ أفندى قبل سيدة . . وسيدة صفعت أفندى . . أين يجدون فرصة كهذه ؟ قام الرجل الجالس خلفنا .

ـ أنت قليل الأدب ياأفندى .

فوكزه الجالس إلى جانبه وسأله :

ـ ماذا حصل ؟

فحكى له الذى حصل فقال السائل :

ـ قلة حياء والله لا يمكن أن نسكت .

فتقدم الرجل الجالس بجانب الست فسأل وأجيب . . فثار النهاية سحبونى إلى القسم .

ـ هل قبلت الست ؟

ـ نعم .

ـ ونعم أيضا ؟

ـ أتريدنى أن أكذب . . نعم قبلتها .

ـ ألا تعرف أن هذه جريمة ؟

ـ جريمة ؟

ـ نعم جريمة .

ـ على الشاشة أمامنا فى السينما كانت القبلات على قفا من يشيل ولم نر أحدا يقول جريمة .

ـ هل تريد أن تدعى الجنون ؟

ـ هل فيها أقول غلط ؟

ـ لا . . لا غلط . . ياشاويش ضعه فى الحجز .

وتم المحضر وروْى لاستكمال الشكل أن أعرض على طبيب أمراض عصبية وكأن الطبيب كان يدرى ما تهفو إليه نفسى فما هى إلا أن انتهى من فحصه حتى كنت نزيلا بمستشفى الأمراض العقلية .

لا تسلنى كم من الوقت أقمت هناك . . فما عرفت فى حياتى أسعد من هذه الفترة التى عشتها بلا عقل ولا مسئولية ولا ملل . .

أقمت هناك ما أقمت لا تستطيع زوجتى أن تكسر الأسوار لتعيدنى إلى ملالة حياتى ، ولا يستطيع أولادى أن ينفذوا إلى ليحيطونى بملالة مطالبهم وطبعا لم يحاول الزملاء أن يبلغوا مكانى فما كانوا حريصين على ملالتى فى شىء .

ثم فجأة قلب لى القدر ظهر المجن ، وانبثقت فى صدر طبيب المستشفى عداوة شديدة فإذا أنا فجأة طريد من المستشفى مرة أخرى إلى الحياة . . إلى الملالة . . ملالة تملأ وقتى . . تملأ يومى وليلى . . تملأ أمسى وغدى .

●

شوار وهيبة

قالت أم وهيبة وهى تعطى لزوجها عبد الباقى أفندى طربوشه :

ـ فداك مئة بقرة ياعم عبد الباقى أفندى .. فداك مائة بقرة ..

ولم يجد هذا القول مع عبد الباقى أفندى .. لم يجد فى شىء ، لقد كان حزينا كئيبا وعاد إلى الحديث الذى قاله ألف مرة :

يعنى ياست لو أننا جهزنا وهيبة بقرشين سلفة وجعلناها مثل جميع البنات اللواتى تزوجن فى هذه البلدة .. ماذا يحدث ؟

وقالت زوجته فى غضب :

ـ أنرجع إلى هذا الحديث ثانية ..

ـ ولماذا لا نرجع ؟

ـ يارجل ، أترضى أن تكون ابنتك مكسورة الخاطر أمام أهل زوجها ؟ ياعبد الباقى أفندى سعادة الزوجة فى حياتها كلها متوقفة على ما تأخذه معها من أثاث فى يوم زواجها .

ـ سبحان الله .. أهذا كلام يقوله عقلاء ؟!

ـ منذ يدخل الشوار بيت الزوجية يعرف الزوج ان كانت زوجته عزيزة على أهلها أم هى هينة رخيصة ..

ـ ولماذا لا تقولين إنه يعرف إن كان أهلها فقراء أم أغنياء ..

ـ الغنى والفقر لا يهم فى هذا .. حتى الفقير يبذل كل جهده ليقدم إلى ابنته جهازا يسترها أمام زوجها وأهل زوجها .

ـ إذن نستر وهيبة أمام زوجها وأهل زوجها وننفضح نحن أمام الدنيا جميعها .

ـ لا قدر الله ياعبد الباقى أفندى .. مستورة والنبى مستورة ..

ـ ومن أين يأتى الستر ياسلمى .. من أين .. البقرة التى لا نملك غيرها نبيعها وتقولين مستورة ؟!

وما بقرة .. ما قيمتها .. ياعبد الباقى أفندى أنت لا تعرف حماة ابنتك .. نبوية طويلة اللسان وان رأت الشوار قليلا ستجعل أيام ابنتك كلها سوداء غير الفضيحة أمام الناس والهزء والسخرية .

ياستى الحماة لا ترضى أبدا .. والله إن أثثت لها قصرا لن ترضى .. نحن نقدم ما فى وسعنا ونترك كلام الناس للناس . استرينا ياسلمى .. استرينا فقد عشنا عمرنا مستورين .

يارجل وهل البقرة هى التى تسترنا ..

ـ البقرة شىء مهم فى حياتنا .. اللبن والجبن ، الحرث والرى ، وشعورى أن عندى بقرة يجعلنى أحس بالدفء وبأنى مستور .. اتركيها لى ياسلمى ..

ـ لا والله هذا كلام لا ينفع أبدا ، وماذا أفعل أنا أمام الناس .. أكل هذا من أجل بقرة .. الذى جعلك تشترى بقرة يجعلك تشترى الثانية .

من أين ؟

ـ من وظيفتك .. أنت مدرس وعليك العين ..

ـ أى عين .. المرتب وفقط .

ـ قد يأتيك بعض التلاميذ لدروس خصوصية .

ـ هل جننت .. نحن هنا فى أقصى الصعيد .. التلميذ الذى يأتى إلى مدرستى يقطع من أبيه مبلغا هو فى أشد الحاجة إليه .. والتلاميذ لا تأتى إلى المدرسة إلا بشق الأنفس وأنت تريدين أن يأخذوا دروسا خصوصية .. هل جننت ؟!

ـ سمعت عبد السميع أفندى يحكى لك عن الدروس الخصوصية .

ـ عبد السميع أفندى فى القاهرة .. القاهرة شىء آخر .. هنا لا أمل لنا إلا فى البقرة .. اتركيها لى ياسلمى ..

ـ اسمع .. بقاء البقرة يعنى ذهابى أنا إلى بيت أبى .. ما رأيك ؟

ـ ماذا . ماذا تقولين ؟

ـ ما سمعت ..

ـ هل جننت ؟

ـ جننت عقلت هذا شأنى . .
ـ بعد هذا العمر كله . . بعد عشرين سنة زواج . .
ـ وبعد مائة سنة إذا لزم الأمر . . أنا لا أحتمل لسان نبوية . . فلتسخر منك وحدك إذا شئت أما أنا فلا . .

ـ أمرى لله نبيع البقرة . .
ـ إذن فاسرع . . يجب أن تذهب إلى السوق ونحن مازلنا فى باكر الصباح . .
ـ ألا أتناول إفطارى . .
ـ حين تعود . . حين تعود ياعبد الباقى أفندى . . توكل على الله . .
ـ البس الحذاء . .
ـ أسرع اذن أسرع . . اسم النبى حارسك وضامنك . . من يراك يظنك ناظر مدرسة . . طول عمرك وأنت وجيه والنبى ياعبد الباقى أفندى . .

بالبقرة أكون أوجه .

ـ يارجل توكل على الله . . الأرزاق عنده . .
ـ حسبى الله ونعم الوكيل . . حسبى الله ونعم الوكيل . .

وأمسك عبد الباقى أفندى بحبل البقرة وخرج إلى الطريق . . السماء لم تفرج بعد إلا عن شعاعات قليلة من الشمس ، وأنفاس الزرع الأخضر تملأ الأجواء ، وانتهب عبد الباقى أفندى شهيقا عميقا . . الله . . ما أجمل عبير البهائم . . حسنين أبو سعد يأخذ جاموسته إلى الحقل وصالح أبو عرابى يسحب بقرته ، وداود أبو أسماعيل . . لقد اشتريت بقرتى يوم اشترى داود بقرته . . أيام . . كان القطن فى تلك السنة قد رمى تسعة قناطير وكان ثمنه خمسة عشر جنيها . . قلت اشترى هذه البقرة أحرث بها الفدانين وأعلقها على الساقية وأشرب لبنها و . . و . . ولكن سلمى تريد أن تبيعها لا من أجل وهيبة ولكن من أجل نبوية . . لو لم يكن لمحمدين أم لما بعت أنا البقرة . طبعا الشوار لابد أن يكون كاملا حتى نغيظ نبوية . . سلمى لا تريد أن تسكت نبوية وإنما تريد أن تغيظها . . تريد أن تريها أنها جهزت بنتها بما لم تستطع هى أن تجهز به بنتها خديجة . . نبوية طيبة ولكن سلمى مصرة على أن تقول عنها إنها طويلة اللسان . . ومالها لا تفعل مادامت ترى فى قولها هذا حجة تجعلنى أبيع بقرتى . . حسبى الله ونعم الوكيل . . وهل لابد لوهيبة أن تتزوج وماذا أصنع بها إن لم تتزوج . . الحمد لله أنها تزوجت . . أتراها ستكون سعيدة فى زواجها . . والله ان زعلها محمدين . . ماذا أفعل . . انه طويل عريض لا قبل لى به . . وهل الحكاية قوة . . أجعله هزوة فى القرية جميعها . . أعطيه ابنتى وأبيع بقرتى لأجهزها ثم هو بعد ذلك يزعلها . . ولكن محمدين طيب . . لو لم يكن طيبا

لما طلب وهيبة . . عبد الدايم أفندى كان يريد أن يزوجه ابنته زكية . . وعبد الدايم أفندى أغنى منى بكثير وهو أيضا أقدم منى فى المدرسة وقد يصبح ناظر المدرسة هذا العام أو العام القادم ومحمدين مدرس جديد يحتاج إلى مساعدة الناظر وتقاريره ليحصل على العلاوات ولكنه لم يفكر فى زكية وخطب وهيبة . . البنت وهيبة حلوة ومؤدبة وتعرف القراءة والكتابة ، ولكن زكية أيضا حلوة . . نعم الحق أنها حلوة . . وهى أيضا تعرف القراءة والكتابة . . ولكن ما شأننا نحن ، لقد اختار محمدين عروسه وهيبة ولم يختر زكية . . القلب وما يهوى . . له فى ذلك حكم . . ترى كم تساوى البقرة . . لن أبيعها بأقل من مائة جنيه . . مائة على الأقل . . ولعلى أستطيع أن أحتفظ بعشرين جنيها أو خمسة عشر أو حتى عشرة جنيهات لأشترى لنفسى حلة جديدة وطربوشا وحذاء . . لم أشتر هذه الأشياء منذ أربع سنين . . وهل تكفى عشرة جنيهات . . احتفظ بخمسة عشر جنيها . . ترى هل أستطيع أن أشترى بقرة أخرى . . من يدرى . . الغيب فى علم الله . . جميل أن يكون الغيب فى علم الله . . لو عرفت ما سيحدث لى غدا لأصبحت الدنيا كئيبة لا معنى لها ولا جمال . . جمال الدنيا مفاجآتها . . لعبة من الحظ تتكرر فى كل يوم بل فى كل ساعة ، فى كل دقيقة بل فى كل ثانية فى كل خفقة قلب فى كل شهيق وكل زفير بل فى كل هنية تقع بين الثانية والثانية أو بين الشهيق والزفير . . سمعت عن رجل خيل اليه أنه عرف مستقبله وكان مستقبلا سعيدا ولكنه مع ذلك انتحر . . لقد فقدت الحياة سحرها فى ناظريه فانتحر . . ماذا يريد منها وقد عرف كل ما يخبئه له القدر وكل غد . . انتحر . . من يدرى . . لعلنى أشترى بقرة أخرى . . لعلنى . . من يدرى . . كم هى عزيزة على بقرتى هذه . . كم أحبها . . ما للطريق مقفر هكذا . . وحدى فيه أسير . . وما الذى أخر الشمس عن الظهور . . قليلة هذه الأشعة التى ترسلها الشمس . . قليلة هى مع هذا القصب الذى يحيق بالطريق متشابك الجذور والسيقان . . ماذا . . ماذا أسمع . .

ـ قف .

ـ من . . من أنت ؟

ـ قف ولا تكثر الكلام . .

ـ أمرك ياعم . . هأنذا قد وقفت . . هأنذا قد وقفت . .

ـ تعال . .

ـ إلى أين ؟

ـ تعال وانت ساكت . .

ـ جئت . .

ـ اترك هذا . .

ـ ماذا ؟

ـ اترك هذا . .

ـ أترك حياتى ولا أتركه . .

ـ ستترك حياتك إذن وتتركه . .
ـ هذه ياعم بقرتى أريد أن . .
ـ لا تطل الحديث . . اترك حبل هذه البقرة واتبعنى . .
ـ أنا فى عرضك . .
ـ لا تطل . .

وفى داخل القصب وجد عبد الباقى ثلاثة شخوص جالسين القرفصاء لا يبين منهم الا عيون قادحة بالعظمة والكبرياء وتكلم أوسطهم :

ـ إلى أين أنت ذاهب ؟
ـ إلى السوق . .
ـ لتبيع هذه البقرة . .
ـ أجهز بثمنها ابنتى . .
ـ دع البقرة وتوكل على الله . .
ـ حياة ابنتى ومستقبلها . .
ـ دع البقرة وتوكل على الله . .
ـ فقير أنا . . فكيف أجهز البنية . .
ـ ما صناعتك ؟
ـ أدرس فى المدرسة . . لعلنى أعلم أولادكم . .
ـ انتظر . .

وقال الرجل فى الوسط إلى الرجل الذى يجلس على يمينه وهمس ببضع كلمات ، قام بعدها الرجل وانتقل إلى داخل القصب لحظات ثم عاد فمال على الرجل الأوسط وهمس ببضع كلمات قال بعدها الرجل الأوسط .

اتبع هذا الرجل . .
وقال عبد الباقى أفندى هالعا :
ـ والبقرة . .
فقال الرجل فى حزم :
ـ اتبعه . .

وسار عبد الباقى أفندى وراء الرجل وما هى إلا خطوات حتى وجد نفسه أمام ثلاثة شخوص آخرين وقال أوسطهم :

اسمع ياعبد الباقى أفندى . .
ـ أتعرفنى . .

ـ اسمع ولا تطل الحديث .. نحن نعرف حكايتك وقد رأينا أن نشفق عليك .
ـ أطال الله عمرك وأبقاك ..
ـ ستأخذ البقرة إلى السوق .
ـ نعم ..
ـ وتبيعها ..
ـ وتأتى إلينا ..
ـ نعم ..
ـ تأخذ نصف الثمن .
ـ نعم ..
ـ ونأخذ نصف الثمن ..
ـ نعم ..
ـ فقط ..
ـ أمرك ..
ـ وإن غالطت فى الثمن ؟
ـ نعم ..
ـ سنقتلك ..
ـ نعم ..؟
ـ سنقتلك ..
ـ أمرك ..
والتفت إلى الرجل الذى قاده اليهم وقال له فى لهجة آمرة حازمة :
ـ أعطه البقرة ..

وخرج عبد الباقى أفندى ذاهلا عن نفسه حيران لا يفكر فى شىء وسار به الطريق بأقدام لا تعى وحين بلغ السوق جلس يلهث فى جهد كبير وطلب من بعض من الناس قدحا من الماء وأتبعه بقدح آخر ثم قام يسحب بقرته حيث يجتمع تجار البقر .. بستين جنيها بل بسبعين بثمانين .. بثمانين .. بثمانين .. لم تزد .. باع عبد الباقى أفندى البقرة بثمانين جنيها وسار فى الطريق الذى جاء منه .. أعطيهم أربعين جنيها .. وماذا أصنع بالأربعين جنيها الأخرى .. لقد كان أول ثمن للبقرة ستين جنيها .. ماذا يحدث لو قلت لهم إنها لم تأت بأكثر من ستين جنيها .. وأشترى أنا الخلة .. وسلمى ماذا ستفعل .. هذا حظى وماذا أستطيع أن أفعل .. ماذا استطيع .. أن أفعل .. يجب أولا أن أخفى العشرين جنيها .. يجب أن أخفى العشرين جنيها .. نعم فى الطربوش بين الخوص والصوف فى الطربوش .. ودخل عبد الباقى أفندى إلى القصب وأخذ من الثمانين جنيها عشرين أخفاها فى الطربوش ووضع الستين جنيها فى جيبه

كما كانت وعاد إلى الطريق .. وحين بلغ المكان المعهود وجد الرجل الذى استقبله فى الصباح واقفا .. ولم يتكلم الرجل ولا تكلم عبد الباقى أفندى وإنما تبعه فى صمت .. ووجد الثلاثة الذين استقبلوه الاستقبال الأول ..

ـ هيه ياعبد الباقى أفندى ..
ـ نعم
ـ بكم بعت البقرة ؟
ـ نعم
ـ بكم بعت البقرة ؟
ـ بستين جنيها ..
ـ ماذا ؟
ـ نعم
ـ ماذا ؟
ـ بستين جنيها ..
ـ ياخسارة ياجدع ..
ـ نعم ..
ـ لقد حكمت على نفسك بالإعدام ..
ـ أنا ؟
ـ لقد بعتها بثمانين جنيها .. اعدام .. من أجل عشرين جنيها ..
ـ أنا ؟
ـ أنت ..
ـ أنا فى عرض النبى ..
ـ لقد كذبت ياعبد الباقى أفندى .. لقد كذبت ..
ـ أنا فى عرض النبى ..
ـ أين العشرين جنيها ؟
ـ أنا فى عرض النبى ..
ـ أين العشرين جنيها ؟
ودون وعى قال :
ـ لا أدرى .. أنا فى عرض النبى ..
وقال الرجل الأوسط فى حزم :
ـ خذه فاقتله ..
وارتمى عبد الباقى أفندى على قدمي الرجل وقال الرجل فى عظمة هادئة :

ـ أستغفر الله العظيم ياعبد الباقي .. أستغفر الله العظيم ولكنى أستطيع أن أعمل لك شيئا .. العدل يجب أن يأخذ مجراه ..

وحينئذ مال الرجل الذي يجلس على الجانب الأيمن على الرجل الأوسط وهمس ببضع كلمات ثم قال له :

ـ خليه البهم ..

وقال الرجل الذى كان يجلس على الجانب الأيمن :

ـ اتبعنى ياعبد الباقي أفندي ..

وقام عبد الباقى أفندي زائغ النظرات مبهوتا ضائعا وتعثر خطوتين ليلقى بنفسه أمام الثلاثة الآخرين وقال أوسطهم :

ـ لقد كذبت ياعبد الباقى أفندي ..

ـ أنا في عرضك ..

ـ لقد وجب قتلك ..

ـ من أجل ابنتي التي سأزوجها ..

ـ لقد كذبت ..

ـ آخر مرة ..

والتفت إلى الرجل الواقف وقال له في تسامح :

ـ خذ منه المبلغ كله مع ما أخفاه واتركه يمضي .

وقفز عبد الباقى أفندي هاتفا :

ـ يحيا العدل .. يحيا العدل ..

وبأصابع مرتعشة أخرج من الطربوش العشرين جنيها وأعطاها ليد اختطفتها منه وراح يقفز من القصب وهو يهتف :

ـ يحيا العدل .. يحيا العدل ..

وراح يجرى وينكفىء ويلهث ويقوم ويجرى وهو يهتف :

ـ يحيا العدل .. يحيا العدل ..

ودخل القرية وهو يهتف وتحلق حوله الفلاحون فراح يتفلت منهم وهو يهتف :

ـ يحيا العدل ..

ودخل بيته وانكفأ على الأريكة :

ـ يحيا العدل ..

وسألته زوجته :

ـ أين ثمن البقرة ؟

ـ يحيا العدل . .
ـ البقرة ياعبد الباقي أفندى . . أين ثمن البقرة ؟
ـ يحيا العدل . .
فهزته زوجته هزة عنيفة وهي تقول :
ـ البقرة . .
وفي صوت يقطعه نشيج البكاء راح عبد الباقي يقول :
ـ يحيا العدل . . يحيا العدل . .
« ختـــــــام »

● حين يميل الميزان

ولكـــــنى سعيد ..

القطار عنيف الاهتزاز شديد القذارة ، لم أجد غيره ليقلنى من الزقازيق إلى بنها لآخذ قطارا آخر إلى الاسكندرية . وكنت خليقا أن أضيق بالقذارة الشديدة التى تضفيها المصلحة على القطار ، وكنت جديرا أن ازداد ضيقا بالمحطات الكثيرة المتلاحقة التى يقف بها القطار وكنت خليقا أن أضيق بالمشوار جميعه ، فما كان حبيبا إلى نفسى أن أذهب إلى الزقازيق فى نفس اليوم الذى لابد فيه أن أعود إلى الاسكندرية ، فإنى أحب حين أذهب إلى البلد أن ألغى الزمن فلا أنظر فى الساعة إلا عند اليقظة أو عند النوم ، وأنا فى مشوارى هذا لم أطعم نوما ، وبالتالى لم تكن هناك يقظة . ولم تكن الأشياء التى تلقيتها فى البلدة سعيدة ، ومن أين تأتيها السعادة . . الدودة تلتهم أشجار القطن ، والمحصول لا يبشر بخير ، والناس لا تستطيع أن تدفع ما عليها ، والحالة المالية تزداد ضيقا ، ولكنى سعيد .

وقبل أن أسافر لقيت صديقا ظل معى حتى ركبت القطار ، وقد ظل يحدثنى ما يقرب من نصف الساعة ، فقص على ما يشقى به من ضيق العيش وكثرة العيال ، فحملنى من الأحزان ما أنا عنه فى غنى . . ولكنى سعيد . .

والعقد الذى كان من المفروض أن أوقعه لأكسب منه مالا ، لم يعد فى الإمكان توقيعه ، وطار ما كنت أتوقع من مبالغ ، وأصبحت الأشهر القادمة شهورا يخيم عليها القلق والذعر والمصير المجهول . ولكنى سعيد . كيف تملأ نفسى هذه السعادة والقلق يهددنى . ما هى حقيقة السعادة . . أليست هى شعورى بها ، ولا يهم من بعد ان كانت تقوم على أسباب منطقية أو لا تقوم . . المهم هو شعورى أنا بالسعادة وعبث بعد ذلك كل شىء . . كل شىء . .

ذلك الرجل لماذا يصر على أن يعرف الغد . . كان غنياً واسع الغنى ، وكان يستطيع أن يصنع بماله الغد الذى يريد ، ولكنه لم يكن يريد شيئا فى الحياة إلا أن يعرف الغد . .

كلما سمع عن رجل يكشف مغاليق الغيب تعقبه حيثما يكون .. ويقول المطلع على الغيب ويسمع المشوق إلى الغيب ..

وحين يعود إلى الحياة يمضي أيامه في انتظار ما قاله المنجم ، فما أسرع ما تكذبه الأيام ويعود الشاب إلى البحث وتعود الحياة إلى تكذيب المنجمين.

سمع أن في الهند رجلا لا يخطىء طريقه إلى الغيب ، يراه كأنما هو جزء من ماضيه ... والرغبة مجنونة ، والمال كثير .. وسافر الشاب إلى الهند .. بلد الروحانيات والأديان وإذلال الجسد وشموخ الروح .. وما أسرع ما عثر على الرجل.

ـ شاب أنت غني ..

ـ لا يقصد إليك من آخر الأرض إلا شاب وغني ... لابد أن تسعفه الصحة ويسعفه المال حتى يصل إليك ..

ـ بحثت عن الغيب طوال حياتك ..

ـ ولا جديد في هذا أيضاً .. إن قدومي إليك وحده يستطيع أن يوحي إليك بهذا ..

ـ لم تعرف الغيب ؟

ـ لو كنت عرفته ما جئت ..

ـ أمصر أنت أن تعرفه ؟

ـ أتريد دليلا على إصراري أكبر من وجودي أمامك الآن ؟

ـ إذن فاسمع ... إنك ستتزوج فور عودتك من هنا فتاة تعرفها من سنوات ، وستنجب أربعة أولاد ليس بينهم اناث .. وستنمو ثروتك بشكل خيالي .. أنت تعمل في أعمال كثيرة ستنجح فيها جميعا ... أنا لم أر في حياتي مستقبلا كمستقبلك ... إن طريقك جميعه مفروش برغباتك .. إنما عليك أن تأمر فيطيع الدهر .. لست أدري ما حرصك على أن تعرف مستقبلك .. إنما يبحث عن المستقبل من يسود القلق حياتهم .. أي قلق يعتريك ؟ ..

ـ لا قلق ..

ـ فلماذا تبحث عن الغيب ؟

ـ أريد أن أعرفه ..

ـ أعرفته الآن ؟ ..

ـ لقد قلت ما رأيته ..

ـ وماذا تريد بعد ؟ ..

ـ أن يتحقق ما تقول ..

ـ سيتحقق ..

ـ أرجو ..

ـ سيتحقق . .

وعاد الشاب إلى بلاده . .

عجيب . . أى جديد يجده فى السكرتيرة . . إنها هى هى لم تتغير ولكنها مع ذلك تغيرت تغيرا تاماً ، فقد أصبح ينظر إليها نظرات جديدة ، إنها تتمثل أمام عينيه امرأة ، وكانت تتمثل أمام عينيه سكرتيرة . . أيكون ذلك الرجل الهندى قد أوحى إلى أن أتزوج . . فأنا أتزوج ولا أحاول أن أتعب نفسى فى البحث ، فهى معى . . أيكون الأمر كذلك . . . ولكن أهو أول منجم رأى المستقبل له . . . واحدة من اثنتين ، إما أن أكون واقعاً تحت تأثير المنجم . . وإما أن يكون المنجم صادقاً فيما قال . .

ـ إن فيك شيئاً جديداً . .

ـ بل لا جديد . .

ـ فلا بد أن فى شيئاً جديداً . .

ـ أنا لا أراه . .

ـ نظرتى إليك . .

ـ هل تغيرت ؟ . .

ـ إنى أحبك . .

ـ هذا جديد لا شك . .

وكان الزواج . .

وراحت أعمال الشاب تزدهر بشكل لم يسبق له مثيل . . وسارت الأيام تخدم ما يهفو إليه . . ونجح فى أعماله . . وبلغ من المناصب ما لم يحلم به . . .

وراح يقول فى نفسه كل هذا يمكن أن يتحقق دون أن يكون الرجل صادقاً ، فأنا غنى ، ويمكن أن تنجح أعمالى ، ويمكن أن أصل من المناصب إلى أرفعها شأناً وأعلاها منزلة . . كل هذا ممكن ممكن .

وبدأت الزوجة تهب له الأطفال . . كان الأول طفلا والثانى طفلا . . إذن فالرجل صادق . . إذن فأنا أعرف مستقبلى جميعه . . أى لذة للحياة بعد . . . لا أريد هذه الحياة . . . لا . . . لا أريدها . . سأرزق بطفلين آخرين ، ويستمر نجاحى إلى أن أموت . . كم هى سخيفة هذه الحياة . . أم ترانى أنا السخيف . . لأنى لم أرض الحياة لغزاً مستخفياً . . فرحت أستبق المستقبل قبل أن يجىء ، وأشق الغيب عن أسراره حتى أعرفها . . ثم ماذا بعد . . حياة قاتلة راكدة مَيتة . . ولدان آخران سيأتيان ، ويرث الجميع ثروتى .

ولكن . . .

وماذا . . .

وكيف . . ..

ولماذا . . .

حتى أجدد هذه الحياة . . حياتى . .

حتى أحطم هذا الذى قاله المنجم . . . أيظن أنه عرف الغيب حقيقة . . إنه لا يستطيع . . . لا يستطيع . . .

إنه لا يعرف هذا الذى انتويت أن أفعله . . وسأفعله . . لا شىء يردنى عما أريد . . كلما فكرت ، كما ازددت عزما . .

لا بد . . . لا بد . . .

وفى الصباح وجدوا جثة الشاب الغنى الناجح الذى عرف مستقبله ـ هامدة على سرير من حرير . . ومن ريش النعام .

ما الذى جعلنى أذكر هذا . . دعنى أرجع إلى ما كنت أقوله قبل أن أبدأ هذه القصة . . . كنت أقول إننى سعيد ، وكنت لا أعرف لماذا أنا سعيد . . يبدو أننى أعرف الآن لماذا أنا سعيد . . .

●

معقـــــول

الحر الشديد ، الشديد ، يذيب الصخر ويطمس مرآة الحياة ، أبخرة متصاعدة من الأرض وكأنما هي موضوعة على مراجل من نار جهنم . والناس يسيرون فى الطريق وأعباؤهم على وجوههم تقطيب وألم وضيق ويأس . . الأرض تذوب تحت أقدامهم ، وينتزعونها من الحياة انتزاعاً ويقتلعونها من الزمن اقتلاعاً بالجهد الشديد والحر الشديد . . شديد .

مسكين هذا السائر . . إنه موظف فى الوزارة . . لا أعرفه ولكنه دائماً يسير معى فى الطريق ودائماً يحمل هذا الكيس فى يده اليمنى وقرطاسا صغيراً من البلح أو الجوافة فى اليد اليسرى . مسكين إنه لا يحتمل هذا الذى يحدث له لقد التصق حذاؤه المتهرىء بالأرض فانخلع ووجد جوربه يغوص فى الخطوة التالية فى آتون الزفت . إننا الآن لسنا فى موسم البلح أو الجوافة فما هذا الذى بيده . . عجيب أمر هذا المسكين إنه لم يطق أن يسير فى الطريق بدون أن يشغل يده اليسرى . إنها جريدة الصباح يمسك بها كما يمسك بالقرطاس ولا يحاول حتى أن يجعل منها وقاء لرأسه من هذا الحر الشديد ، الشديد ، إنه يمسك بالجريدة بصورة رأسية ويحاول دائما أن يجعلها مستقيمة كأنما يخشى على الكلام الذى فيها أن ينزلق على الأرض . ماذا يفعل إذن فى هذه المشكلة التى انشقت عنها الأرض الذائبة ها هو ذا يتلفت حوله يبحث عمّن يعينه . ليتلفت ما يشاء لدى ما يكفينى . . أين أضع هذه البطيخة والعيش . . لو أن الأرض مستها وتركت عليها جزءا من زفتها لجعلت زوجتى حياتى كلها زفتا ما الذى جعلها مسعورة كما هى الآن . . دائماً أسأل هذا السؤال وكأنى لا أعرف الجواب . . ولكنى أحب دائماً أن أذكر الأيام الأولى فى زواجنا ، بعيدة هذه الأيام . . بعيدة . . مضت عليها سنوات وسنوات وسنوات . . لماذا لم أنسها . . . كيف لم تستطع أعباؤها فى هذه السنوات أن تنسينى ما كنت عليه فى أيامنا الأولى . . هل كنت سعيداً فى هذه الأيام حقاً . . إذن فمالى أذكرها . .

الرجل يتمايل على قدم واحدة . . لقد يئس أن يجد من يعينه . . لقد لجأ إلى نفسه وهل يستطيع إلا أن يلجأ إلى نفسه . . استدار على قدم واحدة والجريدة فى يده ما تزال وإن كانت تتخلخ توشك أن تندلق يحاول أن يدير حذاءه فيتمكن من إدخال قدمه فيه . . استدار الحذاء ولكنه ابتعد . . الرجل يتلفت مرة أخرى . . لا سبيل لك يا أخى لا سبيل . . كل له شأن يغنيه . . ليس لك إلا أنت . . قفز الرجل كالأطفال الذين يلعبون « الأولى » وأخيراً استطاع أن يضع قدمه فى الحذاء ويواجه طريقه ويده اليمنى تحمل كيساً ويده اليسرى تشهر الجريدة يحاذر على الكلام فيها أن يندلق . كلنا نسير . . وكلنا نخاف الطريق وكلنا يحاذر على ما فى يده وان كانت اليد لا تحمل شيئاً . . وهل أستطيع ألا أحمل شيئاً . . لو أننى دخلت إلى زوجتى بلا شىء فى يدى جعلت يومى أسود من هذا الزفت الذى يجاذبنى حذائى . والغريب أننى لو دخلت إليها ومعى شىء قالت فى لهجتها المعهودة الملتوية « يما جاب الغراب لأمه » ولكنها على كل حال تقول أكثر من هذا . . كيف أصبحت نبوية على هذا القدر من سلاطة اللسان والجبروت والوقاحة . . كل يوم أسأل نفسى هذا السؤال وأجيب عليه ثم أعود إلى السؤال والإجابة . . ومالى لا أفعل . . وماذا يمكن أن أفعل والطريق ما زال أمامى طويلاً والحر شديد ، شديد . . إن الست زنوبة منذ جاورتنا وأصبحت صديقة لنبوية انقلبت وحشاً ضارياً . . كانت زنوبة تعطيها دروساً منتظمة ، كيف تسيطر على زوجها ، كيف تمحوه من الوجود ، كيف تكون هى صاحبة الكلمة دائماً والحق أن نبوية كانت تلميذة موفقة كل التوفيق . وأنا ساعدتها هى تظن أننى مغلوب على أمرى وأننى مسكين لا أملك لها دفعاً ولو علمت الحق لروعت . لقد قبلت منها ما تفعل حتى أرتاح ، وماذا يجرى لو أنها قالت كلمتين تريد أن تظهر بهما أنها صاحبة نفوذ . .

الحق أنها تجرح كرامتى . والحق أننى أشعر بالمهانة لكن يبدو أننى تعودت . . لا أظن أن أحداً يستطيع أن يتعود الإهانة أبداً . . الحق أننى أصبحت لا أطيقها لكن أتمنى أن أموت . . ياليتها تموت . . إنها ان لم تمت سأموت أنا . . ماذا يحدث لو أننى مت . . ياليت لكم أتمنى أن أموت لأغيظها . . إنها حينئذ لن تجد أحداً لتمارس عليه سلطاتها الواسعة . . لو أن الأرواح تستطيع أن ترى ما فى الحياة حقاً لظللت مقيماً معها فى البيت لأرى ماذا ستفعل حين تبحث عن أحد تشتمه فلا تجد ــ تصبح مسكينة ذليلة لا قيمة لها ولا وجود . فإن قيمتها الوحيدة ووجودها يتمثلان فى وجودى أنا وفى أنها تستطيع أن تمارس على وقاحتها وفى أن تدمى آدميتى وتمتهن إنسانيتى وتهدر وجودى الذى يحقق وجودها ، لابد أن أموت حتى تجد نفسها ضائعة لا وجود لها ولا كيان وهى تعلم أننى لو مت لانتهى صرح عظمتها الشامخ وهدأ فيها هذا العملاق الذى تحس به كلما أهانتنى وأذلتنى وجعلتنى مسكيناً ذليلاً بلا حقوق ولا رأى ولا حتى كلمة . هى تعلم ذلك . . هى تعلم أنها محتاجة إلى أكثر من حاجتها إلى الهواء الذى تتنفسه . . لقد قالت لى ذلك . . لا لم يكن ذلك فى وقت من أوقات الصفاء . . فلا صفاء بيننا إنما هى حياة نقطعها هى فى المكان الأعلى وأنا فى المكان الأدنى فلا صفاء . . إن الصفاء غاية الصفاء عندنا أن تكون

الشتيمة أقل إقذاعاً من غيرها وهذا كل ما فى الأمر . . ثم هى تحب الخطب ولو تهيأ لها فى البيت منبر لظلت واقفة عليه عمرها كله لتقول لى انى لولاها لكنت مت منذ زمن طويل فإنها تسلمتنى من أمى جيفة فجعلتنى إنساناً وأنا اسم بلا كيان فجعلت منى إسماً وكياناً . .

وغيرت اسمى . . نعم اسمى الحقيقى لا تنطقه زوجتى فهو اسم قديم بال لا يعجبها . . وهى لا تقول فى خطبها أبداً انها محتاجة إلى أكثر من أى شىء فى الوجود ولا تقول ان فى ميزة . . أبداً أى ميزة . . وطبعاً أمى تتمتع بأكبر نصيب من الشتيمة فهى وحدها التى جعلت منى هذا الاسم الذى لا كيان له .وطبعاً زوجتى لا تفكر مطلقاً أنها قضت على الاسم والكيان جميعاً إنما هى تفكر أن تقتطب وفى أن تغمرنى فى المهانة كلما تكلمت . . أقصد خطبت . . وأعود فأقول انها تعلم أننى لو مت لقضى عليها نهائياً . . وقد قالت لى ذلك يوم مات زوج أستاذتها زنوبة . . كان يوماً عجيباً . . الست زنوبة تزاول حرفتها وهوايتها وحياتها اليومية العادية من إهانة زوجها فى صوت مرتفع يكفى لأن يجعل إهانة عبد النبى أفندى علنية . . والزوج طبعاً طرف موجود بلا وجود فالصوت الذى تسمعه العمارة أو المنطقة واحد هو صوت زنوبة والزوج غير موجود . . وكانت زنوبة فى ذلك اليوم فى أوج قمتها فالكلام منتقىً من النوع الذى يجمع إلى الوقاحة البالغة فنية العرض ولماحية الاختيار . . وقد كنت أسمع صوتها وأتخيل وجهها الأبيض . . لا بد أن بعض الحمرة قد صعدت إليه فقد كان واضحاً من نغمات الكلام أن الست تعتمد اعتماداً كبيراً على الحنجرة . . وكنت أتخيل وقفتها فى قوامها الفارع الطول الملىء قد ثنت ذراعيها ووضعت يديها على جانبى وسطها . . وكنت أتخيل شعرها الأسود يهتز مع توقيع الألفاظ التى تختارها فى دربة ومهارة وفن . . كنت أتخيل هذا جميعه لا عن ذكاء فقد رأيت عرضاً مبسطاً له حين كانت تتفاهم — على طريقتها — مع بائع اللبن وهكذا كان تخيلى قائماً على المشاهدة القديمة . . كنت أتخيل وأسمع وعيناى على زوجتى . . كانت فى حالة نشوة لا مثيل لها . . لقد رأيت السكارى إذا ما انتشوا من الخمر ، ورأيت النشوان الذى يسمع ما يهوى من الغناء ورأيت المنتشين من ذكر الله وهم يذكرون ورأيت نشوة نبوية وهى تسمع إلى زنوبة هيهات أن يصل أحد من شاربى الخمر أو سامعى الغناء أو ذاكرى الله إلى ما وصلت إليه نبوية من وصول وهى صامتة فى خشوع على شفتيها ابتسامة عريضة ، أسمع وأنا منها على مبعدة صوت قلبها يدق فى فرح وتهلل . . عضلات وجهها تختلج فى فرح طاغ والست زنوبة تواصل حديثها فى فنية وبراعة . . لا أدرى لماذا توهمت فى هذه اللحظة أن زوجتى ستموت من الفرحة . . تموت فعلاً . . يتوقف قلبها عن الوجيب من كثرة ما دق . . توهمت هذا وأنا أسمع الست زنوبة وهى ما تزال تقول وتقول فى صوتها المرتفع ونغمات حنجرتها المدربة وفجأة وبلا أى مقدمات انشق صوت الست زنوبة عن صراخ مروع . . فى الوهلة الأولى حسبت أن الست زنوبة تجدد فى أسلوبها وأنها تضيف هذا اللون الجديد من الإهانة إلى عرضها الفنى . . ولكن الصراخ تكرر وتكرر حتى لم تعد الى الحديث واستمرت فى الصراخ وفى خبرة فنية هائلة أدركت زوجتى أن

خللاً ما قد وقع فهى تهب واقفة فى سمة المقدم على واجب لابد من أدائه وانشقت حنجرتها هى الأخرى عن صراخ هائل فلم أتمالك نفسى من السؤال :

ــ مالك ؟

وفى احتقار شديد قالت :

ــ اخرس أنت .. صاحبتى وأجاملها .

ــ الا تعرفين أولاً لماذا تصرخ ؟

ــ ودون أن أعرف ..

وتركتها تصرخ وذهبت إلى شقة عبد النبى أفندى .. رحمة الله عليه لم يستطع أن يظل صامتاً فكان احتجاجه هو الموت ..

وحين علقت زوجتى بعد ذلك على الحادث قالت :

ــ إياك أن تموت .. ياحبيبتى يازنوبة من يوم موت زوجها لم نسمع لها حساً .

وهكذا أنا أعرف أنها تريدنى ليسمع الجميع حسها ولتعلن بوجودى وجودها الحر شديد .. شديد

الحر شديد .. شديد ولكننى وصلت البيت أخيراً .. ماهذا الجمع أمام المنزل .. خيراً .. لقد ماتت نبوية .. زوجتى .. نبوية .. ماتت نبوية .. ما هذه البطيخة .. لقد كنت خائفاً أن يمسها شىء من الزفت .. أستطيع الآن أن ألقى بها جميعاً إلى الزفت ولن يسألنى أحد لماذا فعلت هذا .. وهذا العيش أستطيع أن أهبه لهؤلاء الواقفين .. على روح المرحومة .. أمرحومة هى .. إذا رحمها الله فسوف أطلب منه سبحانه وتعالى أن يرسلنى إلى جهنم ..

حلوة هى الحياة الحرة الطليقة .. سعيد أنا .. أعود حين يحلو لى أن أعود وأذهب إلى المقهى حين أشاء وأتغدى حيث أشاء وأتعشى أينما أشاء .. حلوة هى هذه الحياة الحرة .. قد يعترينى بعض الملل أو قد أحب أن أتغدى فى البيت فلا أستطيع ولكن حلوة الحرية .. لقد مرت ستة شهور وأنا أتمتع بحريتى كاملة لكم أنا سعيد بحريتى هذه .. اليوم سأخرج فى موعدى فى الصباح لأذهب إلى المكتب وحين أعود لن أكون حاملاً شيئاً وسأهز ذراعى ما حلا لى الهز .. لا أدرى لماذا أجد ذراعى مثنياً كلما انتبهت إليه وأنا سائر .. لماذا أحس دائماً أننى أحمل شيئاً مع أننى لا أحمل شيئاً .. اليوم سأتحرى أن أهز ذراعى لأننى لا أحمل شيئاً .

ــ أهلاً ست زنوبة .. صباح الخير .

ــ أهلاً وسهلاً .. صباح الخير .. هل جاء ميعاد المكتب ؟

ــ والله أمامى وقت .

ـ اتفضل اشرب قهوة . .
ـ لقد كنت أريد أن أجىء إليك من زمان .
ـ أهلاً وسهلاً . . أحضر لك القهوة .
ـ اقعدى فقد تغيرين رأيك وتحضرين شيئاً آخر .
ـ أمرك .
ـ أنا الآن كما تدرين عازب . . وأنت أيضاً . . ما رأيك لو تزوجنا ؟
ـ والله معقول .
ـ على بركة الله .

●

لا تــــدرى ..

ـ لا . .
ـ لماذا ؟ . .
ـ لا أدرى . .
ـ أراك . .
ـ ماذا تريد من رؤيتى ؟
ـ نتفاهم . .
ـ علام نتفاهم ؟
ـ على هذا الموقف . .
ـ ليس هناك موقف . .
ـ ولا هذا الامتناع . .
ـ لا أريد . .
ـ بدون سبب ؟
ـ بدون سبب
ـ ماذا فعلت ؟
ـ لم تفعل شيئاً . .
ـ إذن ؟ . .
ـ لا أريد . .
ـ أليس هذا موقفاً ؟
ـ ليكن موقفاً . .
ـ لنتفاهم إذن . .

ـ بدون تفاهم . .
ـ هناك غيرى ؟
ـ من هذه الجهة تستطيع أن تطمئن . .
ـ إذن نلتقى . .
ـ لا أرى فائدة من اللقاء . .
ـ فهل ترين فيه ضرراً ؟ . .
ـ أبداً . .
ـ إذن . .
ـ لا فائدة من هذا اللقاء . .
ـ ولكن أرى أنه ضرورى . .
ـ إنك تستطيع أن تقول كل ما تريد فى التليفون . .
ـ هناك أشياء لا يستطيع التليفون أن يحلها . .
ـ هذه الأشياء لن تحل . .
ـ مجرد أن أراك هام عندى . .
ـ لا داعى لذلك . .
ـ أنت خائفة ؟ . .
ـ مم أخاف ؟ . .

ـ ألا تستطعين مقاومتى ؟
ـ أتظن ذلك ؟
ـ أنا واثق . .
ـ حيلة قديمة . .
ـ أين الحيلة ؟
ـ لنلتقى . .
ـ لتكن حيلة . .
ـ لا تنطلى على . .
ـ مادمت قد فهمت الحيلة فلا مانع من اللقاء . .
ـ إذا كنت مصمماً . .
ـ ألا ترغبين فى هذا اللقاء ؟
ـ لا أرى له فائدة . .
ـ إذن نلتقى . .
ـ إذا شئت . .

ماهذا التصميم ؟ .. لماذا ؟ ..

إن كل الأسباب التى جدت تدعو إلى اللقاء .. ماذا ألم بها .. ماذا جنيت .. لماذا تغيرت على .. لقد دعتنى أول الأمر .. لم أفكر فيها يوم سكنت العمارة .. حتى ابتسامتها التى كانت تلقيها إلى كل صباح عند خروجى كنت أظنها ابتسامة مبذولة لجار جديد ، وكنت أردها بابتسامة أعتقد أنها كانت ابتسامة بلهاء .. عرفت أننى حاصل على ليسانس الحقوق ، ولم أعجب أنها عرفت فسكان العمارات حديث مشاع لبعضهم البعض ، ولكنى عجبت يوم دق الجرس فوجدتها تدخل إلى بيتى .. استشارة قانونية لقريبة لها مات زوجها وهى حائرة مع أهله .. والذين يتعلمون المواريث يتعلمون كيف ينسونها فى اللحظة التى يغادرون فيها كرسى الامتحان .. فأصبحت أمامها أكثر حيرة من قريبتها مع أقارب زوجها ..

ــ أبحث الموضوع وأرد عليك ..

ــ متى ؟ ..

ــ غداً ..

ــ وهو كذلك .. متى ؟

ــ أجىء إلى حضرتك الساعة الخامسة ..

ــ تجىء ؟

ــ نعم ..

ــ إلى البيت ؟ ..

ــ إذا لم تر مانعاً ..

ــ أنا لا مانع عندى ، ولكن أعتقد أن زوجى يمانع ..

ــ زوجك ؟

ــ ماذا .. غريبة

ــ إذن ..

ــ أجىء أنا إليك .. فى السادسة .. إنه يخرج دائماً قبل السادسة ..

وجاءت ولم تسأل عن الفتوى التى مكثت الساعات أبحث عن جوابها .. لم تسأل عن الفتوى .. ولست غبياً إلى الدرجة التى تتصورها .. حين دخلت بدأت أجيب فتواها ، فإذا هى تغير الموضوع دون أى اهتمام بحيرة قريبتها ..

راحت تقص على ما تلقاه من إهمال زوجها .. وهذا الموضوع بطبيعته يؤدى إلى ما انتهى به الأمر بيننا ..

واستمر الحال على هذا سنوات ثلاثاً وبضعة أشهر .. لم يكشفنا أحد ، فقد كان من العسير أن يكشفنا أحد ..

فى أحد الأيام تيقظت من نومى على صراخ هائل يشق الفجر ، وهرولت أسأل .. لقد مات الزوج .. كيف .. لا أدرى .. مات .

أنا لا أدرى كيف مات .. لقد كان مريضاً منذ زمن بعيد ، وكان من الطبيعى أن يموت ، لم يكن يمتثل لأوامر الطبيب ، وكان يحب أن يبدو أمام الناس شاباً .. أما أمامى فلم يكن يستطيع أن يبدو شاباً ، ولا أن يبدو رجلا على الإطلاق .. لم يكن يستطيع .. ولكن ماذا يريد هذا الشاب الذى يقيم بالدور الأعلى .. لم أعد أريد صداقته .. لم أعد أريد .. لا أدرى لماذا .. لم أعد أريد .. أصعد إليه .. ولا تعجبنى ملاحقته لى بالتليفون .. حاول أن يجىء إلى البيت فنهرته ومنعته ، فالخادمة معى ولا يعقل أن يدخل البيت .. لماذا يلاحقنى وقد قلت له لا أريد .. يريد أن يعرف لماذا .. ماذا يهمه أن يعرف .. المهم أننى لا أريد .. ألا يكفى هذا سبباً . أيظن أننى ما دمت أنا التى قدمت إليه نفسى فمن حقه أن يفرض على نفسه .. ان أصر على هذه الملاحقة فسأترك العمارة والحى وأذهب بعيداً إلى حيث لا يعرفنى .. يريد أن يلقانى .. وما يهم ؟ .. سألقاه .. ماذا يستطيع لقاؤه أن يفعل .. سألقاه .

ـ هأنا ألقاك ..

ـ لماذا ؟ ..

ـ لماذا تصر على أن تعرف لماذا ؟

ـ لأعرف ..

ـ ماذا تستفيد من المعرفة ؟

ـ مجرد المعرفة ..

ـ ليس هذا جوابا ..

ـ هل أخطأت فى شىء ؟ ..

ـ أتظن أنك أخطأت فى شىء ؟

ـ أنا لا أعتقد ذلك ..

ـ فلماذا تسأل ؟

ـ لعلى أخطأت فى شىء وأنا لا أعرف ..

ـ لم تخطىء ..

ـ إذن ؟

ـ لا أحب الخيانة ..

ـ وما كنا نفعله ..

ـ آه .. هذا ؟ ..

ـ نعم ..

ـ كنت أخون زوجى ..

ـ ثم ؟
ـ ومات زوجى ..
ـ أعرف هذا ..
ـ وأنا لا أحب الخيانة ..
ـ ألم تكن خيانة وزوجك حى ؟
ـ نعم كنت أخون زوجى ..
ـ أليست هذه خيانة؟
ـ ليست هذه هى الخيانة التى لا أحبها .
ـ فما الخيانة التى لا تحبينها ؟ ..
ـ لم يعد زوجى موجوداً .. لا أحب أن أخون نفسى .

●

فـى الـطريـق ولـن أعود ..

موجود بلا وجود أنت . لا يهمنى فى شىء أن تأكل وتشرب وتعيش وتنام .. فأنت عندى لا وجود لك ولا كيان ولا حياة . أنا لا أعرفك ... لست أنت .. أنا لا أريد أن أعرفك ولا أريد أن أذكرك وكم أتمنى ألا أراك .. يعلم الله أن هذه الحياة التى تقوم بيننا حرام ... لا تستند الى شرع ولا تعتمد على قانون فهى ليست قائمة وهى ليست موجودة ، وأنت غير موجود .. غير حى .. أنت عندى وهم .. أنت ماض لم يعد له حاضر .. أنت ذكرى بددها واقع .. أنت حلم قضى عليه ظهور النهار .

نعم إنى مخطئة ، ولكن ألم أدفع ثمن الخطأ الذى ارتكبت .. وهبنى أجرمت ألا يدفع المجرم ثمن جريمته بعض وقت يقضيه فى السجن ، ثم هو برىء .. فكيف تريد الحياة أن تحكم على بالإعدام وأنا لم أقتل أحداً إلا لكرامتى ، وكيف تريد أن ترغمنى على هذه الحياة .. كنا فى مطالع اللقاء الأول بيننا نقول إن الحياة بلا حب هى الموت .. بربك ألم تشعر بعد أن حباً بيننا لم يعد له وجود .. تدعى فى أحيان أنك تحبنى .. إنك كاذب .. لا تستطيع أن تشعر بنبضة من حب لإنسانة تكن هذا القدر من الكره الذى أكنه لك وتزعم أنك لا تعمل إلا ما تمليه عليك مشاعرك .. أية مشاعر هذه التى تملى عليك هذا الامتهان لإنسانيتى ، وهذا التحقير لعواطفى .. أنت غير موجود .. غير موجود ..

إن دخولك البيت وخروجك على مشهد منى .. وحديثك الجاف المتعالى دائماً .. وطعامك المتكبر المتأله .. ومعاشرتك البعيدة كل البعد عن الإنسانية ، كل هذا لا يستطيع أن يجعل من وجودك وجوداً .. أنت غير موجود .

كنت موجوداً دائماً قبل أن نتزوج .. كنت نبضات قلبى ، وكنت فكرى ، وكنت دمائى .. ولم نكن يومذاك فى بيت واحد .. وكان البيت الذى أعيش فيه يكرهك جميعاً وكأن

لا يطيق أن يذكر اسمك .. فلم يكن اسمك يذكر .. وكنت موجوداً .

كنت حنانا .. وكنت همسه حبيبة توشوش أنفاسى وآمالى وغدى .. كنت موجوداً .

كان أبى يكرهك ، وكانت أمى تكرهك لأنها كانت تحب أبى .. لماذا أحببتك فى هذه الأيام ؟ ما أسخف هذا السؤال دائماً ... ولكننى أذكر أننى كنت أحبك بقلبى وعقلى ، بآمالى وفكرى .. كنت حين أسير إلى جانبك أحس أننى أسير مع إشراق الحياة ، وأحس خطواتى تنتقل فى الشاطىء الأمين من العالم ، كانت ألفاظك أمنا وثقة ، وكان يبقى أمنا وثقة ، فأنا أكره الاضطراب ويقتلنى القلق .

ازددت ثقة بك وأنت عند أبى تطلب يدى .

ــ ابنتى صغيرة ..
ــ أنتظرها ..
ــ لا أحب الانتظار ..
ــ ولكن يا سيدى إنه أنا الذى أنتظر ..
ــ لا أحب ..
ــ لا تحبنى أم لا تحب الانتظار .. ؟
ــ لا أحب شيئاً ..

رفض أبى بإصراره الحاد العنيف ، وحين رأى فى عينى ابتدار الدموع ..

ــ تريدين الزواج ؟؟ .
وصمت ..
ــ أم تريدين هذا الشخص بالذات ؟ ..
وأطرقت ..
ــ فأنت تريدينه بالذات ..
وظللت مطرقة ..
ــ إنه لا يعجبنى ..
ورفعت رأسى أريد أن أقول ، ولكنى صمت ثم أطرقت ..

ــ نعم أعرف أنك أنت التى ستتزوجينه وليس أنا ..
ورفعت رأسى ورأى فى عينى أن هذا ما كنت أريده ، وأحسست أنه عرف ما أريد ..

فعدت أصمت من جديد وأطرقت ..
ــ ولكن أنا الذى أختار لك ..
ورفعت رأسى .. ورأى السؤال فى عينى ..

ـ من حقك أن تحبى من تشائين ، ومن واجبى أن أوافق أو لا أوافق . .

ولم ينتظر حتى يرى الدهشة فى وجهى . .

ـ نعم . . وأعلم أنك طالبة فى الجامعة . . وأعرف أيضاً كل ما كتبه الشعراء والكتاب والقصاصون عن الحب ، بل وأعرف الحب نفسه ، ولكن هؤلاء الكتاب والفنانين يختارون لموضوعاتهم النواحى العاطفية ولا يتكلمون عن تجربة الأب وفهمه للأمور وطول ممارسته للحياة ، وبممارسة الحياة له . . فحكمه حين يحكم وراءه كثير من العقل والحكمة والبعد عن العاطفة . .

ولم أرفع رأسى . .

ـ إننى لم أقل فى حياتى كلاماً أكثر سخفاً من هذا الذى أقوله الآن . .

وتولتنى دهشة لم يكن محتاجاً ليراها . .

ـ إننى أنصح وأخطب وأعظ . . ليس أسخف من ذلك .

وخالجنى خالج من الأمل . .

ـ إذن . .

ـ لن تتزوجيه . .

ولم ينتظر أن أسأله . .

ـ وبدون إبداء أسباب . .

إننى أعرفه . . إننى أعرفه . . لا يتراجع . . ولكن عليه أن يبدى الأسباب . . لابد أن يبدى الأسباب . . . قالت أمى :

ـ ألا تكفى إرادة أبيك ؟

ـ إرادة أبى هذه تكفى عندك أنت لأنك عشت فى عصر كانت فيه إرادة الرجل هى القانون ولكننا اليوم فى عصر ، القانون نفسه محل نقاش كبير .

ـ إذن فاعلمى أن هذا الفتى الذى تحبين خطب قبلك أربع بنات وتركهن .

خبر جديد لم أكن سمعت به .

ـ من أين عرف أبى ؟

ـ سأل .

ـ متى سأل ؟ . .

ـ بعد أن رفض . .

ـ أليس عجيباً . . ! ؟

ـ ما العجب ! !

ـ يرفض ثم يسأل . . لماذا رفض إذن ولم يكن يعلم هذا عنه ؟
ـ يقول إنه لم يكن مرتاحاً إليه .
ـ لمجرد شكله ؟
ـ هذا فارق السن يابنتى . .
ـ هذا سحر .
ـ بل تجربة .
ـ على كل حال لا يهم .
ـ لا يهم أن يخطب أربع بنات ويتركهن .
ـ لم تعجبه واحدة منهن .
ـ وأعجبته ؟ . .
ـ ولم لا . .

لا فائدة ترجى من هذا النقاش لقد رفض أبى . . ولم يكتف بهذا بل سعى فنقل إلى الأسكندرية لأبتعد عن القاهرة ومرضت أمى فأصبح الحديث فى الزواج غير معقول . وطال المرض بأمى وسألت أبى أن تعود إلى القاهرة لتكون بجانب أهلها واستطاع أن يعود . . وعدت أنت إلى . . حناناً ولهفة عدت . . تسألنى عن أمى ولا تتكلم عن الحب وإذا تعذر عليك أن تكلمنى راحت أمك تكلمنى فهى كل يوم تسألنى عن صحة أمى وعن سير المرض كأنما هى طبيب مخلص فى عمله .

وماتت أمى . . وأطبقت أمك على بأنيابها الذكية المتمرسة فإذا أنا أتعلق بها تعلقى بأمى وتعطف على كأننى ابنتها .

وتمر فترة الحداد القاسية وأخرج من السواد القاتم لتلقفنى ذراعا أمك ولسانك . .
ـ بعد موت أمك سيرغمك أبوك على الزواج بمن يريد ولن تجدى أحداً يحميك .

إن السواد الذى يصاحب الموت يشل العقل . . إن التجار والنهازين لا يجدون فرصة أحسن من الموت ليعقدوا صفقاتهم . . إنها فترة يظن فيها أهل الميت أن الجميع يعطف عليهم ولا يريد لهم إلا الخير .

وكان البيت الذى خلا بى وبأبى جحيماً . . هو يعلم أنى أريد ما لا يريد وأنا لا أدرى لماذا لا يريد وكلما تعقدت هذه الكلمات كانت حياتنا معقدة فيها جهامة الموت ونفور الرغبة والرفض .

حتى إخوتى حين كانوا يلمون بنا فى زيارة كانوا فاشلين فى تبديد ما بينى وبين أبى من جليد ونار .

وتزوجتك .. وحين أرسلت وثيقة الزواج إلى أبى قال لأختى فى برود وصرامة لا تدخل بيتى .. ولم أدخل .

وخلوت بى وخلت أمك .

كانت بداية عهدك الجديد وعهد أمك جملة قالتها حماتى فى جمعية كبيرة من السيدات :

ـ يا حسرة علينا تزوج ابنى بلا فرح ولا زفة ولا حتى زغرودة .

وانقلبت أنت وحشاً كاسراً .. فقد علمت أننى أصبحت بلا ملجأ إلا أنت فأنا إذن كالمطاط مهما تقذف بى إلى الحائط فسأعود إليك .. وأعود إليك .. وأعود إليك .

لا أريد أن أذكر .. لا أريد أن أذكر .. ولكن شيئاً واحداً لا يحتاج أن أذكره .. إننى أصبحت مهانة وحقارة وبشرية مدمرة عصفت بها أنت وحين كنت أقول لنفسى لا يمتهن الإنسان إلا نفسه .. تصيح بى نفسى أليس أنت من اخترت .. وينتهى الحوار إلى هذه الصيحة ولكن يوم ضربتنى .. صحت فى نفسى ألم أدفع الثمن بعد .. إن المجرم يدفع الثمن بضع سنوات ثم هو برىء .. وأنا لم أدفع الثمن بعد ؟ أنت غير موجود .. لو أنك دمرت حياتى عن كره ما كرهتك بهذا القدر الذى أكرهك به الآن .. ولو أنك قسوت عن طبيعة لا تملك أن تغيرها فى نفسك ما احتقرتك كما احتقرك الآن .. ولو أنك مزقتنى وأنت تعرف أن لى مكاناً أستطيع أن ألجأ إليه إذا ما فعلت ما أفعله الآن .. أنت لا تعرف أين أنا .. أنا فى الطريق العام .. لا أعرف لى وجهة ولا مكاناً ولا مستقراً .. وسأسير وسأظل أسير وليكن الطريق بيتى وغدى ومستقبلى ولكن لن أعود .. وكيف أعود إلى عدم .. إنك اليوم بالنسبة لى عدم أنا لن أعود .

أخـــتى وأنـا ..

أنفاسى أين ذهبت . . . لماذا لا أتنفس . . . كيف استطاعت الدنيا جميعاً أن تجثم على صدرى فلا أتنفس وكيف لا أزال أعيش وأنا لا أتنفس . . نعم إنى أريد أن أعيش ، ولكن هل تكفى هذه الإرادة حتى تجعلنى أعيش دون أن ألتقط من الهواء أنفاسى ؟ . .

كيف وجدت نفسى فى هذه الحجرة ؟ وكيف أغلق على بابها وأغلقت من دونى نوافذها . . . هذه النافذة الشرقية ، وهذه النافذة الغربية ، وهذه النافذة فى الوسط بينهما . . لماذا أقفلت النوافذ جميعاً فأصبحت لا أرى شيئاً . . لا أرى شيئاً على الإطلاق وإنما . . أسمع . . .

هناك ضجيج فى الخارج هادر صخاب . . . أنا لا أدرى شيئاً ولا أتنفس . . لا . . لن يستطيعوا أن يستلبوا عقلى أو تفكيرى أو ذاكرتى . . فليقفلوا الأبواب والنوافذ ما شاء جبروتهم أن يقفلوا . ولكن سأظل أفكر وسأظل أذكر .

أرى هذا البخور ينساب إلى الحجرة من خصاص النوافذ المغلقة ومن أسفل الباب المغلق . . أراه ولكنى لا أشمه ، فأنا لا أتنفس ، ومادمت لا أتنفس فأنا لا أشم . . ومادمت لا أشم فالبخور لا يصل إلى عقلى ولا يؤثر فى ولا يصل بى إلى الخدر الذى يبيتون لى . . إننى مفيق وإن كنت لا أتنفس ، وسأظل مفيقاً . . فأملى الوحيد فى الحياة أن أظل مفيقاً . . وإنى مفيق .

إنها ليست حياتى وحدها التى أعيش لها . . إن حياة أختى معلقة بحياتى . . إذا أنا مت ماتت ، وإذا أنا ضعفت لهذا الخدر الذى يطلقون على انفردوا بأختى ، وويل لأختى إذا هم انفردوا بها . . الموت أهون ما تلاقيه . .

ليست أختى مجرد أخت وإنما هى ماضى وحاضرى ومستقبلى .. ليس لى فى الحياة إلا هى .. وليس لها فى الحياة إلا أنا .. ويكفى أن تكون مجرد أختى لأبذل فى سبيلها حياتى ، ولكنها أكثر من ذلك .. أكثر بكثير .

إن أختى هى الأنفاس التى تتردد فى كيانى ، هى غذائى وفكرى وأملى .. وليس هذا بغريب .. فقد عرفتها وأنا لا أعرف فى الوجود شيئاً ، وظللت أعرفها بجانب كل الأشياء والأشخاص التى عرفتها بعد ذلك ..

أعرفها كجزء من كيانى وما زالت كل كيانى .. لقفتنى يداها وأنا أدلف إلى الحياة وقد مات أبى وأمى تحملنى .. وماتت أمى وهى تلدنى ، ولم يبق لى فى الحياة إلا أختى ، ولم يكن لأختى حينذاك أحد .. فتاة فى ريق العمر ، ليس لها إلا جمالها وذكاؤها المتوقد ، وتحمل عبء طفل رضيع وليس له من يرضعه .

عملت .. عملت فى كل الأعمال ، ورفضت أن تتزوج حتى ترانى وقد استقام أمرى ، ولكن هناك شيئاً واحداً لم تقبل أن تضحى به من أجلى ..

ــ إننى احتفظت بها من أجلك ..
ــ كنت تكسبين أكثر لو تنازلت عن حريتك ..
ــ كنت أفقد كل شىء ..
ــ وهم ..
ــ الوهم أن أفقدها ..
ــ كان يمكن أن تشقى الحياة فى يسر لو لم تتمسكى بها هذا التمسك الأعمى ..
ــ أعتقد أنه الحق ..
ــ والحياة ..
ــ لا حياة بدونها ..
ــ كنت تعملين .. ؟
ــ العمل حرية ..
ــ وقيود ..
ــ حرية بلا قيود هى الفوضى ..
ــ لقد حملت العبء ثقيلاً ..
ــ شعورى بأنى حرة جعلنى أحتمله ..
ــ وقدمت لى الحرية ..
ــ ألم تسعد بها ..
ــ لست أدرى ..

ـ إنك تحاول التفلسف . .
ـ بل أقول الحق . .
ـ إنك تدمرنى بهذا الذى تقول . .
ـ أعتقد أنه الحق . .
ـ إذن فعبث كل الذى بذلته من أجلك . .
ـ إننى أعيش . .
ـ ان كنت لا تعرف معنى ما قدمت فأنت لا تعيش . .
ـ إننى أعيش
ـ إنك تعيش لأنك تتنفس . .
ـ كل إنسان يعيش لأنه يتنفس . .
ـ لو تنفست ما وهبته لك ما احتجت إلى الشهيق والزفير
ـ أنا لا أدرى . .
ـ كل ما فى الأمر أنك لم تجد نفسك محتاجاً لتدرى . .
ـ لا أفهم . .

ـ لم تتعرض للموقف الذى تمتحن فيه نفسك . .
ـ أرجو الا أتعرض . .
ـ بل أرجو أن تتعرض . .

وحين استقام منى الأمر وأصبحت قادراً على مواجهة الحياة تقدم إلى أختى من يخطبها . . رجل كبير فى السن ، ذو سطوة وسلطان . .

ـ إنه كبير فى السن . .
ـ وهل يمكن أن يتزوجنى إلا كبير فى السن . .
ـ ألا تخافين ؟
ـ فى كل حياة جديدة عناصر من الخوف . .
ـ لم تتعودى . .
ـ لا بد أن أتعود . .
ـ ولماذا ؟ . .
ـ من أجلك . .
ـ من أجلى أنا ؟ . .
ـ أريد أن تتجدد أنت أيضاً . .
ـ ولكنك ستظلين أختى . .
ـ وزوجة . .

ـ لماذا تقولين هذا ؟ . .
ـ لقد عشت عمراً طويلاً فرعاً . . مجرد فرع . . أريدك أن تكون أصلاً . .
ـ لماذا ؟ . .
ـ لتعيش الحياة . . لا بد للحياة أن تعيش . .
ـ فليعمل غيرنا على أن تعيش الحياة . .
ـ ولماذا لا نعمل نحن ؟ . .
ـ لأنى . . .
ـ قل . .
ـ لأنى أحبك . .
ـ ولأنى أحبك أقبل الزواج . .

وذهبت إلى بيت زوجها وبدأت حياة جديدة . . وبدأت أنا أيضاً حياة جديدة . . ولكننى كنت أذهب إليها فى كل يوم . . الأسى والحزن والألم واللوعة هى وجهها . . والسعادة والهناء والبشر والسرور هى ألفاظها . .

ـ مالك ؟ . .
ـ سعيدة . .
ـ حقاً ؟ . .
ـ ألا ترى ؟ . .
ـ لا . . ولكنى أسمع . .
ـ ما تسمعه هو الحقيقة . .
ـ لا بد أن أراه . .
ـ يكفيك أن تسمع . .

كنت أذهب إلى بيت أختى فى مواعيد منتظمة. . وكنت كلما شهدت التناقض بين ما تراه عينى وما تسمعه أذنى أزداد لهفة عليها وخوفاً . . وفى يوم ذهبت فى غير موعدى فوجدتها فى حجرة مغلقة مع زوجها . . فمكثت أنتظر خروجها . . وخرجت بعد وقت لم يطل . .

ـ وبماذا تبررين هذه الدموع ؟ . .
ـ دموع فرح . .
ـ دموع الفرح ليست غزيرة كهذه الدموع . .
ـ أتعرف لها عدداً معيناً ؟ . .
ـ دمعة واحدة أو اثنتين . .
ـ ولكن الفرح الكبير له دموع كثيرة . .
ـ ليست هذه دموع فرح . .

لم أكن قبل ذلك أسأل زوجها عن شيء ، ولكنني في ذلك اليوم . .

ـ لماذا ؟ . .

ـ ماذا ؟ . .

ـ لماذا لا تسعدها ؟

ـ هل شكت ؟

ـ دون أن تتكلم . .

ـ ليس هناك ماتشكو منه . .

ـ لأنك تمنعها من الشكوى . .

ـ بل لأنها لا تجد ما تشكو منه . .

ـ لعلها لا تريد أن تزعجني . .

ـ حين تشكو إليك اسأل . .

ـ ولكن لماذا لا تسعدها . . لقد وهبت لك أغلى ما ادخرته في حياتها . .

ـ إنما أصنع كل ما أصنعه لإسعادها . .

لن يفيد هذا المخدر الذي يبثونه عبر النوافذ ومن تحت الباب . فإني مفيق . .

وإني أذكر . . أذكر حين ذهبت إليها مرة أخرى على غير موعد فوجدت زوجها يضربها في البهو بعصا غليظة ، وهي صامتة جامدة وهو يضرب ويضرب . .

ولم أفكر . . ووجدت نفسي أهجم على العصا لأوقفها ، وقبل أن أصل كنت هنا في هذه الغرفة . .

لا أتنفس ، ولكنني أعيش . . إن الحياة التي في داخلي تجعلني أعيش . .

إنها حياتي وحياة أختي في جسمي أنا . . لا يهمني في شيء أن تقفل النوافذ جميعاً والأبواب ، فأنا لا أحتاج لشيء . . فحياتي في داخلي ، وإنني مفيق . . إنني مفيق . . إن حياتي جميعها تستمد بقاءها من أنني مفيق . . وانني مفيق . .

●

حين يميل الميزان

لا أنا لا أريد أن أقص عليك ، ولا أريد أن أدافع عن نفسي ، فإني أصبحت وأنا في غير حاجة للدفاع أمام أحد . . لا تظن أنك من علماء النفس وتحاول أن تقول إنني أدافع عن نفسي أمام نفسي . . فحتى هذا أنا لا أحتاج إليه . . إنني أقوى من هذا جميعه . . الضعفاء وحدهم هم الذين يحاولون أن يدافعوا عن أنفسهم أمام الناس أو أمام أنفسهم وأنا لست ضعيفاً ولن أكون ضعيفاً . . أنا قوى . . قوى . . قد تقول أنت فى محاولتك المتهافتة للتحليل انى أصبحت ظالماً وأن الظلم غير القوة . . هذر هذا الذى تقول . . إن الظلم هو القوة . . العدل الوحيد الذى أعرفه فى العالم هو هذا الذى يلقنه الأساتذة لتلاميذهم أما الناس فى الحياة فهم إما ظالمون أو مظلومون . . إذا ملكوا ما يجعلهم أقوياء فهم ظالمون وإذا وقعوا بين أنياب من هو أقوى منهم أصبحوا مظلومين . . ولماذا تطلب العدل بين الناس والعالم كله تحكمه القوة . . القوة وحدها . . ولا يجرؤ أحد أن يقول هذا ظلم . . دولة تغتال أخرى . . وتقول هذا هو العدل . . إنما عدلها هو القوة . . وهو عدل ظالم ويعرف العالم أجمع أنه عدل ظالم ولكن القوة تؤيده فهو عدل عادل . .

أنا لا أحاول أن أدافع عن نفسي . . فأنا قوى . . لا ولا أحاول أن أبرر ما أفعله فلست فى حاجة إلى تبرير . . لا ولا أريد أن أقص عليك شيئاً فأنا لست مأجوراً لتسليتك وإنما أنا أريد أن أتكلم ومن مظاهر القوة الرائعة أن يتكلم القوى حين يطيب له أن يتكلم ويسكت حين يحلو له أن يسكت ومن مظاهر القوة أيضاً أن يسمع له الناس إذا تكلم وأن يحترموا صمته إذا صمت . . تلك هى القوة وأنا قوى . . أتكلم حين أريد وأسكت حين أشاء وعلى الناس أن يسمعوا إذا شئت حديثاً وعليهم أيضاً ألا يسألونى حديثاً إذا لم أرد أن أقول .

حين مات أبى ترك لى ثروة لا بأس بها تستطيع أن تهيىء لى حياة ميسورة إن لم تكن حياة

رغدة . . لم أكن يومذاك قد بلغت سن الرشد فكان لابد لعمى أن يصبح وصياً على ، فأصبح . . وكان عمى من هؤلاء الأقوياء الذين يطلق عليهم الضعفاء ظالمين . ولكن عمى على قوته لم يكن ذكياً . . نعم سأقص عليك لماذا لم يكن ذكياً . . طبعاً فهمت أنه كان يغتال أموالى . . فإن كنت قد فهمت هذا فلا تظن أنك ذكى فما يحتاج الأمر إلى كثير من الذكاء لقد تسامعت الأجيال أن الغالبية العظمى من الأوصياء يغتالون أموال القصر . . كان عمى من هؤلاء الذين تسامعت عنهم الأجيال . . كان يأكل أموالى . . ولم يكن ذكياً لأنه كان يجعلنى دائماً فى حاجة إلى المال فهو ينفق على تعليمى وينفق على ملبسى الإنفاق الذى لا يجعل الناس يتساءلون أين ذهبت أموالى ثم هو لا يكاد يعطينى شيئاً بعد ذلك . وهنا يبدو غباؤه فقد جعلنى أنا أبحث الأمر فى خفية منه . . وعرفت . . عرفت أنه لص . . ولم أكن أملك الدليل . . كنت أسميه فى ذلك الحين لصاً ولكنى اليوم أسميه قوياً . . كان قوياً . . وكنت أنا ضعيفاً . . حتى كان يوم عثرت فيه على أوراق فى مكتب عمى . . كان بين هذه الأوراق إيصالات منى تحمل توقيعى وكان توقيعى مزوراً . . ألم أقل لك إنه لم يكن ذكياً ؟ . . أخذت الإيصالات ووضعتها فى جيبى وأكملت يومى فى بيت عمى كأن شيئاً لم يحدث .

كنت أرى زملائى فى كلية الحقوق يلبسون أفخر الثياب وكان بعض منهم يملك سيارة وكانت السيارة مع هذه الملابس وسيلة رائعة للتعرف بفتيات الكلية وقد كان التعرف بالفتيات فى هذا الزمان مسألة تحتاج إلى إعداد ومعدات . أعرف زملاء لى دخلوا كلية الحقوق وخرجوا منها لم يكلموا فتاة واحدة . وكم كنت أشفق أن أكون مثل هؤلاء الزملاء . . كانت أمنيتى أن أصادق فتاة من فتيات الكلية ولم تكن الوسيلة تهمنى . لم يكن يهمنى أن تحبنى هذه الفتاة لشخصيتى أو لسيارتى أو لملبسى . . إن شيئاً من هذا لا يهم . المهم . . المهم الوحيد أن أتعرف بفتاة . . وأقرب الفتيات إلى فتاة من الكلية . . أنا لا أدافع عن نفسى فأنت لست قاضياً حتى أدافع عن نفسى . . ولا أنا أشعر بأننى فى حاجة لأبرىء نفسى أمام نفسى . . وإنما أنا أحكى لأنى أريد أن أتكلم . . كنت فى ذلك الحين أريد أن أكون شخصاً عادلا لا أظلم أحداً ولا يظلمنى أحد . . كنت أريد أن أكون من هؤلاء الذين يسيرون على الطوار ولا يعبرون الشارع إلا من المكان المخصص لذلك . . كنت أريد أن أطيع القانون بشرط واحد هو أن يحمينى القانون ، كذلك تعلمنا فى نظرية العقد الاجتماعى . . أتنازل عن جزء من حريتى للدولة حتى تحافظ لى الدولة على الجزء الأكبر الباقى من حريتى . كان أملى أن أصبح طرفاً فى العقد أحافظ على شروطه ويحافظ الطرف الآخر على شروط العقد أيضاً . . والدولة عندى هى المجتمع وأنا لا أطلب حقاً ليس لى . . فلست فقيراً وأريد أن أكون غنياً ، ولست جاهلا وأريد أن أكون عالماً . . كل ما أريده أن أنال حقى الذى لا شك فيه والذى تركه أبى أمانة فى عنق عمى . . وعمى من المجتمع والمجتمع هو الدولة . فإذا اغتال عمى حقى كان على الدولة أن ترد هذا الحق لى . . وكنت أعرف أنه لا سبيل إلى ذلك فهو يتخذ الوسائل القانونية التى تجعل الدولة

والمجتمع فى حالة توافق معه .

كيف إذن أستطيع أن أكون شخصاً سوياً ، طرفاً فى العقد غير الممهور القائم بين الدولة وبينى ، وكيف أستطيع أن أسير على الطوار ولا أعبر الشارع إلا من المكان المخصص لذلك ؟ لا سبيل . . لابد إذن أن أعبر من أى مكان لأنال حقى . . ومادام لا سبيل لنيل حقى إلا عن طريق غير شريف فليكن الأمر إذن كما تشاء قوانين الحياة لا قوانين العقد الاجتماعى .

إذا اختل ميزان العدل مرة فى نفس إنسان فلا سبيل لهذا الميزان أن يستقيم مرة أخرى ، إنه عوج يؤدى إلى الإصابة بعاهة مستديمة لا سبيل إلى الشفاء منها . . ولكنى لم أر هذا الميزان قائماً عند أحد أبداً . . الجميع . . الجميع . . الموازين فوقهم مائلة . . هى للقوى مائلة لصالحه وهى للضعيف مائلة عليه . . كم كنت أريد أن يكون الميزان عندى مستوياً لا مائلا لى ولا مائلا على . . أنا لا أدافع عن نفسى . . فما دام القانون الموضوع أصبح مستحيل التطبيق فلا مناص من العودة إلى القانون الطبيعى . . والقانون الطبيعى غالب ومغلوب بلغة الغاب وظالم ومظلوم بلغة المظلومين وقوى وضعيف بلغة الصدق .

حين حصلت على هذه الإيصالات تحمل توقيعى المزور أصبح الأمر ميسوراً عندى . . فأنا أريد سيارة وأريد ملابس أنيقة لأننى أريد فتاة تركب إلى جانبى . .

أخذت أحسب الإيراد الذى كان من حقى أن أحصل عليه . . ولكن مالى أبحث عن الحق . . لم يصبح الحق مهما . . لقد كان المهم أن أحصل على ما أريد لا على ما أستحق . . فذهبت إلى عمى :

ــ أريد ألف جنيه . .

ــ ماذا . . جننت . . ؟

ــ إن لى عند سعادتك ثلاثة آلاف وخمسمائة وستين جنيهاً وخمسة وأربعين قرشاً . . أريد الآن ألف جنيه والباقى سأطلبه حين أريد . .

ــ طبعاً أنت تمزح أو تدعى الجنون أو أنت مجنون فعلا . .

ــ لا . أبداً . . الواقع أننى عثرت على هذا الإيصال عند سعادتك حين كنت عندك فى المرة الفائتة . . لا يجديك فى شىء أن تمزقه فهو ضمن إيصالات كثيرة عندى . . وقد تعلمنا فى كلية الحقوق أن التزوير جريمة . . العقاب عليها يكون بالسجن ولا أعتقد أنك تفكر فى السجن . .

ــ أنت تهددنى إذن . .

ــ نعم . .

ــ كيف تجرؤ ؟!

ـ سعادتك تسرقنى وتزور توقيعى . .
ـ تهددنى ؟
ـ قلت نعم . .
ـ إذن . . ؟
ـ إذن متى تدفع الألف جنيه . . ؟
ـ هذا مبلغ لا يوجد فى كل وقت . .
ـ لعلك على حق . . سأمر عليك بعد ساعة . .
ـ ساعة . . ؟
ـ كتير ؟
ـ لا . . أبداً . . سأعطيك الآن المبلغ ولكن على شرط . .
ـ عمى . . أنا لا أرى أن سعادتك فى موقف يمكنك من إملاء شروط . . !!
ـ سأعطيك الألف جنيه . .
ـ ومع هذا لست فى موقف يمكنك من إملاء شروط . .
ـ ماذا تريد إذن ؟
ـ نعم إنى أنا الذى أريد . . وأنا الذى سأملى الشروط .
ـ ما شروطك ؟ . .
ـ لو قلتها لك الآن فسأعطيك الفرصة لتستريح وأنا لا أريد أن أعطى سعادتك هذه الفرصة . . إن شروطى سأمليها حين يحلو لى أن أمليها . . كل ما أريده الآن ألف جنيه .
ـ حاضر . .
ـ وأعتقد أنه يحسن بك أن تعد غيرها سريعاً لأن هذه الألف ستنفق فى فترة وجيزة . .
ـ فترة وجيزة ؟ !
ـ السيارات غالية الثمن فى هذه الأيام . .
ـ سيارة ؟!
ـ هات الألف جنيه .

لم أكتف بأن آخذ من عمى الآلاف الثلاثة والمئات الخمس والعشرات الست والقروش الخمسة والأربعين . . أخذت من عمى كل ما حلا لى أن آخذه . . فلقد مال الميزان ولم يعد من الممكن أن يستقيم مرة أخرى . . ولم يصبح عمى هو الوحيد الذى أتعامل معه . لقد تعاملت مع المجتمع جميعاً . . ولم يعد من الممكن أن يستقيم الميزان . . لقد مال مرة فهيهات هيهات أن يستقيم مرة أخرى . وهكذا أصبحت كما أنا اليوم . . قوياً . . قوياً . . فأنت تعرف طبعاً أننى رويت لك هذا الحديث لمجرد أننى قوى وأريد أن أتكلم فأنا ــ كما تعرف ــ لا أدافع عن نفسى أمامك أو أمام نفسى ... فالقوى ــ كما تعرف ــ لا يحتاج إلى دفاع ! . .

قصة صيف

لم أكن أتصور وأنا أعد للسفر إلى الاسكندرية أنه لابد لى أن أفكر فى كل هذه الأشياء التى أفكر فيها الآن . أولا وقبل كل شىء مشكلة النقود . . لا بد من نقود كثيرة والمشاكل المالية هى دائماً أهون المشاكل لأنها أكثر المشاكل صعوبة . فالمشاكل المالية عامة ولا يضيرنى اليوم أن أعلن للناس أننى مفلس لأن الذين أعلن إليهم جميعهم مفلسون والتشاكى بين المفلسين قاعدة جرى العرف عليها حتى أصبحت قانوناً . . وقد ذكرت مشكلة النقود فى أول الأمر لأن وجود نقود معك معناه ببساطة وجود كل شىء معك والعكس صحيح فعدم وجود نقود معك معناه عدم وجود شىء معك . ولعلى أستطيع التغلب على هذه المشكلة ببعض قروض بسيطة وبهذا المبلغ الذى لا يزال يتضاءل من عام إلى عام وهو يقطع طريقه من بلدتى فى الدقهلية حتى يصل إلى يدى فى القاهرة . فالموسم موسم قمح ولا بأس على الأرض أن تعطينى فى موسم القمح مبلغاً مهما يكن رمزياً .

إذن فلننتقل إلى مشكلة أخرى . . كيف سأحصل على إجازة . . المدة المحددة لى شهر . وزوجتى والأولاد يريدون أن يقضوا شهرين هناك . . تلك هى الحقيقة التى أرفعها ذريعة فى وجه كل من يتساءل لماذا لا تكتفى بالشهر . . ؟

أما الحقيقة التى أعرفها والتى لا أقولها لأحد إلا لك أنت لأنه من المفروض أن تعرف أسرارى جميعاً فهى أن صديقتى حسنية ستقيم فى الاسكندرية شهرين وأنا أحب أن أكون بجانبها ما استطعت إلى ذلك من سبيل ولعلى أستطيع بعد أن أحصل على شهر الاجازة الاعتيادية أن أحصل على شهر آخر مرضى .

ولابد أيضاً من العثور على شقة فى الاسكندرية قريبة من البحر واسعة ورخيصة وإذا كانت فى طابق مرتفع فلابد من مصعد ، واذا كانت فى طابق منخفض فلابد أن تكون منطلقة الهواء .

وأعتقد أن هذه الصفات لا يمكن لها أن تجتمع أبداً فالشقة الواسعة لا تكون رخيصة والشقة الرخيصة لا تكون فى عمارة بها مصعد والشقة المنخفضة لا تكون منطلقة الهواء .

وهناك أيضاً وسيلة المواصلات ، كيف سنذهب إلى الاسكندرية ؟ لا تقل شيئاً عن سيارتى . . هى قديمة نعم ولكنها تسير ولابد للآلة التى تسير أن تصل إلى ما تريد . . ليست المشكلة مشكلة قدم السيارة وإنما المشكلة مشكلة سعة السيارة . . كيف لسيارة موريس موديل ١٩٤٦ تولول إذا حملت أكثر من أربعة أشخاص . . أن تحمل ستة أشخاص أنا وزوجتى وابنى وابنتى والخادمة والطباخ ؟

على كل حال هذه المشكلة قد يمكن حلها بوسيلة أو بأخرى ولكن المشكلة الأساسية تلوح فى الأفق حين نصل إلى الاسكندرية . . كيف أقابل حسنية هناك . . إنها السنة الأولى التى أعرفها فيها . فى القاهرة أستطيع أن أترك مكتبى فى الصباح لأذهب إليها وأستطيع أن أدعى أننى ذاهب إلى المكتب أيضاً فى بعض أيام من بعد الظهيرة . . أما فى الاسكندرية ، فماذا أقول لزوجتى . . نعم أنت محق ، تلك هى المشكلة الحقيقية . . ماذا أقول لزوجتى . . لعلك أيضاً محق فيما تذهب إليه ، إن مشاكلى جميعها نابعة من هذه المشكلة أنها تقف خلف جميع المشاكل التى ذكرتها . . انها هى مشكلة المشاكل . . لابد أن أجد وسيلة . . ولا يهمك . . إنه سبحانه يدبر لكل عقدة حلا . وهل هناك مانع أن أجد أصدقاء فى الاسكندرية . . وما المانع أليس لكل رجل أصدقاء . . وأين كان الأصدقاء فى السنوات السابقة . . يا أخى ولا يهمك لكل عقدة عند الكريم حلال .

إنه يظن أننى لا أعرف . . ساذج . . ساذج وعبيط . . لقد عرفت فى الأيام الأولى . . فهو ساذج . . لا يعرف كيف يدارى أموره ومن أين له أن يعرف وقد طلع فى المقدر على كبر . . عاش معى عشرين سنة لا يفكر فى خيانتى وظهرت له حسنية . . ظهرت له فى مكتب الوظيفة فأحبها وظن أنها أحبته . . وقد تكون . . لا أعرف . . المهم أننى وجدته فجأة أصبح يهتم بأمور لم يكن يهتم بها . . أناقة أكثر من المعتاد وهو ذاهب إلى المكتب . . وأسأل عنه فى العمل فلا أجده . . وأجد ساعى المكتب الذى يخبرنى متلعثماً أنه ليس على مكتبه ، هذه الكلمة التى يحاول بها أن يفهمنى أنه لم يغادر العمل وإن كان قد غادر المكتب . . ويظن أننى لا أعرف . . ساذج . . أو الواقع أنه ليس ساذجاً وإنما هو معذور . . فقد حبانى الله وجهاً طيباً يستطيع فى كثير من الأحيان أن يكون وجهاً غبياً وأنا أستطيع أن أستغل هذا الوجه أحسن استغلال . . فخيل إليه أننى لا أعرف شيئاً . . لم أسأله يوماً ما هذه الأناقة فهو يعتقد أننى لا أعرف الأناقة عند الرجل . . معذور هو فتعليمى قاصر وهو يعتقد أننى جاهلة . . وحين يجتمع الجهل والوجه الساذج يقع من الناس ضحايا كثيرون لا يقدرون حقيقة ما يتمتع به الوجه الساذج من إدراك ، وما يتمتع به الجهل من علم . استطعت أن أضع على وجهى هذين الستارين ورحت أراقب .

وحين تأكدت أنه على صلة بأخرى خرجت وراءه دون أن يشعر وعرفت أين يجتمعان . وفى اليوم التالى كانت عندى كل المعلومات . . التى لا أريد ان أعرفها عن حسنية . هل تهمك هذه المعلومات فيم تهمك ؟ هي زوجة لرجل يكبرها بسنوات عديدة وهو موظف يعمل مع إسماعيل فى المكتب . . فليس غريباً إذن أن يعرفها إسماعيل . . لعلها جاءت إلى زوجها بالمكتب أو لعله أرسلها بشيء من الأوراق . . المهم أنهما تعرفا وتعرفا . . وظل هو يذهب إليها فى الصباح واثقاً من وجود زوجها بالمكتب معه وفى بعض الأحيان يقول لى بسذاجة إنه ذاهب إلى العمل بعد الظهر وأنا أعرف هذا العمل الذى يذهب إليه بعد الظهر . لم أقل له شيئاً . . ولن أقول له شيئاً . . بل إنى أريده أن يذهب إلى هذا العمل كثيراً . لعله . . لعله يجد هناك متعة . . لقد أصبح مطحونا فى الشهور التى سبقت تعرفه على حسنية . فى يوم وليلة أصبح شيخاً عجوزاً محنياً على نفسه وعلى أيامه تائهاً فى اللا وجود كالهباء أصبح كالعدم أيامه يأس مرير . . يحب الليل ويكره النهار . . يحب الصمت وقد كان كثير الكلام . . صمت خائف لعين مذبوح لا يجد شيئاً يهتم به أو يفكر فيه بل لا يجد شيئاً جديراً بالاهتمام أو التفكير فالمستقبل عنده عدم لأن الماضى عدم . . لا أعرف كيف التف إسماعيل حول نفسه فإذا هو كومة من الجزع وعدم المبالاة والانصراف عن الحياة ، كل الحياة . . حتى سيارته التى يعتنى بها دائماً كما يعتنى صاحب السيارة القديمة بسيارته . . حتى السيارة لم تصبح تحظى بشيء من عنايته . . إجلال وعصام ابنتنا وابننا لم يعودا بالنسبة له شيئاً بعد أن كانت أوقاته جميعاً حديثاً معها أو عنهما ، وحين أسأله لماذا لا تكلم الأولاد ولا تعنى بهما يغمغم « لماذا جئنا بأولاد » من أجل لحظة متعة نرمى بكيان بشرى إلى هذه الدنيا . . ما ذنبهما ؟

وأقول :

ــ ألا ترى أن الحديث فى هذا الشأن متأخر بعض الشيء . . إجلال عندها ثمانية عشر وعصام ستة عشر . .

ويغمغم ثانية :

ــ لكن لماذا ؟

ثم يعود إلى الصمت فكأنما يذهب بصمته إلى بلد غير البلد أو إلى زمان غير الزمان أو كأنه ــ على الأقل ــ يتمنى أن يذهب إلى بلد غير البلد أو إلى زمان غير الزمان .

وأعجب ما فى أمره أنه لم يكن يعرف أنه يعانى شيئاً وحين أسأله :

ــ مالك ؟

ــ مالى !

ــ ألا تعرف ؟

ــ لا . .

ـ حقيقة لا تعرف ؟
ـ أنا طبيعى جداً .
ـ أنت لم تصبح أنت .
ـ كل إنسان يتغير .
ـ وهل تغير كل الناس ؟
ـ كل الناس تتغير .

ويعود إلى الصمت . . ألا تجدنى إذن معذورة حين وجدته فجأة يهتم بأناقته . . وتقفز من عينيه هذه النظرة المتشوقة تبحث عن المستقبل وتطل على الحياة إطلالة الراغب فيها المقبل عليها . . ولتكن حسنية هى الدواء فإنى أجد شفاءه ، أهم من كل الأشياء الأخرى . . تريدنى أن أبذل فى سبيله هذه الغيرة . . إننى أحبه ولأنى أحبه أسمح له أن يخوننى . . إنه منذ قررنا السفر إلى الاسكندرية حائر . . يدعى أن النقود هى السبب مع أن النقود لم تصبح مشكلة بالنسبة لنا فنحن فى أزمة دائمة ونعيش . انه حائر لأنه لا يدرى ماذا سيقول لى حتى يتمكن من لقاء حسنية فقد عرفت من مصادرى أنها مسافرة إلى الاسكندرية . لكم أتمنى أن أقول له اهدأ فلن أسألك عما تفعل واذهب إلى حسنية حين تشاء ولكن أخاف أن أقول له فيعتقد أننى أكرهه وأننى لا أغار عليه . لا أدرى لماذا يريدنا الرجال أن نغار عليهم ولماذا يضيقون بغيرتنا حين نغار ؟

قالت إجلال لعصام :
ـ ألا ترى أبى حائراً ؟
ـ لا أرى شيئاً .
ـ أنت لا ترى شيئاً إلا نفسك .
ـ أفكر فى السفر إلى الاسكندرية .
ـ وفيم تفكر ؟
ـ أخاف أن تكون النقود قليلة .
ـ وماذا تريد ؟
ـ أريد أن أذهب إلى سينما سان ستفانو وأريد أن أرقص فى الكازينو . .
ـ ألست صغيراً على الرقص ؟
ـ كلهم يرقصون .
ـ من الفرح ؟
ـ لا أعرف وإنما كل زملائى يرقصون .
ـ ولكنى أراهم فى رقصتهم كمجانين يريدون أن يحطموا أنفسهم .
ـ لعلهم يريدون ذلك .

ـ ولماذا يريدون أن يحطموا أنفسهم ؟
ـ ولماذا لا يحطمون أنفسهم ؟
ـ لأنها أنفسهم .
ـ إنها محطمة فعلاً .
ـ أنت مجنون .
ـ الجميع مجانين .
ـ أنا لست مجنونة .
ـ إن هدوءك الزائد نوع من الجنون .
ـ أفكر .
ـ تعدلين نظام الكون .
ـ أفكر فى أبى .
ـ ولماذا لا تتركين أبى يفكر فى أبى ؟
ـ إننا أولاده .
ـ فليفكر هو فينا .
ـ ونحن ؟
ـ نفكر فى الاسكندرية .
ـ فى السينما ؟
ـ والرقص .
ـ وبعد ؟
ـ ليس هناك بعد .
ـ لكل شىء بعد .
ـ ليس هناك بعد .

●

مزق هذا الخطاب ..

استحلفك بربك .. بكل عزيز عندك .. احكم بينى وبين المدير العام .. أنا أعلم أنك لا تحبنى وأعلم أنك طوال الفترة التى عرفتنى فيها تعتقد أننى ثقيل الظل لا أحتمل .. وأنا أعلم أنك فى مجالسك الخاصة كنت تجعل منى مادة لتندرك .. ونكتة لا تخطىء فى إطلاق الضحك من أفواه أصدقائك بل من قلوبهم .. ولا أدرى كيف كانت تصلنى هذه النكت .. لعلها لم تكن تصلنى .. الواقع أننى كنت أراها تطل من عيون أصدقائك الذين أعرفهم .. كنت أرى نفسى فى ابتسامة ساخرة على أفواههم ، وكنت أعرف أنهم وهم ينظرون إلى إنما يذكرون ما تلقيه عليهم .. ومع ذلك لم أكن أعدم من حين لآخر من يهمس فى أذنى أن أحاول التقرب منك وعلم الله لقد حاولت بكل ما فى من طاقة ولكنك كنت تصدنى فى غير صلف وتردنى فى غير عنف فأنت عادل وأنت تعلم أن لا ذنب لى فى أننى لست خفيف الظل ولست قريباً إلى قلبك .. أو لعلك كنت تحتقر شأنى ولا يعنيك من أمرى أن أكون قريباً منك أو غير قريب وإنما أنا بالنسبة إليك همل لا يضر ولا ينفع . لا أخفى عليك فإنه من العسير أن يخفى عليك شىء .. لقد عشت عمرى وأنا حريص أن أكون حقير الشأن لا أضر ولا أنفع . فأنا على الرغم مما تظنه بى من غباء أحسن تقدير الأمور وخاصة ما كان منها متعلقاً بمصلحتى الشخصية . فحين أدركت الشباب عرفت أنه لا سبيل لى أن أكون محبوباً بين زملائى : فأنا لا أستطيع أن أكون بينهم خفيف الظل حاضر البديهة سريع النكتة . ولا أستطيع أيضاً أن أجاريهم فيما يتناقلون من شهى الحديث وممتع الحكايات فحزمت أمرى أن أكون مستمعاً .. وقد أتقنت الاستماع حتى أصبحت بينهم مستمعاً . لكل حديث .

والمتحدث منهم لا يتوقع أن أجيب حديثه بحديث بل هو يكتفى بأن يقول وأنا أكتفى بأن أستمع . وهكذا أصبحت من بين الأصدقاء عنصراً نادراً لا يأنفون من الجلوس إلى فإن العنصر

المستمع بين الأصدقاء الأنداد عنصر قل أن تجده . . والمتحدث منهم إلىّ لا يطلب منى رأياً ولا هو يستشيرنى . إنما هو يقص على لأنه يريد أن يقص على . . كل ما يريده الصديق منهم أن يقول وحتى لا يبدو مجنوناً يتحدث إلى نفسه يبحث عنى ليقول لى . . أنا عنده إذن بديل عن الهواء الذى كان سيلقى إليه بحديثه على كل حال . . وإن أذناً تسمع بلا فم يعلق خير من الهواء وخير أيضاً من هؤلاء الذين يختزنون فى داخلهم قصصاً أخرى مثل قصة المتحدث تبحث عن منطلق لها وأذن . .

وهكذا ياسيدى استطعت أن أتغلب على مشكلة عجزى عن الكلام واتخذت من هذا العجز رأسمال لى بين الأصدقاء . وقد انتفعت بهذا العجز أى انتفاع فأصبح الأصدقاء يتهافتون على الحديث إلى . . ألم أقل لك إن المادة المستمعة بين الأصدقاء مادة نادرة .

ومنذ أدركت الشباب عرفت أيضاً أننى أستطيع أن أكون مثل كثير من أصدقائى خفيف الحركة ألعب بالبيضة والحجر . فأنا بطبيعة تكوينى بطىء التفكير لا أستطيع أن أكون حيث يجب أن أكون . . ولا أستطيع أن أفعل ما يجب ان أفعل فى الوقت الذى يجب أن يتم فيه هذا الفعل . إنها مقدرة خاصة عرفت بذكائى المحدود أننى لا أتمتع بها . وأدركت أيضاً أن فقدانى لهذه الخاصية سيجعلنى دائماً متأخراً عن الرفاق فى مضمار العمل فإن لهؤلاء الرفاق موهبة عجيبة طالما حسدتهم عليها . . إنهم يستطيعون.دائماً أن يقولوا لرؤسائهم ما يجب أن يقال . . ويستطيعون أن يؤدوا إليهم ما يجب أن يؤدى فى طبيعة مواتية بغير تصنع ولا تكلف ولا افتعال ولكن من مأمنه يؤتى الحذر . . فهم بهذه الموهبة التى يتمتعون بها يقدرون ذكاءهم أكثر مما يستحق من تقدير ، فهم لهذا يسارعون إلى الخطأ فإن كثرة الحركة تؤدى بطبيعتها إلى الخطأ . لهذا كان من الطبيعى أن يقعوا فى أخطاء مع رؤسائهم تجعلهم يتعرضون ــ بطبيعة الحال ــ إلى غضب الرؤساء غضباً قد يصل إلى الرفت .

أما أنا فقد أدركت طبيعة تكوينى فحزمت أمرى أن أكون مطيعاً لرئيسى لا أناقشه فيما يفعل ولا فيما يقول فلا أسأله إلا الإيضاح ليكون التنفيذ دقيقاً كل الدقة لا مجال فيه للخطأ .

هل أبوح لك بسر . . لا بأس . . فأنا أعلم أن شيئاً لا يخفى عليك لقد أصبحت فى بيتى مع زوجتى ، ولاتذع هذا عنى ــ مع أولادى أصبحت أطيع ما يقولون ــ دون مناقشة أيضاً ــ هكذا علمت أن الحياة بالنسبة إلى لن تصلح إلا بالطاعة . . إن مناقشة أولادى من اختصاص زوجتى وحدها فأنا لا أصلح للمناقشة . قصارى ما أفعله إذا طلبوا شيئاً أن أسأل زوجتى إن كان يجب على أن أنفذه أم لا .

أظنك الآن أصبحت تدرك تمام الإدراك كيف أعيش حياتى . ولكنك لا تعرف أى منصب أصبحت أشغله فى الشركة . لقد أصبحت الشخص الثانى مباشرة للمدير العام ــ قد يدهشك

هذا ـــ فإن لم يكن أدهشك أنت فقد أدهشني أنا . لقد وجدت نفسي فجأة فى مكان لابد لى فيه أن أصدر الأوامر . . أنا لست غبياً . وهل غبى من يعرف حقيقة نفسه . كم بين الناس من يستطيع أن يدرك حقيقة نفسه . . أنا أعرفها تماماً . وأقدر مواهبى ولا أضع نفسى إلا حيث تستطيع مواهبى أن تضعني . ولذلك أثار قرار تعييني فى هذا المنصب الهام فى الشركة كثيراً من القلق فى نفسي ومازلت أفكر حتى انتهى بى التفكير أن أجد بين الموظفين الذين يعملون تحت رئاستى فتى من هؤلاء الذين يستطيعون أن يلعبوا بالبيضة والحجر واتخذت منه صديقاً وجعلته هو الذى يقترح على ما أفعل ثم أنا آخذ ما فكر فيه وأقدمه إلى المدير العام فإن وافق عليه أصدرت به القرار حريصاً دائماً أن تكون عبارة حسب أوامر السيد المدير العام ، فى أول القرار أو فى آخره وهكذا استطعت أن أكون أداة منفذة إما لاقتراح مرءوس أو لأوامر رئيس .

فليس عجيباً إذن أن أظل فى أمان من غضب رئيسى أو مرءوسى على السواء . ولا يهمنى من بعد ما يرمينى به رئيس ومرءوس على السواء . إنى أكاد أسمع الهمس الذى يدور فى نفوسهم والذى يلقون به إلى خاصة أصدقائهم . وأظنك فى غنى أن أنقل إليك هذا الهمس فلا شك أنك تعرفه . ولكن ما يهم . . ما يهم . . مادمت من اقتراحات مرءوس أو من أوامر رئيس فى حصن حصين .

أنا أدرى أنك تعرف هذا جميعه . فهذا الحديث الذى أسوقه إليك لا يضيف جديداً إلى علمك . ولكننى ألجأ إليك اليوم لتكون حكماً بينى وبين رئيسى . . أنا أدرى أنك لا تستطيع أن تؤثر عليه فهو لا يتأثر برأى أحد ولكنك الوحيد الذى أستطيع أن ألجأ إليه على الرغم مما أعلمه عنك من أنك لا تحبنى بل أننى أعلم أكثر من ذلك . . إن قولى أنك لا تحبنى فيه تجاوز كبير فأنت لا تفكر فى أمرى حتى تكرهنى فأنا أهون عندك من تكوين شعور معين نحوى . ولكنك الوحيد الذى ألجأ إليه رغم ذلك جميعه . فمكانتى عند الجميع هى مكانتى عندك فإن أحداً لا يفكر فى أمرى حتى يكون شعوراً معيناً نحوى . . وزوجتى وأولادى يعتبروننى بكل بساطة اليد التى تقبض لهم المرتب فى أول الشهر فهم فى دخيلة أنفسهم يعجبون لماذا أقبض هذا المرتب فهم أعلم بحقيقة مؤهلاتى من غيرهم وهم بالتالى أكثر احتقاراً لشأنى من الآخرين وإن كانوا لا يبدون لى هذا الاحتقار . وهذه الأفكار التى أسوقها إليك لا أستطيع أن أسوقها إليهم . فأنا إنما أرويها لك لأنك تعرفها وتستطيع أن تواجهنى بها وقتما تشاء أما هم فيعرفونها ولا يجرأون على إبدائها وأنا أعلم أنهم يطالعوننى بآرائهم فأنا أستغل هذا النفاق منهم وأحافظ عليه ولا أريد أن يزول .

أنت إذن الشخص الوحيد الذى أسوق إليه هذا الحديث فى هذا الخطاب الذى أرجو أن تتصرف فيه بعد قراءته بحيث يختفى تماماً من الوجود .

إنها المرة الأولى التى وجدت نفسى فيها فى حاجة إلى الحديث فإن لم أتحدث فقد أموت وأنا لا أريد أن أموت خاصة وأنا أشغل هذا المنصب الهام فى الشركة والذى أرجو أن أظل محتفظاً به بغير زيادة ولا نقصان إلى أن أنتقل إلى الدار الآخرة . نعم فإن من مميزاتى التى أعلم بها فى نفسى أننى بلا طموح أرضى بما يعطى لى راضياً به شاكراً له . ومن أعجب ما سمعت يوماً من أحد زملائى الذين يشغلون منصباً كبيراً أنه أصبح لا يستطيع أن يطمع فى وظيفة أكبر لأنه بلغ القمة فى الفرع الذى يعمل به . فهو غاضب لأنه لا يجد لنفسه أملاً جديداً يسعى إليه . وكان جوابى البسيط له أن الأمل الأكبر الذى يجب أن يسعى إليه هو أن يظل فى هذا المنصب والآن هذا هو الأمل الذى أسعى إليه ولكن يبدو أن أملى هذا لا يريد أن يتحقق .

تصور . . تصور أن شخصاً له كل هذه المؤهلات التى ذكرتها لك يهدده رئيس مجلس الإدارة بالرفت .

لم يهددنى مباشرة فأنا أهون من أن يهددنى مباشرة ولكن حديثاً شاع فى مكتبه أنه يفكر هذا التفكير لماذا بربك . . أى نفع يعود عليه من هذا التفكير . . إننى لا أمانع أن يضع معى من الوكلاء ما يشاء . . بل إننى لا أمانع إذا رقى مرءوسى جميعاً فجعلهم رؤساء لى ففكرة الرفت فى ذاتها عجيبة كل العجب بالنسبة لشخص مثلى أقل مميزاته أنه لا يضر . . لا يضر مطلقاً ولا يهمه إن كان لا ينفع أيضاً فبحسبه أن يكون بوقاً جيداً لرئيسه .

إننى أتمزق يكاد القلق يقتلنى لم أجد شيئاً أفعله إلا أن اكتب لك هذا الخطاب وأنا واثق أنه لا جدوى من كتابته إلا أننى أردت أن أكتبه .

ولا تسألنى عن السبب الذى يمكن أن يكون دافعاً لفكرة رفتى هذه فهيهات هيهات أن يكون هناك سبب وهذا ما يفزعنى فإنه من المستحيل أن أصنع شيئاً يمكن أن يكون سبباً أو شبه سبب لرفتى وهذا ما يحزننى فأنا والوضع هكذا لا أستطيع أن أناقش فكرة رفتى لأنها فكرة نشأت دون أن يكون لها دافع يمكن أن يناقش .

مزق هذا الخطاب أو احرقه فإننى فقط أردت أن أقول لك وقد قلت ولا أعتقد أننى شعرت بالراحة بعد أن قلت فإن ما سمعته ينغص عيشى ويمزقنى تمزيقاً . . مزق هذا الخطاب أرجوك . . مزقه والله هو المستعان . .

قصاصات ..

قصد إلى مكتبه فى هدوء كأنما تجذبه قوة غير منظورة لا يدرى كنهها .. وجلس على الكرسى الذى تعود أن يجلس عليه منذ سنوات وسنوات .. ومد يده اليسرى ففتح هذا الدرج الذى ظل سنوات طويلة يريد أن يخلو ما يحويه .. درج عميق عميق .. كان يفتحه بين الحين والحين ليلقى إليه شيئاً وكان دائماً يقول فى نفسه : أريد أن أخلو إلى هذا الدرج لأستعيد كل ما يحويه .. وتمر الخاطرة بذهنه سريعة عابرة مع ذلك النوع من التصميم الذى لا يصل إلى التنفيذ .. لقد مرت به أوقات فراغ كبيرة ، ولكنه لا يذكر الدرج إلا حينما يجد شيئاً منشوراً عنه فى إحدى الجرائد ، وحين يقص هذا الذى كتب عنه ويلقى به إلى الدرج تعاوده هذه الهمسة المصممة .. متى أجلس إلى هذا الدرج لأستعيد ما فيه .. ثم يقفل الدرج ويعود إلى مألوف حياته حتى يجد شيئاً مكتوباً عنه .. كثيراً ما جلس إلى المكتب وكتب .. ولكن فكرة أن يفتح الدرج لم تخطر له على بال ، ولكنه اليوم يجلس على الكرسى ويفتح هذا الدرج الأيسر العميق العميق ..

وقبض قبضة عفوية ، وحمل الذكريات وألقى بها على المكتب وألقى بنظره على ما حملته يده ، وكانت ذكرياته القريبة .. لم يمر عليها من الزمن ما يكفى أن يجعل منها ذكريات .. لم يشم منها رائحة الزمن ولا عبق الماضى .. لم يتول قلبه هذا النوع من الوجيب الذى أراد أن ينعم به ..

ألقى بيده مرة أخرى وقبض قبضة من ذكرياته وألقى بها على سطح المكتب . إنها ذكريات وأكثر قدماً من القبضة الأولى ولكن لا .. ليست هذه ما يريد .. وظل ينقل إلى سطح المكتب وفى كل مرة تغوص ذراعه أكثر من المرة السابقة إلى قاع الدرج .

لم يعد ينظر إلى ما تخرجه يده وإنما كان ينقل الذكريات جميعاً فى شوق كبير إلى مجهول يدريه . . انتابه شعور طاغ بأنه يريد أن يلتقى بهذا الماضى . . إنه لا يعرف عنه شيئاً كأنه ليس ماضيه . . كأنه مقبل على مشاهدة فيلم لا يعرف عنه شيئاً . . لقد مر بذهنه للحظات أنه يعد آلة العرض ويعد الفيلم الذى سيعرض . . فيلم جديد لم يشاهده قبل اليوم قط . . لقد صنع كل هذه الأشياء التى يحفل بها الدرج ، ولكن هناك فرقاً كبيراً بين صنع الشيء وقراءته . . ولقد قرأ كل ما كتب عنه ولكن هناك فرقاً كبيراً بين قراءة شيء منذ عشرات السنين وقراءته الآن فى هذه اللحظة . . إن الفيلم جديد . . الفيلم جديد . . لست أنا هذا الفتى الذى كان منذ أربعين سنة . . أربعون سنة مرت ولكم تغير السنون حين تمر . . فكيف بأربعين سنة كنت حينذاك شاباً لم تخلق الحياة التى حوله إلا من أجله هو . . هو سيدها وهو مدارها . . كم كنت أحب أن أكتب . . كنت قد قرأت . . قرأت كثيراً وأحببت أن أكتب وهفت نفسى أن أرى اسمى يحمل فوقه كلاماً فى فى جريدة . . وكتبت . . كتبت كثيراً . . وظللت لفترة طويلة أغذى سلة المهملات فى مكاتب رؤساء تحرير الجرائد الكبرى والصغرى على السواء ما الذى ذكرنى بهذه الفترة . . هذه الورقة . . هذه القصاصة الضئيلة . . وهذا العنوان الذى كتب بحروف لا تزيد فى حجمها كثيراً على حروف المقال نفسه . . لكم كنت شاباً وإلا فهل أستطيع أن أكتب اليوم هذا العنوان (الفن والحياة) كنت أكتب عنه وأنا فى هذه السن واثقاً من نفسى مطمئناً أننى أستطيع أن أعالج هذا الموضوع الضخم وكأنه مسألة ضئيلة هينة . . ترى هل أجرؤ اليوم وبعد أربعين سنة أن أكتب هذا العنوان (الفن والحياة) إنه عنوان لا يستطيع أن يكتبه إلا الشاب الذى كنت يومذاك أو أستاذ كبير فى الجامعة يجعل منه عنوان كتاب ضخم يعتبره كتاب عمره . . كم فرحت يوم نشر هذا المقال . . كم فرحت . . ما الحياة إذا لم تتخللها من حين إلى حين هذه الومضات المشرقة من الفرح . . لماذا تحرمنا الحياة هذه الفرحة . . هذا المقال الذى نشرته فى المجلة بعد ذلك فرحت به هو أيضاً ثم ظللت أكتب مقالاتى ومع كل مقال تتناقص الفرحة حتى انعدمت . . أعتبر طلب مقال عنى اليوم عبئاً ثقيلاً لا أستطيع أن أتخلف عنه لأن صناعتى أن أكتب وأتمنى فى الوقت نفسه لو كان لم يطلب منى حتى أستريح ولا أكتب .

كم كنت أتمنى فى هذه الأيام أن أكتب . . لم يكن يطلب إلى أن أكتب ولكنى مع ذلك كنت أكتب . . وأكتب وأكتب . . هذه أول قصة نشرت لى فى مجلة الصباح . . لكم فرحت بها هى أيضاً . . ثم ما لبثت الفرحة أن راحت تذوب مع القصص لماذا . . لماذا . . فرحت أيضاً بأول كتاب صدر لى . . رواية (حياة وأوهام) . . التفت له النقاد . . نعم هذا أول مقال نشر عنها بقلم الناقد الكبير سامى أحمد . . اعتبرت نفسى قصاصاً يوم نشر هذا المقال . . نعم قلت للناس ذلك ولكن ما هى الحقيقة . . ألم أكن أنا فى دخيلة نفسى مقتنعاً بفنى . . ولكن هل المهم أن أقتنع أنا بفنى أم المهم أن يقتنع به الآخرون . عجيب عمل الأديب انه مزاج عجيب من الإرسال والاستقبال . . مهما أكن مقتنعاً بفنى فلا قيمة لهذا الاقتناع حتى يعترف بى الناس ومن

ناحية أخرى مهما يعترف بى الناس فلا قيمة لاعترافهم إن لم أكن أنا واثقاً من أصالة فنى . . مسكين هذا الفنان . . تتعلق حياته بالآخرين والآخرون لا يرحمون . . إن لم يروا فناً فلن يعترفوا به . ليس فى هذا المجال رحمة أبدا ومع ذلك يقول الناس . . الناس أنفسهم الذين يقسون على الفنان ان الفن رحمة وإنسانية وشفافية . . إنهم يطلبون من فنانيهم الرحمة والشفقة والشفافية . . وهم أنفسهم لا يتمتعون بشىء من هذا المبدأ أبداً . . وهم أيضاً معذورون فلو اعترفوا بكل من يحاول أن يكون فناناً لأصبح الفنانون أكثر عدداً من مستقبلى أعمالهم . . أترانى أصبحت فناناً . . هذا الدرج يقول نعم ولكن أنا نفسى تساورنى الشكوك كثيراً . . ما زالت الشكوك تساورنى . . لم أبلغ ما أردت لنفسى . . إننى أقرأ من القصص ما يجعلنى أشك كثيراً أننى صنعت شيئاً . .

هذه صورتى فى المجلة . . إنها صورتى يوم تزوجت . . كنت يومذاك على جانب من الشهرة ونشرت مجلة (الفنون) صورتى مع خبر زواجى أيهم هذا قراء مجلة الفنون فى شىء ؟! ماذا يهمهم إن كنت قد تزوجت أم لا ؟! العجيب أن أغلب القراء يهمهم ما يقرأونه عنى أكثر مما يهتمون بما أكتبه . . عجيب أمر هؤلاء الناس . . إن شهرة الأديب عندنا تتكون مما يكتب عنه لا مما يكتبه ، ماذا يهم الناس من أمر زواجى ؟! لقد كان الزواج مهماً لى أنا . . نعم كنت أحب إلهام . . كنت أحبها بكل حماسة الشباب وكل نبض الأديب . . والتقى حبى لها بحبها لى ولم يكن الأمر عسيراً فقد كان كل ما يهم أبويها متوافراً فى . . أحمل شهادة الآداب وأعمل موظفاً فى الجامعة ومستقبلى من الناحية الوظيفية مضمون أما أننى أكتب القصص والمقالات فلا بأس ما دام هذا لا يعدو على وظيفتى وإن كان أسعد بك حمادة مفتش الحساب بالمدارس الابتدائية يتمنى أن أشغل نفسى بشىء ــ أكثر فائدة من القصص والروايات . كانت مجرد أمنية ولم تكن عائقاً فى زواجى من إلهام ابنته . . ما أطيب الأيام التى قضيتها مع إلهام حب وخصام وتفاهم ومغاضبة وفرح وضيق . كانت تمر على لحظات ونحن فى أول الزواج أحسب فيها أن العالم كله لا يعرف من هو أسعد منى وكانت تمر على لحظات ونحن فى أول الزواج أحسب فيها أن ليس فى العالم أجمع من هو أتعس منى واليوم وأنا أستشرف هذه السنوات البعيدة أراها فى مجموعها فى جملتها فى هنائها وتعاستها فى فرحى بها وشقائى فى إقبالى عليها ونفورى هى هكذا جميعاً سنوات حلوة . . لماذا تحكى الحواديت دائماً أنهما عاشا فى تبات ونبات . . وخلفوا صبيان وبنات . . ما التبات والنبات . . أتراهم يريدون أن يقولوا إن الزواج كان ثابتاً ومثمراً وإلا فما معنى النبات ولماذا تحكى الحواديت عن الزوجين السعيدين حياتهما ضحك وعيشهما هناء . أى نوع من الزواج هذا . إنه زواج راكد كالبركة إن لم تضطرم فيه العواطف من غضب وهدوء ومن إقبال ونفور فهو ليس حياة . بحياتى أفديها إلهام لقد ملأت حياتى حياة . كانت تحب عملى كأديب وتغار فى نفس الوقت من عملى كأديب كانت تحب أن يمدحنى النقاد وتغار فى نفس الوقت أننى حديث الصحف وهى لا يكتب عنها أحد وكانت تحب أن أكون بين الناس وفى المجتمعات

وتغار فى نفس الوقت من أننى أتحدث إلى سيدة وقضيت حياتى وحياتها بين هذا الحب وهذه الغيرة مزاج عذب وفيه حلاوة ومن تفاعلها معاً تصبح حياة لها طعم خاص فيها نكهة ذات معنى وذات لون لا تتسم به حياة زوجين آخرين . ما أبأس الحياة التى تشبه حياة الآخرين . لابد من وجود لون خاص لكل بيت . . لون خاص لا يراه الزائرون ولا الأقارب ولا الأبناء ولكن يحسه الزوج وتحسه الزوجة . . يعرفانه وحدهما . . يعرفان هذا اللون الخاص بهما ويميزانه من بين كل الألوان الأخرى ولا يخطئانه أبداً .

هذه صورة محمد نشرها صديقى الصحفى الكبير على ممدوح فى الاحتفال بالعيد الأول لميلاد محمد . . جاء بعد زواجى بسنة وبضعة أشهر هذا هو محمد . . لو رأى أولاده صورته ما عرفوه أما أنا فأعرفه . . هذا هو ابنى يكبر ولكنه عندى أنا سيظل هذه الصورة . . أم تراه يظل ذلك الطفل الشقى الذى تأبى ملابسه الداخلية إلا أن تظل خارجية ويأبى شعره أن يستجيب لمشط ويأبى وجهه أن يكون نظيفاً وتأبى أصابعه أن تخلو من الحبر ـ أم تراه ذلك الفتى المعجب بنفسه يكثر من التأنق ويكثر من تمشيط شعره ويهتم بحلاقة لحيته التى كانت تعانده فلا تنمو ويهتم بنظافة يديه ويهتم أكثر من هذا جميعاً بالنظر من النافذة معتقداً أننى لا أعلم شيئاً ، جاهلاً أننى تزوجت أمه من نفس الطريق الذى يريده هو أن يتزوج به أم تراه محمد ذلك الشاب النابغة فى كلية الهندسة إن لم يكن أول فصله فهو الثانى وإن لم يكن التقدير ممتازاً فهو جيد جداً . . أم تراه محمد المعيد بكلية الهندسة . . أم تراه محمد الزوج الطيب والأب المتفانى فى حب ابنه وابنته . . أى محمد فى هؤلاء جميعاً هو ابنى محمد . إنه محمد جميعاً . . محمد منذ هو فكرة ومنذ هو يركل أمه حين هو جنين ومنذ هو وليد . . ومنذ هو هذه الصورة التى نشرها صديقى على ممدوح وحتى اليوم . وهو معيد وزوج ووالد . . حلوة هى الأبوة تضم فى حناياها حياة إنسان بأكملها وتظل الحياة حية نابضة يصحبها الأب معه إلى الحياة الأخرى دفئاً يؤنس غربته فى العالم الثانى وقد تبقيه فى الحياة الأولى ذكرى وامتداداً . . هينة هى الصعاب التى يلقاها الأب أمام شعوره بأن له ابناً وأن ابنه يشعر أن له أباً . إن ما يلتقى به الأب من مخاوف على ولده أهون مما يلقاه الإنسان الذى إذا علت به السن لم يجد حوله من يشعره بأنه أب وبأن هناك من يتمنون له طول الحياة . وهذه صورة هند يوم زواجها نشرتها أنا فى المجلة التى أعمل رئيساً لتحريرها مشاعر عجيبة انتابتنى يوم تزوجت هند . . لقد تعودت أن تكون بجانبى دائماً . .

وكنت أحب أن أراها هى وإلهام جالستين تنتظران عودتى . هذه الفتاة الحلوة التى أحبها زميل أخيها المهندس علاء حمدى لم يرها فى الأيام الأولى من ولادتها وعيناها لا يبين لهما لون من القاذورات التى تغشاهما فلم يتضح أنهما زرقاوان إلا بعد أسابيع ، وأسابيع ولم يرها والحصبة تملأ وجهها وتجعلها هزيلة لا تطيق أن تنطق حرفاً وقد كانت لا تسكت أبداً ولم يرها وهى فى المدرسة تتعثر فى العلوم تعثراً وتقف حائرة أمامى إذا وبختها لإهمالها . لم ير علاء من هذا جميعاً إلا هذه الفتاة الجميلة التى تجيد الحديث إذا تحدثت وتجيد تصفيف شعرها وتجيد نقل خطواتها فى

صنعة كأنها الطبيعة أو فى طبيعة كأنها مصنوعة . وهو أيضاً لا يعرف عنها كم هى صادقة واقعية من نفسها . . لا تغش نفسها ولا تحب أن تغش أحداً تقول رأيها فى صراحة وبساطة وهدوء . . يعرف عنها هذا لعله يعرفه ولكن أهذا ما جعله يتزوجها أم العيونِ الزرق والشعر الأصفر والقوام الأهيف من يدرى .

وهذه صورة ابنتها . . جميل أن يكون لأبنائى أبناء ما أسفت على شىء قدر أسفى أننى لم أرزق أطفالاً إلا بعد أن مات أبى . . كنت أريده أن يعيش لأنى لم أعرف كم كان يحبنى إلا حين أحببت أنا أبنائى .

عميق هذا الدرج عميق . وكثيرة هذه الأوراق كثيرة إنها كل ما كتب عنى . . أحق هذا أم الحق فى أمرى لم يظهر حتى اليوم . . سنوات طويلة وأنا أتمنى أن أجلس هذه الجلسة لأقلب هذه الأوراق ما الذى أجلسنى اليوم .

كنت هنا يومذاك وكنت أكتب السطور الأخيرة من روايتى وكنت سعيداً أننى انتهيت منها . . هذه فرحة لم أفقدها أبداً . فرحتى بأننى أكتب . لم أفقد هذه الفرحة أبداً . . فقدت فرحتى بأن ينشر لى كتاب بعد صدور الكتاب الثانى لى ، ولكن فرحتى بأننى أكتب وبأننى أريد أن أقول وانني أقول ما أريد لم أفقدها أبداً بل هى تزيد . دائماً تزيد . . أربعون عاماً أكتب وهذه الفرحة تزيد . جميل أن أكون فى الستين وأجد شيئاً يفرحنى هذا الفرح الطاغى . كنت فرحاً وأنا أضع علامة النهاية فى روايتى وقبل أن أوقع رفعت يدى عن الورقة ووضعتها على المكتب ورحت أقرأ النهاية مرة أخرى قبل أن أحمل اسمى عبء هذه الرواية الكبيرة . فرحت . لقد كانت النهاية كما أردتها أن تكون . فرحت فرحت وأردت أن أوقع ولكن يدى لم تستجب . لقد ظلت مشلولة على المكتب وأبت أن تضع اسمى على نهاية الرواية . أترانى جلست إلى هذا الدرج لأننى أصبت بالشلل ولكن الأطباء يقولون إننى سأشفى . لا . ليس هذا هو السبب . فلماذا جلست إلى درج الذكريات . لماذا . . لماذا . . ؟

●

حلم العمر ..

أنسى كل شيء .. أنسى وجودى وكيانى وأنسى الأمس القريب واللحظة الماضية ووعد اللقاء والصلاة .. أنسى حتى المكان الذى أريد أن أذهب إليه .. أنسى لحظات الخوف، ولحظات الأمل .. أنسى لحظات السعادة ولحظات اليأس، أنسى كل ما تعرضت له فى حياتى الطويلة هذه .. طويلة هى طويلة .. قضيت على سطح هذه الأرض ثلاثة وعشرين عاماً .. لم أشعر فيها جميعاً بهذا الذى يسمونه الملل .. ومن أين يأتى الملل ؟! أما وأنا طفل رضيع فلم أكن أشعر بشىء على الإطلاق ولم أكن أعلن أننى لم أشعر بشىء على الإطلاق .. ووعيت .. ووعيت ومازلت أذكر ما وعته منى الذاكرة وأنا طفل .. كانت جدتى سيدة عجوز وكانت تعطينى نقوداً ولا أذكر ما المصير الذى كانت تنتهى إليه هذه النقود فما كنت أريد شيئاً .. فقد كنت آكل وألعب وأنام .. كنت أعيش فى قرية تقع فى أعماق الريف لا تصل إليها إلا الركائب الحية من حمير وجمال وخيل ولقد قدمت الحمير فى الحديث لأنها كانت تمثل الغالبية العظمى من وسائل المواصلات فى القرية أما الجمال فقد كانت فى أغلب أمرها وسيلة نقل البضائع .. أما الخيل فإن قصتى كلها مع الخيل .. إنه حصان واحد رأيته أول ما رأيته أمام منزلنا .. نسيت أن أخبرك أن بيتنا يقع هو الآخر فى أعماق القرية التى تقع فى أعماق الريف .. وهكذا كان من العجيب أن رأيت هذا الحصان واقفاً أمام باب بيتنا . حصاناً فارهاً طويلاً عليه رجل عظيم مكتمل .. رأيت رأسه فى السماء .. ما هذه الهالة التى كانت تحيط به، كيف استطاع هذا الرجل أن يكون جليلاً إلى هذا الحد .. عظيماً إلى هذا المدى .. جرى إليه كل المحيطين بى !

ـ تفضل يادكتور .. تفضل يادكتور .

كانت جدته مريضة وقد استدعى لها الدكتور من البندر .. لم يتمالك أحمد نفسه أن يسارع إلى داخل الدار يبحث عن أبيه .. كان أبوه مشغولاً بالطبيب الذى يعود أمه ولم يستطع أحمد أن

يصبر فسارع إلى أمه . .

ـ أمه . . ياأمه .

ـ مالك ياولد ؟

ـ أريد أن أكون مثل هذا الدكتور .

ـ ومن أين لنا المال يا أحمد ؟

ـ ولماذا المال ؟

ـ لتصبح مثل هذا الدكتور .

ـ لابد أن أصبح مثل هذا الدكتور .

ـ احفظ أنت اللوح وربنا يقدرنا .

اللوح . . أليس بينى وبينه أن أصبح شاهقاً أركب الحصان ويسعى الناس إلى يوسعون الخطى ويخلون الطريق ويقدمون الاحترام والتبجيل ، ليس بينى وبين هذا جميعه إلا أن أحفظ اللوح . . حفظت اللوح . . واللوح الذى يليه وكل الألواح التى أعطيت لى .

ـ ربنا يحفظك يا أحمد . . خسارة يا ابنى ألا تكمل تعليمك . وقصد الشيخ عبد العظيم إلى شحاتة الحجار .

ـ جئتك من أجل أحمد ياسى شحاتة . .

ـ ماله يا عم الشيخ . . هل قصر فى شىء ؟

أحمد يقصر ؟ ! . . أحمد فى غاية الذكاء يا شحاتة ولابد أن نجعله يكمل تعليمه .

ـ العين بصيرة واليد قصيرة يا عم الشيخ عبد العظيم .

ـ إنه ثروة عمرك يا شحاته . . مهما تترك فلن تترك له خيراً من الشهادة .

ـ وكيف أستطيع أن أعلمه ؟

ـ دبر حالك . .

ـ كله على الله يا عم الشيخ عبد العظيم .

كنت أستمع إلى هذا الحديث . . ومازلت أذكر كيف سارعت إلى الجامع ورحت أبتهل إلى الله أن يجعل أبى يوافق على تعليمى . . حتى تأكدت أن الله استجاب دعائى فسارعت إلى أمى .

ـ أمه . . سأصبح دكتوراً .

ـ كيف عرفت ؟

ـ أبى قال كله على الله وذهبت إلى الجامع فتأكدت أن الله قبل رجائى .

ـ لهذه الدرجة تريد أن تكون دكتوراً ؟

ـ أموت يا امه وأكون دكتوراً .

ـ بعد الشر يا ابنى .. إنما قل لى .. ما السر فى رغبتك الشديدة هذه ؟
ـ لا أعرف .. كل الذى أعرفه أننى أريد أن أكون دكتوراً .
ـ هذا كل ما تعرف ؟
ـ دكتور يا امه دكتور .. أريد أن أكون دكتوراً .
ـ إن شاء الله يا أحمد ستكون دكتوراً .

كانت لبيبة تملك سوارين من الذهب وقرطاً وحلية برقع ذهبت إلى البندر فباعتها جميعاً وعادت لتقول لزوجها :

ـ اسمع يا شحاته .. أحمد لا بد أن يذهب إلى المدرسة .
ـ أجننت .. أنت تعرفين البير وغطاه من أين لنا بالفلوس ؟
ـ لا شأن لك .
ـ ماذا تقصدين ؟
ـ لا شأن لك .
ـ هل بعت الذهب ؟
ـ ماذا يفيد الذهب ؟
ـ كنا نجعله أماناً لنا من الخوف .. من يضمن نفسه .. قد نمرض أو نحتاج لشيء ..
ـ شهادة الولد أهم .
ـ يا لبيبة الطريق طويل وصعب ..
ـ الذى خلقنا لن ينسانا .
ـ توكلنا على الله .
قالت لى أمى :
ـ أحمد كيف ستذهب إلى المدرسة ؟
ـ ماشيا .
ـ الطريق طويل .
ـ أمشيه .
ـ لا يا بنى حرام سأشترى لك حماراً .
ـ الله يطول عمرك يا امه ..
ـ ولكن يا ابنى المسافة طويلة بيننا وبين البندر .
ـ أقطعها فى غمضة عين .
ـ قد تحتاج إلى ساعتين حتى تصل .
ـ وما له .

ـ والمدرسة تفتح الساعة الثامنة . .

ـ وإن كانت تفتح فى الساعة الخامسة .

ـ على بركة الله .

أنسى الأيام الطويلة التى قضيتها على ظهر الحمار . . حين كنت أصحو والليل أسود داكن من يراه يكاد يوقن أن لا صباح بعده . . أسود كان الليل حين كنت أستيقظ لأجد أمى قد وضعت لى رغيفاً وقطعة من الجبن القريش أضعها فى حقيبتى ثم ألبس ملابسى ثم أغسل وجهى ثم أركب الحمار والشيخ عبد العظيم يؤذن لصلاة الفجر . . وما هى إلا دقائق قليلة حتى تشرق الشمس وأستطيع أن أقرأ . . أظل أذاكر حتى أصل إلى المدرسة . . وحين ينتهى اليوم الدراسى أركب الحمار وأظل أذاكر حتى أصل إلى البيت . . ما هى إلا لقيمات ألقى بها فى جوفى ثم أنام . . أنسى الأيام الكالحة بلا لعب مع الأطفال حين أنا طفل ولا سمر مع الرفاق حين أنا صبى يشارف مطالع الشباب ولا لهو من الشباب حين أنا فتى فى زهوة العمر وريق السن . . أنسى الجليد أحس به يسرى فى دمائى نافذاً من وجهى ويدى . . من كل مكان فى جسمى سواء كان هذا المكان كاسياً أو عارياً فما كان الكساء يختلف كثيراً عن العرى . . أنسى اللحظات الموحشة أقطعها وحيداً فى الطريق لا صوت ولا حياة . . كأنما أنا نبتة وحيدة ظهرت فى قفر موحش فى أقطار الأرض . . أنسى الإنهاك ينساب إلى عند عودتى بعد أن أكون قد ركبت الحمار أكثر من أربع ساعات . . أنسى الشباب الذى بلغته وأحلامه وأمانيه فقد كانت لى أمنية واحدة . . أنسى أيام الأجازة التى كنت أقضيها مذاكراً للسنة التى تليها . . أنسى ارتمائى على زملاء المدرسة الذين أعرف أن لهم إخوة فى كلية الطب أستجدى منهم الكتب . . وأثمرت سنوات الاستجداء مكتبة فى الطب وأنا بعد فى المرحلة الثانوية . . أنسى الأجازة التى كنت أنتظر فيها نتيجة الثانوية والتى قطعتها لأقرأ كتب الطب وأنا مبهور الأنفاس ألهث وأنا لا أكاد أصدق أننى سأقرأ هذا الكلام بصفة رسمية . . أنسى اليوم السابق لظهور النتيجة . ركبت الحمار من العصر وذهبت إلى محطة السكة الحديد فى البندر أنتظر وصول النتيجة إلى المدرسة .

قال شحاتة :

ـ مبروك يا أحمد .

ـ الله يبارك فيك يابا . .

ـ ألا يكفيك ما نلته ؟

ـ أريد أن أكون دكتوراً يابا . .

ـ يا ابنى تعبنا .

ـ أكون دكتوراً وأموت يابا . .

ـ يا ابنى لا قدر الله .

وقال شحاتة :

ـ يا عم إسماعيل .
ـ نعم يا سى شحاتة .
ـ القراريط الأربعة التى بجوار أرضك .
ـ مالها ؟
ـ ألا تريد أن تشتريها ؟
ـ أنت تريد الثمن دفعة واحدة .
ـ لا يا سيدى . .
ـ ماذا تريد إذن ؟
ـ تعطى أحمد ابنى ما يحتاج حتى يكمل تعليمه .
ـ تعليمه . . أين ؟
ـ فى الطب .
ـ تريد أن تعلم ابنك الطب بأربعة قراريط ؟
ـ حتى تسدد ثمنها يعين الذى لا ينسى عبده . .
ـ إنك لا تملك غير فدان ونصف فدان .
ـ الله هو المعين .

أنسى أيام الجوع فى القاهرة . . وأنسى . . نعم وأنسى حين تبدت على السطوح الذى أسكن فيه جميلة كالأمل مشرقة كالرجاء . . ابتسمت .

ـ صباح الخير .

تلجلج أحمد كثيراً وهو يقول :

ـ صباح الخير .
ـ وحدك .

وتلجلج ثانية كثيراً وهو يقول :

ـ وحدى.
ـ أتريد شيئاً ؟
ـ لا . . شكراً .
ـ أى خدمة ؟
ـ شكراً . .
ـ أنت خجلان ؟
ـ لا . . لا أبداً .

ـ اسمك ؟
ـ أحمد . .
ـ أحمد فقط ؟
ـ أحمد شحاتة . .
ـ وأنا سميحة .
ـ سميحة ؟ . .
ـ سميحة إبراهيم . . جارتك .
ـ فى البيت المجاور ؟
ـ لا . . فى هذا البيت نفسه .
ـ أهلا وسهلا .

وأنسى . . أنسى حين حاولت سميحة أن تقيم بينى وبينها صلة . . تركت الحجرة والسطوح . . إلى حجرة أخرى على سطوح آخر .

وأنسى أن أبى باع الفدان ونصف الفدان جميعه ، وباع الجاموسة وباع العجلة التى اشتراها بعد الجاموسة ، وباع البيت الذى ورثه عن أبيه واستأجر بيتاً آخر . . أنسى كل هذا . . ولا أنسى أننى أعيش فقط لأسمع الخبر الذى ينتظرنى الآن . . الذى أنتظره أنا . . الخبر الذى قامت من أجله حياتى جميعاً . . نعم أنا هنا أمام الكلية منذ الرابعة من الصباح ، ولولا خجلى من الفراشين والدكاترة لبت ليلتى هذه أمام باب الكلية . . أنا هنا منذ الرابعة لا أجد ما أفعله فى ليلتى هذه أمام باب الكلية . . إلا أن ظل رانيا إلى الباب الذى سأعرف منه الخبر . . الساعة الآن جاوزت الواحدة من الظهر . .

ـ مبروك يا أحمد . . مبروك يا دكتور أحمد . . مبروك يا أحمد .

ولم يجب أحمد أحداً من زملائه ، وإنما خرج من باب الكلية صامتاً جامداً ، وظل سائراً وكأنه حجر يتحرك ووجد نفسه على كوبرى قصر النيل ، وفى هدوء ألقى بنفسه إلى الماء . . وكان يعلم أنه نسى فى حياته التى كرسها لأمله أن يتعلم العوم . .

●

نــوع مــن الــحــب ..

لم تكن تتصور أنه سيصيب هذا النجاح الذى أصابه .. وإلا لمنعته أن يتخذ هذه الخطوة .. فهى لا تتصور أن يعيش معها وهو غير محتاج إليها .. ولا يتصور أن يكون غنيا بدونها ولا تدرى ماذا تقول له .. إنه كان يعتب عليها كلما أنبأها عن نجاح له فتستقبل النبأ بفتور وعدم اهتمام ..

كان يضيق بهذا ولكنها لم تكن تستطيع أن تتصور أنه قادر على النجاح بدونها .. إنها لا تطيق أن يمدحه أحد أمامها .. لا تطيق أن ترى له نجاحاً إلا فى إرضائها .. لقد أخطأت الطبيعة تكوين بيتها .. كانت تريده زوجاً غنياً خاملاً أو فقيراً خاملاً يعيش بما تهب له هى من أموال وليس له حياة إلا حياتها ، وليس له مورد إلا يديها .. وتصنعه هى على يديها .. تشكله كما تشاء .. ولم يكن فى بادىء أمره إلا هكذا .. وماذا ينتظر من فتى فى الثلاثين من عمره لم يحصل على شهادة وإنما وقف بتعليمه عند المراحل الأولى من التعليم ثم خرج يحمل إلى الحياة كمنجة يعزف عليها ويهب لها كل حياته وظل يعزف ولا يسمعه أحد .. وحيد هو وكمنجته بلا معجبين ولا حتى مستمعين ولكنه واثق بنفسه تلك الثقة التى يستطيع بها أبناء الفن أن يشقوا طريقهم إلى الحياة أو إلى الموت .

وكان يذهب إلى الفرق يعرض نفسه عليها فيلتقى هناك بالهزء والسخرية .. كان أضحوكة أبناء الفن .. انقطع عن هذه الفرق وذهب إلى رجل قدير من أبناء الصنعة وانقطع له وتعلم عنه كل ما يعلمه وظن أن علمه فى هذه المرة سوف يحميه من سخرية الساخرين ..

ولكن السخرية استقبلته مرة أخرى ولعلها كانت أشد مرارة وأعمق إيلاماً .

عاد إلى حجرته وحيداً بكمنجته وظل يعزف معتمداً على هذا المبلغ الذى يرسله له ابن

عمه من ريع أرضه .. مستور الحال .. لا يحتاج إلى المال فيعيش .. ولكنه محتاج أن يعيش .. إنه لا يعيش .. لقد كانت الموسيقى هى حياته وقد كانت حياته تلك تصد عنه فى صلف وتتعالى عليه فى كبرياء .

وهو يعزف .

كان يعزف الألم .

وكان يعزف الأمل .

ولم يكن لعزفه من مستمع .

شيء واحد استطاع أن يحافظ عليه .. لقد استطاع دائماً أن يصد اليأس بهذه الكبرياء التى تقود الفنان إلى الحياة أو إلى الموت ..

كان المصير أمامه واضحاً لا غموض فيه إنه الحياة أو إنه الموت ولا وسط لم يكن محتاجاً للموسيقى ليقتات منها فقد كان ريع أرضه يقوته . ولكنه كان محتاجاً للموسيقى لتكون حياته أو تكون موته .

فهو يعزف .

فى البيت الذى يقيم به أختان تقيمان فى الدور العلوى ..

ـ يعجبك عزفه .
ـ لو انقطع عن العزف تهون عندى الحياة .
ـ إلى هذا الحد .
ـ أنت لا تدركين ما يقول فى عزفه .
ـ وماذا يقول ؟
ـ أحس ما يقول ولا أستطيع أن أقوله .
ـ ماذا تحسين ؟
ـ الحياة !
ـ الحياة ؟ !
ـ الحياة كلها وأنا أستمع إليه تطيب لى الحياة ..

أحس أنها جميلة وحلوة وأريد أن أعيشها وأحس أنها جديرة أن تعاش .

ـ هل ترينه ؟
ـ أعرف شكله .
ـ هل تلتقين به ؟

ـ أحب عزفه .
ـ إذن فلا لقاء .
ـ لو تكلم فلن يقول أكثر مما أسمعه منه .
ـ هل تحبينه ؟
ـ أتمنى أن أحبه .
ـ فلماذا لا تحبينه ؟
ـ يهيأ لى أنه ليس من أبناء الأرض الذين يحبون ويحبون .
ـ إنه من أبناء الأرض .
ـ اسمعى موسيقاه أولاً ثم احكمى .
ـ مهما أسمع موسيقاه .. إنه من أبناء الأرض .

ومرض يوماً .. مرضاً لم يكن ذا شأن ولكنه مرض .. وانتظرت الفتاة فلم تسمع وطال بها الانتظار .

ـ من ؟
ـ أنا ..
ـ أنت من ؟
ـ افتح .
ـ أهلاً وسهلاً .
ـ إنها بسيمة .
ـ أهلاً ..
ـ أنت لا تعرفنى ..
ـ أهلاً .
ـ هل أتفضل ؟
ـ تفضلى .
ـ لماذا لم تعزف اليوم ؟
ـ أنت ..
ـ فى الدور العلوى .
ـ و ..
ـ أستمع لك كل يوم .
ـ هل ..
ـ لم أستطع أن أتصور انقطاعك عن العزف .
ـ إذن فـ ..

ـ أظن أنت لا تحتاج إلى رأيى .
ـ بل أنا فى أشد الحاجة إليه .
ـ أليس لك معجبون ؟
ـ أنت الأولى . .
ـ لن أكون الأخيرة .
ـ كنت مريضاً قبل أن تأتى .
ـ إذن فقد شفيت .
ـ لقد ظللت سنوات طويلة أنتظر هذه الجملة .
ـ سوف تمل من سماعها .
ـ لن أمل . . عمرى جميعه ذهب فى سبيل أن أسمعها . . لن أمل .

وكثر مجىء بسيمة إلى حجرتى وبدأت بيننا هذه العلاقة من الألفة التى قد تؤدى إلى الحب . . لم أكن أتصور أنها ستحبنى . . ولكن أختها ـ زوجتى ـ كانت أكثر منى علماً بأختها وبالحياة . . وجدت نفسى مدعواً إلى بيتها . دعانى أبوهما .

بسيمة هى الصغرى وأختها زوجتى هى الكبرى طبعاً . .

لماذا نقول كلاماً لا لزوم له ما دمت قلت إن بسيمة هى الصغرى فما الداعى أن أقول إن بثينة أختها زوجتى هى الكبرى . . كلام كثير لا معنى له ونقوله . . ولكن بثينة لا تقول شيئاً إلا وتريد من ورائه شيئاً آخر . . بثينة زوجتى . . إنى أدرك كل شىء . . أعرف كل ما فى نفسها أنت يا بثينة لم تحبينى فى يوم من الأيام . . لقد وجدت فى ضالتك المنشودة التى تعرفين أنك تريدينها . . شاب من الأرياف أختك تحبه . . وقد كان هذا هو الدافع الأول الذى جعل بثينة تنظر إلى . . مادامت بسيمة تحبه فلا بد أن تحرم بسيمة منه . . ثم هو موسيقى فاشل وسيظل فاشلاً فمادام قد بلغ هذا العمر ولم ينجح فلا نجاح له من بعد . . أستطيع أن أشكله كما أشاء . . أجعل منه زوجاً ولا زوج . . رجلاً ولا رجل . . وهو مستور الحال . . لست أدرى كيف كانت بسيمة تخجل فقد كانت تحبنى وتخشى أن تكثر من النزول إلى حتى لا أكشف حبها . . ولم تكن بثينة تخجل ولا كانت تحبنى فهى تكثر من النزول إلى . . اهتمام كبير بشأنى . . بجميع شأنى . . نعم أعرف . . أعرف يا زوجتى العزيزة كنت تسألين عن تقدمى فى فنى . . اليوم أعرف سبب أسئلتك كان الواضح من السؤال أنك كنت تريدين الاطمئنان على نجاحى . . اليوم أعلم أنك كنت تريدين الاطمئنان على فشلى . . ولم تكن أنباء نجاحى موجودة . . وكانت أنباء فشلى هذه الحاضرة فى ذلك الحين . . وكنت فى هذه الأيام تستطيعين أن تصبغى صوتك بهذه الرنة الأسية الحزينة كانت بارعة أولعلنى كنت مغفلاً خطبتك وتزوجنا . . وعرفتك . . شىء واحد استطعت أن أرغمك عليه . . هو أن أعزف . . وقد

عزفت وظللت أعزف .. وفجأة وجدت نفسى أريد أن أؤلف موسيقى .. وألفت .. ألفت قطعتى الأولى ولم أسمعها لزوجتى فهى لا تريد أن تسمع شيئاً إلا نفسها .. خرجت فى بهيم الليل وهممت أن أذهب إلى بسيمة وأطرق الباب عليها ولكن تذكرت أن أباها فى البيت .. عدت إلى حجرتى القديمة وفتحت نوافذها وعزفت وحين انتهيت سمعت تصفيقاً ولم أقل شيئاً .. رحت أعيد ما عزفت وأعيده حتى بدأ الصباح واتجهت من فورى إلى الإذاعة .

لم أكن أتصور أن هذا « السنكوح » سيصبح فى يوم من الأيام هذا الموسيقار الذى يملأ الدنيا بنجاحه .. لو كنت أعلم ما تزوجته .. إننى أريد زوجى زوجى فقط ولا أريده شيئاً آخر لم تعد بسيمة تهمنى فقد تزوجته ، وقضى الأمر ، ولكن كيف نجح .. ماذا يجد الناس فى موسيقاه .. ماذا يجد الناس .. لماذا لا يتركونه لى .. إنه لم يصبح زوجى لقد أصبح الموسيقار الشهير .. ولكنه أبداً ليس زوجى !

لا .. لا تسعودى ..

أحبك أنت لا تدرين ماذا تعنى هذه الكلمة بالنسبة لى ، وأنت أيضاً تجهلين ماذا تعنيه بالنسبة لك ..

أحبك .. كلمة هينة ما أسهل ما يقولها الناس للناس ، وما أسرع ما ينخدع بها الناس من الناس .. قالها أغلب الأمر أبونا آدم لأمنا حواء .. وقالها لا شك كل الذين اشتركوا فى تكوين هذه البشرية .. وقالها بصوت عال مرتفع ، ظل يدوى عبر الأجيال روميو لجولييت ، وقيس لليلى و قيس آخر للبنى ، وجميل لبثينة ، وكثير لعزة .. ولعل هؤلاء كانوا صادقين .. ولكن آخرين كاذبين قالوها بطريقة فيها شىء من خفة الظل ، أو فيها شىء من الفن ، فانتقلت إلينا أنباؤهم هم أيضاً .. فقد قالها كازانوفا لكثيرات وكثيرات ، وقالها دون جوان لكثيرات وكثيرات ، وقالها أيضاً عمر بن أبى ربيعة لكثيرات وكثيرات ..

قالوا هذه الكلمة البسيطة الثمينة بطرق شتى ، وبأساليب مختلفة ، بأبيات وقصائد وخطابات ، قالوها شفاها ، وقالوها خلجة فى عين أو هزة من رأس ، أو لمسة من يد ، لا شأن لى بهؤلاء جميعاً .. لا شأن لى .. فإنى أحبك .. وأنا الآن فى الثلاثين من عمرى .. يبدو أنك لم تفهمى بعد ما أريد ..

أنا من هواة الأدب والقراءة ، عشت عمرى كله بين الصفحات ولم أقل لواحدة فى العالم أحبك .. هذه الكلمة التى قلتها لك أنت ، وقلتها بعد تردد شديد وخجل أشد ، لم أقلها لفتاة قبلك أبداً ، احتفظت بها عمرى كله لأقولها لك أنت ... هى كلمة عذراء عندى لم يتحرك بها لسانى إلا لك ، ولم تصافح منى أذن فتاة قبل أذنك .. فهى كلمة لم تسمعها من قبلك أبداً .. هى بكر ناضرة جديدة كقطرة من ماء المطر تكونت ونزلت إلى النهر ثم لم تتكرر .. كلمة لم تخلق فى حياتى إلا لك أنت ، خبأها القدر فى حنايا أيامى لم يفض عنها ختمها إلا لتسمعها

أذنك ، ثم هي من بعد لن تقال لفتاة أخرى .. لا لن تقال مني إلا لك أنت .. أرأيت إذن كم هي جديدة كلمة أحبك التي أقولها أنا لك .. هي جديدة وفريدة لا شبيه لها فيما مضى من تاريخها ، ولا أحسب أن سيكون لها شبيه في مستقبلها الطويل الطويل الذي لا شك أنه سيمتد حتى قيام الساعة .. بل إنني أعتقد أن قيام الساعة لن يميت هذه الكلمة التي ستظل تتردد في أنحاء الجنة من أولئك الذين رضي عنهم ربهم إلى الحور العين هناك على ضفاف الكوثر ، وفي رحاب الخمر والعسل ، وفوق السندس والإستبرق .. كلمة تتأبى على الموت ، هذه الكلمة ، ولكن كلمتي أنا التي قلتها لك لا مثيل لها .. إنها تحمل في عروقها نبض الصبا الباكر والشباب الريان والأعوام الثلاثين التي خضتها في الحياة ..

أنت لا شك تذكرين ذلك اليوم الذي قلتها فيه .. تذكرين ... كارثة لو كنت حتى لا تذكرين متى سمعتها وأين وكيف .. كل التفصيلات التي أحاطت بها وهي تنطلق من أعماق شبابي وحياتي .. من ذكرياتي وآمالي لتمر بأذنيك آملة أن يكون مصيرها إلى قلبك ..

لكم تمنيت ألا أكون رئيساً لتحرير المجلة التي تعملين بها .. لكم كنت أتمنى أن تكون كلمتي إليك بريئة من هيبة الرئيس وإعجاب المرءوس ، ولكن ماذا بيدي أن أفعل .. وأي عجيبة في أن يحب رئيس تحرير فتاة لها هذا الوجه المستدير الأبيض الجميل ، وهذا القوام الفارع المفهاف الذي يسير وكأنه نغمة فرحانة . وأي عجيبة في أن يحب رئيس التحرير هاتين العينين فيهما دائماً كلمة تريد أن تقال ، ولكنها تتخفى وراء رموش كستار الغيب ، رقيقة كثيفة تنبىء ولا تفصح ، وتومىء ولا تبين ، وهذا الأنف في وجهك على محياه عبير الحياة ، كأنه لم يوضع مكانه إلا ليستنشق من الدنيا عطرها .. وهذا الشعر تلمينه فهو تاج ، أو ترسلينه فهو عربدة ومرح وحياة .. رأيتك أول ما رأيتك حين انضممت إلى أسرة تحرير المجلة كرئيس لتحرير القسم الأدبي بها .. وكنت تحبين أن تكتبي .. لم تكن قصصك رائعة .. ولكني كنت أنشرها .. لم أكن أنا الذي تبينت أنها غير رائعة ، وإنما القراء وخطاباتهم ، أما أنا فلم أكن أرى فيك أو منك إلا كل رائع وجميل وفنان ، لا .. لست من هؤلاء الناس الذين يفصلون في أحكامهم بين الحب والعمل الفني .. أو أنا على الأقل أمام حبك أنت لا أستطيع أن أكون عادلاً .. لقد أحببت قصتك قبل أن أقرأها وما كان لي من بعد أن أحكم عليها .. ولقد قرأتها لأنه لابد أن أقرأها وقد أعجبت بها .. نعم أعجبت بها فنياً ، وكنت واثقاً حينذاك أنني عادل في حكمي .. ولكن القراء لم يروك .. وأرسلوا خطاباتٍ يبدون فيها عدم إعجابهم ، إنهم لم يروك .. لم تعرفي أنت من أمر هذه الخطابات شيئاً .. بل إنك عرفت عنها غير ما تقوله .. لقد قلت لك مرة في خبث :

— تصل إلينا خطاباتٌ كثيرة عن قصصك ..

وطبعاً فهمت أنها خطابات مديح ، فاعلمي اليوم إذن أنها لم تكن كذلك .. اليوم أريد أن

تعلمى أنها لم تكن كذلك . . على الأقل يجب أن تعلمى أن قصصك لم تعجب القراء . . لم تعجبهم . .

لقد فرحت يوم أخبرتك عن الخطابات . . فرحت كطفلة صغيرة أهديت عروساً كبيرة . .

ورأيت مع الكلمة التى فى عينيك دمعتين طفرتا لم تستطيعى أن تمنعيهما من الظهور . . ولا أدرى أى شجاعة واتتنى حينذاك لا أطلب إليك شيئاً لم أطلبه من أحد قبلك . . تلعثمت وتلجلجت وأنا أقول :

ــ ما قولك فى أن نتعشى معاً الليلة . . ؟

وغاضت الدمعتان فى عينيك أو لا أدرى لعلهما تحدرتا لتختفيا ونظرت إلى نظرة فيها آثار سعادة واضحة وقلت وابتسامة فيها شىء من التحدى على شفتيك :

ــ نعم . . لم لا . .

وحاولت فى هذا العشاء أن أقول ما أردت أن أقوله منذ لقائى الأول بك . . ولكن لم أستطع . . وكانت كلمة أحبك هى أعز ما أقتنيه لأقدمه لحبيبتى . . خشيت أن أقولها لك فلا تجد ما تستحق من تكريم عندك . . وانتظرت . . ولكنى مع ذلك عقدت معك اتفاقاً ما زلت ــ رغم ما حدث ــ أرى نفسى فيه ذكياً حاد الذكاء . . اتفقنا على أن نتناول عشاءنا معاً كلما نشرت لك قصة وجاءت للمجلة عنها خطابات . . وهكذا كنا نلتقى وحدنا بعيداً عن المجلة مرة كل أسبوعين أو كل ثلاثة أسابيع على الأقل ، فقد كانت الخطابات تأتى للمجلة بانتظام غداة ظهور العدد الذى يحمل قصتك . . وأنت الآن تعرفين طبعاً أى نوع من الخطابات هذا الذى كان يأتى للمجلة .

وفى يوم انتهينا من عشائنا وقلت فى حزم :

ــ أريد أن نسير قليلاً بالسيارة . .

ولم تجيبى وسرنا . . ذهبنا إلى الهرم ثم عدنا منه لنسير فى طريق الاسكندرية ، ثم وقفنا قليلاً عند النصب المقام هناك ولم أقل شيئاً ، وقطعت حديثنا المتناثر . .

ــ الدنيا برد . .

فعدنا إلى السيارة ، ومشت بنا ، ولم نتكلم ، ولا أدرى لماذا اتجهت إلى شارع الجبلاية . . نعم إنى أحب هذا الشارع ، وخاصة فى الليل ، ولكنه لم يكن فى طريقنا . . ولم تسألى أنت لماذا اتجهت إليه . . وعند شجرة تسدل فروعها إلى النيل نزلت من السيارة صامتاً ، ونزلت ورائى ، وجلست أنت على الحجر هنا ، والتفت بوجهك إلى الأفق ، وظللت أنا واقفاً وعيناى إلى النيل وطال بى الصمت أو خيل لى أنه طال ، ودون أن ألتفت إليك ، قلت فى هدوء وطمأنينة وثقة :

ـ إلهام .. أحبك ..

ولم تقولى شيئاً ولكنك قبل أن تغادرى السيّارة إلى البيت قلت هامسة :

ـ وأنا أحبك ..

ونزلت ، وظللت أنا ذاهلاً عن نفسى غير مصدق ما سمعت ..

لم تذهب كلمتى التى حفظتها لك طوال السنين سدى .. هى إذن قد صادفت ما كنت أرجو أن تصادف من صدق .. هو الحب الكامل إذن .. سرت بالسيارة ذاهلاً لا أدرى إلى أين ، فكل الطرق التى كانت أمامى أضيق من أن تسع فرحتى .. وسمعت ضجيجاً فى الشارع لم ألتفت له ، وفى إشارة مرور دخل وجه إلى سيارتى وصاح بى :

ـ اقفل الباب ..

وتنبهت حينئذ أن باب سيارتى ظل مفتوحاً كما تركته .. وتمنيت لو أستطيع أن أتركه مفتوحاً كما تركته .. تمنيت أن تتجمد اللحظة التى قلت فيها وأنا أحبك .. تمنيت لو وقف الدهر عندها لا يتحرك .. ملت بسيارتى إلى جانب الطريق ووقفت .. أريد أن أقف لعل الزمن يقف ، وأريد أن أسير .. أن أغمر هذا العالم جميعه بهذه الفرحة التى تعربد فى كيانى كله .. أريد أن أصمت وأسمع همستك وأن أحبك مرة أخرى .. وألف ألف مرة أخرى .. وأريد أن أنادى جميع من يمر بى لأقول له لقد قالت : وأنا أحبك .. أريد أن أفعل هذا جميعه فى وقت واحد .. كيف يمكن أن أقف وأسير ، وأن أسكت وأتكلم .. كم هو عاجز هذا الإنسان .. عاجز أمام فرحته ، كما هو عاجز أمام قدره ..

ظللت واقفاً ولم أشعر بالكون حولى يهدأ حتى خلا بى العالم والنشوة فى صدرى كما هى ، وأفقت على خيوط الفجر الأولى تنساب فى الظلام فى هدوء ودعة .. وأقفلت باب السيارة ووجدت نفسى فى سريرى ولم أنم ..

ومرت بعد ذلك فترة من حياتى .. هى حياتى الحلوة جميعاً .. تجمعت فى هذه الأيام .. لم تقولى لى بعدها أحبك .. ولم أقلها لك ، ولكننى كنت أحس الحب من نغمة صوتك ، من نظرة فى عينيك ، من همسة لا معنى لها ، أو لمسة تبدو كأنها غير مقصودة ..

وكنت كلما أردت أن أقول لك نتزوج تراجعت ، فما كنت أريد حبنا الضخم الكبير يصبح زواجاً فقط .. ولم يكن هناك أكبر من الزواج .. كنت أريد حبى من نوع جديد .. وطالت الأيام بى ولم أقل نتزوج .. كأنما أردت أن أستمتع بكل قطرة من نداء حبنا .. ولم أدر لماذا توقفت عن الخروج معى .. مرة واحدة رفضت أن تخرجى معى رفضاً باتاً قاطعاً .. ثم تركت مواظبتك على الكتابة .. ثم انقطعت عن الجريدة يوماً .. وسألت : أين .. وطالعنى

النبأ الهائل . . اليوم خطبتها . . ماذا . . أمن أجل هذا انقطعت . . لماذا لم تقولى . . لقد كنت أرى حبنا أكبر من كل شيء . . كان الزواج بالنسبة إليه أمراً ضئيلاً هيناً . . كنت أعتقد أننا نستطيع أن نتمم الزواج فى أى لحظة . . كنت أريد أن أتمتع به حباً حراً واسعاً كبيراً غير مقيد بحجم معين . . هو الزواج . .

لماذا لم تقولى . . لماذا ؟ ولماذا لم تقبل أن أتصل بك بعد هذا . . لماذا رددتنى بهذه القسوة حين اقتربت منك أحادثك . . عند باب منزلك . . لويت عنى وجهك ومضيت فى طريقك وكأن الذى كان بيننا كره كبير . . صادق هذا الذى قال : إن أقرب العواطف إلى الحب هو الكره . . لقد كرهتك يومذاك ، كرهاً قدر الحب الذى أحببتك به . . لقد حطمت ذلك الحب الكبير الذى ادخرته لك طوال حياتى جميعاً . . أحسست كرهى يشتعل فى نفسى كسعار من جحيم . . وتبعتك بعينى ، ورأيتك وأنت تنظرين خلفك إلى سيارتى لترى إن كنت قد مشيت أم ما أزال واقفاً . . ورأيتك وأنت تنعطفين إلى الشارع الأيمن ، وأحسست كرهى يملأ نفسى . . وسمعت بوق سيارة من الشارع الذى انعطفت إليه ، تمنيت لو أنها قتلتك . . ولماذا لا . . لقد تمنى هذه الأمنية شاعر قديم . . تمنى لو أنها ماتت حتى يستريح من حبها . . أما أنا فقد تمنيت لو أنك مت لأستريح من كرهى . . ولماذا أتمنى . . لماذا لا أقتلك أنا . . لقد كانت كلمة أحبك التى قلتها لك هى كل ما أدخره من حياتى ، وقد بددتها . . بددت حياتى جميعاً . . لماذا لا أقتلك .

سرت بالسيارة وأوقفتها بعيداً عنك وتركتها ونزلت . . أريد أن أقتلك . . أدفعك أمام ترام فأقتلك . . أو أخنقك إذا لزم الأمر . . سرت خلفك وأنت لا ترينى . . وسرت . . وسرت وفكرة قتلك تزداد وضوحاً فى نفسى . . وفى شارع قليل المرور ، عبرت الشارع دون أن تنظرى ، وكنت وراءك ، ونبتت من الطريق سيارة تغول الطريق ووجدت نفسى دون أن أحس ألقى بنفسى عليك لأنتزعك من براثنها ولتصدمنى أنا السيارة بدلاً منك . .

لا . . لا تعودى فى غد لزيارتى فى المستشفى . . لقد كان ما بيننا حباً لا مثيل له فى الحياة ، ولا أريد أن يصبح شكراً أو عطفاً . . لقد أضعت أكبر شيء أحببته فى حياتى ، وهو حبى ، ولم يبق لى شيء لتنقذيه . . فحتى لو أحببتنى اليوم فليس هذا هو الحب الذى أردت . . لقد كنت أريده حباً خالصاً طلقاً واسعاً سعة الأرض والسماء . . سعة الأمل والحياة . . ولست أنت التى تستطعين أن تقدمى هذا الحب . . فلا تعودى . . لا . . لا تعودى .

●

ثمن المشروب

مهيب هو الشيخ حمدان : طويل فارع الطول ، فى وجهه صلاح ، وفى سمته تقوى ، وفى مشيته جلال ، وفى لحيته خشية ، وفى جبهته علامة الصلاة . أنت لا تعرف مدى التوقير الذى يحظى به الشيخ حمدان فى قريته ميت ريحان من أعمال مركز الدلجمون التابع لمحافظة الدقهلية . والأطفال فى القرية يعظمون الشيخ حمدان ، فإذا مر بهم وكانوا يلعبون الحكشة توقفوا عن اللعب مخافة أن تضرب الكرة فى رأس الشيخ حمدان أو عمامته . . وإذا مر بهم وكانوا يتصايحون تخافتت أصواتهم . وإذا مر بهم وكانوا جلوساً وقفوا ، فهكذا يرون كبارهم يفعلون . والنساء فى القرية يحطن الشيخ حمدان بآيات لا حصر لها من الإجلال . فهو عندهم رجل القرية الأول ، إليه يلجأون فى الملمات الكبرى من حياتهم ــ فإذا أغضب زوج زوجته لا تجد قدما الزوجة طريقاً تسير فيه إلا الطريق الذى يقود إلى بيت الشيخ حمدان ، وإذا قست حماة على زوجة ابنها لجأت الزوجة المجنى عليها إلى الشيخ الجليل . وإذا استطالت زوجة على حماتها فالحماة لا تشكو الزوجة إلى ابنها وإنما هى تشكوها إلى الشيخ حمدان . .

ورجال القرية جميعاً لا يعرفون ملاذاً لهم إلا الشيخ حمدان ، فإن نضب الماء فالشيخ حمدان ، وإن عدا جار على جار فالشيخ حمدان ، وإن عتا موظف فظلم فالشيخ حمدان ، بل العمدة نفسه يلجأ إلى الشيخ حمدان كلما استعظم عليه أمر أو تعقدت أمامه مشكلة . . الشيخ حمدان على صلة وثيقة بأهل الحل والربط ، فهو يعرف مأمور المركز ، ويبلغ به الشأن أنه عرف فى يوم ما الحكمدار وهويعرف أطباء المستشفى ووكلاء النيابة . . ومفتش الصحة ومعاونى الزراعة . .

نعم أعرفهم جميعا ولكن ماذا يعود على من معرفتهم . بل ماذا يعود على من هذا الاحترام وهذا التوقير . . سجن فظيع من الاحترام هذا الذى يحيطوننى به لا أريده . . لا . .

لا أريده . . ولكن هل أستطيع أن أرفضه . . كيف أقول للناس لا تحترمونى . . لا أستطيع . . إننى أمثل عندهم أملاً دائماً . إنهم إذا ألم بهم ضيق ذكرونى فينفرج الضيق . . ماذا أقول لهم ؟ أنا لا أحب هذا التوقير الذى يحرموننى به ولا أطيق منه فكاكا فى الوقت ذاته . . أنا فى القرية أسير احترامهم ، سجين تكريمهم ، حبيس آمالهم . . ولكنى أيضاً إنسان لى آمالى وأحلامى ولى صبواتى ومزاجى . . لم يكن لى بد إذن من هذا الذى أفعله . لا يهمنى شىء ما دمت بعيداً عن عيونهم وعن علمهم . . نعم فى المدينة . . فى المنصورة ألتقى هناك بصديقى عمران السيد يهيىء لى الليلة الحمراء . الكأس الحلوة تحيطه كل ما تهفو إليه نفسى من جلسة ممتعة وحديث . ثم هو يهيىء أن ألعب الورق ، أنت تعرف طبعاً أننى ألعب الورق منذ كنت أتلّقى علومى بالقاهرة ، ظريف صديقى عمران ، وهو كتوم للسر لا يذيعه . . فما يعرف من أمرى أحد فى القرية ، رغم أن عمران كثيراً ما يأتى لزيارتى فى القرية ، وهو أمام البلدة من ذوى النفوذ الذين ألجأ إليهم إذا حزب أمر أو استعصت مشكلة . وهو فى اختياره لزملاء الورق حريص كل الحرص . فهم قلة لا تزيد على اثنين هو ثالثهم ، أو ثلاثة هو رابعهم . ونشرب ونلعب حتى يشق الفجر أسداف الظلام فأعود إلى القرية فما يشك أهلها لحظة فى أننى ركبت السيارة عقب صلاة الفجر مباشرة .

لا أستطيع أن أظل سجين آمال أهل القرية . . ثم إننى بما أتيحه لنفسى من متعة أستطيع أن أحل لهم مشاكلهم ، فلولا هذه المتعة ما صفا ذهنى ولا أصبحت نفسى سمحة كريمة تسمع لهم فتطيل الاستماع ، وتصغى فتحسن الإصغاء فى غير ضيق ولا ضجر . . إن الكؤوس التى أشربها من أجلهم هم . . وما أنا ؟ . . ألست أملهم . . حلمهم ، وفرجهم عند الضيق ، وبشراهم عند الشدة . . ولكن ما هذا الحديث الذى تسوقه . . ماذا تريد أن تقص ؟ . .

الشيخ لا يعرف ما أريد أن أقص عليك ، ولكن سيعرف عما قريب فلا تعجل عليه ، لنترك الشيخ قليلاً ونلقى نظرة على عمران ، فهو شريك الشيخ فى قصتنا . . عمران السيدموظف بمصلحة الطب الشرعى بالدقهلية ، وهو من أسرة أغلب أفرادها على ثراء ، وإن كان هو بريئاً من هذا الثراء . . كان يملك فدانين وثمانية قراريط باعها جميعاً واكتفى من الحياة بمرتبه وما يكسبه من القمار . . وعمران رجل وجيه يحب أن يصادق الأثرياء ذوى الوجاهة ويحب أن يقترن اسمه بالأعيان وأصحاب الشأن . والغريب أنه استطاع أن يصل إلى هدفه هذا مع الفقر المدقع الذى يعيش فيه .

فعمران حريص دائماً على أن يرتدى حلة نظيفة وقميصاً ورباط عنق أنيقاً ما وسعته الأناقة . ولم يكن وسعه فى الأناقة كبيراً . وعمران متزوج وذو أولاد . ولكن الأسرة لم تكن تكلفة من أمره شيئاً فمرتبه جميعاً لمزاجه والأولاد ترعاهم أمهم بالمرتب الذى تتقاضاه من وظيفتها ولكن إذا مرض طفل لهما لم يكن عمران فى هذه الحالة يستطيع أن يمنع قلبه من هذا

النبض العنيف ، ولا كان يستطيع أن يرد عن نفسه هذه الغصة التي تعتصر المشاعر جميعها . حينئذ كان يبذل ما يستطيع من مال ، ربك هو الذى يستر . آخر جنيه معى دفعته ثمناً للدواء وقعدت فى القهوة لا أملك مليماً وكنت أعرف أن زوجتى قد أنفقت ما معها جميعاً على مرض ابننا محمود . فالبيت ــ والحمد لله ــ ليس فيه مليم وجيبى أكثر فقراً من بيتى وأنا فى المقهى على الحميد المجيد لا أملك شيئاً . . نعم أستطيع أن أطلب فنجان القهوة ، فهو على الحساب . بل أستطيع ــ إن شئت ــ أن أطلب كأس كونياك فهو على الحساب أيضاً . ولكنى لا أستطيع أن أشترى سيجارة ، فالسجائر ليست على الحساب ، وفجأة أقبل الشيخ حمدان فذعرت . . فأنا لا أقبل أبداً أن يطلب لى أحد شيئاً ولا أرده له . وأنا أعرف أن الشيخ حمدان يحب أن يشرب فى هذا المقهى كأسين أو ثلاثة من الكونياك فى هذه الحجرة البعيدة عن الأنظار . ومعنى هذا أننى سأضطر أن أشتري له من الكونياك قدر ما يشترى لى . . هكذا خلقت . مهما يكن الفقر الذى أعانيه لا أقبل أبداً بحال من الأحوال أن يأتى لى أحد بمشروب ــ مهما يكن ثمنه غالياً ــ ولا أرده له .

جاء الشيخ حمدان وحيا . .

ــ لماذا تجلس هنا ؟
ــ وأين تريدنى أن أجلس ؟
ــ ألا تعرف ؟
ــ آه . . تقصد الحجرة ؟
ــ فهمتنى .
ــ الدنيا حر . . اقعد هنا قليلاً فى الهواء .
ــ أى هواء ياشيخ . قم إلى الغرفة الداخلية . . الهواء فيها أحسن .

ــ الهواء أم الكونياك ؟
ــ اسكت . . لا تفضحنى .
ــ يا عم الشيخ حمدان اقعد وصل على النبى .
ــ اللهم صلّ عليك يانبى . وهل تظن أننى جئت من ميت ريحان لأجلس فى الهواء . . إن كان عن الهواء فهواء ميت ريحان أحسن من هنا ألف مرة .

ــ ولماذا لا تشرب هذا المدعوق فى ميت ريحان وتخلصنا ؟
ــ هل جننت . . ألا تعرف ماذا أنا هناك ؟
ــ أعرف . . أعرف .
ــ قم يا أخى إذن ولا تطل . .

وقمت ودخلنا إلى الغرفة وأنا أدعو الله ألا يطلب الشيخ ريحان أكثر من كأس أو كأسين ولكن المصيبة أن نهمه للخمر فى هذا اليوم كان لا نهاية له ولذلك توقفت أنا عن الكأس الثالثة وتركته هو يكمل وحده وشرب .. وشرب وراح يتكلم وأنا أفكر فى جيبى الخاوى .. يا أخى فعلاً ربك هو الذى يستر ..

ــ هل جئت خصيصاً من أجل الشرب ؟

ــ لا .. كان عندى شغلة .. إنما قل لى .. هل سنلعب الليلة ؟

ــ نلعب ؟

ــ نعم نلعب .

هى فرصة فعلاً .. أستطيع أن أستلف من الشيخ حمدان جنيهاً أو اثنين ألعب بهما وأدارى الفقر الذي أعانيه .

ــ نعم نلعب ولماذا لا ؟

ــ هيا بنا .

ــ إلى أين ؟

ــ نلعب .

ــ الآن ؟

ــ وما عيب الآن ؟

ــ لم يحن الوقت .

ــ ننتظر إذن ؟

ــ طبعاً ننتظر . هل معك نقود ؟

ــ كثيرة .

ــ كثيرة ؟

ــ لا أعرف عددها .

ــ لا تعرف عددها ؟

ــ وشرفك لا أعرف عددها .

ــ كيف ؟

بعت ذرة وبعت أرزاً وكان معى مبلغ كبير لا أذكر كم . ووضعت الفلوس على بعضها البعض ولم أعد .. الله يسترك يا عمران عد الفلوس لأننى أصبحت لا أستطيع العد .

ألم اقل لك ربك هو الذى يستر .. أخرج من جيوبه ما فيها من جنيهات ورحت أعد .. الرجل سكران وهو لا يعرف ماذا فى جيبه وهو سيلعب الورق . أين أجد فرصة مثل هذه فى العمر كله .. كان المبلغ أربعمائة وأربعة وسبعين جنيهاً .. صححت المبلغ .. جعلته أربعمائة

وأرجعته له . . وناديت خادم المقهى ودفعت له ثمن الكونياك الذى طلبته فأنت تعرف طبعاً أنى لا أقبل مطلقاً أن يشترى لى أحد مشروباً ولا أرده له .

أهذه هى الحكاية التى تريد أن تحكيها ؟ لقد عرفت جزءاً منها ولم تعرف البقية . . ألها بقية يا عم الشيخ ؟ لا بد أن تعرف البقية . .

ذهبنا فى هذه الليلة ولعبنا حتى أوشك الصبح أن يطلع فقمت إلى السيارة وأخذتها إلى ميت ريحان ونمت ليلتى وفى الصباح عن لى أن أعد فلوسى فأنا أعرف أن المبلغ الذى كان فى جيبى حوالى خمسين جنيهاً تنقص جنيهاً أو اثنين ، وقبضت عربون الذرة مائتين وخمسة وعشرين جنيهاً وقبضت عربون الأرز مائتى جنيه وخسرت فى اللعب ثلاثين جنيهاً فكان يجب أن يكون معى أربعمائة وخمسة وأربعين جنيهاً قد تنقص جنيهاً أو اثنين ، ولكنى وجدت المبلغ ثلاثمائة وسبعين جنيهاً . طبعاً عرفت أن عمران طمع فى الفرق وأخذه . . اتصدق بالله لم أسأله . إنه رجل حساس إذا سألته سيغضب وإذا غضب لن أجد من يشاربنى الكأس ولا من يجىء لى اللعب . . كتمت الأمر لم أقله إلا لك الآن . . ولكن قل لى من أخبرك أنت ؟ لعله عمران . . نعم فهو دائماً يحب أن يفخر بأنه لا يمكن أن يسمح لأحد أن يقدم له مشروباً ولا يرده . . إنه فعلا لابد أن يرد المشروب . . رجل طيب عمران وكريم وحساس ، الله يجازيه .

●

● السـباحة فى الرمال

لحظة سعادة

كان سعيداً منشرح الصدر وهو يفكر . . كانت لحظة من هذه اللحظات القليلة التى يشعر فيها الإنسان أن الحياة تعطيه بقدر ما يريد منها أن تعطيه ودون أن يدرى السبب راح يفكر فى السبب الذى بث فى نفسه هذه السعادة التى يشعر بها وما لبثت هذه الفترة أن بعدت عن مسار تفكيره . . وما لبث أن قال لنفسه انى سعيد لأنى سعيد . . . وأخشى ما أخشاه أن أبحث عن أسباب سعادتى وانقلب بفعل يدى تعيساً وأسباب التعاسة دائماً أكثر وفرة من أسباب السعادة . . وهل هذا كلام رجل سعيد . . . إنه كلام أى إنسان ولكنك لست أى إنسان . إنك رجل سعيد . . . حسناً فلأظل سعيداً إذن دون محاولات سخيفة لتعمق أسباب السعادة . . . هل هى قليلة لحظات السعادة هذه إلى هذا الحد . . . هل هى قليلة لدرجة أننى أقتنصها من الحياة اقتناصاً ولا أحاول حتى أن أبحث أسبابها وما دعت إليه . . .

إنى سعيد بزوجتى . . . ولكن سعادتى بها لا تكون لى لحظات سعادة . . . أنا أحبها وأعلم أنها تحبنى . . . وهى شريفة بحكم تكوينها وهى تعمل دائماً على إسعاد بيتها وليس بينى وبينها إلا هذه المشاجرات التى تدل على أننا أحياء ولو أنها مشاجرات كثيرة وعنيفة فى بعض الأحيان مما ينبىء على أننا أحياء جداً . . . ولكنها جميعاً مشاجرات طبيعية لا بد أن تنشأ بين اثنين نشأ كل منهما فى بيت ثم جمعهما بيت واحد يعلمان أنهما سيقضيان فيه ما بقى لهما من حياة . . . قد تشعر هى بالضيق أحياناً أو قد يشعر هو بالضيق أحياناً وقد تكون هذه الأحيان كثيرة وقد تتلاقى هذه الأحيان من الضيق فتكون مشاجرة لو بحث كلاهما أو أحدهما عن سببها لا تضح على الفور مقدار سخافتها .

لماذا أفكر فى كل هذا . . . من أجل لحظة سعادة . . . ألم تكن لى لحظات سعادة كثيرة وأنا طفل . . . لماذا يقول الناس طفولة سعيدة . . . أظن السعادة هنا يقف وراءها الجهل . .

إنهم سعداء لأنهم لا يعرفون كيف يكونون تعساء . . . ولكنى مع ذلك أذكر فى طفولتى لحظات سعيدة . والآن فقط أدرك أننى كان يجب أن أعتبر طفولتى سعيدة . . . يبدو أن الأطفال يعتبرون سعادتهم قضية مسلما بها لا تقبل النقاش . . . فحياتهم مهما تكن سعيدة يعتبرونها هم عادية . ولا يذكرون منها إلا لحظات السعادة الخارقة للعادة ولحظات التعاسة العادية . . كانت لحظات سعادتى هى تلك الأوقات التى أقضيها فى قراءة القصص . . . قصص الأطفال . كنت أحس أننى أعيش فى عالم آخر غير هذا الذى أعيش فيه .

لماذا يعتبر البعد عن العالم الذى أعيش فيه سعادة . . . لماذا يقول الناس هذا دائماً كلما أحبوا أن يعبروا عن سعادتهم . . . هل العالم الذى نعيش فيه سيىء إلى هذا الحد وإن كان سيئاً أهو هكذا بالنسبة للأطفال . . . لماذا يحبون أن يعبروا إلى عوالم أخرى من قصص علاء الدين والسندباد وعلى بابا والأربعين حرامى وقصص الجان وغيرها وغيرها .

والكبار . . . ألا يتشبثون بعالم آخر . . . ما الحياة عندنا إذا كانت هى هذه الحياة فقط . . . سبحان خالق الناس . . . عرف نفوسهم وعرف حياتهم فوعدهم بحياة أخرى يلقون فيها السعادة التى لم يعرفوها من الدنيا . . . ولكنى الآن سعيد . . . لحظة . . . أو لحظات ثم تعود الحياة حياة . أقصى ما أطمع فيه منها ألا ترزأنى بلحظات تعاسة وتصبح أيام الملل والوتيرة الواحدة سعيدة . . . سعيدة لأنها ليست تعيسة . . .

إننا نبحث فى حياتنا هذه عن السعادة من أى سبيل . . . نرى السعادة فى نظرة إلى أبنائنا . . . فى أبنائنا . . . فى ابتسامة على شفة لهم . . . فى ضحكة . . . فى مجرد جلوسهم أمامنا مشغولين عنا بالنظر إلى التليفزيون .

ما السعادة التى يهبها لنا أطفالنا . . ما هى ما قبل الرعب الذى يلقون به فى نفوسنا . . . الهول المبين الذعر الأخاذ الوبيل . . . إذا مرض أحدهم أو إذا وهمنا أن مرضاً يهدد واحداً . . . وحين يزول المرض وحين يزول الوهم تعود نفوسنا إلى الصفاء وتعود إلينا السعادة . . . ما أعظم الثمن الذى ندفعه لقاء السعادة من أطفالنا .

ويل لى لحظة سعادة واحدة تفعل بى هذه الأفاعيل . . . ماذا أحاول أن أعرف . . . هل فرض على فرضاً أن أبحث عن سبب هذه السعادة . . . ألا يكفينى أنى سعيد . . .

لنبحث أولاً . . . ما هى أعراض السعادة التى أعانيها . . . ويلى ألا أعرف أعراض السعادة أهذه أيضاً تحتاج إلى شرح . . . ألا أعرف هذه الإشراقة التى تشيع فى النفس فإذا النفس بهجة وإذا هى متطلعة إلى المستقبل الوردى الصافى وإلى الحاضر وكأن سعادة العالم تجمعت فيه . . . هذه هى حالى الآن . . . لماذا . . . وما يهمك لماذا ما دمت سعيداً . . . ألا تخشى أن تفقد سعادتك وأنت تبحث فى هدوء دون هذا البحث السخيف . . . ونتفلسف أيضاً

وتريد أن تظل سعيداً . . . يقولون إن الفلاسفة هم السعداء بل يقولون إن السعداء هم الجهلاء . . كلا القولين غير صحيح . . . فأنت سعيد ولست جاهلاً إلى درجة أن يقال عنك جاهل ولست فيلسوفاً إلى درجة أن يقال عنك فيلسوف . . . ولكننى لست سعيداً . . . ماذا هل فقدت السعادة . . . أقصد أننى لست سعيداً سعادة الفلاسفة ولا الجهلاء . . . كل ما فى الأمر أننى أشعر بلحظة سعادة . . . لعل لقاءك بالأمس مع سهام أمدك بهذه السعادة . لقد أحسست بالسعادة فعلاً فى لقائى معها ولكن اللقاء كان يشغلنى عن الشعور بالسعادة . . . وانتهى اللقاء وعدت إلى حياتى اليومية ومرت بى لحظات رضى ولحظات ضيق فلا شأن لسعادتى الراهنة بلقائى مع سهام . . . هى حبى وهى الوحيدة فى هذا العالم التى تستطيع أن تمسح عن نفسى حمولها وآلامها وأنا أسعد بلقائها وأهب لها كل ما تريد ولكن الحياة تلاقينى بعد ذلك وأرى فيها الخير وأرى فيها الشر وأحيا كما يحيا الناس حتى التقى مرةأخرى بسهام . . . فهذه السعادة التى أحسها إذن سعادة جديدة من نوع آخر ينتابنى بلا مقدمات ولهذه أبحث عن أسبابه . . . ألا بد أن تبحث . . . رجعنا ثانية إلى هذا الحديث . وهل السعادة مع سهام خالصة أتحبنى لنفسى أم لما أقدمه لها من مال . . . إننى أقدم المال وأسعد . . . لا شىء يهم بعد ذلك . أم تراه يهم . . . ؟ !

لعلك سعيد لهذه المرافعة الرائعة التى قدمتها فى قضية الأمس . . . أهى المرافعة الوحيدة التى رضيت عن نفسى فيها . . . إننى أعمل فى المحاماة منذ سنوات طويلة ويقولون إننى محام ناجح وأعرف أننى ناجح ومعرفتى هذه تجعلنى ألتقى بكل قضية وأنا أحتشد لها وكأننى محام ناشىء ثم أحتشد لها وورائى تاريخى الطويل فى ساحة القضاء . . . أرى أنك بدأت ترافع . . . طبيعة . . . ماذا أفعل فيها . . . المهم أن لحظة السعادة التى أمرح فيها الآن لا صلة لها بمرافعتى .

اسمع . . . ألا يجوز . . . مجرد فكرة لا تسخر منها . . . ألا يجوز أن يكون حديثك التليفونى مع صديقك إسماعيل قد أرسل إليك بهذه اللحظة السعيدة . . . أرى أنك بدأت تخرف . . . إننى كثيراً ما أحادث الأصدقاء ولا شك أنهم يرسلون الدفء إلى قلبى ولكن لو أننى شعرت بهذه لمجرد حديث مع صديق لأصبحت حياتى كلها سعادة بلهاء . . . سعادة لا قيمة لها لأنها ستصبح سعادة غبية سخيفة .

اسمع . . . طالما سمعت . . . اسمع ولا تعقب . . . إنك سعيد لأنك سعيد . . . أهذا آخر ما وصلت إليه . . . ما أشد سخفك بل أنت السخيف . . . أرأيت أنك تريد أن تفسد على سعادتى . . .

اسمع إننى لن أبحث عن السبب . . . إنى الآن سعيد ولا يهم لماذا . . . إنى سعيد وكفى . . .

السباحة فى الرمال

كان البحر هادئاً ولكن الشاب الذى يسبح فيه خائر القوى فهو يرفع رأسه يلقف نفسه ثم تغوص رأسه مرة أخرى فيمد يديه يرفع يديه لا تجدان إلا الفراغ وتهويان مرة أخرى خائرتين إلى المياه ويعود رأسه يشرئب فى يأس ويهوى فى عجز إلى الماء .

أنا لا أجيد السباحة . لو حاولت أن أنقذه مت أنا وهو لا محالة نظرت حولى فوجدت شاباً فتياً يجلس فى زورق على الرمال ويحرك مجدافين فيمسان الرمال فى رفق ثم يرتفعان إلى الهواء والفتى ماض فى عمله هذا وكأنما يجدف فى الماء وكأنما يفضى إلى مكان يعرفه . فإن نظرت إليه خيل إليك أن الهدف أمامه واضح لا شك فيه .

وارتفع صوت الفتى الذى يغرق فى اليم . . . إرتفع فى يأس يطلب النجدة ومزقت صرخته كل نفس ولكن الفتى فى الزورق لم يلتفت إليه وظل يجدف وكأنه فى عالم آخر .

ــ ألا ترى هذا الذى يغرق ؟

ــ أراه وأعرفه .

ــ أتعرفه ؟

ــ إنه أبى .

ــ أبوك ؟ !

ــ وأخى .

ــ وأخوك ؟ !

ــ وأمى .

ــ وأمك ؟ !

ــ وزوجتى .

ـ وزوجتك ؟ !
ـ وابنى .
ـ وإبنك ؟ !
ـ وابنتى .
ـ وابنتك ؟ !
ـ وكل ماضى وكل مستقبلى .
ـ فلماذا لا تذهب إليه بالزورق ؟
ـ هذا الزورق لا يسير فى الماء .
ـ إن الزورق لم يخلق إلا للماء .
ـ ولكن هذا الزورق لا يسير فى الماء .
ـ وأنت ألا تستطيع أن تنقذه . . . ألا تستطيع أن تعوم ؟
ـ أنا أحسن سباح فى العالم .
ـ فلماذا لا تنقذه ؟
ـ أنا لا أسبح إلا فى الرمال .
ـ إن الرمال لم تخلق للسباحة .
ـ وهل خُلق الماء للسباحة ؟
ـ إن السباحة هى التى خلقت للماء
ـ فأنقذه .
ـ لا أستطيع .
ـ لماذا ؟
ـ إن أحداً لم يدعنى .
ـ هأنذا أدعوك .
ـ ومن أنت ؟
ـ بشر .
ـ ولكن ماشأنك ؟
ـ إنسان يغرق .
ـ وهل أنت مسؤول عن كل إنسان يغرق .
ـ إننى مسؤول عن كل إنسان .
ـ من الذى ألقى عليك هذه المسئولية ؟
ـ إنسانيتى .
ـ مغرور .

ـ إنه وقت النقاش .
ـ أبوك وأمك وزوجتك وابنك وابنتك وأخوك وماضيك ومستقبلك جميعهم يغرقون وأنت تناقش .
ـ أنا لا أعرف إلا النقاش .
ـ فأعطنى هذا الزورق .
ـ قلت لك إنه زورق للرمال فقط .
ـ أعطنيه ولا شأن لك .
ـ لا تستطيع الاقتراب منه .
ـ سأحاول .
ـ لا تحاول .
ـ بل لا بد أن أحاول .

واقتربت من الزورق ولكن شيئاً جعلنى أقف ولا أستطيع الاقتراب من الزورق ورحت أدفع جسمى بكل قوتى ولكن بدون جدوى والفتى فى الزورق يجدف وكأن شيئاً لا يحدث والفتى فى البحر يغرق ويصرخ من حين إلى آخر ولكن بلا جدوى هو الآخر .

ـ أنا لا أستطيع فعلاً أن أقترب منه ولكنك أنت فيه فلماذا لا تنزل به إلى البحر .
ـ لقد أجبتك .
ـ حاول .
ـ لا أستطيع .
ـ ويغرق هؤلاء جميعاً ؟
ـ أنا أفعل كل ما أستطيع .
ـ أنت تجدف فى الرمال .
ـ هذا هو كل ما أستطيع أن أصنعه .
ـ سأصرخ .
ـ اصرخ .
ـ لعل أحداً يسمعنى .
ـ سيسمعك الكثيرون ولكن أحداً لن يجيب صراخك .
ـ لماذا . . . ماذا يجرى للناس ؟
ـ إن إنقاذه فى يدى أنا وحدى .
ـ فلماذا لا تنقذه ؟
ـ أنا أفعل كل ما أستطيع .
ـ أنت لا تفعل شيئاً .

ـ هذا هو كل ما أستطيع .
ـ إنه فى البحر وأنت على الشاطىء .
ـ هذا قدره وقدرى .
ـ لا تتكلم عن القدر .
ـ إنه قدره وقدرى .
ـ الجبناء وحدهم الذين يرمون أخطاءهم على القدر .
ـ المنطق العادى يحكم أفكارك .
ـ وأنت لك منطق ؟
ـ إننى أستخدم منطقى هنا .
ـ وهل منطقك يجعلك تملك الزورق ولا تنقذ به أحداً ؟
ـ لأن هذا الزورق خلق للرمال فقط .
ـ أهذا منطق ؟
ـ منطق لا تعرفه .
ـ منطق جديد ؟
ـ جديد أو قديم . . . لا أدرى وإنما هذا هو المنطق الذى أعرفه .
ـ ويغرق فى البحر .
ـ لعله ينقذ .
ـ كيف ؟
ـ إذا قدر له أن ينقذ فسوف ينقذ .
ـ كم كنت أرجو أن أكون قادراً على إنقاذه .
ـ وما الذى يمنعك ؟
ـ لا أعرف السباحة . . . أو أنا على الأقل لا أجيدها .
ـ فحاول .
ـ وإذا غرقت معه ؟
ـ تكون قد أرضيت ضميرك .
ـ وضميرك أنت ؟
ـ لا شأن لك بضميرى . . . أرح أنت ضميرك .

وهممت أن أنزل إلى الماء ولكن ثقتى أننى لا أجيد السباحة ردتنى ونظرت إلى الفتى يغرق ونظرت إلى الفتى يجدف فى الرمال وأوليت الجميع ظهرى وانصرفت . . .

حكاية رجل بخيل

نشأ كما ينشأ أمثاله جميعاً من الأثرياء فى الريف . فلم يكن ذا شأن فى هذا الحين من الزمان فكان بحسب الطفل من هؤلاء أن يختم القرآن فى الكتاب وأن يتعلم أصول الحساب وقواعده فإن كان ذا ميل شديد للدراسة أرسله أبوه ليكمل تعليمه فى القاهرة فإن لم يكن فهو مقيم بجانب أبيه فى القرية يعين أباه فى شئون الحقل ويصبح من أعيان قريته فإن كان صاحب عقلية راجحة وكلام منمق ، وإذا كان كريماً يحسن استقبال الناس ولقاءهم أصبح من أعيان المركز . فإن كان واسع الثراء صاحب شخصية يمكن أن تكون مرموقة أصبح من أعيان المديرية أو من أعيان البلاد جميعاً إذا رشح نفسه فى مجلس شورى القوانين الذى أصبح بعد ذلك مجلس النواب أو مجلس الشيوخ .

وهكذا اكتفى عبد القادر فهمى بأن يختم القرآن فى قريته الهدارة من أعمال مديرية بنى سويف بالصعيد كما تعلم قواعد المحاسبات على يد ميخائيل أفندى شفيق كاتب دائرة والده .

وكان عبد القادر يجد فى مكتبة أبيه بعض الكتب القديمة فقرأها أبناء القرية المتعلم منهم وغير المتعلم فأصبح يحسن الإنصات .

وقد اعتمد عليه أبوه فى أعمال الحقل والمحاسبة فكان يقوم بعمله خير قيام . فعلى الرغم من سعة الأرض وكثرة المحاسبات كان عبد القادر على علم بكل خافية من شئون الفدادين التى تبلغ ألفى فدان . وما لبث أن أصبح هو وحده القائم بأمر الأرض وكان أبوه يكتفى بأن يأخذ الريع آخر العام . وكان أبوه يعطيه راتباً شهرياً خمسين جنيهاً . ولم تمر إلا سنوات أربع حتى فوجىء الأب بابنه يشترى مائة فدان .

ـــ من أين دفعت الثمن ؟

ـ من مرتبى .
ـ ألا تصرف منه شيئاً ؟
ـ ولماذا أصرف .
ـ ألا تحتاج إلى شىء ؟
ـ الأكل فى البيت .
ـ والملبس ؟
ـ تشتريه أنت فى كل عام .
ـ ولكن مرتبك لا يكفى لشراء الأرض ؟
ـ لقد اتفقت مع البائع على أن أسدد له خمسين جنيهاً كل شهر .
ـ وأنت .
ـ إن سألتك شيئاً لا تعطه .

ولم يعرف الأب إن كان يفرح بابنه هذا المدبر أم يحزن ولكنه تركه وشأنه وإن كان قد أزمع فى نفسه أن يعجل بزواجه فقد حزر أنه لو تركه دون زواج ما تزوج أبداً وخشى فهمى بك عبد المتعال أن تنقطع ذريته لتدبير ابنه ولا يحب أن يقول لنفسه نتيجة لبخل ابنه .

ـ أريد أن أزوجك .
ـ كم سيكلفك الزواج ؟ .
ـ ليكلف ما يكلف .
ـ أعطنى تكاليف الزواج ولا تشغل أنت نفسك .
ـ هذا ما أخشاه . . . إنك ابنى الوحيد فلو تركتك وشأنك ما تزوجت أبداً .
ـ أنت مصمم إذن ؟
ـ كل التصميم .
ـ أمرك .

واختار الأب العروس فتاة من أسرة عريقة بالصعيد لابنه وخطبها دون أن يراها هو أو ابنه فقد كانوا فى ذلك الحين يتزوجون من الأسرة العريقة ولا يهم أن تكون الزوجة جميلة أو غير جميلة . أما عبد القادر فقد ارتاح للزواج حين علم أن أبا زوجته يملك ألفى فدان وليس للعروس إلا أخ واحد ولم يكن محتاجاً لعلمه الواسع بالمواريث ليعرف أنها سترث عن أبيها إن آجلا أو عاجلا ما يقرب من السبعمائة فدان فقد كانت أمها متوفية . إلى جانب بيت فخم بالقاهرة . وعد الأب أن يكون من نصيب الابنة لأنه أعد لأخيها قصراً آخر بالقاهرة أيضاً . وتزوج عبد القادر وعاش هو وزوجته نفيسة فى بيت أبيه وكانا يذهبان أحياناً إلى بيت أبيها بالقاهرة . وكان الأب يعرف تدبير ابنه فكان هو الذى يعد لسفرهما إذا سافرا وكان الأب يعطى

لنفيسة مبلغاً من المال لتشترى به ما تشاء من القاهرة خوفاً من تدبير ابنه الذى لا يحب أن يسميه بخلاً ـ إذا هو أعطاه المال دون زوجته .

وحتى ذلك الحين لم تكن مواهب عبد القادر قد تكشفت فأبوه هوالذى ينفق عليه وعلى زوجته ولكن نفيسة لاحظت على زوجها عدم عنايته بملبسه فكانت هى التى تعتنى بها كما لاحظت أنه لا يعتنى بنظافة جسمه فكانت تصر أن تفرض عليه النظافة فرضاً ويخضع هو صاغراً . فقد كان ذهنه جميعاً منصرفاً إلى القيام بشأن الأرض وتدبير مبالغ لشراء أرض أخرى .

ولم يطل الأمر بالزوجة فقد توفى أبو الزوجة وأثبت عبد القادر وجوده الرائع فى المحافظة على حقوق زوجته فاستخلصها كامله غير منقوصة واراد أن يبيع بيت القاهرة ليشترى بثمنه أرضاً ولكن زوجته التى بدأت ترى بوادر حقيقته الفذة أصرت أن يبقى لها بيت القاهرة .

ـ لا تنس إننا ننتظر ابننا وسيحتاج إلى تعليم ولن نبقى فى القرية طول عمرنا .

واقتنع . أو هو لم يكن يملك إلا أن يقتنع فقد أصرت الزوجة على موقفها .

ـ وشىء آخر .

ـ ماذا أيضاً .

ـ أريد مائة جنيه شهرياً من ريع أرضى .

ـ ماذا ؟

ـ هذا خير من أن أكتب توكيلاً لأخى سلامة ليدير هو الأرض .

ـ وكأنما هددته بالموت بل لعل الموت بالنسبة إليه أهون من هذا التهديد .

ـ ولك هذا أتريدين شيئاً بعد ذلك ؟

ـ افعل بعد ذلك ما تريد .

فقد ضمنت هى أن تعيش ولا شأن لها بزوجها بعد ذلك . . . فقد كان كثير الحديث عن رغبته فى التملك وكانت تخشى أن تجوع هى وأولادها فى سبيل أن يزيد عبد القادر من أملاكه . وأنجبت ابنها الأول ورآه فهمى بك واطمأن على أن ذريته باقية ثم مات .

مات وانفرد عبد القادر بالأرض وبدأت مواهبه تظهر على حقيقتها .

ـ مصاريف البيت ياعبد القادر .

ـ والمائة جنيه التى تأخذينها ؟

ـ هذا من مالى .

ـ وهل لك مال ولى مال ؟

ـ اسمع إما أن تدفع خمسين جنيهاً فى الشهر مصاريف البيت أو . . .
ـ لا تكملى . . .
ـ إذن . . .
ـ سأخبرهم فى الدائرة أن يصرفوا لك خمسين جنيهاً كل شهر .
ـ ولماذا لا تعطينى أنت ؟ .
ـ وأنت ما شأنك .
ـ خبايا البيوت لا يجوز أن تعرفها الدائرة .
ـ أنت تأخذين هذا المبلغ رغم أنفى ويدى لا تطاوعنى أن أدفعه .
ـ أنت حر .

وأصبحت الدائرة تعطى نفيسة خمسين جنيهاً فوق المائة وانطلق عبد القادر يبحث عن الأرض رحلة طويلة يقطعها كل يوم يمر بالأرض ويستخلص كل مليم يمكن أن يستخلصه كل ما يهمه ألا يدفع وأن يجمع .

حين مات ميخائيل كان لا بد له أن يعين كاتباً جديداً .

ـ كم تأخذ يا ابنى فى الشهر ؟
ـ كم تدفع
ـ ثلاثة جنيهات .
ـ وهل هذا معقول ؟
ـ ستسرق أنت عشرة فليكن مرتبك ثلاثة .

المهم ألا يدفع . وقد كان يدرك أن الكاتب سيسرق على كل حال مهما يغدق عليه فى المرتب فليستفد هو من المرتب وليسرق الكاتب بعد ذلك .

كانت الأموال السائلة التى تركها أبوه تكفى لشراء ألف فدان فاشتراها وأصبحت أملاكه فى بنى سويف ثلاثة آلاف فدان وأخذ نفسه ألا ينفق هو على نفسه شيئاً وقد كان رداؤه رداء المشايخ فهو يلبس العمة والجبة والقفطان جرياً على عادة أعيان الصعيد . وقد كان أبوه هو الذى يشترى له الملابس فلما مات أبوه أصبح لا يشترى شيئاً وقد جاهدت نفيسة جهداً شاقاً أن تجعله يشترى لنفسه بعض الملابس فكان جوابه الوحيد والدائم :

ـ لك المائة والخمسون جنيهاً وليس لك بعد ذلك شيء . وأصبح الأولاد ثلاثة وهو لا شأن له بهم . وضاقت نفيسة بالقرية وبزوجها .
ـ أريد أن أذهب إلى القاهرة .
ـ وأنا .

ـ أنت حر .
ـ لن تأخذى مليماً واحداً أكثر مما تأخذين .
ـ لا أريد شيئاً فقط أريد أن أذهب إلى القاهرة .

ومنذ ذلك الحين أصبحت تسلية عبد القادر إذا خلا به الليل أن يفتش عن القمل فى ملابسه ويقتله وأن يرتق هذه الملابس حتى لا تبين عما تحتها من قذارة أو حتى يسلى نفسه فما كان يهمه أن يبين منه القذر .

وفى يوم اشترى أرضاً وكان لا بد أن يسجلها بالقاهرة فذهب إلى بيت زوجته وصعد إليها فى الطابق الأعلى ورأت هيئته الجديدة فصرخت :

ـ ماذا بك ؟
ـ ماذا .
ـ ما هذا الذى تلبسه ؟
ـ ملابس .
ـ ألا يغسلها لك أحد .
ـ لقد تركتنى .
ـ عشرة قروش لأى فلاحة تغسل ملابسك .
ـ أنت لا شأن لك بى .
ـ إلى هنا ولى شأن . . .يا محمد . . . يا حسين .
وجاء الخادمان . . .

ـ هذا الشيخ لا يصعد إلى الطابق الأعلى إلا بعد أن يستحم بالطابق الأسفل وتغير له ملابسه .

ـ لن أشترى أى ملابس .
ـ سأشتريها أنا .

ومنذ ذلك اليوم أصبح عبد القادر لا يستحم ولا يغير ملابسه إلا إذا زار بيته فى القاهرة وقليلا قليلا ما كان يزور بيته فى القاهرة .

(يشترى أرضاً بالمنصورة)

كان لا بد أن يكون لعبد القادر أصدقاء . . . وقد كان له أصدقاء فعلا . . . وقد أحسن اختيارهم انهم السماسرة وقد كان مع السماسرة أميناً فى المعاملة لا حباً فى الأمانة ولكن حباً فى عقد الصفقات الرابحة . وقد كان عبد القادر يعطى السمسار حقه كاملا غير منقوص وغير زائد

أيضاً بطبيعة الحال . وقد دله سمسار على صفقة مع رجل ألمانى يملك أرضاً بعزبة قريبة من المنصورة كان الألمانى مهتماً بها غاية الاهتمام فقد بنى بها بيتاً أرضيته من الخشب الباركيه وبنى بها بيتاً آخر لناظر العزبة وأجرى الماء فيها داخل قنوات من الأسمنت المسلح وبها ترولل يمر على كل شبر من الأرض وقد كانت العزبة تستطيع أن تجد مشترياً خيراً من عبد القادر فعبد القادر لا يعنى بالبيت المنشأ . ولا يهمه فى شيء كيف يجرى الماء ولا يهمه أيضاً أن يلف العزبة راكباً الترولل فإن قدميه عن الترولل .

ولكن استفاد من وجود هذه الأشياء أن صاحب العزبة كان مهتماً بها والواقع أن فى إطلاقنا على الأرض كلمة عزبة ظلماً كبيراً لها فهى تفتيش واسع مساحته ألف فدان . والفرصة التى أتيحت لعبد القادر أن صاحب التفتيش يريد أن يبيعه فى أسرع وقت وأن يحصل على الثمن كاملاً .

فحين قصد السمسار إلى عبد القادر قصد إليه وهو يعلم أنه يكاد يكون الشخص الوحيد الذى يجد معه المبلغ كاملاً .

كان الفدان يساوى فى ذلك الحين مائتى جنيه ولكن عبد القادر الذى أدرك الموقف استطاع أن يشترى الفدان بمائة جنيه والبائع لم يجد حيلة للمناقشة فأين يجد رجلا يملك مائتى ألف جنيه جاهزة ويريد أن يشترى أرضاً لعله كان يجد له لو كان ملك فسحة من الوقت ولكن لا وقت . وهكذا إنقض عبد القادر على الصفقة انقضاض النسر . وسافر فى سيارة المالك الألمانى وطاف بالأرض طوافاً سريعاً ولم يلق أى اهتمام بالبيتين ولا بالترولل ولا بقنوات الماء . واستطاع أن يخفى فرحته باتساع الأرض فقد كان عبد القادر يملك وجهاً فريداً فى نوعه فإن رأيته خيل إليك ..
أنه يلبس على وجهه قناعاً من المطاط الرقيق لا تبين فيه خلجة فرحة ولا نأمة سرور ولا علامة حزن وإنما هو وجه بلا أى تعبير ولولا إفرازات عينيه التى لا تنقطع عن جوانبها لتأكد لديك أنه يضع هذا القناع اللهم إلا إذا أمسكت بوجهه لتتأكد أنه بشرة آدمية لا صناعة فيها . . . وما أظنك ستفعل فإنه بملابسه التى توحى إليك بمقدار قذارته يمنعك إن كنت ممن يحبون النظافة أن تفعل ولهذا لم يكن غريباً على أحد عظماء الصعيد ما كان يفعله مع عبد القادر كلما ذهب لزيارته فقد كان يجلس فى آخر الحجرة وما يكاد يلوح عبد القادر عند الباب حتى يعاجله عظيم الصعيد بقوله :

ـــ عندك وقل ما تريد .

ولم يكن عبد القادر يغضب لكرامته فمسألة الكرامة عنده ليست ذات بال . كان يقف ويقول ما يريد ويقضيه له العظيم أولا يقضيه حسب الموضوع المطروح .

وكان عبد القادر يسخر من العظيم فى نفسه فهو يملك آلاف الأفدنة بينما العظيم مدين مع غناه لأنه كان ينفق أكثر من إيراده على وجاهته .

وهكذا طاف عبد القادر بالتفتيش وعاد إلى القاهرة . وإياك أن تظن أن معنى عودته إلى القاهرة أن يعود إلى بيته . إنه كان يبيت فى لوكاندة بسيدنا الحسين تؤجر فيها الغرفة بعشرة قروش وكان يستأجرها الغرفة كاملة لمبيته وكان يجد هذا أوفر من ذهابه إلى البيت فقد تطالبه زوجته بمال . . إنه لن يعطيها ولكن المطالبة نفسها لا يطيقها ثم هو سيواجه على كل حال بهذا الحمام والملابس وقد كان لا يحب أن يلبس هذه الملابس النظيفة لأنها قد توحى للناس بغناه وهذا فى ذاته سبب كاف أن يبقى على نفسه هذه الملابس المهلهلة . . . ثم بماذا سيتسلى إن لبس النظيف من الثياب وتركه القمل الذى يجمعه آخر الليل إذا خلا به الليل .

عاد إذن إلى القاهرة وأصبح الصباح فكان هويستقبل إشراق الشمس مع أن موعده مع البائع كان فى الرابعة من بعد الظهر . . . نزل من اللوكاندة فأفطر وكان إفطاره رغيفا من العيش وبنصف قرش طعمية ثم دلف إلى مسجد الحسين نتوضأ وصلى الصبح . . وظل جالسا بالمسجد لا يصنع شيئا حتى إذا اقترب موعد صلاة الظهر قام قاصدا مسجد السيدة زينب ليصلى الظهر . وهناك وجد متصدقا يوزع العيش والفول النابت على فقراء المسجد . . الحمد لله لقد أتانا غداؤنا . . . ولم يكن الموزع ليجد أصلح من عبد القادر فى مظهره ليتصدق عليه مما يتصدق به على الفقراء . . وهكذا تناول عبد القادر غداءه بل وأخذ أيضاً خمسة تعريفة كانت ضمن النذر الذى يوزعه المتصدق . وفلسفته بسيطة لا تحتاج إلى نقاش . . . خير جاء لى من عند ربنا ، هل أرده .

(أول زيارة لتسلم الأرض)

عبد القادر لا يعرف من درجات القطار إلا الدرجة الثالثة وأظن أننا نكون سخفاء لو حاولنا أن نسأله عن الدرجتين الأخريين . . ولكنه يجيب على كل حال . . . ألا تصل الدرجات الثلاث فى وقت واحد . فى هذه الليلة لم يشأ أن يبيت فى اللوكاندة فقد حزم أمره أن يأخذ القطار الأول إلى المنصورة فما معنى أن ينفق عشرة قروش فى اللوكاندة فلماذا إذن خلقت هذه الأرائك المنشورة فى محطة مصر فإن لذعه البرد فالبركة فى الجبة يتغطى بها وينام ليلته فى المحطة

ويوفر ثمن اللوكاندة وأجرة تذكرة الترام من الحسين إلى المحطة . . . فوائد كثيرة يجنيها من بياته على هذه الأريكة وقد فعل . ومن المنصورة استقل قطاراً آخر أنزله فى أقرب محطة من التفتيش . وأقرب محطة من التفتيش تبعد عنه ثلاثة كيلو مترات يستطيع أن يمشيها . فقد أخذ

درساً من صاحب حمار كان يحاول يوماً أن يستأجره ، كان ذاهباً إلى إحدى تفاتيشه ونزل بأقرب محطة من التفتيش وكانت المسافة بعيدة بعض الشىء خمسة كيلو ووجد فلاحاً ومعه حمار فركب الحمار وحين استقر عليه نظر إلى الفلاح .

ــ كم تأخذ لتوصلنى إلى التفتيش ؟

وكان الفلاح يعرفه ويعرف سمعته العريضة .

ــ خمسة قروش .

ــ صاغ .

ــ كثيرة .

ــ اسمع سأدفع لك ثلاثة تعريفة .

ويبدو أن الفلاح لم يكن معجباً به ولا بما يسمعه عنه فإذا هو يدفعه دفعة قوية تلقيه عن ظهر الحمار ليصبح طريحاً على الأرض ويقول له :

ــ والله لا أوصلك حتى لو دفعت خمسين قرشاً .

ومنذ ذلك تعلم ألا يستأجر حماراً إلا عند الضرورة القصوى . وقد كان يستطيع فى يومه هذا الذى يزور فيه تفتيش الألمانى لأول مرة أن يكلمهم بالتليفون فقد كان بالتفتيش تليفون وكان يستطيع أيضاً أن يرسل لهم تلغرافاً لينتظروه بالحنطور الذى كان ضمن ما اشتراه فى التفتيش ولكن المكالمة التليفونية أو التلغراف كان لا يمكن أن تكون مجاناً أما المشى فإلى جانب أنه رياضة فهو أيضاً لا يكلف شيئاً .

كان القائم بشأن التفتيش عمدة الناحية وكان رجلا وجيهاً يحب أن يعيش فى رغد عيشة كريمة لا بخل فيها فهو محترم فى منطقته يحظى بتقدير الفلاحين وأعيان الناحية .

ولم يكن المفتش حاضراً فى المرة الأولى التى جاء فيها عبد القادر ليطوف بالأرض ولكنه طبعا عرف أنباء الزيارة جميعاً ولم ينس من قصوا عليه هذه الأنباء أن يصفوا له المشترى الجديد . ولم يكن محتاجاً لهذا الوصف فقد كان رجل مجتمع وكانت أنباء عبد القادر أو معظمها قد وصلته .

كان المفتش جالساً مع الكاتب والخولى وبعض الفلاحين حين أقبل عليهم عبد القادر فى ملابسه الرثة .

ــ السلام عليكم .

ودون ريث تفكير قال المفتش .

ــ يعطيك ربنا يا عم الشيخ .

ولم تهتز كرامة عبد القادر فهى قد عودت هذه النظرة ولم يعد صاحبها يهتم بمثل هذه التفاهات للناس أن يقولوا وأن يفعلوا ما يشاءون وله هو أن يتمتع بمتعاته الخاصة كما يشاء .

ـ أنا عبد القادر فهمى .

وانتفض الجميع وسارع المفتش الذى كان يغمزه أحد الفلاحين فى يده بعد فوات الوقت .

ـ لا مؤاخذة يا سعادة البك اللى ما يعرفك يجهلك .

ـ لا مؤاخذة ولا يحزنون هيه كيف الحال .

وجلس وطلب دفاتر الحسابات واستأذن المفتش لحظة ونادى أحد الفلاحين وانتحى به ناحية .

ـ اذهب إلى البيت واطلب إليهم أن يذبحوا أوزة ويجهزوا الغذاء .

ـ إنه لا يستحق .

ـ يا جدع اخرس إنه صاحب التفتيش .

ـ خسارة فيه .

ـ اجر ولا تتلكع .

ويذهب الرسول إلى البيت ويعود المفتش إلى مجلسه مع عبد القادر ويبدأ عبد القادر فى مراجعة الحسابات وينتهى النقاش بأن يطلب منه المفتش مائة وخمسين جنيهاً قيمة إصلاحات لأدوات زراعية واستهول المبلغ .

ـ ولكن الزراعة محتاجة لهذه الأدوات .

فظل يناقشهم ويعنف بهم فى النقاش حتى نزل بالمبلغ إلى ثلاثين جنيهاً .

وحينئذ كان الغذاء قد أعد ووجد عبد القادر نفسه أمام وليمة هائلة وقد كان أكولاً مع أن فلسفته لا تتفق مع هذه الصفة فيه فقد قال يوماً لأحد الكبراء :

ـ يا باشا يقولون عني بخيل .

فقال الباشا :

ـ والله يا شيخ عبد القادر نعم يقولون هذا .

ـ هذا غير صحيح .

ـ أتظن ذلك ؟

ـ البخيل هو الذى تشتهى نفسه الشيء ولا يشتريه أما أنا فنفسى لا تشتهى شيئاً وقد كانت هذه الفلسفة جديرة أن تجعله غير أكول ولكنه ـ والشهادة لله ـ فى الولائم ذو فن عريض فهو

عليم بالمأكولات يحسن تذوقها ويتناول منها مقادير لا يمكن أن تتناسب مع جسمه الضئيل الهزيل .

فحين وجد نفسه أمام هذه الوليمة التى أعدها له المفتش هش وسجحت نفسه وهم أن يمد يده ولكنه فجأة تذكر أشياء على جانب كبير من الأهمية . إنه فى تفتيشه ولعل هذه الوليمة تظهر له فى المرة القادمة بدفاتر الحسابات . وثنى يده الممدودة ونظر إلى المفتش .

ـ العزومة دى على حسابى أم على حسابكم .

والواقع أن المفتش كان قد أعد الوليمة على حسابه الخاص ولم يفكر مطلقاً أن يحاسب الشيخ عبد القادر عليها ولكنه أمام هذا السؤال تملكه غيظ شديد فنظر إليه فى ضيق وضجر وقال :

ـ على حسابك .

ـ ومن قال لكم ان معدتى تحتمل هذا الأكل ؟

ـ والله لا نعرف طبعك .

ـ لا ، أنا لا آكل إلا اللبن الرائب .

ـ أمرك .

وأحضروا له اللبن الرائب وراحوا هم يأكلون الوليمة فى نهم مغيظ . وحين انتهى الغذاء هم الشيخ عبد القادر بالقيام .

ـ ألحق القطار .

ـ أمرك ولكنك لم تدفع الثلاثين جنيهاً .

ـ آه نسيت خذ .

وأخرج من جيبه عشرة تناولها المفتش صامتاً معتقداً أنه سيرسل له باقى المبلغ وأمر بتجهيز العربة واستقلها الشيخ عبد القادر وركب معه المفتش وفى منتصف الطريق فاجأه الشيخ عبد القادر بأن أخرج من جيبه عشرة جنيهات أخرى وأعطاها له فقال فى نفسه لعله كان ناسياً أن معه عشرة أخرى وحين وصلوا إلى المحطة فاجأه بأن أعطاه العشرة الثالثة وهو يقول :

ـ صعب أن أخرج ثلاثين جنيهاً دفعة واحدة .

(هو وزوجته)

ضاقت به زوجته فهو يأبى أن يزيد ما يعطيه لها عن المائة وخمسين جنيهاً وقد أصبح الأولاد خمسة ثلاثة أولاد وبنتين والأولاد يتعلمون فى الجامعة وهى تريدهم أن يلبسوا أحسن الثياب

ما دام أبوهم قادراً والبنتان اقتربتا من سن الزواج ولن يقدم أحد على الزواج بأحدهما وسمعة أبيهما تملأ الآفاق .

وقد انقطع عبد القادر عن البيت تماما منذ عرضت عليه زوجته هذا الحديث . فهو طبعاً لن يزيد مرتبها وهو يعلم أنها قد تهدده بنزع الأرض من تحت يده فوجد أن خير ما يفعله أن ينقطع تماماً عن البيت . ولكن السيدة زوجته لم تسكت فقد أرسلت فى طلب أخيها سلام وسرعان ما جاء كان هو أيضاً يكاد يموت من الخجل مما يسمعه عن زوج أخته وقد كان يتوق أن يذهب إلى أخته ليحادثها فى أمره ولكنه كان يمنع نفسه خشية أن تظن أنه طامع فى إدارة أموالها كما كان يريد أن يربأ بنفسه أن يتدخل من تلقاء نفسه بين الزوجين . فحين أرسلت إليه أخته وافقت الدعوة هوى نفسه .

ـ ماذا نصنع يا أخى ؟

ـ يا أختى إن لم يكن أصيلاً فيجب أن نكون نحن أصلاء .

ـ أنت لا تحتاج إلى أن أحدثك عن شىء .

ـ أخباره تملأ الدنيا ويتندر بها الناس فى كل مكان .

ـ يا للفضيحة .

ـ فى الصعيد فى القاهرة فى المنصورة .

ـ المصيبة ماذا أصنع مع الأولاد ؟

ـ أنا تحت أمرك .

ـ تحت أمرى أيكون أبوهم بهذا الثراء ونأخذ منك مالا .

ـ ترى ماذا تريدينى أن أفعل ؟

ـ المصيبة الكبرى البنتان . . لقد أشرفتا على سن الزواج .

ـ اسمعى أنا أستطيع أن أصنع الكثير .

ـ اصنع .

ـ قبل أى شىء نرسل إليه أتعرفين طريقه ؟

ـ أعرف الذى يعرف طريقه ؟

ـ من ؟

ـ الحاج أحمد هلال من المنصورة .

ـ من هذا ؟

ـ سمسار يلازمه أغلب الوقت وقد طلبته مرة فجاء ورجوته أن يكلمه . .

ـ وبماذا أجاب ؟

ـ عاد الرجل الطيب خجلان لا يعرف ماذا يقول فقد رفض أى حديث فى الموضوع .

ـ ولماذا يلازمه ؟
ـ والله لا أدرى ولكن يبدو أنه ينتفع منه فهو سمسار وهو الذى يتولى له بيع المحصولات كما يعرض عليه شراء بعض الأراضى كلما وجد فرصة المهم أنه يلازمه أغلب وقته .
ـ هل تستطيعين أن تستدعى الحاج أحمد هلال ؟
ـ إن له محل إقامة على الأقل .
ـ ألا تقولين إنه يلازمه ؟
ـ نعم ولكنه يبيت كل ليلة فى بيته ما لم يكن معه فى القاهرة .
ـ أتعرفين أين يبيت زوجك إن كان فى القاهرة ؟
ـ فى سيدنا الحسين .
ـ فى أى لوكاندة ؟
ـ وكيف أعرف ؟
ـ يبدو أنه لا سبيل إلى الحاج أحمد هلال فليس من المعقول أن نطوف بلوكاندات الحسين نسألهم عن عبد القادر .
ـ هل معك نمرة الحاج أحمد هلال ؟
ـ أتيت بها من دفتر المنصورة وقد طلبته منها فى المرة الأولى .

وجاء الحاج أحمد هلال وقال سلامة :

ـ أيرضيك ما يصنعه عبد القادر ؟
ـ إنه لا يرضى أحداً .
ـ أنت صديقه ؟
ـ أولاً يجب أن تعرف سعادتك أنه لا يجب أن يكون له صديق .
ـ وأنت ؟
ـ أنا أعمل معه .
ـ مجرد عمل .
ـ أنا سمسار وهو غنى يبيع محصولاً ويشترى أطياناً .
ـ فلست صديقاً .
ـ صديق . . . اسمع .
ـ ماذا ؟
ـ سأروى لك حكايتين .
ـ حكايات ؟
ـ لتعرف إن كان يمكن لمثله أن يكون له صديق .
ـ إنك تلازمه .

ـ وتلك هى المصيبة . . . فى يوم اجتمعنا حوله ثلاثة سماسرة فى قهوة حقيرة بالمنصورة ننتظر إقفال البورصة لنزايد على الإقفال ويقدم كل منا العلاوة المناسبة لنشترى قطنه . . . أتعرف كم قنطاراً كان يبيعها فى ذلك اليوم .

ـ كثير طبعاً .

ـ ألفى قنطار .

ـ عظيم .

ـ تأخر الإقفال .

ـ هيه .

ـ جعنا . . . الساعة قاربت الثالثة .

ـ لم يفكر طبعاً أن يدعوكم للغداء .

ـ انتظر .

ـ إنى منتظر .

ـ نحن فى قهوة حقيرة الغداء لن يكلفه أكثر من خمسة قروش أربعة أرغفة بقرشين صاغ وبثلاثة صاغ طعمية . كانت كافية ونحن نعرف أنه بخيل ولم نكن ننتظر أكثر من ذلك .

ـ معقول .

ـ وكلنا كان خجلاً أن يدعو الآخرين على الغداء فهذا لا يجوز فى وجود رجل فى غناه سيبيع فى جلستنا ألفى قنطار .

ـ معقول أيضاً .

ـ استأذن منا عبد القادر بك وغاب . . .

ـ إلى أين ذهب ؟

ـ انتظر . . . قلت لزملائى إنى أفكر فى شيء وأنا واثق منه قالوا ماذا ؟ قلت انتظروا ذهبت إلى المرحاض . . . أتتصور مرحاضاً فى قهوة حقيرة . . . رائحته تملأ المنطقة كلها لا القهوة وحدها . . . للمرحاض فتحة مستديرة فى أعلى الباب لا أعرف لوجودها سبباً وجدت عبد القادر بك يخرج من جيب الصديرى لفة بها طعميتان ومن الجيب الآخر شقة عيش وأنت تعرف أن نظره ضعيف فلم يرنى وراح يتناول غداءه هذا فى المرحاض حتى لا يضطر لدفع القروش الخمسة التى تكفى غداءنا وتقول صديق . . .

ـ أعوذ بالله . ولماذا تسير معه ؟

ـ ألم أقل لك لماذا ؟

ـ ألم أعوذ بالله .

ـ اسمع .

ـ حكاية أخرى .
ـ ألعن وأضل سبيلاً .
ـ ماذا ؟
ـ ذهبت لأبيت معه فى لوكاندة بسيدنا الحسين رجوته أن يغيرها فأبى وكنت مضطراً أن ألازمه لأن صفقة هامة كانت تنتظرنا فى الصباح الباكر من اليوم التالى . وكانت عينه اليمنى مصابة برمد حاد . فحين دخلنا اللوكاندة نادى الخادم وقال له اذهب إلى الصيدلية القريبة واشتر قطرة وقطارة وبنكلة قطناً سأله الخادم بنكلة قال نعم بنكلة . ذهب الخادم وعاد بالأشياء ورأيته يعطى الخادم شيئاً فعجبت فليس هذا من عادته . قبض الخادم على ما أعطاه وخرج دون أن ينظر فيه ولم تمر لحظة إلا وفتح الخادم الباب وقال له « ماذا أعطيتنى يا عم الشيخ » فقال عبد القادر بك « نكلة » فقال الخادم « إذن فإنى لم أخطىء لقد اعتقدت أننى أخطأت . خذ يا عم الشيخ النكلة خسارة تنفعك » وخرج الخادم ولم أجرؤ أن أسأله عما فعل ولكنه هو قال « بنى آدم لا يملأ عينه إلا التراب . . . ماذا يريد . . . أيريد فداناً لأنه اشترى لى بضعة أشياء من الصيدلية » قلت « الفرق كبير حبتين بين النكلة والفدان » يا عبد القادر بك . قال : « كلكم مجانين تبعثرون من أموالكم فى الكلام الفارغ والله لو أعطيته جنيهاً ما قنع « بنى آدم لا يملا عينه إلا التراب » قلت تعال لنرى عينك أولا « وقطرت له فى عينه المريضة جففت القطرة بقطعة من القطن وألقيتها إلى الأرض قال « ماذا فعلت » قلت « رميت القطنة » قال « أنت جننت » قلت « لماذا » قال « ألن تقطر فى العين الثانية » قلت « نعم » قال « فلماذا رميت القطنة » قلت « حتى لا تصاب العين السليمة من العين المريضة » فإذا به يقول غاضباً « يارجل حرام عليك خسارة القطن . كلكم مجانين » . أتستطيع بربك أن تقدر لى ثمن قطنة مقطوعة من قطنة ثمنها نكلة . وتقول أصدقاء فى هذا اليوم قال لى حكمة عجيبة . قال إن أحد المليونيرات فى الغرب قال راقب الملاليم أما الجنيهات فسوف تراقب نفسها وتقول لى صديق . . . يا سعادة البك زوج أختك لا يعرف معنى كلمة صديق هذه أبداً .
ـ يا سيدى أنا آسف المهم .
ـ أنا تحت أمرك فى كل شىء إلا فى مسألة أختك .
ـ لماذا ؟
ـ حين كلمته فى المرة الفائتة كاد يضربنى والحقيقة أنا أستفيد منه فصفقاته كثيرة وأنا آخذ حقى فى السمسرة وأنا لا أضمن أن أجد زبوناً مثله .
ـ إذن أخبرنا أين نجده ؟
ـ هو ليس فى المنصورة .
ـ فأين تظنه يكون ؟
ـ لعله فى القاهرة .

ـ إذن دلنا على مكانه فى القاهرة .
ـ هذه سهلة .
ـ وذهب سلام إليه فى اللوكاندة فوجده يمارس هوايته من تنقية القمل من ملابسه .
ـ يا رجل اتق الله .
ـ اسمع أنا لا أريد نصائح أحد .
ـ اتق الله فى نفسك إن لم تتق الله فى أولادك .
ـ لا شأن لأحد بى .
ـ ماذا تريد أن تصنع بهذا المال ؟
ـ أنتم مجانين . والمال لم يوجد إلا ليجمع .
ـ يسوبون إنه موجود ليتمتع به الإنسان .
ـ أنا أتمتع بجمعه ما رأيك ؟
ـ أهذه متعتك ؟
ـ ولا متعة لى غيرها .
ـ إذن اسمع .
ـ سمعنا .
ـ أختى تريد أن تكلمك .
ـ قل أنت ما تريد .
ـ هناك أشياء لا يقولها إلا الزوج .
ـ أمرى إلى الله أذهب معك .

[illegible] نفيسة :

- اسمع يا عبد القادر هذه الحال لا تنفع .
- هذا آخر ما عندى .
- إذن على أنا أن أفعل ما يجب على .
- اعملى كل ما فى يدك .
- منذ الغد سأسقط التوكيل عنك وأوكله أخى فى إدارة الأرض
- وبعد غد تصلك ورقة الطلاق .
- هذا يوم المنى . . . على الأقل يعرف الناس أننى انفصلت عنك لعل بناتك تتزوج .
- ولن تبقى بناتك معك .
- هذا أمر تقرره المحكمة .
- وأنا أحب المحاكم .

وخرج وفعلاً أسقطت الست نفيسة عنه التوكيل ووكلت أخاها فى إدارة الأرض وفعلاً طلق هو زوجته ولم يطالب بضم الأولاد قائلاً فى نفسه ما دامت قد استولت على الأرض فلا أقل من أن تنفق هى على الأولاد . ولكن الست نفيسة كانت مليئة منه بالغيظ فرفعت دعوى نفقة وحكمت المحكمة لها بمائة وخمسين جنيهاً شهرياً مع المتجمد من يوم الطلاق .

جن جنون عبد القادر وذهب إلى المحامى .

ــ إن جاءت البنات إلى حضانتى لن يكلفونى أكثر من عشرة جنيهات أو عشرين .

ورفع دعوى الضم بالنسبة للبنتين . أما الأولاد فكانوا قد بلغوا سن الرشد وحكمت المحكمة بالضم وفى يوم تنفيذ الحكم ذهب ومعه الحاج أحمد هلال ليتسلم البنتين وعند باب البيت :

ــ حاج أحمد . . . هات لنا عربة .

وذهب الحاج أحمد فأحضر سيارة أجرة نظر إليها عبد القادر .

ــ ما هذا ؟

ــ سيارة أجرة .

ــ وهل قلت لك سيارة . . . أتريد أن تخرب بيتى ؟

ــ لماذا ؟

ــ السيارة ستأخذ أكثر من عشرين قرشاً .

ــ فماذا تريد ؟

ــ عربة . . . عربة حنطور بخمسة قروش .

وصرف الحاج أحمد السيارة بعد أن دفع أجرتها من جيبه وأحضر عربة ونزلت البنتان وركبتا معه صاغرتين وسارت العربة !

وفجأة لاحت فى الطريق سيارة فاخرة نظرت البنتان فيها فوجدتا أمهما ومعها خالها فاذا البنتان تقفزان من العربة وتجريان إلى السيارة ويصيح عبد القادر :

ــ امسك يا حاج أحمد .

ــ ماذا أمسك ؟

ــ البنات .

ــ يا عبد القادر بك بناتك كبيرات أتريد يدى أن تأتى على صدروهن ؟

ــ امسك ولا شأن لك .

ــ نحن فى الشارع يا عبد القادر بك . . . لا يمكن . . . لا أستطيع .

ــ وأثناء هذا الحوار كانت البنات قد ركبن السيارة مع أمها وعاد هو خائباً إلى البيت وظل يدفع النفقة .

(عبد القادر وبائعة الفجل)

كان جالساً أمام باب بيته فى بنى سويف وكان الوقت رمضان . وكان صائماً بطبيعة الحال حين مرت به بائعة فجل .

ــ بكم الحزمة يا خالة ؟
ــ بتعريفة .
ــ هات عينة أريها لهم بالداخل .
ــ أحسن فجل وشرفك . . . تفضل .

وأخذ حزمة الفجل ودخل إلى منزله وما هى إلا لحظات قلائل وعاد . . .

ــ خذى يا خالة .

ــ ماذا ؟
ــ الفجل لم يعجبهم .
ــ الأمر لله هات .
ــ ونظرت المرأة فى حزمة الفجل .
ــ ما هذه ؟
ــ الحزمة التى أعطيتها لى .
ــ يا رجل يا ضلالى .
ــ عيب يا خالة اختشى .
ــ أعطيك حزمة ريانة ناضرة فتستبدلها بحزمة ذابلة بقيت عندك منذ أيام .
ــ أنا يا امرأة ؟
ــ تعريفة يا ضلالى تريد أن تأكلنى فيه .
ــ اذهبى يا امرأة أنا صائم ولا أريد وجع دماغ .
ــ صائم يا ضلالى والله لاخرب بيتك .

واتجهت المرأة إلى نقطة البوليس وقدمت شكواها وانتقل الضابط مع قوة إلى عبد القادر .
ــ ماذا فعلت لهذه المرأة ؟
ــ إنها امرأة مجنونة .

ـ اسمع إنها تقول انها أعطتك عينة .
ـ حصل .
ـ وبالطبع البائع حين يعطى عينة يقدم أحسن ما عنده .
ـ لقد رددتها لها :
ـ سنجرى تفتيشاً فى بيتك .
ـ كيف ؟
ـ هكذا .
ـ وإن وجدت فجلاً ببيتى ؟ .
ـ سنقارنه بفجل المرأة فإن كان مثله فأنت قد استبدلت حزمة الفجل .
ـ يا حضرة الضابط تكذبنى وتصدق هذه المرأة .
ـ أولاً أنت تعملها . . . وثانياً لماذا تتبلى عليك هذه المرأة ؟

وقام الضابط والقوة بالتفتيش ووجدوا حزمة الفجل وقاموا بالمقارنة وأصدروا الحكم فى الحال .

ـ تدفع لهذه المرأة خمسة جنيهات .
ـ ماذا ؟
ـ أو نقدمك إلى النيابة .

وفى هذه المرة دفع خمسة جنيهات .

(عبد القادر وموظف البنك)

كان معه خمسون ألف جنيه وبات ليلته فى لوكاندة الحسين وهى فى هذا اليوم بالذات أحسن مكان يبيت فيه فهى المكان الوحيد الذى لا يشك أحد أن شخصاً يحمل خمسين ألف جنيه يبيت فيه .

صلى الفجر فى الحسين وقصد ماشياً إلى البنك الأهلى فوجد البنك ما زال مغلقاً فتكوم بجانب الباب فى انتظار فتح البنك .

وأقبل الموظف الذى يحمل مفاتيح البنك فوجد هذه الكومة فرق قلبه على هذا المسكين الذى يجلس فى مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح وفى هذا البرد القارس من يناير بباب البنك . . . ولم يكن الموظف غنياً ولكنه كان طيباً فمد يده بقرش تعريفة أعطاه لعبد القادر فأخذه ووضعه فى جيبه وهو صامت .

وبعد قليل جاء موظفو البنك وجاء المدير فدخل إليه عبد القادر وقدم له الخمسين ألف جنيه ليودعها فى حسابه .

ودق المدير الجرس ودخل أحد الموظفين فقال له المدير :

ــ هذه خمسون ألف جنيه أودعها باسم عبد القادر بك فهمى .

ــ ونظر الموظف إلى عبد القادر فهمى وأنعم النظر ثم قال :

ــ حضرتك جئت قبل فتح البنك ؟

ــ نعم .

ــ سعادتك كنت جالساً بجانب الباب ؟

ــ نعم .

ــ إذن هات التعريفة .

وأخرج عبد القادر التعريفة فى صمت وأعطاه للموظف وسأل المدير الموظف فقص عليه ما حدث وضحك المدير وسأل عبد القادر :

ــ لماذا ؟

ــ أنا لا أرد خيراً أبداً . . . هذا كفر يا سعادة المدير . . . كفر .

(المصير)

طال به العمر وطال لم يغير الزمن منه شيئاً حتى كان قانون الإصلاح الزراعى فإذا عبد القادر يجد ما جمعه كله بدداً . . . سبعة آلاف فدان لم يبق منه إلا ثلاثمائة . . . ترى هل كان يجمع عبد القادر ماله ليرثه أولاده من بعده . . . هراء وإلا لأعطى لأبنائه الفرصة أن يعيشوا . . . لقد كانت متعته فى الحياة أن يجمع المال ويمنعه عن الآخرين حتى عمن يستحقونه وأول هؤلاء وعلى رأسهم أولاده الذين لولا أمهم لعاشوا عيشة الشحاذين وأبناء العيل ، إن نكبته فى قانون الإصلاح لم تكن فى أن الأرض لم يرثها أبناؤه وإنما النكبة الكبرى فى أن الأرض لن تصبح ملكا له . . . وليست فى أن إيراده قل فما كان محتاجاً لإيراد فهو قد أودع باسم ابنه الأكبر ما يقرب من المليون جنيه لأنه كان معجباً بابنه الأكبر الذى حصل على بكالوريوس التجارة العليا وكان شحيحاً . . . طبعاً لم يكن فى القمة التى وصل إليها أبوه من الشح ولكنه كان شحيحاً . وهكذا أودع أبوه باسمه هذه الأموال حتى لا تنال الضرائب منها شيئاً إذا وافاه الأجل المحتوم .

الإصلاح الزراعى كان نكبة بالنسبة إليه فى أنه انتزع الأرض والأموال باسم ابنه الأكبر كان فقط يريد أن يحرم ضريبة التركات من حقها هذا كل ما فى الأمر ولكنه أبداً لم يكن يفكر فى شأن

أبنائه . . . إنها ـ كما قلت ـ الرغبة فى الجمع لنفسه والرغبة فى منع الآخرين .

ولكن عبد القادر رغم ضآلة جسمه كان قوياً على الشدائد فاحتمل الصدمة وظل يواصل حياته كأن شيئاً لم يحدث . . . طبعاً مسألة الإيراد لم تؤثر فيه على الإطلاق فقد كان إيراد فدان واحد يكفيه العام كله ويفيض ولكن النزع تجميع العمر . . . أمل السنين . . . لعله قال فى نفسه قد تمتعت فى الجمع نفسه ولكن ما أظنه قال هذا أيضاً . . . المهم أنه صبر ولا أدرى كيف صبر . . . على أية حال لم يطل به الصبر . . .

مر على قانون الإصلاح الزراعى ما يقرب من الثلاثة شهور . وكان عبد القادر جالساً فى بيته بالصعيد وحيداً يمارس لعبته المفضلة مع القمل حين سمع أصواتاً فى الحجرة التى بها الخزانة . . . كان بالخزانة ثلاثمائة جنيه . . . قام يجرى إلى الحجرة . . . الضوء منبعث من مصباح غازى فهو طبعاً لا يفكر فى الكهرباء . . . ونظر عبد القادر ضعيف ولكن هذا لم يمنعه أن يرى أشباحاً حول الخزانة . . . ثلاثة نفر يتعاملون مع الخزانة معاملة لا ترضى عبد القادر .

ـ ماذا تعمل يا ابنى أنت وهو؟

وكانت كلمته الأخيرة التف اللصوص حوله وقتلوه . . .

لقد مات الميتة التى تليق به . لقد عاش عمره يجمع المال ومات فى سبيل المحافظة على المال .

اعتبرت الضرائب الورثة يملكون السبعة آلاف فدان فحجزت على الثلاثمائة الباقية وفاء للضريبة المستحقة على وارث سبعة آلاف فدان . . . وحاول الإخوة أن ينالوا من أخيهم شيئاً من المال السائل فأبى مدعياً أن جميعه ماله فأبلغوا الضرائب أن الأموال التى بالبنك باسم أخيهم إنما هى ملك لأبيهم فوضعت تحت الحراسة وفاء للضريبة المستحقة . ولم يبق من عبد القادر إلا هذه الصفحات التى أنقلها إليك لو كنت ألفتها لك لكان من حقك أن ترى فيها رأيك حسناً كان أو غير حسن ولكن الحياة هى التى ألفت هذه الصفحات وهى ـ للأسف ـ حين تؤلف لا يهمها كثيراً رأى أحد ـ . ومع ذلك فقد رأيت فيما ألفت الحياة شيئاً يستحق أن أرويه لك وفى هذا الرأى تستطيع أنت أن تقول ما تشاء رضى أو سخطاً . . .

●

النابغة

لم يكن يتصور حين أدخل نادية المدرسة الإبتدائية أنه سيطيق دفع المصروفات لها حتى تواصل تعليمها . ومن أين وهو يعمل ساعياً بوزارة الحربية مرتبه عشرة جنيهات . وقد أدخل محمداً ابنه الأكبر إلى المدرسة كما أدخل ابنه الأخر عبد الكريم . وحين جاءت نادية عزم فى نفسه أن تبقى فى البيت لتساعد أمها عيشة على شؤون البيت . ولكنها حين بلغت السابعة كانت عبئاً على الأم بدلاً من أن تكون عوناً لها .

ــ أدخلها المدرسة .

ــ وبعد المدرسة .

ــ تقعد فى البيت .

ــ وإن عجبها الحال .

ــ يحلها ألف حلال .

ــ ولو تعبت من أعمال البيت .

ــ هى الآن أكثر شىء يتعبنى فى البيت .

ــ تدخل المدرسة .

ــ آه . . . تدخل المدرسة .

ودخلت نادية المدرسة . وكأنما كانت شيطنتها وهى فى البيت تنتظر الشرارة لتنفجر فانفجرت . انفجرت مذاكرة فهى الأولى دائماً . وبدلاً من أن تعاند أخويها وتغيظهما أنهما يتقويان فى دروسهما بينما تنتهب هى الدروس انتهاباً كانت ترضى كلا منهما وتتخاضع لهما فى الحديث ليشرحا لها ما يعجز المدرس أن يشرحه . فالمدرس لم يكن يشرح شيئاً وهى لم تكن تفهم من المدرس شيئاً والمدرس ونادية كلاهما معذور . فقد كانت المدرسة لا تملك الفصول

الكافية للتلاميذ . والوقت المخصص للدراسة من السابعة إلى الثانية عشرة لأن هناك تلاميذ آخرين تخصص لهم المدرسة من الثانية عشرة إلى الرابعة . فالمدرس تائه بتلاميذه يبحث لهم عن مكان وهو ملهوف ملوع يريد أن يرمى بدرسه قبل أن يدهمه موعد الجرس وبين اللهفة والقلق لا يفهم التلاميذ شيئاً . ولم تكن نادية إلا واحدة من أولئك التلاميذ الضائعين مع مدرسهم فلم يكن لها موئل إلا أخويها محمد وعبد الكريم يشرحان لها ما فى الكتاب . ذلك الكتاب المستكين بين يديها لا يبحث عن مكان يلقى فيه بدرسه ولا يخشى أن يدهمه الموقف وإنما هو ثابت صابر ينتظر من يقرأه ومن يفهمه فى هدوء ودعة وأمان .

وكانت نادية تنظر إلى زميلاتها اللواتى قعدن مع أمهاتهن فى البيت فيزلزلها الرعب أن تصبح مثلهن . ثياباً متهرئة وشعراً أشعث أغبر وأقداماً مفلطحة من طول ما عاشرت الطريق عارية . وهى تنظر إلى المرآة فترى فى وجهها مخايل وسامة وحين تنعم النظر لا تدرى من أين جاءت لها الوسامة فعيناها لا سعة بهما ولا غمق ووجهها أكثر ميلاً إلى السمرة وفمها أكثر ميلاً إلى السعة وشعرها فيه انسياب ولكنه انسياب ساذج لا التواء به ولا ذكاء ولا حنايا ولا ثنايا . ولكنها مع ذلك كانت ترى فى نفسها وسامة وكانت تشفق على هذه الوسامة التى لا تدرى مأتاها أن يغولها البيت والطريق الأغبر والأقدام العارية والملابس المتهرئة فهى الأولى دائماً . ونالت الشهادة الابتدائية وخجل أبوها أن يتكلم فى إبقائها بالبيت فهى الأولى وهى أكثر نجابة من ولديه فهى إذن فى الإعدادية . ويصرخ الأب :

ـ تعبت .

ـ وأنا تعبت .

ـ مرتبى لم يزد إلا جنيهان .

ـ وأنا كبرت وأريد من يساعدنى .

ـ أتستطيع نادية أن تساعدك ؟

ـ ولماذا لا تستطيع ؟

ـ أصبحت بنت مدارس .

ـ ولكنها تستطيع أن تساعدنى .

ـ كيف نقول لها ؟

ـ إنك أبوها ألست كذلك ؟

ـ وأنت أمها ألست كذلك ؟

ـ أنت رب البيت .

ـ وأنت ربة البيت .

ـ لا تخالف لك أمراً .

ـ ولا تخالف لك أمراً .

ـ يظهر أننا نخاف أن نكلمها .
ـ نعم .
ـ وبعد .
ـ الخيرة فيما اختاره الله .
ـ والبيت وتعبى .
ـ أصبر أنا على الضنك وقلة المال وتصبرين أنت على عمل البيت وليكن ما يكون .
ـ تخاف من ابنتك .
ـ لا تعيرينى ولا أعايرك .

واستمرت نادية فى المدرسة وواصلت نجاحها فى المرحلة الثانوية . وفى المرحلة الثانوية راحت أنوثتها تتبلور معها فهى تتفجر فى كل يوم عن جديد والفتاة تستقبل أنوثتها فى سوق عارم مفتوحة الذراعين تواقة إلى كل نأمة جديدة من أنوثتهاالوافدة . كانت تريد أن ترغم ثيابها على إظهار أنوثتها ولكن ثيابها لم تكن تطيعها فهى ثياب رخيصة وتفصيلها مجانا والأنوثة تحب أن تختار القماش وتختار التفصيل وبين ضيق ذات اليد من الأب ورغبة نادية العارمة فى إظهار أنوثتها تنكمش الثياب خجلة حائرة لا تدرى ماذا تستطيع أن تفعل لترضى صاحبة الأنوثة الجديدة .

كانت نادية تحاول مع ثيابها ما وسعها الجهد فهى تضيق الحزام حتى لتكاد أنفاسها تختنق ولكن لا يهم فإن الحزام حين يشد يسمح للجزء الهام من الصدر أن ينفجر إلى أمام وللجزء الهام من الظهر أن ينفجر إلى وراء ويظهر من الجسم الفتى ما تحاول الثياب أن تطمره فى رخصها .

هناك عينان تتبعان نادية فى كل يوم حين تذهب إلى المدرسة وحين تعود . بل أن هاتين العينين تراصدانها كلما تبدت فى الطريق . كانت العينان نافذتين ولم تكن نادية تستطيع أن تغفل حدة النظرة التى توجه إليها منهما . كانت ترى فيهما نوعاً من الجرأة وكأنما كانت العينان تجسان كل مكان فى جسمها وكان فيهما انتظار ولم تكن نادية تفهم سبباً لأى من هذه المعانى التى تتواثب من العينين . فلو كان صاحبهما شاباً فى ريق العمر أو حتى شاباً فى أواخر الشباب لكان لهذه النظرات معنى . ولكن أن تصدر هذه النظرات من حسين بائع السجائر الذى يكبر أباها فى السن فهذا أمر لم تستطع أن تفهمه أبداً .

وفى يوم .

ـ تعالى يا نادية .
ـ نعم يا عم حسين .
ـ يعنى يا بنتى تفوتين ولا سلام ولا كلام .
ـ أراك مشغولاً يا عم حسين .
ـ ومهما أنشغل يا بنتى هل يمكن أن أنشغل عنك .

ـ كتر خيرك يا عم حسين .
ـ لقد شلتك على كتفى يا نادية .
ـ عارفة يا عم حسين .
ـ كنت قبيحة ولا يحب أن ينظر إليك أحد .
ـ أهكذا يا عم حسين .
ـ سبحان مغير الأحوال من كان يظن . . . من كان يظن .
ـ ماذا يا عم حسين .
ـ يا بنت ألا تعرفين ما أريد أن أقول ؟
ـ لعلى أعرف وأريدك أن تقول .
ـ آه من البنات اليوم يا عالم .
ـ ماذا فعلن يا عم حسين ؟
ـ مصيرى معهن إلى الجنون والله .
ـ ومالك ولهن يا عم حسين ؟
ـ وهل لى شغلة غيرهن ؟
ـ أنت يا عم حسين .
ـ آه أنا . . . وماذا فى هذا ؟
ـ لا شىء يا عم حسين ولكن ألا ترى نفسك كبيراً بعض الشىء على بنات اليوم .
ـ يا بنت اصحى .
ـ صاحية وحياتك يا عم حسين .
ـ لا وشرفك . . . نائمة فى العسل نوماً وأين العسل . . . نائمة فى البشر نوماً .
ـ لماذا يا عم حسين ؟
ـ أهذا يليق .
ـ ما هو الذى لا يليق ؟
ـ هذا الجسم المرمرى . . . هذا الجمال العجيب يلبس هذه الملاهيل .
ـ وبعد يا عم حسين . . أنت تعرف البير وغطاه .
ـ ملعون أبو البير على غطاه .
ـ وماذا أفعل ؟
ـ اسمعى كلامى .
ـ وهل قلت شيئاً .
ـ لى أصدقاء .
ـ لك أنت ؟ !

ـ يجعلونك تلبسين الحرير . . . لا تلبسين إلا الحرير .
ـ أبرد ياعم حسين .
ـ والصوف الإنجليزى فى الشتاء .
ـ هكذا مجاناً .
ـ مجاناً وشرفك .
ـ ما دخل شرفى فى الموضوع يا عم حسين .
ـ شرفك مصان . . . اسمعى كلامى .
ـ حرام يا عم حسين .
ـ إذا غيرت رأيك أنا تحت أمرك .

ونالت نادية شهادة الثانوية العامة . وفى الصيف كانت كلما مرت بعم حسين ألقت إليه ابتسامة وتحية من بعيد . إن هاجساً فى نفسها كان يهمس لها ألا تقطع المفاوضات بينها وبين عم حسين .

وأتت أشهر الصيف ودخلت إلى الجامعة . . . إن لها زميلات من المدرسة الثانوية ذهبن معها إلى الجامعة . . . تعرفهن وتعرف ملابسهن وهن فى المدرسة الثانوية . . . ما هذا الذى يرتدين . .

ـ كيف .
ـ أنت هبلة .
ـ هبلة ؟
ـ ألا تعرفين كيف ؟
ـ آه فهمت . فهمت .
ـ أخيراً .
ـ وعند الزواج .
ـ بثمن فستان نجرى عملية .

وحين عادت فى ذلك اليوم وقفت مع عم حسين دقائق . . . لقد كان الهاجس فى نفسها صادقاً معها . . . لقد أحسنت صنعاً أنها لم تقطع المفاوضات .

الميراث

ليس غريباً أن يكون بينهما هذا الخلاف الذى وصل إلى أقصى مداه . وليس غريباً أن يكون بينهما هذه الكراهية الشديدة وهذا المقت المرير . لقد ورثا الخلاف والكراهية والمقت فيما ورثا عن أبويهما . . . وهما الآن وجيهان لكل منهما أنصار وأعوان وقد نسى كل منهما كما نسى أنصار كل منهما قصة الأبوين .

أما أبو الأول الذى أصبح اليوم أسعد بك فقد كان المعلم أنور . بدأ حياته فى حى السيدة زينب وقد زحف إليها من الريف حين ضاقت به بلدته « شيبة » فأصبح لا يجد بها قوت يومه فهى قرية مزدحمة يتخاطف أهلها الرزق وهو لا يرى فى الزحام طريقاً وحالفه الجوع حتى أصبح لا يأبه كثيراً بالشرف فكان يختطف العيش اختطافاً فيه قسوة أحياناً كثيرة وفيه الحيلة فى أحيان قليلة ولكن لم يكن هذا الاختطاف ليستطيع أن يستمر طويلاً فضاقت به القرية ولم يجد مناصاً آخر الأمر إلا أن يزحف إلى القاهرة . الزحام أشد ولكن هذا الزحام كان بالنسبة إليه كالصحراء البكر . فهناك لن يعرفه أحد وهناك يستطيع أن يمارس اختطافه بالحيلة دون أن يعجزه ضيق المكان أن يجد الفريسة ولم يكن يستبعد أن يستعمل القسوة إذا كان لا بد أن يستعمل القسوة . وزحف إلى القاهرة .

غريب فى حى السيدة والقاهرة يومذاك بها كثير من الأراضى الخالية فماذا عليه أن يتخذ من خرابة مسكناً وماذا عليه لو أقام بيته من بعض خشب . ومن أين له الخشب . أدرك أنه لو ظهر على حقيقته فى أيام إقامته الأولى فلن يلبث شارع الملك الناصر أن ينبذه كما نبذته بلدته شيبة فقصد إلى تاجر أخشاب .

— أعمل عندك .

ـ وماذا تحسن أن تعمل ؟
ـ أحمل الخشب .
ـ لا بأس فإن لك جسماً قوياً .
ـ فقط أريد بعض خشب مقدماً أقيم به الحجرة التى سأسكن بها .
ـ أنت . . .
ـ غريب قادم من الريف .
ـ ومن يضمن لى أنك ستبقى حتى تفى بثمن الخشب .
ـ الخشب نفسه .
ـ معقول .

وهكذا بنى حجرته بقطعة أرض وجدها خالية ولم يفكر أن هذه الأرض لا بد أن يكون لها صاحب أو هو فكر ولكن لم يشأ أن يتخذ إجراء معيناً إزاء هذا التفكير .
المهم أنه أقام الحجرة وأقام .

كان صاحب الأرض رجلاً عنيفا ذا بطش وسلطان . حتى نما إلى سمعه أن إنساناً تجرأ وبنى حجرة بملكه ، ترفع أن يذهب إليه وإنما أرسل بعض أتباعه .
ـ كيف أقمت هنا ؟
ـ بنيت هذه الحجرة وأقمت .
ـ ألا تعرف أن لهذه الأرض صاحباً .
ـ هل أنت صاحبها ؟
ـ أنا تابعه .
ـ أريد أن ألقاه .
ـ لا يلقى أمثالك .
ـ وماذا يضيره أن ألقاه ؟
ـ لا يلقى أمثالك .
ـ ألا يملك هذه الأرض .
ـ بل يملك البيوت المحيطة بها جميعاً .
ـ ألا يسكن فى هذه البيوت جميعها فقير مثلى ؟
ـ ولكنهم لا يلقونه .
ـ اصنع لى هذا المعروف .
ـ ولماذا أصنعه .
ـ لعلى أنفعك فى بعض الأيام .
ـ أنت .

ـ ألا تعرف الفأر الذى خلص الأسد من المصيدة ؟
ـ حكاية .
ـ لا بد سمعتها .
ـ فأنت تعرف أنى أسد .
ـ وأنى فأر .
ـ سأجعلك تلقاه .

* * *

ـ ماذا يضير سيادتك أن أقيم بهذه الأرض الخالية ؟
ـ يأتى يوم وتدعى ملكيتها .
ـ بل سأجعلها نظيفة ويوم تريد طردى فما هى إلا بضعة أخشاب أحملها فى يدى وأمضى إلى حال سبيلى .
ـ تدفع أجرة ؟
ـ أمرك .
ـ عشرة قروش فى الشهر .
ـ ولكن الأرض خالية .
ـ ولو .
ـ وسأحرسها لك .
ـ مثلى لا تحتاج أملاكه إلى حراسة .
ـ ألا تجعلها خمسة .
ـ عشرة قروش فى الشهر .

* * *

ومضت الأيام وأحس أنور أنه يستطيع أن يكون كما يريد أن يكون فقد طال مكثه فى الحى وثبتت أقدامه وبدأ يعود إلى نفسه التى صحبها معه من القرية .

فوجىء المالك الكبير بأنابيب المياه فى بيوته تتفجر كل يوم وأدرك أن أنور هو فاعلها .

لا أريدك فى أرضى .
ـ أنا تحت أمرك .
ـ أنت لا ترعى الجميل .
ـ وأين الجميل ؟

ـ ألم أتركك تسكن فى أرضى .
ـ كنت أدفع أجراً .
ـ ولكنى تركتك تسكن .
ـ بعرقى .
ـ إذا أعفيتك من الأجرة توقف أعمالك .
ـ أنا لم أعمل شيئاً .
ـ أستطيع أن أضربك كل يوم علقة حتى تترك الحى جميعه .
ـ ولكنى لم أعمل شيئاً .
ـ لا تعد إلى ما صنعت ولاتدفع الأجرة .
ـ شكراً ولكنى لم أصنع شيئاً .

***

ـ لماذا ضعفت معه ؟
ـ لو أخذته بالشدة لم آمن أن يظل فى تخريبه .
ـ تستطيع أن تخرجه من الحى كما قلت .
ـ ويستطيع أن يجىء إليه خلسة فيرتكب جرائمه ويرجع من حيث أتى . هو الآن تحت أعيننا على الأقل .

***

إذن فالحكاية أثمرت . بهذا إذن يستطيع أن يصنع ما يشاء .
ذهب أنور إلى مولد السيدة واصطنع خناقة مع فتوة الحى فأصبح هو الفتوة وأصبح من الميسور عليه أن :

ـ قطعة الأرض .
ـ مالها يا معلم أنور ؟
ـ أقبلها هدية من سعادتك .
ـ قطعة الأرض جميعها .
ـ حتى أحافظ على المبانى الأخرى .
ـ أليس كثيراً يا معلم أنور ؟
ـ لا بد أن أبنى لى بيتاً .
ـ فخذ نصفها .

ـ إذن أحافظ على نصف الأسلاك .
ـ أمرك . . . خذها كلها .

وفعلاً بدأ أنور يبنى بيته وحتى يعلو البيت لا بد أن يحفر الأرض وإذا بالأرض تنكشف له عن كنز عظيم وأصبح أنور فى ضربة أرض أغنى أغنياء حى السيدة ولكن المال لم يخلص إليه هكذا سهلاً هيناًوإنما نبت له رجل لا يدرى عنه إلا أنه بنى اللون .

ـ هذا المال ملكى .
ـ أى مال ؟
ـ هذا الكنز الذى وجدت .
ـ أنت الذى خبأته هنا ؟
ـ لا وإنما أجدادى .
ـ من ؟
ـ أجدادى .
ـ ولماذا لم يدلك أجدادك على مكان الكنز ؟
ـ كان آبائى كلهم يعرفونه ومات أبى دون أن يخبرنى به .
ـ فمن أدراك إذن أنه كنزك ؟
ـ إنه فى هذه المنطقة .
ـ وتتوقع منى أن أعطيك إياه .
ـ إذا شئت العدل .
ـ فإن لم أشأ .
ـ فالقوة .

وقتل أنور المطالب بالكنز وثار أهله وقامت المعارك كثيرة بين أنور وأعوانه وبين أهل القتيل ولكن هذا لم يمنع المال أن يظل ملكاً لأنور ولم يمنعه أن يقيم بيتاً رائعاً ويصبح سيداً عظيم الشأن ويتزوج ويأتى ابنه أسعد ليجد نفسه بك .

وحين يشب أسعد عن الطوق يجد هناك عداوة بين أنور أبيه وبين رجب ولم يكن يدرى أسباب هذه العداوة ولكنه ما لبث أن عرفها على مرور السنين واتساع الإدراك وعرف أيضا أنه لا بد أن يكون عدوا لراغب بن رجب لأن طبيعة الأمور تقضى بأن يكون عدواً له .

قدر أنور حين أصبح غنياً أنه لا يليق به أن يكون فتوة فراح ينمى ثروته فأنشأ مصنع خشب أو هو فى الحق اشترى المصنع الذى عمل به حين جاء إلى القاهرة أول ما جاء وأغراه الربح أن ينشىء مصانع أخرى فزاد ثراؤه زيادة فاحشة وأصبح مطمئناً أنه أغنى أغنياء المنطقة جميعها إن لم يكن أغنى أغنياء مصر .

ولكن شيئاً جديداً بدا فى الأفق اسمه رجب ... كان رجلاً ينتسب إلى العلماء فلم يعره أنور التفاتاً أول الأمر ولكنه فوجىء برجب يجمع حوله المريدين وعلى رأسهم سعيد وفوجىء أنور برجب يقول لا يجوز أن يكون هناك أغنياء وفقراء وإنما المال مال الناس أجمعين قالها هو ونفذها سعيد وأعوانه . وأصبح حى البغالة جميعاً ملكاً لرجب وسعيد وأصبحا ينافسان أنور فى غناه وحلت بينهما الكراهية منذ ذلك الحين وقد توثقت الصلة بين رجب وسعيد حتى إن راغب لا يدرى إن كان ابن رجب أم ابن سعيد بل إن أمه نفسها لا تعرف ... فهو من الناحية النظرية ابن رجب أما من الناحية الفعلية فهو لا يدرى .

دافع الناس عن أموالهم فى حى البغالة فكان الموت مصيرهم .. فشا فيهم سعيد ... أموالهم أو أرواحهم ... ومات كثيرون ولكن الأمر استتب له ولرجب وراح سعيد يتولى توظيف الأموال فأنشأ المصانع هو أيضاً بل أنشأ المواخير حتى ينسى الناس ما فقدوه من مال وتاجر فى كل شىء وبالإرهاب يشترى من لا يريد أن يشترى .

وكان رجب وسعيد من الذكاء بحيث لم يفكرا أن يقتربا من حى السيدة وكان أنور من الذكاء بحيث لم يفكر أن يقترب من حى البغالة .

ومضت السنون وأصبح الناس فريقين . فريقاً ينتمى بعواطفه وعقيدته إلى أنور وابنه أسعد والآخر ينتمى إلى رجب وسعيد وابنهما راغب . وكانت الخلافات تحتدم بين الفريقين احتداماً يصل إلى التشابك بالأيدى ثم تطورت فأصبحت معارك تستعمل فيها كل أدوات المعارك وأصحاب الخلاف الأصليون يكتفون بتقديم أدوات المعارك دون أن يشاركوا هم فيها .

وتمضى السنون ويموت رجب ويتبعه سعيد . ويموت أنور . ويظل راغب وأسعد على الخلاف الذى ورثاه عن آبائهما ويتوارث الأتباع أيضاً المعارك فيما يتوارثون عن آبائهم .

وفجأة يجد أسعد ويجد راغب أن هذه الخلافات تشغلهما عن تنمية ثروتيهما وكأنما تكشفت هذه الحقيقة بغتة أمام كليهما فى لحظة واحدة فيبدأ كل منهما بكلمة لينة عن الآخر وما تلبث هذه الكلمة أن تصبح زيارة من أسعد إلى راغب فى بيته تتبعها زيارة من راغب إلى أسعد فى بيته ويتم الصلح بين الخصمين القديمين .

ولكن العجيب العجيب أن أنصار كل منهما مازال حتى يومنا هذا فى عراك قالت مستميت يموتون من أجل اثنين تم بينهما الصلح ...

المقابل

لقد كانت المعركة بيننا وبين قبيلة غطفان غاية فى العنف . وقد أصبنا منهم مقتلة عظيمة وما كان هذا إلا لغياب بطلهم الصنديد رافع بن عدى . ولا شك أنهم ينتظرون يوماً قريباً ينالون فيه ثأرهم . والقبيلة منذ ذلك الحين مشغولة فيما يمكن أن تصنعه حتى تتهيأ لهذا اليوم المنتظر القريب . وقد اجتمع شيوخ القبيلة يفكرون واجتمع معهم الشباب وراح كل منا يدلى برأى ولكن ما أسرع ما كانت هذه الآراء تواجه بالنقاش .

ـ نهاجر .

ويقول شيخ القبيلة فى عظمة واعتزاز .

ـ حتى نصبح أحدوثة بين العرب ... نترك ديارنا خوف عدو دحرناه وأنزلنا به الهزيمة الماحقة ... إذا نحن هاجرنا يكون العدو هو المنتصر ... ويصبح النصر الذى أحرزناه أعجب نصر فى التاريخ . سيكون نصراً ترتبت عليه آثار الهزيمة .

ـ ولكننا إن واجهنا العدو ونيران الثأر تغلى فى دمائه ومعه البطل الذى كان غائباً عنه فإنه سيصيب منا قتلى كثيرين ونخسر النصر والدماء فى آن معاً .

ـ إن دمائنا لا شيء ... إنها ما خلقت إلا لتحمى كرامتنا وشرفنا . يا شيخ القبيلة .

ـ الدماء دماء أب أو أخ أو زوج أو ابن ... إنها دماء عزيزة .

ـ فى سبيل النصر يصبح العزيز رخيصا .

ـ فإن بذلنا الدماء ولم نحقق النصر .

ـ لهذا اجتمعنا .

ويقول رأى آخر ؟

ـ ما لنا لا نناشد قبيلة عاصم فإن بينها وبيننا أخوة قديمة يقول الشيخ :

ـ وما يجعلها تحارب قبيلة غطفان وليس بينهما عداوة وقبيلة غطفان كثيرة العدد موفورة لحظ من القوة والبأس .

ـ أليست الأخوة كافية لتقف قبيلة عاصم إلى جانبنا ؟

ـ كنا جديرين أن نأخذ بهذا الرأى لو كان هناك عداء بين قبيلة عاصم وقبيلة غطفان . . . أما ن تثير قبيلة عاصم العداء عليها بلا داع إليه فهذا ما لا يفعله أحد .

ويقول شيخ من القبيلة فى تؤدة ووقار :

ـ إن ما يلزمنا يا شيخ القبيلة هو فتى فى مثل قوة رافع ابن عدى يجعل انتصارنا على العدو ؤكداً .

ويصمت الجميع ويتكلم شيخ القبيلة بعد تريث وتفكير .

ـ بالصواب نطقت ولكن من أين لنا به .

ويصيح شاب من القبيلة .

ـ إن العراف . . .

وتقاطعه أصوات كثيرة .

ـ هل ضعفت ؟

ـ ما للعراف وهذا .

ـ إنك تخرف .

ويقول شيخ القبيلة .

ـ دعوا الفتى يكمل حديثه .

ويسود الصمت هنيهة ويعود الشاب إلى حديثه .

ـ إن العراف يمر بالقبائل جميعها وهو يعرف من أخبارها ما لا نعرف فلماذا لا نقصد إليه سأله أن يدلنا على بطل من أبطال العرب يكون كفؤاً لرافع بن عدى .

ويصمت الشاب ويعود الصمت إلى التحليق ويقول شيخ القبيلة :

ـ الرأى ما قلت . . . إذا كان الغد نذهب إلى العراف .

وينفض الاجتماع ولكن شابا من شباب القبيلة يمكث حيث هو لا يريد أن ينصرف . . . . إنما يظل رانياً إلى شيخ القبيلة فى استعطاف ولهفة وأنا أنظر إليها لا يريد أن أنصرف أو أسمع

الحديث بين الشيخ والفتى . فأنا أعرف ما يريد سليمان أن يقول وأريد أن أعرف كيف سيجيبه شيخ القبيلة . يظل الفتى رانياً وشيخ القبيلة يتظاهر بأنه لا يراه وإنما هو يحول عنه بصره فى ضيق حتى إذا فشل سليمان فى أن يجعل الشيخ يسأله ما يريد جمع كل ما فيه من شجاعة وتقدم إلى الشيخ .

ـ وبعد ياعماه ؟
ـ وبعد فيم يا سليمان .
ـ ألا تعرف ؟
ـ كأنى أعرف .
ـ فما انصرافك عنى كلما أردت أن أكلمك .
ـ أهذا وقته يا سليمان ؟
ـ قبل الحرب كنت تقول بعد الحرب وها قد انتهت الحرب .
ـ أترى الحرب قد انتهت .
ـ لقد انتصرنا . . . ألم ننتصر .
ـ ففيم إذن كان اجتماعنا هذا .
ـ لنؤمن النصر ونتأكد منه .
ـ فإذا أمنا النصر وتأكدنا منه يحق لك أن تقول وأن أسمع .
ـ يا عماه سنوات ثلاث مررن .
ـ أو عشر ماذا أفعل
ـ اعقد لى عليها
ـ فماذا تقول القبيلة ؟
ـ تقول زوج ابنته من ابن أخيه .
ـ والعدو يتربص بنا .
ـ وهل لزواجى صلة بالعدو ؟
ـ إنى شيخ القبيلة لا يجوز لى أن أفرح والقبيلة خائفة .
ـ إذن .
ـ انتظر .
ـ إلى متى .
ـ إلى قريب . . . إلى قريب إن شاء الله .

ويطرق سليمان ثم يلقى بنظره حوله فلا يجد غيرى فيقوم إلى يصحبنى إلى عريض الصحراء .

ـ ما رأيك ؟
ـ لقد اخترت موعداً لا يصلح لهذا الحديث .
ـ فأى موعد يصلح ؟
ـ حين ترى الأمن بين القبيلة تقدم بطلبك .
ـ ومتى يشيع ؟
ـ لا أحد يعرف متى يشيع الأمن بين النفوس .
ـ لا أحد يعرف ؟

* * *

وقال العراف :

ـ أعرف فتى لا حديث له إلا الحرب وأفعاله فيها وما خاضه من أهوال .
ـ هل شهدته وهويحارب ؟
ـ يا أخا العرب إننى عراف لا أشهد حرب . . . هل رأيتنى أجىء إلى قبيلتكم منذ نشبت الحرب بينها وبين غطفان ؟
ـ لا .
ـ إن عملى فى الحياة هو الحياة والحرب عملها الموت يا أخا العرب إن الموت والحياة لا يجتمعان .
ـ إذن فمن هذا الفتى الذى يروى عن الحرب ؟
ـ غضبان بن صخر .
ـ أتعرف مكانه ؟
ـ أدلكم عليه .

* * *

وجاء صخر . . . شاهق هو إلى السماء عريض الكتفين ضخم رائع التكوين عظيم البنيان . . .

ـ كم شهدت من حروب . . . وإن عملى فيها بسيط . . . فإننى أتولى القيادة دائماً وما هى إلا أن أجيل السيف جولة أو جولتين حتى يدرك الأعداء بلا أمل لهم وما هى إلا إغماضة عين أو انتباهتها حتى تكون الحرب قد انتهت . . . فى يوم من الأيام نشبت الحرب بين قبيلة بهنس

وفزارة . . . وكان البهانسة أصدقائى فأرسلوا إلى رسولاً . . .

وقص غضبان وقص وكنت أحس مع كل قصة من غضبان نوعاً من الأمن والطمأنينة يشيع فى نفوس القبيلة فتشرق به وجوههم وسأل شيخ القبيلة :

ــ ما أجرك ؟

ــ ما نوع الحرب ؟

ــ يريدون أن ينتقموا من يوم هزمناهم فيه .

ــ فهى شر أنواع الحرب .

ــ فلتكن ما تكون ما أجرك ؟

ــ اجمعوا لى خمسين ناقة سليمة لا عيب فيها ولا أود .

ــ وبعد ؟

ــ أرسل النياق إلى أهل بيتى ثم أقيم معكم حتى يوم الكريهة .

ــ أتأخذ النياق قبل الحرب .

ــ هكذا تعودت .

ــ ليكن لك ما أردت .

ــ وإنى أحب أن أشرب الصبوح والغبوق .

ــ وخمر أيضاً .

ــ لا أعيش بغيرها .

ــ ولك ذلك .

ــ أما إفطارى فقعب من اللبن وإناء من السمن وعشرة أرغفة وغذائى شاة وعشائى . . .

ــ وعشاء أيضاً ؟ !

ــ إن لم آكل فكيف أحارب ؟

ــ وعشاؤك ؟

ــ لا أحب أن أثقل فى العشاء حتى يحسن نومى . نصف شاة تكفى

ــ لك ما أردت .

ــ والنصر مؤكد لكم .

وأقام غضبان بيننا يروى عن أعماله . . . وانصرفت القبيلة جميعها إلى أعمالها فقد آمنوا أن الحرب لن تنال منهم شيئاً ما دام معهم غضبان ولم يعد حديث الحرب يدور بينهم إلا إذا جلسوا حول غضبان يسمرون ويستمعون إلى أحاديثه عن حروبه التى لا تنتهى وكنت جالساً إلى جانب سليمان حين التفت إلى فجأة .

ــ لقد شاع الأمن فى النفوس .

نظرت إليه ثم قلبت نظرى فى وجوه القبيلة ... نعم لقد شاع الأمن .

ــ نعم لقد شاع الأمن .

ــ لقد صدق قولك ... لا أحد يعرف متى يشيع الأمن .

ــ نعم ... لا أحد يعرف .

ــ لقد شاع الأمن مع أن الحرب لم تنته .

ــ تستطيع اليوم أن تتقدم إلى عمك .

***

كان الفرح عظيماً واجتمع الحبيبان بعد طول انتظار وفرحت القبيلة باجتماعهما فقد طالت بهم فترة القلق والخوف وكانت النفوس منهم تهفو إلى فرح ... أى فرح أكان فرح بنت شيخ القبيلة ... ومرت شهور طويلة على العروسين وبشرت العروس بمقدم طفل يحبو فى إثباج الغيب . ورفرفت السعادة على القبيلة لا يذكرهم بالحرب إلا وجود غضبان بينهم يروى عن بطولاته ويتناول مأكله الدسم وإن كان هذا المأكل لم يصبح له وحده وإنما كان يشاركه فيه كثيرون من أبناء القبيلة فقد اتضح منذ اليوم الأول أنه ليس أكولاً نهما كما أحب أن يصور نفسه لأبناء القبيلة . وإن كان فى شرب الصبوح والغبوق يكثر ولكن إكثاره ما يلبث أن يتحول إلى أحاديث يمتع بها مستميعه من أبناء القبيلة . ولعلهم من أجل هذا كانوا يلحون عليه أن يستمر فى الشراب كلما أحب أن يكتفى .

لقد نشأ بين غضبان وأبناء القبيلة جميعاً نوع من الألفة والحب والإكبار من جانبهم والإيناس من جانبه .

***

حتى كان يوم فوجئنا فيه بنعمان أحد تجار القبيلة يدخل إلى أفناء الخيام يركض فرسه كالسهم النافذ ... وقبل أن يوقف فرسه صاح :

ــ لقد جاء اليوم .

وما هى إلا لمحة من بصر حتى كانت القبيلة جميعها حوله .

ــ كنت فى السوق فرأيت جماعة كبيرة من الناس وسمعتهم يذكرون اسم قبيلتنا فلم أشتر شيئاً وجئت أسابق الريح .

ـ متى تظنهم يصلون ؟
ـ قبل أن تغرب الشمس .

وصاح شيخ القبيلة :

ـ يومك يا غضبان .

ونظر الجميع إلى غضبان . . . لم يكن غضبان هذا الذى نرى . . . لقد امتقع وجهه فهو أبيض ناصع البياض . . . وزاغت عيناه فهى هاربة فى حفائرها كأنما تريد أن تغور داخل رأسه . . . بل جسمه الشاهق الضخم أصابته الضآلة فهو بعض من جسم .

غضبان جميعه بعض من إنسان . . . وقال لسانه وهو يتعثر فى فمه :

ـ بل هو يومكم أنتم .
ـ يومنا نحن بقيادتك .
ـ أنا لم أحارب فى حياتى .
ـ ماذا ؟

انطلقت صرخة ذاهلة من الجميع . . . واستغلق الأمر لحظات على شيخ القبيلة ولكنه سرعان ما تماسك ونظر إلى غضبان ثم قال فى تؤدة ووقار :

ـ احبسوا هذا الرجل حتى تنتهى الحرب ثم نرى فيه رأينا .

وخف إلى غضبان بضعة فتيان كنت منهم وكان معى صديقى سليمان ولم يلتفت غضبان إلى أحد منا وإنما نظر إلى سليمان وقال فى تؤدة :

ـ أما أنت يا سليمان فلا . . . أنت لا أجيز لك أن تقيدنى .

وبهت سليمان لحظات ولم يدر ما يقصده غضبان إلا أنه ترك الحبل من يده وتولينا نحن قيد غضبان وألقينا به فى خيمته وقد لا حظت عليه شيئاً غريباً . . . لم يعد ذلك الشخص الذى كانه منذ لحظات . . . لقد بارحه الخوف وعادت إليه الطمأنينة التى عهدناها فيه ولو لم نكن مشغولين بالجيش الوافد ولو وجد منا آذاناً صاغية لراح وهو فى قيده يقص علينا بطولاته فى الحروب التى خاضها .

* * *

راح شيخ القبيلة يستعد للحرب فالقبيلة جميعها تهيىء السيوف وتعد الخيل وشيخ القبيلة يحدد لكل منهم موقعه وما عليه أن يفعله . . .

وجاءت الجيوش آخر الأمر . . . وبادرنا نلتقى بها قبل أن تصل إلى الخيام وكانت مفاجأة لم

تخطر لنا على بال . . . لم تكن جيشاً لقد كانوا جماعة من قبيلة عاصم لم يتبين نعمان حقيقتهم فقد هيأ له الخوف أنهم جيش غطفان وما لبث شيخ قبيلتنا أن رحب بشيخ قبيلة عاصم ودعاه هو ومن معه إلى الخيام لينال الراحة والضيافة .

لقد جاء شيخ عاصم ليعقد صلحاً بيننا وبين قبيلة غطفان وذكر ما طلبوه من دية وكانت مائتى بعير ولم ينتظر شيخ عاصم حتى نبحث الأمر بل سارع يقول :

ـ وإنى أقدم من عندى خمسين بعيراً هدية منى إليكم حتى يعود السلام إلى الربوع .

وقبلنا الصلح فما أعظم أن ننتصر وندفع ثمن نصرنا هذا العدد من الجمال .

***

ـ فأنت إذن يا غضبان كنت تسرقنا .

ـ أنا يا شيخ القبيلة ؟

ـ ألست أنت من أخذ الخمسين ناقة وأقمت . . .

وقاطعه غضبان :

ـ لا تذكر المأكل والمشرب يا شيخ القبيلة فإنك أكرم من أن تذكر مثل هذا .

وصاح سليمان :

ـ ليكن . . . فماذا أنت قائل عن الخمسين ناقة .

وقال غضبان :

ـ اسكت أنت يا سليمان .

ـ عجيب أمرك معى . . . رفضت أن أقيدك وأنت الآن ترفض أن أحاسبك . . . ما شأنك معى . ؟

ـ إنك أكثر أبناء القبيلة انتفاعاً بما قدمت .

ـ لم تقدم إلا الأحاديث المزوقة وأخبار الحروب الوهمية التى خضتها والبطولة الزائفة التى ادعيت إنك صاحبها .

ونظر غضبان لحظات إلى سليمان ثم راح يجيل عينيه فى أبناء القبيلة فوجد عيونهم جميعاً تنتظرجوابه ونكس رأسه هنيهة ثم رفع رأسه فى هدوء وثقة .

ـ لقد قدمت إليكم بهذه الأحاديث أعظم ما كنتم تفتقدونه ولا تجدونه .

ـ أنت ؟

– قدمت إليكم الأمن . . . قدمت إليكم الاطمئنان .

وكأنما كانت هذه الكلمة فى واد سحيق بعيد عن أذهان الجميع . . . نظر أبناء القبيلة بعضهم إلى بعض ثم التقت عيونهم جميعاً عند شيخ القبيلة فوجدوه صامتاً صمت المفحم الذى لا يجد ما يقول واستمر غضبان فى حديثه موجهاً كلامه إلى سليمان ما يزال :

– بهذا الأمن وهذه الطمأنينة تزوجت يا سليمان وجد الفرح سبيله إلى قبيلة كانت قبل أن أجىء مفزعة فى صباحها ومسائها طعامها قلق وشرابها شغل وتفكير . . . أكثر ما أخذته منكم مقابل ما أعطيتكم . . . لقد نلتم المقابل . . . نلتموه كاملاً . . . أليس كذلك يا سليمان .

●

تحية عابرة

كان عدلى يفرح أشد ما يفرح حين يمر بالأطفال فيلقى عليهم التحية فيستقبلونها بالفخر والإعجاب والإكبار ، إن عدلى جمعه يلقى عليهم التحية ويعتبرهم رجالاً يستحقون منه هذا الإكرام وكان هذا الشعور بالفرح فى نفوس الأطفال يسكب سعادة مزغردة فى قلب عدلى ويشعره أنه ما زال فتى الليل ذا الصيت الضخم الذى تهتز لذكره أفئدة الناس فى قريته وجميع القرى المجاورة وكان هذا الشعور يسليه عن أنظاره الذى يعلم أنه أصبح ضعيفاً وهو يعلم أنه يجب أن يذهب إلى طبيب يعالج له ما يفقده من بصره ولكنه يخشى أن يسامع الناس بهذا فتسقط هيبته ويزول مجده الذى أصبح فى مهب الرياح منذ توقف عن الأعمال المجيدة التى تعود أن يقوم بها — فهو لم يقتل أحداً منذ ثلاث سنوات ومجده يوشك أن يصبح نسياً، فإنه لولا فرحة الأطفال بتحيته لأصبح بلا مجد أمجاد على الاطلاق .

وهو يخشى أيضاً أن تعرف حبيبته هنية أن نظره قد ضعف فينكمش حبها له وتفضل عليه زوجها عبد الباقى فهوإذن يبقى على سره دفيناً فى العميق من صدره لا يطلع عليه أحد .

خرج عدلى من داره فى أول الليل وراح يتحسس طريقه إلى دار عبد الباقى فى ليلة موعد كان عبد الباقى فى الحقل يروى الأرض وسيظل هناك إلى ساعة متأخرة من الليل فالفرصة مواتية لعدلى أن يذهب إلى هنية .

استقبلته هنية فى بشاشة ودخلا إلى حجرة النوم .

لم يطل بهما المقام فى الحجرة فقد سمعا صوتاً .

— عبد الباقى .

— هل ترك الغيط ؟

ـ اخفض صوتك .
ـ أيهمك أمره .
ـ زوجى .
ـ وأنا عدلى .
ـ إنه زوجى .

وذهل عبد الباقى مما يرى .

ـ عدلى .

وأخرج عدلى مسدسه من جيبه ولم يتكلم وأطرق عبد الباقى والثورة توشك أن تمزقه تمزيقاً ولم يجد شيئاً يفعله إلا أن يخرج من البيت هائماً على وجهه وتاه به الطريق وطال به المسير لا يعرف مكانه من القرية وهى قريته ولا يعرف قدميه على الطريق وهو طريقه وكل آفاق تذكر زوجته الخائنة ومسدس عدلى فيعود إلى الضياع وينسلخ الليل وتطلع الشمس ولكن الظلام ما يزال يحيط به ويتلفت حواليه آخر الأمر فيتبين له أن قدميه قد سحبتاه إلى قريب من المدينة .

فى المدينة يعرف طريقه . . . يعرفه فى إصرار وحزم . . . إنه الآن يعرف ما يريد . . . ويعرف الطريق .

ـ بلغنى أنك تسلف .
ـ بفائدة عشرة فى المائة .
ـ فى السنة .
ـ فى الشهر .
ـ أعطنى عشرة جنيهات .
ـ لكم شهر ؟
ـ حتى أجمع القطن .
ـ لمدة ثلاثة شهور .
ـ نعم .
ـ وقع على هذه الكمبيالة .
ـ هات الفلوس .
ـ توقيعك غير واضح .
ـ أوقع ثانية .
ـ خذ الفلوس .
ـ هذه سبعة جنيهات ؟!
ـ خصمت الفائدة .

ـ آه . . . إذن مزق هذه الكمبيالة واكتب كمبيالة أخرى بخمسة عشر جنيهاً
وسار فى طريقه . . . إنه يعرف طريقه .

ـ أريد مسدساً .
ـ هل معك رخصة ؟
ـ بكم هذا المسدس .
ـ إن كان معك رخصة فهو بثمانية جنيهات .
ـ إن لم يكن معى .
ـ فهو باثنى عشر جنيهاً .
ـ والرصاص ؟
ـ بجنيه .
ـ اسمع أريد هذا الرصاص مملوءاً بضعفى مايحمله من بارود .
ـ مر على بعد ساعة .

وحين عاد إلى القرية لم يذهب إلى البيت فما عاد له بيت ذهب إلى حقله وبات ليلته فى العراء .

وفى الصباح راح يهيم على وجهه محاذراً أن يقترب من بيوت القرية حتى اقتربت الشمس من المغيب فهو يسير إلى بيت مسعود حيث يعلم أن عدلى يسهر كل ليلة وينتظر مترقباً حين خرج عدلى سار خلفه بضع خطوات ثم أخرج مسدسه وأطلق منه رصاصة ونظر إليه عدلى هالعاً فأطلق رصاصة أخرى وثالثة حتى أفرغ رصاص المسدس جميعه وعدلى واقف على قدميه لم يتحرك فهو مسمر إلى الأرض شاخص إلى قاتله لا يكاد يحس بقدميه من الهلع وهذا الرصاص يتدافع من المسدس وعبد الباقى أشد هلعاً ودهشاً من عدلى . إن الرصاص لا يصيب مقتلا . . . وحين ينتهى الرصاص يظل عدلى مسمراً فى هلعه ويضيق عبد الباقى إلى موقفه فيسارع بالجرى الخائف المفزع ويظل يجرى ويجرى حتى تجد قدماه الطريق إلى المدينة ويظل يهيم بها شارداً ذاهلاً فما يصبح الصبح وتفتح الأبواب المغلقة حتى يسارع إلى الرجل الذى باعه المسدس .

ـ ما هذا الرصاص ؟
ـ رصاص بلا بارود .
ـ لماذا فعلت هذا ؟
ـ عرفت أنك تريد أن تقتل .
ـ وما شأنك ؟
ـ وعرفت أنك لست قاتلاً محترفاً .

ـ ليس فى العالم شىء يستحق أن تفقد من أجله حياتك أو حريتك .
ـ شرفى .
ـ طلقها .
ـ شرفى .
ـ إن طلقتها سيصبح شرفها هى وليس شرفك أنت .
ـ ويصمت عبد الباقى حيناً ويجلس ويجتذب من أعماقه نفساً بعيد الأغوار .
ـ عجيبة .
ـ ماذا ؟
ـ أحس الآن بالراحة .
ـ حقاً ؟
ـ لقد قتلته .
ـ هل قتلته ؟
ـ أنا قتلته ولكن هو لم يمت .
ـ إذا فأنت فعلت ما تريد .
ـ لقد قتلته .

ظل عدلى مسمراً وتقاطر الناس إلى صوت الرصاص فوجدوه واقفاً جامداً على موضعه لم ينتقل وراحوا يسألون وهو شارد . . . ذاهل هزوه .

ـ قتلنى .
ـ ليس بك جرح .
ـ ولكنه قتلنى .
ـ من ؟

وتطايرت القصة فى أرجاء القرى جميعاً وأصبح القوم ولا حديث لهم إلا هذا الحادث فإنهم هناك يترقبون مثل هذه الحوادث بشغف ، يتسقطون أنباءها ويمضغون حديثها فإنهم هناك لا يجدون الكثير من وسائل التسلية ولا عزاء لهم عن هذا إلا الحديث . . . لن يتركه عدلى سيجعل من جثته غربالاً . . ستسمع الكثير فى الأيام القليلة القادمة . . . وسترى الكثير فى الأيام القليلة القادمة . . . ونقول . ونروى ونتحدث ونتسلى .

وتمر الأيام ويزداد التوقع والتشوق وعدلى يعلم أنه لن يستطيع أن يصنع شيئاً إن يده لا تعرف طريقها إلى الطبق الذى يأكل منه إلا بالتحسس . . . لن يستطيع . . . لن يستطيع .

ويمر بالناس فترنو إليه العيون فى ترقب وتوقع وفى إكبار أيضاً فهو الرجل الذى تعلقت به آمالهم أن يمدهم بموضوع للحديث يعينهم على الملالة شهراً أو ربما شهرين . . إنهم يتوقعون وهويعلم أنهم يتوقعون ولكن كيف . . . لعله يستطيع أن يستأجر قاتلاً . . . إنها إذن النهاية . . . على الذى عاش عمره جميعاً يستأجره الناس للقتل يستأجر هو الآخر . إذن قد مات عدلى .

وتمر الأيام وتصبح أسابيع ما تلبث أن تصبح شهوراً ويحس الناس بخيبة الأمل فقد فتر حديثهم عن حادثة عبد الباقى وهم يريدون أن يبدأوا حديثهم عن عدلى لقد خاب أملهم . . . خاب أملهم . ولكن عدلى ما يزال يمر بالناس ويلقى التحية وقد أصبح الرجال يستقبلون هذه التحية بنغمة فاترة فيتظاهر عدلى بأنه لم يلحظ هذا الفتور ويمر الأطفال فيسعد بالنغمة المرحبة المليئة بالإعجاب والإكبار ويسعد ويشعر أنه مازال ذا مجد وشموخ .

حتى كان يوم . . . يا له من يوم .

مر الأطفال وكان من بينهم محمد بن عبده أبو السيد . . . وكانت هذه الشلة من الأطفال قد عودته أن ترد تحيته فى إعجاب شديد يزيد على إعجاب الجماعات الأخرى من الأطفال .

ــ السلام عليكم يا رجال .

وتخافتت الأصوات وهى تقول :

ــ سلام .

سلام فقط . . . أين إذن السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا سيد الرجال إذن الأطفال أيضاً قد أصابتهم عدوى الفتور ، ولكن انتظر ما هذا .

إنه لم يكن يخطو خطوتين حتى سمع صوتاً . . . إنه يعرفه . . يعرف الصوت قال الصوت :

ــ جاءتك خيبة يا عدلى .

ويضحك الأطفال ولايملك عدلى نفسه فينقلب إليهم .

ــ ولد يا محمد كيف تقول هذا ؟

ــ أصلك هايف ولا موآخذه يا عم عدلى .

ــ قتلت ثلاثين رجلاً ولا يمكن أن أنتهى إلى قتل الأطفال .

ــ تستطيع أن تقتل رجلاً إذا شئت يا عم عدلى .

ــ والله لن أقتل إلا أباك .

ــ أنا شتمتك . . إنما غيرى قتلك ولم تمد إليه يدا جاءتك خيبة يا عم عدلى وثار عدلى

وهاج وعلا صوته وصرخ لقد أعماه الغيظ عن إدراك الموقف فتجمع الناس ووجد القوم آخر الأمر حديثاً يسليهم عن الملالة .

ولكن عدلى لم يطق . . . حياته أهون من ضياع مجده .

انتظر عبد الباقى فى الطريق وتحرى أن يكون ملاحقاً للمكان الذى يمر به عبد الباقى . . . ومر عبد الباقى وأطلق عدلى رصاصة وثنى بأخرى قبل أن يقفز إليه عبد الباقى فيصرعه . . . . ويصرخ عبد الباقى ويأتى الناس ويبلغ الحادث إلى الشرطة والنيابة وحين يأتون إلى مكان الحادث يقرر وكيل النيابة حفظ القضية والسبب أن المكان الذى أطلق منه عدلى الرصاص على عبد الباقى لا يسمح بالخطأ فقد كانت المسافة متراً واحداً فالشكوى كيدية يحاولون بها سجن عدلى فالأعمى وهو أعمى لا يمكن أن يخطىء من هذه المسافة القريبة .

ووجد القوم آخر الأمر شيئاً يتحدثون فيه . . وأصبح عدلى آخر الأمر أسطورة خزى وخذلان . . . وبعد شهور كان عبده أبو السيد يسير بحماره فاذا بعدلى يمسك برقبة الحمار .

ــ حاول أن يقتلنى عتاولة المجرمين يا عبده يا أبو السيد فلم يستطيعوا ولكن ابنك يا عبده أبو السيد قتلنى . . . فوضت أمرى إلى الله . . فوضت أمرى إلى الله .

●

وحـــــــدة

ـ ١ ـ

ـ أريد أن أقول :
ـ قل هل منعك أحد ؟
ـ أنت دائماً تمنعينى .
ـ أنا ؟
ـ أنت .
ـ ما منعتك عمرى .
ـ أنت لا تسمعين ما أقول .
ـ أليس المهم أن تقول .
ـ بل المهم أن تسمعى .
ـ فى هذه المرة أريد أن أقول وأن تسمعى .
ـ ليس من عادتى أن أسمع .
ـ لقد سئمت القول بلا سماع .
ـ لن تقول شيئاً جديداً .
ـ تزوجنا من زمن بعيد وما عندك طبعاً قلته فى الأيام الأولى .
ـ حدث بيننا شىء .
ـ لا يهم ما حدث .
ـ ولكنى أريد أن أقول .
ـ فقل .

ـ وتسمعين .
ـ لا شأن لك .
ـ فلا معنى للقول .
ـ أنت حر .
ـ لو كنت حراً لتكلمت .
ـ إن لك الحرية أن تقول .
ـ وأنا لى الحرية ألا أسمع .
ـ ما إصرارك هذا ؟
ـ لا أرى فائدة فى قولك ولا فى سماعى .
ـ كيف تحكمين على ما سأقول وأنت لم تسمعيه بعد .
ـ لقد خرجت من حياتى فكل حديث لا معنى له .
ـ ومع ذلك ليس هناك ما يمنع أن أقول وتسمعى .
ـ لقد رأيتكما .
ـ أنا لم أنكر هذا .
ـ فماذا تريد أن تقول ؟
ـ فتاة هى . . .
ـ لا تقل . . . لا تقل .
ـ إذن فسأقول أنا ولك أنت أن تسمعى أو لا تسمعى وهبته حبى ووفائى ويخون .

طفلة كنت حين تزوجنا وبهرنى منه حديث منمق وقوام رشيق ووجه وسيم .

وحين عرفت الحياة وجدته بلا ضمير ووجدت حديثه المنمق طلاء وبلا معنى ولا نبض وكانت طفلتى قد جاءت فكان لا يمكن أن أتركه وقبلت أن أعيش معه وهو تافه وسخيف أما أن يصل الأمر إلى الخيانة . . . ولكن ما لى أغضب لخيانته كل هذا الغضب ما دمت لا أحبه فما حرصى على وفائه . لعلنى حريصة على كرامتى وما شأن كرامتى ما دام يخفى عنى خيانته فكرامتى إذن سالمة لم يمسها أحد فحين كشفت ما كان خافياً حينئذ . . .

ـ إنى محام .
ـ كنت .
ـ ومازلت .
ـ بل كنت .
ـ وللمحامين زبائن .
ـ هل أنت مصمم أن تقول ؟
ـ كل التصميم .

ــ وماذا يضيرك ما دمت لا تتعب .

ــ أرادت هذه الموكلة أن تلتقى بى خارج المكتب فكان لابد أن ألتقى بها . . . ان المحامى طبيب نفسى عليه أن يشعر زبائنه دائماً أنهم فى أمن واطمئنان ماداموا فى مكتبه وفى حمايته القانونية .

كل ما بلغك غير هذا كذب . . . لماذا لا تجيبين . . أى إنسان لا يجوز أن يخبر الزوجة بما يصنعه زوجها حتى لو كانت هذه الأخبار صحيحة . . . إن للبيوت قدسية لا يجوز لأحد أن يحطمها . . . إن هؤلاء الذين كلموك عنى إنما يريدون أن يحطموا البيت الذى بنيناه من أحلام طفولتنا ومن ظلال صبانا ومن أوهام شبابنا ومن حقيقة وجودنا . . . ألا تذكرين . . . وإنما كنت تحبين أن تسمعى الذكريات وكنت تكملينها مالك لا تكملين . . .

أتذكرين يوم كانت دادة حميدة تلقى بنا معاً فى البانيو عرايا ولم نكن نجد حرجاً فى ذلك يومذاك كنا نضحك وأرشك بالماء وتضحكين ثم نستحم ونخرج وكأننا طفلان أو طفلتان لا يفرق بيننا جنس مختلف . . . أنت لا تسمعين لو كنت تسمعين لاحمرت وجناتك فقد كانت وجناتك تحمر دائماً كلما ذكرتك ببانيو دادة حميدة . . . إذا كانت الأيام الطويلة لم تستطع أن تفرق بيننا أتستطيع ألسنة الناس ألا تعرفين معنى مرور الأيام . . . إنها هذه الأيام التى تلقى الشيب إلى الرؤوس وتلقى الغضون على الوجوه والترهل على الأجسام والضعف على الأبدان . . . هذه الأيام نفسها تمر على العلاقات الصادقة الأصيلة فتزيدها أصالة وتغرسها عميقة فى صدر الزمن فاذا الروحان مثلنا يصبحان حياة واحدة تنطلق أنفاسها من مصدر واحد قد اتحدت آمالها فى الحياة واتحدت بينهما مصادر الرزق ومصادر الضيق ومصادر الفرح . . . لا لن أحدثك عن ابنتنا . . . إن كانت العلاقة بيننا لا تحتمى إلا بسهير فأنا لا أريد هذه العلاقة . . . لن أقول لك إن طلاقنا سيكون صدمة لسهير فى بيت زوجها . . . أتصدقين هذه الخرافات وبنتنا الآن متزوجة . . . أترينى مازلت شاباً أصلح لهذا . . . كنت دائماً تحبين سن الخامسة والأربعين لست صغيراً على كل حال . . .

* * *

لو علمت لماذا خنتك . . . لن تتصورى الأسباب . . . إنك قاسية إنك تطلبين الكمال من كل من حولك ولا يستطيع من حولك أن يهبوا لك الكمال . . . أعلم أنك قسوت على نفسك وكنت مثالية فى كل ما تصنعين ولهذا أردت من الجميع أن يصبحوا فى مثل مثاليتك . . . عذبت نفسك بالمثالية فلماذا لا تعذبين الآخرين . . . ولكننا نحن الذين حولك بشر نريد أن نخطىء كما يخطىء الناس وأن نعيش كما يعيش الناس ونتمتع بالحياة بكل الحياة . بما فى الحياة من خطأ

وما فيها من صلاح ... كرهت عنفك ومحاسبتك على كل صغيرة كرهت هذا فيك وأعجبت به فيك أيضاً ... أنت مثل أعلى أعبده ولا أريد أن أكون مثله ... أتمنى أن أراه ولا أتمنى أن أكونه ليتك تسمعين هذا الكلام ولكن كيف أقوله ... إن فيه اعترافاً بما فعلت وقد تحصلين منى مع كل شيء ولكنك لن تحصلى على هذا الاعتراف ...

***

وأنت أيضاً لست صغيرة ... الغيرة لا تتفق مع سنك أصغر منى أعلم ذلك ولكنك لست صغيرة لا إجابة ... لا إجابة على الإطلاق ... إن كنت مصممة على الصمت ... فابتسامة أو تكشيرة أو هزة رأس ، أى شيء يشعرنى أننى هنا إننى أقول شيئاً ...

ـ او كنت حياً لأمتعنى هذا الحديث ... ما زال لحديثك طلاوته ... ما زال حديثك يستطيع أن يعيدنى إليك .

ـ لو كنت حياً ... ألست حيا ...

ـ ألا تعلم أنك مت ؟

ـ مت ... ألهذا الحد تكرهيننى ... هل استطاعت الأقاويل أن تجعلنى ميتاً فى نظرك .

ـ لأنك مت .

ـ أنا الآن لست حياً .

ـ أتتصور نفسك حياً ؟

ـ أليس هذا حقاً ؟

ـ ألا تعرف أنك مت .

ـ لا تقولى هذا .

ـ إنها الحقيقة .

ـ ألست جالساً الآن أمامك ... ألا تسمعين حديثى وتجيبين .

ـ صوت من العالم الآخر .

ـ فأنا ميت إذن .

ـ هل تشك فى ذلك .

ـ بل إنى واثق أنى أعيش .

ـ إنى حى ولكن لن أحيا معك ما دمت قد هنت عندك إلى هذه الدرجة .

ـ علم الله لم تهن ولكنها الحقيقة .

ـ إنها أمنياتك أنت ...

ـ إنها الحقيقة ...

ـ سأجعل منها حقيقة بالنسبة إليك لن أعيش معك لن ترى وجهى بعد اليوم . لن ترى وجهى بعد اليوم .

ـ ٢ ـ

لعلها كانت تختاره من تلقاء نفسها إذا لم تتعرض لما تعرضت له . . . كيف قبل أبوها هذا . . . أبوها رجل القانون الذى ظل طول حياته يعلمها أن الحرية هى أثمن ما فى الوجود وأن حرية المرء هى حياته فإذا هى فى سنها الباكرة تتنسم الحرية مع الهواء الذى تتنشقه واثقة أنها تستطيع أن تمارس حريتها فى كل صغيرة وكبيرة من حياتها . . . وقد عاشت منطلقة سعيدة بحريتها سعيدة بثقة أبيها فيها حريصة أن تؤكد له دائماً أنه يضع ثقته بين يدين جديرتين بها . . . فهى نقية دائماً . . . تختار لنفسها أكرم مكان بعيدة كل البعد عن مواطن الشبهات لا تكترث كثيراً بتضييق أمها عليها فإنها يجب أن تسيطر عليها دائماً وتحب أن تحد من حريتها المنطلقة هذه فى طبيعة لا تكلف فيها وقد عرفت هى هذا فى أمها فهى تغفر لها قسوتها وتعيش حياتها كما تحب أن تعيش فى حرية نقية صافية .

وهى فى جمالها الرائع الأخاذ كفيلة أن تثير لدى الشباب ألوانا من المطاردة وهى سعيدة بهذه المطاردة وهى أكثر سعادة حين ترى نفسها تردهم جميعاً فى كبرياء وتدفعهم فى عزة لا يعنيها ماذا هى مثيرة حولها بكبريائها .

وحين أصبحت فى الجامعة أحاط بها الزملاء برغباتهم الجامحة وأحاط بها الزميلات بغيرتهم المجنونة فلم تعبأ بالرغبة من الفتيان ولا بالغيرة من الفتيات وظلت كما تحب لنفسها أن تظل مترفعة كريمة على وئام تام مع ضميرها وحريتها .

واستطاعت الرغبة من الشباب والغيرة من الفتيات والكبرياء منها أن تطلق حولها الأقاويل ضاربة مجنونة فمنهم من يقول لها حبيب ولكنها خبيثة عميقة تستطيع أن تخفى أمرها ومنهم من يقول مجنونة متكبرة ومنهم من يقول إنها مبذولة لمن يشاء ولكنها تتظاهر بالعفة . ومنهم من يدعى أنها فى أمسها القريب كانت معه وأنه رأى من فجورها ما لم يشهده من المحترفات .

وتجد هذه الأقاويل طريقها إلى أذنيها فالبنات يحببن أن يتظاهرن بالشفقة عليها ويحببن أيضاً أن يتظاهرن بصداقتها فإن الفتاة التى تستطيع أن تثير كل هذه الأقاويل تصبح صداقتها فى أغلب الأمر شيئاً حبيباً إلى نفوس الفتيات .

وكانت هذه الأقاويل تصيب من نفسها مكاناً قاسياً ولكنها كانت تستطيع دائماً أن تتكبر عليها فكأنما الحديث عن فتاة غيرها لا تعرفها .

وإن كان قول الشاب الذى قال إنه كان معها قد أثار فيها غضباً شديداً . . . إنها تعرف هذا الفتى ولكنها لم تكلمه فى حياتها أبداً . ولقد حاول أن يتقرب منها بالطريقة الساذجة التى يحاول بها غيره فلم تكلف نفسها عناء صده بالحديث وإنما أشاحت عنه وانصرف دون حديث فهو من ذلك النوع الذى يحب أن يزهو دائماً أن النساء أسيرات إشارته .

عرض الفتاة بضاعة لا حارس عليها . . . يكفى أن يطلق هذا الأفاق قوله الرخيص حتى أصبح أحدوثة بين الطالبات والطلبة . وعن وهم دائماً أكثر ميلاً إلى الهجوم منهم إلى الحق . لا يعنيهم ما يعرفونه عن كبريائى وما يعرفونه عن هذا الفتى من كذب وادعاء . وإنما يعنيهم أنهم أصبحوا أمام قالة جديدة حكاية مثيرة يرويها فتى على أنه بطلها . . . وستصدق الحكاية بلا تمحيص ولا تفكير فإن النفوس تريد أن تصدقها وليذهب كبريائى إلى أى جحيم يشاء .

ويتجمع الفتيان والفتيات حول الشاب ويصف وفى كل يوم يزيد فى الوصف ويستطيع فى خبث أن يغمز بعينه :

ـ لولا وجود الإنسان لسمعتم ما شئتم من التفاصيل .

ـ أنت كذاب .

صوت انبعث من شاب بينهم والتفتت إليه العيون منكرة عاجبة فقد تعودوا أن يسمعوا هذه الأحاديث من ملقيها هذا دون أن يفكر أحد فى وضعها موضوع الاختبار ليحكم عليها آخر الأمر بالصدق أو بالكذب فما هذه النغمة الجديدة ومنذ متى يفكر واحد منهم فى مقدار الحق فيما يسمع .

ـ أنا كذاب ؟ !

ـ وما شأنك . . .

ـ أنت كذاب لأن ما تقوله لم يحدث وحقير لأنه لو كان حصل لكان الأولى بك أن تستره .

ـ خطبة عظيمة فى مكارم الأخلاق .

ـ الفتاة التى تروى عنها نعرفها جميعاً وهى لم تسمح لأحد أن يأخذ عليها إشارة غير كريمة .

فهى حريصة أن تكون سمعتها فى الكلية أحسن سمعة وهى جميلة . . . بل هى أجمل فتاة نعرفها . . . ولو شاءت لوجدت الأصدقاء من كل مكان ومن الطبيعى أنها إذا أرادت أن تلهو فإنها ستبحث عن شاب فى أى مكان غير الكلية التى حرصت دائماً أن تكون فيها شريفة . . . أنت كذاب .

وكأنما أفاق الجمع الملتف حول القصة والحوار إلى هذه الحقيقة البسيطة الساذجة . . . إنها حقيقة لو أراد أى شخص منهم أن يفكر فيما يسمع لوصل إليها دون جهد يذكر ونظروا إلى الفتى

الذى كان يروى فوجدوا البهتة على وجهه . . . إنه فى موقف جديد عليه فقد ظل طول عمره يروى فيجد المتعة فى وجوه السامعين ولم يجد معارضة فى يوم من الأيام ونظر حوله فوجد الوجوه جميعها تنتظر جوابه وهى أقرب ما تكون تصديقاً لهذا الهجوم الذى شنه عليه زميله . . . كان ذهنه مشغولاً بخلق القصة ولم ينشغل أبداً فى خلق الحجج التى تدل على صدقها فحين واجهه هذا الإنكار وجد نفسه فى صحراء من الدهشة ولم يجد شيئاً يقوله . . . فغر فمه وحملقت عيناه وانطفأ عن وجهه وهج الحماسة وجف ريقه وراح يدور بعينيه حوله فإذا العيون التى كانت منذ لحظات ساجية مستمتعة بما تسمع تصبح عيوناً متسائلة متهمة قاسية محتقرة . . . كانت تريده أن يكون صادقاً . . . كانت تريده يحمل الدليل على ما يقول حتى تصبح متعتهم حقيقية لا أثر فيها للخداع . . . خداعه لهم وخداعهم هم لأنفسهم . . . ولكنه خذلهم بهذا الصمت وهذه الحيرة وهذه الحماسة المنطفئة وهذا الصمت الذاهل الحيران وهذا الوجوم الكسيف الحزيان . طال صمته فألقى بعينيه إلى الأرض آخر الأمر واستدار للجميع فى يأس قائلاً فى صوت يحاول أن يحمل التهديد فلا يحمل إلا الهزيمة :

ــ طيب . . .

وينصرف لتعلو فى سمعه عند الباب قهقهات عالية ساخرة ويلتئم الجمع حول المنتصر فيجدون الفتى غير معتز بانتصاره .

ــ أنتم جميعا شركاؤه والفتيات منكم خاصة . . . كيف تأمن أى واحدة منكن أن يقول عنها مثل هذا القول . . .

وينصرف الفتى المنتصر فى غضب وينتقل الحديث جميعه إليها فتجد فى نفسها راحة واطمئنانا . . . إن الدنيا ليست بالسوء الذى كانت تتصوره . إن هذا الفتى الذى دافع عنها حاول أن يقيم معها صداقة فردته هو أيضا ولكنه شريف . . .

وتمر الأيام ولا يحاول أن يتقرب منها . . . إنها تعرف أنه يحس بنظراتها الشاكرة تلقيها إليه من بعيد ويروغ هو من هذه النظرات فقد قال ما يعتقد أنه الحق وهو لا يريد منها شكراً . . . وتأبى هى أن تقدم شكرها فى حديث فهى لا تريد أن يرى زملاؤها أن بينها وبينه أى علاقة ولو كانت هذه العلاقة مجرد حديث . . .

ودون أن تحس هى ودون أن يحس نشأت العلاقة . . . فيها إكبار من الناحيتين وفيها شكر من جانبها . . . بل فيها من جانبها معنى أكبر من مجرد الشكر . . . لقد أحست أن هذا الشاب قد أعاد إليها ثقتها فى الناس . إن فيهم سوءاً ولكنهم ليسوا جميعاً أشرار . . . أحبته من ومضات خاطفة فى عينيه أحست أنه يحبها . . . فهى لم تدهش حين تقدم إلى أبيها يريد أن يخطبها ولكنها دهشت أن أباها لم يسألها عن رأيها وإنما عرفت أنه صرفه دون قبول . . . تقول

أمها انه فقير لا يملك إلا مرتبه حين يعين . تلك الحجة التى يراها الآباء دائماً مقنعة والتى يراها الأبناء دائماً سخيفة . . .

كان رفض أبيها مؤلماً بالنسبة لها . . . كيف ينهار هذا التمثال الذى أقامته له فى نفسها . . . لقد ظل طول حياتها يعلمها أن الحرية هى أثمن ما يملكه الإنسان ثم هو فى لحظة واحدة يسلبها كل حريتها وهى أهم ما يعرض لفتاة فى حياتها . . إنهار تمثال أبيها . . . إنها تعلم أنه يلين أمام أمها فى أمور كثيرة ولكنه من المبادىء الأساسية التى يؤمن بها لا يلين فكيف قبل أن يعتسف حق ابنته فى اختيار شريك حياتها وكيف قبل أن يرده دون أن يسألها . . .

إن هذا الذى رده أبوها هو الشخص الوحيد الذى تريد بحريتها الكاملةأن تتزوج منه وشباب الدنيا جميعها بعد ذلك سواء . . . ما دامت لن تتزوج هذا الشاب فليكن الزوج من يكون .

وحين أقبل زوجها هذا :

ــ ما رأيك ؟

ــ لا رأى لى .

ــ فأنت إذن موافقة .

ــ إذا كان عدم إعطاء الرأى موافقة فأنا موافقة .

واعتبرت أمها هذا الحديث القصير موافقة وتمت مراسيم الزواج وأبوها بعيد عن الموضوع جميعاً وكان لا يعنيه . . .

وحين أصبحت فى بيت زوجها تبينت هول ما حدث لها . . . لقد قضى عليها . . .

ــ قالت لى أمك انك وافقت .

ــ هل سألتنى أنت .

ــ وهل تكذب أمك فى مثل هذا .

ــ إنك علمتنى الحرية وسلبتها منى ليتك لم تعلمها لى حتى لا أفجع فيها وفيك وأنت تسلبها منى .

ــ هل سلبت حريتك ؟

ــ منذ رفضت زميلى الذى جاء يخطبنى .

ــ إنها أمك .

ــ وأنت أبى .

ــ حسبت أنه لا يهمك أن أرفضه .

ــ ولماذا لم تسأل ؟

ـ كنت فى شقاق مع أمك وخشيت أن تظن أننى أقف إلى جوارك للخلاف الذى بيننا .
ـ وأنا الضحية .
ـ لم أتصور أن فى الأمر تضحية .
ـ ولماذا لم تسأل ؟
ـ أخطأت .
ـ وحياتى هى الثمن .
ـ ألا تقبلين اعتذارى .
ـ وماذا يفيد الآن ؟
ـ قد نستطيع أن نصلح ما فسد .
ـ كيف وقد متُ .
ـ أنا متُ .
ـ ألم تمتْ . . .
ـ من هذا الذى يحدثك .
ـ وهم أو شبح .

ـ حتى أنت . . . حتى أنت . . . حتى أنت . . . لقد أعطيتك كل حبى .
ـ وأعطيتك كل حبى .
ـ لم تطلبى شيئاً إلا قدمته .
ـ كنت سعيداً وأنت تقدم لى ما أريد .
ـ وكنت سعيدة وأنا أقدم لك ما تريدين .
ـ كنت أحب أن أجد حبى صدراً عندك .
ـ ولكنك كنت كثيراً ما تشك فى .
ـ كنت أخشى أن يكون حبك لى مبعثه البحث عما أقدم لك .
ـ هناك من هو أغنى منك ولم أقدم له حبى .
ـ إن الغيرة هى الثمن الذى يدفعه المحب فى مقابل هنائه بحبه .
ـ ولكن على حساب ثقته بمن يحب .
ـ أكنت تريديننى محباً لا يغار .
ـ كنت أريد حبيباً يهب الثقة ثم يخاف .
ـ أهذا ما أغضبك .

ـ لا . . . لقد تعودت منك هذه الوساوس .
ـ إن الصلة بيننا لم يكن يحميها إلا الحب .
ـ وهل هناك أقوى من الحب ؟
ـ القلوب تتغير .
ـ فهل تمنع الغيرة تغيرها .
ـ والمرأة تتغير .
ـ وهل تمنع الغيرة تغيرها .
ـ أنا لا أملك الوساوس تثور فى نفسى .
ـ الواثق بنفسه يملك وساوسه .
ـ هل يريد أحد أن يخاف ؟
ـ القوى يتحكم فى طبائعه :
ـ لكل إنسان ضعفه .
ـ تستطيع دائماً أن تثق بنفسك .
ـ وبغيرى ؟
ـ إذا وثقت بنفسك وثقت بغيرك .
ـ بكل الناس .
ـ بمن تحب .
ـ فإن أحببت من لا يحبنى .
ـ فأنت غبى .
ـ هل أنا غبى ؟

ـ إذا أحببت من لا تحب فأنت غبى .
ـ أعظم أذكياء العالم أحبوا من لا يحبونهم .
ـ لم يكونوا يعرفون أنهم غير محبوبين .
ـ خادعوا أنفسهم .
ـ كنت أخاف أن أخادع نفسى .
ـ أن تخادع نفسك خير من أن تثيرها .
ـ أحببتك بجنون .
ـ وأنت تعلم أننى أحببتك بجنون .
ـ لقد جئت لى كموكلة .
ـ كانت سمعتك كمحام كبير .
ـ وكسبت قضيتك .

ـ لقد كنت على حق .
ـ فأنا لست بارعاً إذن .
ـ كنت بارعا فى اختيارك لى .
ـ أحسست أنك فى فراغ .
ـ حين يتوفى الزوج تصبح الزوجة فى فراغ .
ـ ولكنى أنا أيضاً كنت فى فراغ .
ـ كان فراغاً عاطفياً .
ـ كنت محتاجاً إليك .
ـ وكنت محتاجة إليك .
ـ قضيت معك أروع لحظات حياتى .
ـ وإنها أروع لحظات حياتى .
ـ لقد وهبت لى الكثير .
ـ وأنت وهبت لى الكثير ثم . . .
ـ ثم ماذا .
ـ مللتنى .
ـ أنا .
ـ تركتنى بين الموت والحياة .
ـ كان لا بد أن أسافر فى عمل .
ـ وحياتى .
ـ إن عملى يتوقف عليه مصائر الأخرين . . . إنها مسألة ضمير .
ـ ألم يعاتبك ضميرك فى أمرى ؟
ـ تركتك بين يدى الأطباء .
ـ ولكنى وحيدة .
ـ وماذا كنت أصنع ؟
ـ وأنا وحيدة بسببك .
ـ طبيعة حياتنا تحتم عليك الوحدة .
ـ ألم تفكر فى أمرى ؟
ـ ماذا كنت أصنع .
ـ سؤال العاجزين .
ـ فأجيبى أنت .
ـ كنت تستطيع على الأقل أن تأتى لى بممرضة .

ـ لماذا لم تقولى ؟
ـ مثل هذا لا أقوله أنا .
ـ إنك دائماً كنت تطلبين ما تريدين .
ـ إلا هذا .
ـ لماذا ؟
ـ إنها صحتى وحياتى يجب أن ترعاها أنت دون أن أقول .
ـ كنت مشغولاً بعملى ولم يخطر لى هذا ببال .
ـ لو كان أمرى يعنيك لخطر هذا ببالك .
ـ لا يجوز أن تحاكمينى على فكرة خطرت لك ولم تخطر لى .
ـ ثم عدت من السفر .
ـ لست أدرى أى شيطان أخبر زوجتى بعلاقتنا .
ـ فهو حرصك على زوجتك إذن .
ـ بيتى وكيانى وسمعتى .
ـ وحبك .
ـ كنت أطمئن عليك .
ـ وهل اطمئننت ؟
ـ لقد كنت دائماً حريصة على بيتى .
ـ كنت أحسب حياتى عندك غالية .
ـ أنت تعرفين أنها غالية .
ـ كنت أحسب .
ـ ومع هذا فقد سمحت زوجتى للمجلات أن تتكلم فى الموضوع .
ـ وهل يهمك هذا ؟
ـ سمعة المحامى فى غاية الأهمية .
ـ كل شىء مهم عندك إلا صحتى .
ـ ألا يمكن أن تكون أشياء كثيرة مهمة فى وقت واحد .
ـ على أن تكون صحتى أهم شىء عندك .
ـ أنت تعرفين أنها أهم شىء عندى .
ـ تركتنى وأنا بين الموت والحياة .
ـ ظروف قاسية .
ـ عذر الضعاف .
ـ ألا ترحمين ؟
ـ وماذا تفيد رحمتى الآن ؟

ألا تعرفين ماذا تفيد ؟
لقد فات الآوان .
لم يفت .
لعلى كنت أقبل عذرك .
لو لم تكن . . .
لو لم أكن ماذا ؟
لقد مت .
أنا مت ؟
لقد مت .
أهى مؤامرة مدبرة .
الموت لا يحتاج إلى تدبير المؤامرات .
إذن فأنا ميت .
ميت ؟
أنت ترين هذا .
إنها الحقيقة .
الحقيقة ؟! . . .
ميتاً أو حياً لن أراك ولن تريني بعد اليوم .

— ٤ —

هو الملجأ الأخير ليس لى غيره لا يستطيع هو الآخر أن يدعى موقى . . . أنا الذى صنعته
السهر الطويل والجهد الشاق والضمير اليقظ والعلم والدراسة والفن . . صنعته وجعلت
ه على كل لسان . . . مكتبى . . . إذا ذكر اسمه للمتهم فهو أمن ولصاحب الحق فهو عدل
بل فيه قضية إلا كنت راضى الضمير عنها . . . فارغ هو الآن . . . موعد المكتب لم يأت
. . . الوكيل لم يأت والزبائن لا تجىء إلا بعد موعد المكتب بساعة أو أكثر . . . ما أعظم ما
، به . . . هذه القضايا القديمة كلها تحمل الأعمال الرائعة التى قدمتها فى ساحة العدالة وفى
لمحاماة وفى خدمة الحق . بل إلى أن القضايا التى لم أقبلها كانت أعظم وأضخم . لا أنسى
القضية التى اجتمع فيها خمسة شباب ليقتلوا رجلاً عجوزاً وجاءنى أخو أحدهم يدعونى
افعة عن أخيه وقرأت القضية ووجدت الظروف جميعاً تشير إلى موكلى بالاتهام . . . كان
المرافعة فى القضية مهماً بالنسبة لى فقد كنت فى ذلك الحين محامياً ناشئاً يبحث عن القضايا
ة ليصنع بها اسمه فى سجل كبار المحامين وقد جاءنى هذا الموكل لصلة كانت تربط بينى

وبين أسرته وكان طامعاً ألا أغلو فى الأتعاب وقد كنت خليقاً ألا أتقاضى شيئاً على الاطلاق .

فمثل هذه القضايا يدفع فيها المحامون أتعاباً ولم تكن أصابع الاتهام التى تشير إلى موكلى تهمنى فى شيء كل ما كان يهمنى هو الحقيقة . . . لقد أحسست أن موكلى اشترك فى الجريمة . . . أحسست بهذا إحساساً اقترب من اليقين فحين جاء الأخ يسألنى إن كنت سأقبل القضية سألته ذلك السؤال الذى لا يجوز لمحام أن يسأله لمتهم أو قريب لمتهم . . . ذلك السؤال المباشر الصريح القاطع :

ـ هل ارتكب أخوك الجريمة ؟

وأطرق الأخ لحظة كأنما كان السؤال لكمة عنيفة موجهة إليه ثم رفع رأسه فى حزن وأسى .

ـ نعم .

وهدمت نعم كل آمالى أو معظمها فقد أردت أن أخاطب الأمانة فى نفس هذا الأخ .

ـ لقد أقسمنا اليمين ألا نكذب فدفاعى عن أخيك سيكون قائماً على طلب التخفيف بناء على الشهادات التى قدمت للمحكمة لإثبات الجنون وأعتقد أن هذا هو خير سبيل للدفاع . . . أنا لن أدعى أن أخاك برىء . . . إن رأيت أن أسير فى الدعوى على هذا النحو فأنا تحت أمرك وإن رأيت أن نبحث عن محام آخر يحاول نفى التهمة جميعاً فهذا إليك .

وصمت الأخ قليلاً فى تلعثم وهو يقول :

ـ سر فى الدعوى على النحو الذى يرضيك وفرحت يومذاك ولكن ما لبث فرحى أن تبدد فقد علمت أن الأخ قد وكل محامياً آخر . . . تبدد فرحى ولكن ما أسرع ما ملكنى شعور بالسعادة الطاغية . . . ذلك الشعور الذى يمتلك من قدم تضحية فى سبيل مبدأ . . . شعور رائع كثيراً ما أحسست به وأنا أقيم صرح هذا المكتب .

شعرت به كلما رفضت قضية كهذه وشعرت به كلما حاول أحدهم أن يجعل من المحاماة مهنة وساطة رخيصة .

لعل هذا النوع من الشعور أعظم فى إسعاده من كسب قضية . . . فكسب القضية يقترن فيها الجهد بالفرح . . . وتوقع الكسب مع الجهد يجعل الكسب نتيجة قريبة الاحتمال بالفرح بها لا يكون كبيراً أما مغالبة النفس وهى أعظم عدو للإنسان ورفض المال الذى نحتاج إليه . رغم حاجتك إليه .

أما هذا فإنه يشيع فى النفس نوعاً من الرضا والسعادة والاطمئنان إلى نفسك والثقة بها . . . وأهم ما يحتاج إليه المرء فى حياته أن يطمئن إلى نفسه ويثق بها . . . يثق بأنها تستطيع

دائماً أن تكون أبية مترفعة فيها كبرياء القناعة واعتزاز أصحاب المبادىء . . .

ماذا حدث لى حتى بدأت أترافع عن نفسى . . . لا أدرى ماذا حدث . . . لا أريد أن أذكره وهل أملك إلا أن أذكره . . . وماذا يهمه . فما دام مكتبى هذا باقياً لى فكل ما عدا ذلك عبث . . . أستطيع أن أعيد إلى حياتى كل هؤلاء الذين رفضوا حياتى فهم أيضاً قد صنعتهم بمكتبى وأستطيع أن أعيد صنعهم إذا شئت . . زوجتى ـ السنين الطويلة والطريق الذى قطعناه مع الآمال الهشة الواهنة حتى أصبحت الآمال حقائق وهى فى شموخها الصاعد وفى ترفعها الأبى وفى مثاليتها الرائعة القاسية . وإنى أحبها وأكبرها وأجلها فى كل لحظة فى حياتى إنى أعتز بها أمثل هذه أستطيع أن أعيد صنعها ؟ أن أعيد صنع الحياة التى قطعتها معها . . . ابنتى نبض قلبى وحبى وضعفى وقوتى . . . فى ثقتها بنفسها وبحبها لى تقطع الحياة حرية ونقاء . كيف استطعت أن أجعلها ترفض حياتى . . . كيف . . .؟ كيف . . . وكيف تعود إلى مثل هذه البنية .

حبيبتى . . . لحظات السعادة المزغردة الطاغية ، لحظات المتعة الوضيئة فى حياتى القلب والقلب ينبض واحد والمخاطرة والخاطرة تتآلفان لهما خاطرة واحدة . . . مخاوفى عندها أمن وآلامى عندها إلى زوال . . . ومع ذلك بقى لى مكتبى . . .

ماذا حدث . . . ؟ لقد أوغل الليل ولم يأت الوكيل . ولم يأت الزبائن . . . لعل الوكيل فى مكتبه ولعله لا يعرف أننى بحجرتى . أبداً إنه لم يأت . لم يأت والحجرات فارغة . . . لا أحد فى الأوراق على مكتب الوكيل . إنها ليست أوراقاً إنها مجلات . . . مجلات . فضيحة شائنة زوجة محام كبير تطلب الطلاق لأن زوجها يخونها . زوجة محام كبير ترفض البقاء مع زوجها الخائن . . . زوجة محام كبير فى قضايا الجنايات . . .

إنه من أسهل الأمور على أن أعرف على الفور إن كنت حياً أو كنت ميتاً ولكن . . . إذا كان هؤلاء يرون أننى ميت فالأمر بعد ذلك سواء . . . لا حاجة بى إلى البحث . . . الأمر سواء . . .

رحلة العودة

أصدر حاكم الكوفة أمره إلى عماله أن يلزموا أصحاب المحال التجارية بدفع خمسة دنانير فى الشهر مقابل من يحمى لهم متاجرهم من اللصوص والغاصبين . كما أمر أن يدفع الزراع عشر محصولهم مقابل أن يحمى لهم التسعة أعشار الباقية . وأصاب الناس اضطراب شديد . وراح الأفراد يتجمعون ويتهامسون ولكن سرعان ما يتفرقون ويصبح الهمس هواء مع الهواء . وقد يفيد الهواء ولكن هيهات لهمسهم أن يفيد .

وكان أحد شوارع الكوفة مزدحماً بالتجار فكان الهمس فى هذا الشارع يعلو بعض الشىء عن الشوارع الأخرى ولكن مهما يكن الهمس عالياً فانه ينداح آخر الأمر مع الهواء فلا يفيد .

وكان أحد الوارقين جالساً إلى كتبه ينظر إلى رجل عنده مهيب يقرأ فى كتاب من كتب المكتبة بنهم واستغراق .

ـ قل لى أيها الشيخ .
ـ هل أنت مصمم على أن أقول لك ؟
ـ مجرد سؤال .
ـ يا ليت .
ـ مجرد سؤال
ـ لا يمكن .
ـ فانتظر حتى ترى .
ـ إن كل حديث يبدأ بكلمة قل لى هذه السخيفة . وقد يتبعها مجرد سؤال ثم تتوالى الأسئلة فلا تنتهى وأنا أريد أن أقرأ .

ـ حسناً لماذا تقرأ ؟
ـ لأتعلم .
ـ ولماذا تتعلم .
ـ لأعرف كيف يصاغ الكلام .
ـ ثم بعد .
ـ أرأيت لم يكن مجرد سؤال إذن إنها مؤامرة كاملة .
ـ لو كنت أجبتنى إجابة شافية لما احتجت أنا إلى كل هذه الأسئلة .
ـ بماذا أتريدنى أن أجيبك .
ـ لماذا تقرأ ؟
ـ لقد قلت لك .
ـ لم تقل شيئاً
ـ إننى أقرأ لأننى أريد أن أقول .
ـ فالقول إذن صناعتك .
ـ إنه صناعتى .
ـ صناعتك أن تقول .
ـ نعم .
ـ فلماذا لا تقول ؟
ـ وماذا تريدنى أن أقول ؟
ـ أن تقول للظالم أنت ظالم .
ـ أين هو الظالم ؟
ـ أتستطيع أن تقول للظالم أنت ظالم .
ـ إنها صناعتى .
ـ ألم تسمع بالأحكام الأخيرة التى أصدرها الحاكم ؟
ـ هذا عمله .
ـ أن يفرض علينا الأتاوات .
ـ إذا لم تدفعوا هذه الأتاوات كما تسميها فمن أين تنفق الدولة .
ـ لو أنها أخذت من أجل الدولة ما تكلمنا .
ـ ومن أين تعرف السبب الذى من أجله أخذت .
ـ اسمع أيها الشيخ . إننى واخوانى لا نعارض فى دفع ما تزيده الدولة فقط لنا مطلب .
ـ لكم أن تقولوا مطالبكم .

حين يمتنع الحاكم عن إقامة الولائم كل يوم مرتين مرة فى الغداء ومرة فى العشاء . وحين يمتنع الحاكم عن اقتناء الجوارى باذلا فى سبيل ذلك الألوف المؤلفة من الدنانير . وحين يمتنع الحاكم عن أن ينفق فى سعة ليرتدى الملابس موشاة بالذهب والماس وحين يمتنع الحاكم عن أن يعطى من خزانة بيت المال لأهله وذويه والمقربين إليه بغير حساب . وحين يمتنع الحاكم عن أن يقذف بالمال تحت أقدام الشعراء الذين يمدحون فى خسة والمغنين الذين ينافقون فى صغار . حين يمتنع الحاكم عن هذا جميعه ويحتاج بعد ذلك إلى أموال لبيت المال فاننا نرحب أن نقدم كل ما يطلبه منا .

ــ إذن فأنت تريد فى بساطة أن يبدأ الحاكم بنفسه .

بوركت لقد ظللت أتكلم وأتكلم فقلت أنت ما أريد فى كلمة واحدة .

ــ الكلام صناعتى .

ــ أترى لصناعتك هذه فائدة إن لم تقل بها كلمة حق .

ــ إنك على حق ولقد اقتنعت بقضيتك .

ــ أتذهب إذن إلى الحاكم فتجعله يقتنع بما اقتنعت أنت به .

ــ أما أنا فلا مانع لدى ولكن ؟

ــ أتخاف ؟

ــ ليس لدى ما أخاف عليه .

ــ حياتك .

ــ أخاف عليها ولكن ما أظن أن الحاكم سيستولى عليها لمجرد أننى نقلت إليه رأيا .

ــ فما لكن هذه .

ــ ولكن ذهابى وحدى لن يفيد شيئا .

ــ إن الكلام صناعتك .

ــ لسيت وحدى من اتخذ الكلام صناعة فى الكوفة .

ــ إذن فأنت تريد جماعة من الناس حتى تكون مطمئنا بوجودهم .

ــ أولا لا عيب فى ذلك فمن خصال الانسان أن يخاف وثانيا ذهاب الجماعة خير من ذهاب الفرد فان الحاكم حين يرى جمعا منا يعرف أننا نعبر عن رأى قوم كثيرين . أما أن رأى فردا فقد يستخف به ويرميه بالتدخل فى غير شأنه .

ــ أليس شأنك أن تقول .

ــ فى هذه الحالة لن يعترف الحاكم أن من شأنى أن أقول .

ــ لا بأس فمن تريد معك .

إنك وراق وتعرف كل من يتخذون الكلام صناعة .

ــ فمتى تحب أن تذهب ؟

ــ متى تستطيع أنت أن تجمع الذاهبين ؟

ــ فى أقرب وقت .

ــ وأنا مستعد .

وتجمع صُناع الكلام وقصدوا إلى قصر الحاكم . فاستقبلهم الحاجب .

ــ من أنتم ؟

فقال كبيرهم .

ــ نحن أهل الكلمة .

ــ ومن أهل الكلمة .

ــ أولئك الذين وهبهم الله موهبة الكلام .

ــ وماذا تريدون ؟

ــ نريد أن نلقى الحاكم .

ــ ولماذا ؟

ــ عندنا كلمة نريد أن نقولها له .

ــ ألا يمكن أن تقال لى .

ــ إنها لا تقال إلا للحاكم .

ــ أهى بشرى طيبة ؟

ــ إنها ليست بشرى .

ــ فهى إذن نبوءة سيئة .

ـ يا أخا العرب نحن لسنا من علماء الفلك .

ـ فماذا تريدون إذن .

ـ أن نلقى الحاكم .

ـ لن تقلوا الحاكم إلا إذا عرفت أنا ما تريدون .

ـ لقد جئنا نكلمه فى شأن التجار والزراع .

ـ آه .

ـ أعرفت ؟

ـ أهذه هى الكلمة ؟

ـ تلك يا أخى البداية .

ـ أهناك شىء آخر .

ـ إنك لم تعرف إلا رأس الموضوع فقط أما الكلام الذى نريد أن نقوله للحاكم فأنت لا تعرفه ونحن نحب أن نقوله له .

ـ ولماذا لا تقولونه لى ؟

ـ أنت حاجب الخليفة ألست كذلك ؟

ـ إنى هو .

ـ فابلغه أمرنا وأنظر بماذا يجيبك .

ودخل الحاجب فما هى إلا أن عاد .

ـ تعالوا معى .

ـ إلى الحاكم .

ـ ستلقون الحاكم .

ـ الآن أليس كذلك ؟

ـ الآن نعم . . . اتبعونى .

ـ يا أخا العرب . . . إنك دخلت إلى الحاكم من هذا الباب فمالك تقصد بنا إلى باب آخر ؟

ـ إنه سيلقاكم فى حجرة أخرى . . . اتبعونى .

وتبعوه .

ـ ولكننا يا أخى لم نقل شيئا بعد حتى تقودنا إلى السجن .

ـ وهل رأيتمونى أدخلكم السجون وأقفل دونكم الأبواب .

ـ فما مجيئنا إلى السجن .

ـ إنه الطريق إلى الغرفة التى ينتظركم فيها الحاكم .

ـ آه . . . وما هذا ؟

ـ لا شىء .

ـ رجل معلق من قدميه فى الهواء ورأسه موضوعه فى الماء ثم لا شىء .

ـ عملية تنشيط للذاكرة .

ـ أى ذاكرة ؟

ـ الذاكرة التى تنسى أحيانا أن الحاكم لابد أن يطاع .

ـ فان كسلت الذاكرة يموت .

ـ إنه لن يموت .

ـ الموت أهون . . . وهذا .

ـ مثله .

ـ ولكنه لا يعامل مثله .

ـ وسيلة أخرى لتنشيط الذاكرة .

ـ ولكن النار فى قدميه .

ـ إن الدماء إذا سخنت فى الأقدام وصلت إلى الرأس حارة فتنشط الذاكرة .

ـ وهذا ؟

ـ مثله .

ـ وهذا ؟

ـــ مثله .

مثله ؟

ـــ مثله .

أيطول بنا الطواف هنا ؟

ـــ إننا فى الطريق إلى الحاكم . . . اتبعونى .

وتبعوه .

ـــ ما هذا أيها الحاجب لماذا تقيد أيدينا وراء ظهورها ؟

ـــ لا تخافوا حين نخرج من هذه الغرفة سنفك أيديكم .

ـــ ولكن لماذا ؟

ـــ ستعرفون . . . حالا ستعرفون .

ودخلوا إلى حجرة كلها رفوف من الأرض إلى السقف وكل الرفوف مليئة بالماس والياقوت والزبرجد والزمرد أما الذهب فكان أكواما وصاح كبير القوم :

ـــ ألهذا قيدتم أيدينا ؟

ـــ إنها أوامر صادرة إلى حراس الغرفة .

ـــ إننا نحتج . . . أنحن لصوص ؟ سنبلغ الحاكم هذه الإهانة التى ألحقتموها بنا .

ـــ إنها أوامر الحراس .

ـــ ولكنها إهانة فما نحن لصوص .

ـــ على كل حال لا تغضب فانكم ستعودون من هذه الغرفة فان كان الحاكم راضيا عنكم فانكم ستمرون بهذه الحجرة وأيديكم مطلقة .

ـــ أهكذا .

ـــ على شرط .

ـــ ما الشرط ؟

ـــ ألا تسرفوا فى أخذ الجواهر حتى تتبعج جيوبكم ويراكم الحراس .

ـــ شرط معقول .

خرجوا من الغرفة إلى بهو فأطلقت أيديهم وقال لهم الحاجب :

ــ انتظرونى هنا أستأذن لكم على الحاجب .

وحين تركهم نظر أحدهم إلى كبيرهم .

ــ ماذا أنت قائل ؟

ــ ما تريدون أن أقول ؟

ــ أتعرف ما نريد أن نقول ؟

ــ كل المعرفة .

وحين دخلوا إلى الحاكم بدأ كبيرهم ؟

ــ يا مولاى الحاكم لقد أرسلنا التجار والزراع لنشكر لك هذا القرار الحكيم العادل الذى تفضلت فأصدرته فقد جعلتهم يشعرون أنهم يشاركون حقا فى بناء بلدهم ولو لم تصدر هذا القرار لأرسلونا إليكم لنرجوكم أن تصدروا هذا القرار . ولكن نفاذ بصيرتكم ونبل معدنكم وأصيل فطنتكم ورفيع فكركم ورائع تدبيركم كل هذا كان أسبق منا وأنتم دائما بالفضل أسبق وبالخير أوثق وبالمجد أخلق .

وفى العودة مر أصحاب الكلمة فى غرفة الجواهر والذهب وكانت أيديهم مطلقة . والمفاجأة التى كانت تنتظرهم أن هناك طريقا يفضى إلى خارج القصر دون أن يمر بالسجن . . . وقد دهشوا لذلك أى دهشة .

● وبقى شىء

وبقى شىء

أخذ طريقه فى الحياة وهو يعلم ألا سبيل له غير اجتهاده . كيف استقر هذا المعنى فى نفسه . إنه لايدرى . كان الشباب يتفجر فى داخله وكان اخوانه يمزقون الحياة بشبابهم ولم تكن نفسه عازفة عما يصنعون وإنما كان يتوق إلى ملاعبهم وتهفو إليها خواطره ورغباته ، وكان يريد أن يكون خنجرا فى صدر الليالى يعتصر رحيقها أحمر فى لون الخمرة الحمراء أو فى لون دماء العذراء وكانت نفسه تحن إلى الليالى التى لا تعرف بداية أو نهاية ولكنه كان يقمع كل ما تمور به رغباته وينصرف إلى الدرس والمذاكرة . شىء واحد ضعف أمامه ولم يستطع أن يرد نفسه عنه هو المسرح .

وقد جعل دهابه الى المسرح فى كل يوم خميس هو جائزته عما بذله من جهد فى أيام الأسبوع الستة الأخرى . وقد كان منتظما مع المسرح كما كان منتظما مع المذاكرة .

أخلف موعده مع المسرح فى مرات قلائل ذهب فيها مع رفاقه وتمتع بما يتمتعون به وبهرته حياتهم ولكنه مع ذلك استطاع أن يمنع انبهاره أن يميل إلى طريق الرفاق .

فالحياة التى كان يشاركهم فيها يوم الخميس كانوا هم يعيشون فيها كل أيام الحياة وربما استثنى بعض منهم شهرا أو شهرين قبيل الامتحان ، ولكن الحياة الطبيعية كانت هذه المتعة التى يعيشون بها ولها والتى خاف بهجت أن يشاركهم فيها بأيام الخميس فتصبح كل أيامه خميسا .

ليس يدري من أين واتته هذه الحكمة التى لا تتفق مع طبيعة الشباب والتى تختلف بالذات مع طبيعته هو . فقد تنسجم مع فتى غير راغب فى العربدة أما هو فيعبد هذه العربدة ومع ذلك استطاع أن يكون هذا الفتى المثابر فى المذاكرة والحريص على النجاح .

ولايدرى أيضا من أين جاءه حبه للتمثيل هذا الحب الذى جعله يواظب على حضور

المسرح كل يوم خميس فى أيام المذاكرة وكل يوم فى أيام الاجازة .

وقد حاول أن يحلل هذا الشغف بالمسرح فعجز وأسلم نفسه إليه فى نشوة وبغير تحفظ .

ربما كان حرصه على المذاكره وليد ما كانت أمه تنبهه إليه . فقد مات أبوه وهو بعد فى المراحل الاولى من الدراسة وقد كان أبوه غنيا واسع الغنى ولكنه كان يريد هذا الغنى أن يتسع ويزداد ولا تقف به نهاية فكان يدخل فى مشروعات مالية لا آخر لها ، ونجحت بعض هذه المشروعات فكان جنون المال عنده يزداد . وهكذا أصبح المال عند أبيه غاية لا وسيلة فكان عنده ما يستطيع أن يحيا به فى خفض من العيش وفى بحبوحة ورغد . وكان عنده ما لو تركه لولده لأصبح من الأغنياء الذين تذكر أسماؤهم اذا ذكر الغنى . ولكن لم يكن هدف شاكر أن يصيب المال ليأمن الفقر ولا أن يصيب المال ليهيىء لابنه أمانا من الحياة . لقد أصبح جمع المال فى ذاته هو الغاية والهدف . وحين يصبح الأمر كذلك يصبح من الطبيعى أن يندفع شاكر منتهبا أيام عمره فى تحقيق هذا الهدف وهو لايدرى مايدريه كل الناس أن هذا هدف لا يمكن أن يتحقق فإنه لا نهاية للأرقام .

ومثلما تستطيع هذه الأرقام أن ترسل الأمن والنشوة الطاغية المتفجرة إلى النفوس تستطيع أن ترسل الألم المرير واليأس القاتل وتستطيع أن تصبح ركاما من الثلوج بلا دفء ولا رحمة . فالأرقام التى لا تعرف النهاية لا تعرف الرحمة أيضا .

وحين مات الاب كانت ثروته كلها قد استنزفت فى محاولة انشاء ثروة أضخم وبقى لزوجته بعض مال يشكل فقرا أكثر مما يشكل سترا وبقى لها أيضا بهجت فى أول حياته فمستقبله جميعا عبء على أكتافها وعلى أكتاف هذه الصبابة الضئيلة التى بقيت لها من أموال زوجها .

وكانت تفيدة تعلم أنه لا أمل لها فى أن تنال شيئا من عون خيرى عم بهجت وأخى زوجها . فقد كان الأخوان متنافرين وربما كان سعار شاكر فى جمع المال يرجع إلى غنى أخيه الفاحش . فقد كان تاجرا يحسن العمل فى تجارته ولم يكن يتجاوز مجال نجاحه هذا إلى أى مجال آخر . فقد كان يتاجر فى الفاكهة والموز بوجه خاص وقد اشترى من تجارته أرضا زراعية واسعة ولم يزرع فيها إلا الموز فهو فى زراعته وتجارته خبير قل أن يلحق به لاحق . وقد حاول شاكر أن يشاركه ولكنه أبى عليه هذا مدعيا أنه تعود أن يكون منفردا بتجارته وبرأيه فيها ويخشى إذا شارك احداً حتى ولو كان أخاه أن يتعثر به الرأى . ولم يكن هذا الطلب من شاكر وهذا الرفض من خيرى هو أول الخلاف ولا كان آخره وإنما هو خلاف نشب بينهما منذ الطفولة ونما معهما واشتد مع الزمان وكأنه كائن حى تزيده الأيام قوة وصلابة وكانت تفيدة على ثقة من أن شاكر لو كان قدر له أن يعيش حتى يبلغ الشيخوخة لما استطاع وهن الشيخوخة أن ينال من عنف الخلاف بين الأخوين فهو خلاف من ذلك النوع الذى تغذيه الأيام وتزيده مرارة وشرا وقتامة .

أدركت تفيدة منذ بدأت تفكر بعد موت زوجها وهو مفلس أن ليس لها الا هذا المال القليل الذى خلفه لها ولابنها . وحين زارها خيرى لينبئها أنه تحت أمرها لم تحاول أن تطلب منه شيئا فهى تعرف أن الأخ الذى يريد أن يقدم عونا لا يعرض قولا وإنما عملا وما دام لم يفعل فالأمر اذن كما توقعته .

واجهت الأيام ونشأ بهجت فى هذه الضائقة وكان يعرف ماتعانيه أمه وما كان له الا يعرفه . وكيف وهو لا يسمع من أمه إلا عن هذا العناء . ولعله فى نفسه البعيدة كان يرد نفسه عما تشتهيه حتى لايزيد عبء أمه أعباء .

وحيث إنها سمحت له بالذهاب إلى المسرح إلا أنه لم يكن يقول لأمه إنه فى أغلب الأيام التى يذهب فيها الى المسرح كان يشاهد روايات سبق له أن شاهدها مرات ومرات وكان فى أول هوايته يعجب من نفسه ومن جنونه هذا الذى يجعله يذهب ليرى شيئا شاهده وعرف كل أسراره بل إنه فى بعض الروايات كان يسبق الممثلين بجمل الحوار وراح يمعن النظر فى شأن نفسه فتخادعه نفسه عن نفسه ولا يدرى سر هوايته . ولكن سرعان ماتكشفت له الحقيقة . إنه يحب التمثيل أكثر مما يحب المسرح . انه يتمنى أن يكون ممثلا . ولاشك فى هذا كانت نفسه تطوى عنه هذه الحقيقة ولم تكن تعترف بها حتى حين يعود من المسرح ويقف أمام المرآة ليمثل الأدوار حتى أدوار النساء والخدم .

أمل لا سبيل الى تحقيقه . فهذه مهنة قد يعترف بها مثقف ولكن هيهات أن تقبلها أمه له لقاء ما عانت من حرمان وشظف عيش .

انها ستقول أهذا جزائى . وفكر أن يحاول . وخاف واستجمع بعض شجاعته ثم لم يستطع . كان امتحان الثانوية العامة قد اقترب وكان قد اختار القسم الأدبى لأنه كان يعرف أنه أقوى فى المواد النظرية . وكانت أمه دائما تقول إنها تحب أن تراه وكيل نيابة وقاضيا فلم تكن تسأله عن الكلية التى يريد الالتحاق بها مفترضة أنها الحقوق فما تعود أن يخذل لها رغبة فكيف به إذا كانت أمنية .

للأمومة عند تفيدة لحظات تفيض فيها وتنسى أن ابنها أصبح شابا وتحب أن تحتوى هذا الابن وتجلسه على ركبتيها وتهزه بهما وكأنه مازال ذلك الطفل الوليد وكانت تفيدة فى كثير من الأحيان تحب أن تزيل عن ولدها ما كانت ترسبه فى نفسه من مشاعر فقر وحاجة . تربت ظهره وتقبله وتنظر اليه ويسمع من عينيها أن هذه النظرة حبها من الدنيا وأنها تجد فيها أعظم مكافأة على مابذلت من سنوات عمر شداد .

فى مرة من هذه المرات ظن بهجت أن الأمومة تستطيع أن تقبل منه أى شىء حتى رغبته فى أن يكون ممثلا .

ـ هل أعجبك الفيلم الذى شاهدناه ؟
ـ متى ؟
ـ الشهر الفائت .
ـ ولماذا تذكرته ؟
ـ فقط أسأل .
ـ لقد قلت لك إنه أعجبنى ساعتها .
ـ ألم يعجبك الممثل ؟
ـ وكيف لايعجبنى إنه أحسن ممثل فى مصر وربما فى الشرق الأوسط .
ـ أريد أن أكون مثله .
ـ لقد كان يمثل دور طبيب وأنت أدبى .
ـ أريد أن أكون ممثلا .

لو كان قد أخرج مسدسا ووضع فوهته أمام عينيها ما أصابها هذا الذى طفح على وجهها . أخذت . صمتت . انفتحت عيناها حتى أوشكتا أن تنفجرا إنهما بركانان صغيران بل كبيران هاتان العينان . . وجهها صفرة ، جبهتها غضون ، الابتسامة صارت يأسا ، الحنان أصبح هلعا ، نور الصباح انقلب فى سمتها ظلاما قاتماً . . لحظات ، وطفرت دموع أمسكت بها لن تسيل فيرتد البكاء إلى صوتها لتقول ، فينحبس القول وتبتلعه فيستعصى ويهجت يتمنى لو لم يكن قال ما قال ويهم بأن يدعى شيئا يزيل هذا الهول الذى ألم بها فتردعه نفسه . لقد قال فلينتظر إلى أى مدى تصل به تجربته . واستجمعت الأم نفسها آخر الأمر وصرخت فى صوت مكبوت لاترتفع نبراته وان كان الصياح منه يطرق أبواب السماء .

ـ لو عرفت الأيام التى عشتها أو التى متها من أجلك . الذعر من الغد واليأس يمسك به بعض الأمل فاننا بينهما خرقة ممزقة متهرئة لاترتاح إلى اليأس فتسقط وتنتهى ولا تتعلق من الأمل بأسباب تتيح لها أسباب البقاء حياتى خوف راجف بعض منه يزلزل الجبال والحياة حولى متاهة كبيرة لا أجد أحدا أسأله الطريق بل لا أجد أحدا أشكو له التيه . أخاف عليك الشتاء يأتى فلا أكسوك وأخاف عليك أن يجرحك زميل بامتهان . طفولتك شيخوختى وأنا فى ربيع الشباب وشبابك أعبائى وأنا فى خريف من الكهولة .

أكل الذى بذلت . لتكون ممثلا ! . آمالى ونفسى وطمأنينتى من أجل .

ـ كفى . . كفى . . وهل أصبحت ممثلا فعلا ؟
ـ يكفى أن تريد .
ـ كلمة جرها حديث .
ـ بل أنت الذى خلقت الحديث .

ـ ربما أردت أن أمزح .

ـ ليس فى القتل مزاح .

طوى أمله فى ذلك المكان من نفسه الذى تعود فيه أن يكبح رغباته . ولو أن هذا الأمل كان جامحا لا يتيح له أن يهدأ أو يراح إلى يأس .

دخل كلية الحقوق وسار حياته كما تعود أن يسيرها واطمأنت أمه فلم تصبح تخشى عليه أن يذهب إلى المسرح فى كل أسبوع كما تعود . وانتهت السنوات حتى صار إلى السنة النهائية ثم حدث حادث .

كان عمه يزور مزرعته ومعه زوجته وابنه الوحيد عاصم وكان لابد للعم أن يعود إلى القاهرة فى المساء وكانت السماء تمطر ذلك المطر المصرى الهين الذى يجعل الطريق صعيدا زلقا والذى يجعل السيارات معرضة لخطورة بالغة . ولولا أن خيرى كان واثقا من مهارة سائقه لاتخذ فى السفر وسيلة أخرى غير السيارة ولكن كيف إذن تنقلب حياة بهجت . . انقلبت سيارة خيرى فى النيل ومات الأربعة جميعا وفجأة أصبح بهجت الوارث الوحيد لعمه .

لو لم يكن فى نهاية الطريق فى كلية الحقوق لكان فكر أن يكتفى ولكن لم ير بأسا من أن يكمل دراسته . وانتهز الفرصة من هذه الأشهر التى كانت تفصل بين الثروة المفاجئة التى هبطت عليه وبين الامتحان ليعد الخطة التى يريد أن يختطها . فى أناة وروية أعد خطته وبغير أى تسرع ونجح بهجت فى الامتحان .

ـ هل تصرين أن أكون وكيل نيابة ؟

ـ هذا شىء أحبه لك ولكن أنت فى ذلك حر ، فما دمت قد نلت الليسانس فأنت .

ـ اذن فاسمعى ما أقوله لك جيدا ولا تغضبى .

ـ قل .

ـ المال الذى تركه لى عمى .

ـ ماله ؟

ـ أولا أنا سأصفى التجارة .

ـ ولماذا ؟

ـ أتريدين أن أصبح مثل أبى ؟

ـ وكيف ؟

ـ لو تاجرت فسأصبح مثله كما تعرفين لا أدرى من شأن الموز شيئا إلا أنه فاكهة يأكلها الناس بعد أن يقشروها وتقول الأمهات لأولادهن لا ترموا القشر فى الطريق حتى لا يتسبب فى وقوع الناس .

وإلى هنا وتنتهى معلوماتى عن الموز .
ـ هذا عن التجارة . فماذا عن الزراعة ؟
ـ ان عرفت عن الموز جملة ، فأنا لا أعرف فى الزراعة حرفا .
ـ فستبيع الأرض اذن ؟
ـ لا وصلت إلى طريق .
ـ ما هو ؟؟
ـ سأؤجر الأرض إلى خبراء وقد سألت فعرفت القيمة المناسبة ولن أكون مظلوما فى الإيجار
ـ تفكير لا بأس به .
ـ وعلى هذا فرأس المال سيبقى ولن يمسه أحد حتى ولو انتحرت . فلا شك أننى سأتزوج ولا أحب لزوجتى أن تعانى ما عانيت أنت معى
ـ عين العقل .
ـ وأيضا سأعتبر ما أحصل عليه من تصفية التجارة من ضمن رأس المال وسأشترى به أسهما باسمك حتى لا أمسها .
ـ أنا لا أريد شيئا .
ـ أنا الذى يريد أن يكبل نفسه .
ـ وهو كذلك .
ـ المال السائل بعد ذلك أنا حر فيه .
ـ وماذا ستفعل ؟
ـ هذا شأنى .
ـ ألا تقول لى ؟
ـ ستعرفين .
ـ وعرفت . كانت آمال المتعة مازالت تداعب نفسه ولكن الأمل فى أن يكون ممثلا كان أكبر ، ليس من السهل أن ينشىء مسرحا ، فهو يعلم أن أحد لم يسمع به . وأن أحدا لن يرى مسرحه . وستكون التجربة غير مقنعة بالنسبة إليه .

فهو يريد أن يعرف رأى الناس ولن يأتى هؤلاء الناس للمسرح أبدا مادام هو منشئه ، كان قد أعد الخطة .

سيعتمد فى أول الأمر على مشاهير الممثلين . وسيمثل الى جانبهم الروايات العالمية إنه يريد أن يمثل عطيل ويسأل ديدمونة عن المنديل .

وفيدرا . .
وأوديب الملك . ويخرج عينيه ويصبح أعمى .

وصلاح الدين ويحارب . .
وأنطونيو وكليوباترا ويحب ويخون بلاده ثم يموت فى سبيلها.
أهل الكهف لتوفيق الحكيم.
وكل الأدوار .

يريد أن يكون ممثلا كوميديا أيضا فيجمع إلى بطولة المأساة بطولة الإضحاك وهو يعلم أن موهبته بقدر مايريد .

أنشأ المسرح

وبدأ التمثيل وكان لابد من البروفات وكان المخرج أمينا . ولكنه وجد نفسه وجها لوجه أمام رجل صاحب مال ولكنه يقف لأول مرة على المسرح فانتحى به جانبا .

ـ أستطيع أن أقول لك انك أعظم ممثل فى العالم
ـ غير معقول
ـ أنت صاحب المال والمفروض أن صاحب المال هو أعظم كل شىء فى العالم .
ـ ولكنك أمين
ـ ليس فقط لأننى أمين ولكن أيضا أعلم أن كذبى سينكشف منذ اللحظة الأولى التى سيرفع فيها الستار عنك .
ـ وماذا ترى ؟
ـ ماذا ترى أنت ؟
ـ أمرك
ـ أمرى أن تؤجل افتتاح المسرح عاما كاملا ؟
ـ عاما كاملا ؟
ـ أعلمك فيه التمثيل .
ـ وهل عندى موهبة ؟
ـ أكذب أيضا لو قلت إننى أعرف . . فكثيرا ما انتظرنا أن يصبح تلميذ من تلاميذنا أحسن ممثل فى العالم ثم لايقبله الجمهور والعكس صحيح نجح من كنا نتوقع لهم الفشل الذريع .
ـ ولكنى أعبد المسرح .
ـ المسرح لايهتم كثيرا بمن يعبدونه أو لايعبدونه .
ـ وكيف أعرف ؟
ـ أستطيع بعد فترة من تمرينك أن أخبرك ولكن الحكم ليس لى .
ـ للجمهور .

ــ انه لايهمه أن تكون صاحب مال أو لا تكون ولا يهمه أن تكون صاحب موهبة أو لا تكون هو يقبلك وهو لا يقبلك دون سبب وهو لا يحتاج أن يبدى أسبابا .

ــ والنقاد ؟

ــ لا شأن للجمهور بالنقاد فقد يصفقون ويشقون حناجرهم بالهتاف للرواية أو للمسرحية أو للمؤلف أو للممثل ولا يقبل الجمهور وقد يكيلون الصفعات ويقبل الجمهور .

ــ اذن

ــ الأمر لك

ــ ليكن ماتريد

وبدأ العام واستطاع صحفى ذكى أن يتعرف على بهجت واستطاع أن يجعل من تجربته هذه مادة صحفية فيها طرافة وفيها جد وفيها أيضا شهرة سبقت بهجت إلى المسرح وأقبل عليه مصورو الصحف يلتقطون صورته وهو يتعلم التمثيل ويجرون معه الأحاديث فيخبرهم عن الكتب التى يقرأها فى هذا الفن واستطاع المخرج فعلا أن يجمع له برنامج المعهد العالى كله فى عام واحد ، أما الامتحان فهو لم يكن فى حاجة إليه . وكانت المجلات والصحف تضع عناوين مثيرة للتجربة . المحامى يترك ساحة القضاء إلى خشبة المسرح . بهجت شاكر لايستعجل الشهرة وإنما يعد نفسه للفن الصحيح . والمجال واسع والصحفيون فى إنشاء العناوين لامثيل لهم .

وانقضى العام وكان بهجت ذكيا فلا يقبل أن يكون هو بطل الرواية وانما قدم أحد عمالقة المسرح ونخبة متألقة من نجومه ليقف فى ظله وظلها .

ونزلت الإعلانات فى بذخ الأسماء الكبيرة أحمد فؤاد وسهام سامى وبالخط الكبير الضخم وتحتها فى تواضع ، بهجت شاكر .

أحمد فؤاد ، ممثل أصبحت شهرته تملأ العالم العربى أجمع ، واستطاع من خشبة المسرح أن يكون نجما سينمائيا شهيرا .

وسهام سامى فتاة فى ريعان العمر ، متألقة الجمال قفزت هى الأخرى إلى السينما وأصبح تمثيلها على المسرح حدثا فنيا من شأنه أن يحقق النجاح .

وكانت الليلة الأولى .

ويرى الجمهور لأول مرة فى حياته ويراه الجمهور .

كانت الليلة ناجحة نجاحا باهرا . فالمدعوون يملأون المسرح وليس الجمهور ، والمدعو فرح دائما لأنه تفلت إلى المسرح مجانا فهو كثير التصفيق . ولم يدر المصفقون ماذا صنعوه

بتصفيقهم هذا لبهجت . لقد جن به الجنون وراح يجوب الطرقات ماشيا تاركا سيارته أمام المسرح لقد حقق الأمل الأكبر فى حياته ولقد أصبح ممثلا .

وفى الليلة التالية عرف المخرج وعرف الممثلان الكبيران أن المسرحية فشلت ولم يدرك بهجت هذه الحقيقة إلا فى اليوم الخامس حين تقلص المدعوون وأصبحت الصالة لا تحوى الا المشترين ، لم يفكر فى خسارته المادية ولكنه أحس أن أمله بعيد وأنه مازال بينه وبين هذا الأمل مدى بعيد . كان هذا أمله الوحيد بعد سوسن وقد ضاع أيضا .

أدرك هذه الحقيقة على رغم مقالات النقاد التى أمطرته بوابل من المديح والتمجيد .

كان قبل تجربته يظن أن أقلام النقاد هى رأى الجماهير ثم روعته الصالة الخاوية التى تمثلت له هوة من الفراغ واليأس وأدرك أن النقاد جمهور مستقل بذاته لاصلة بينه وبين الجمهور الذى يصنع النجوم ، ان هذا الجمهور يحكم بلا حيثيات ويصدر حكمه فى قسوة واضحة بلا رحمة وبلا محاولة للتلطف فى التعبير أو ابداء الرأى ، انه ببساطة لا يشترى التذكرة وبهذا التوقف عن الشراء يصدر الحكم .

حاول الصحفى ذكرى لطيف :

ــ ليست التجربة الأولى هى كل شىء

ــ بل هى كل شىء اذا لم أعرف العيب حتى أصححه

ــ الرواية أرفع من مستوى الجمهور

ــ ان عدم اقبال الجمهور لايعطينا الحق أن نشتمه . لقد أقبل على روايات أعلى مستوى مما قدمت .

ــ مسألة حظ

ــ حجة عاجز . لماذا يخدم الحظ غيرى ولا يخدمنى ، وقد هيأت له كل الفرص ليمشى فى ركابى ؟

ــ الحظ لا يسأله أحد

ــ ألا تجرب مرة ثانية ؟

ــ أو أدرى فيم أخطأت فى الأولى . ؟ ولم يجد ذكرى شيئا يقوله ورن جرس التليفون فى بيت بهجت

ــ آلو . . من ؟

ــ أنا سهام

ــ سهام سامى ؟

ــ هل تعرف غيرها ؟!

ــ أهلا

ـ ماذا تفعل الليلة ؟
ـ أمثل
ـ اقصد بعد التمثيل
ـ أنام
ـ بل لاتنم
ـ خير؟
ـ أريدك أن تتعشى عندى
ـ أمرك
وسألته أمه عما تريده منه سهام فأخبرها
ـ ما المناسبة ؟
ـ لا أدرى .. يبدو أنها تريدنى فى شىء هام
ـ وماذا بينك وبينها ؟
ـ زملاء
ـ هل أصبحت مثلها ؟
ـ على كل حال هى تعمل عندى الآن
ـ ليست هذه لغة فنون ولكنها لغة صاحب مال
ـ يبدو أن هذه هى الحقيقة
ـ فلماذا لاتقتنع بها ؟
ـ حين أتأكد سأقتنع
ـ أتريد أن تتأكد ؟
ـ لقد علمنى الفقر كثيرا
ـ مثل ماذا ؟
ـ مثل أن أواجه الحقيقة مهما تكن مرة
ـ فواجهها
ـ حين أراها بعينى سأواجهها
ـ ألم ترها ؟
ـ ليس بعد
ـ سأتركك حتى تراها

ـ لو كنت رحبت بفكرة أن أكون ممثلا يوم عرضتها عليك أيام الفقر لأخذت رأيك اليوم بلا أى تفكير ولكنك لو رأيت نفسك يومذاك والى أى حد ذعرت لعلمت أننى على حق حين أرفض رأيك أو على الأقل أتحفظ فى الأخذ به .

ـ أرجو أن أكون مخطئة وتكون محقا . . وفى العشاء وجد بهجت نفسه مع سهام سامى وأحمد فؤاد ووجد معهم ثالثا يعرفه بالشهرة ولم يكن قد التقى به قبل ذلك . إنه سالم خليل المخرج السينمائى .

قال أحمد :

ـ عدم نجاح تجربة المسرح يجعلنا نبحث عن الطريق السليم

ـ وما هو ؟

ـ مارأيك فى الانتاج السينمائى ؟

ـ لا خبرة لى فيه

ـ ولم تكن لك خبرة بالمسرح

ـ لقد أخذت أحسن العناصر التى تعمل فى المسرح

ـ وستختار أحسن العناصر التى تعمل فى السينما

ـ لم أنجح فى التجربة الأولى

ـ وقد تنجح فى التجربة الجديدة

ـ هل عندك قصة ؟

ـ سالم خليل هو الذى اختارها

ـ هى قصة لكاتب معروف لم يسقط له عمل قبل اليوم

ـ هل أنت واثق منها ؟

ـ أستاذ بهجت إن لى اسما لابد أن أحافظ عليه

ـ هل معك القصة ؟

ـ معى

ـ أقرأها

ـ اذا شئت فأنت رجل مثقف وتستطيع أن تحكم

ـ لم أستطع أن أصل فى المرة السابقة

ـ كم من فشل أعقبه نجاح

ـ أستاذ سالم أتعرف لماذا قدمت هذه المسرحية ؟

ـ حبا للفن

ـ أنا أريد أن أمثل . لا أريد مالا فعندى ما يكفينى ولكننى أريد أن أمثل

ـ وهذا وحده سبب معقول

ـ وأحب المسرح

ـ لعلمك اذا نجحت فى السينما تستطيع أن تنتقل الى المسرح

ـ آخذ الطريق من آخره

ـ المهم أن تصل
ـ أجرب .. ولكن هل رأيت المسرحية ؟
ـ نعم .. نعم
ـ لماذا فشلت ؟
ـ لا أدرى .. كثيرا ما تكون الأعمال جيدة ولاتنجح
ـ لاشك فيها
ـ وأنت يا استاذ أحمد ؟
ـ فعلا
ـ وأنت يا سهام ؟
ـ ألم تلاحظ أننى لم أتكلم من أول الليلة ؟
ـ لاحظت
ـ فاسمح لى اذن أن أكمل الليلة بالأحلام
ـ الا تخبرينى على الأقل برأيك فى موهبتى ؟
ـ لو قلت رأيى لقلت كل شىء .. إن لى معك كلاما آخر
ـ أمرك
ـ متى ستقرأ الرواية ؟
ـ سأتصل بك فى مدى يومين
ـ أحمد يعرف كيف يجىء بى .. فهو يمثل معى الآن .. حين تنتهى من القراءة قل له وأنا تحت أمرك
ـ وهو كذلك

ليس يدرى لماذا فكر وهو فى السيارة فى قصة حبه الكبيرة . انها تلح عليه . منذ اللحظة الأولى التى عرف فيها سوسن . منذ هما يتقدمان معا للجامعة وهى بجمالها الهادىء القوى تقف عاجزة لا تدرى ماذا تفعل وكأنما توسمت أن تجد عنده عونا . وقام عنها بالإجراءات . لقد كانت فى طريقها إلى كلية الحقوق مثله وتعارفا وأحبها حبا عنيفا جارفا حتى لقد قرر فجأة :

ـ لابد أن أتركك
ـ المفروض ألا اسألك لماذا . فتركك لى امتهان وسؤالى إمعان فى هذا الامتهان ولهذا فأنا أسألك لماذا ؟
ـ لأننى أكبرك وأحبك وأحبك
ـ تخاف من المستقبل
ـ فقر وضياع وذل وهوان . وأنظر إليك فأجد أنك ليس لهذا خلقت

ـ أنت فى السنة الثانية من كلية الحقوق . ومن يدرى ماذا سيحدث حتى نتخرج بعد سنتين

ـ أما ما سيحدث لى فلاشك فيه . وأما مايحدث لك فان أمره اذن سيكون بلا شك خيرا من حياتك اذا ما ارتبطت بى

ـ ومن يدريك ؟

ـ طبائع الأشياء

ـ ألا يكفى أن تحبنى وأن . . أحبك ؟

ـ يكفي لو كنا سنؤلف قصة لابيتا

ـ وماذا تريد منى ؟

ـ اذا جاءك خاطب فلا ترفضى

ـ هذا أمر ؟

ـ هذا انتحار

ـ ومن أنباك أننى أقبل لك هذا ؟

ـ لابد أن تقبليه . أرجوك

ـ وتلح أيضا

ـ سعادتك عندى تستحق هذا الالحاح

ـ كلام عجيب لم أسمع مثله من قبل

ـ لأنك عرفت الحب من كتاب سخفاء يكتبون القصص ولا يكتبون الحياة

ـ لهذا السخف تحب أن تعيش ؟

ـ ولكن الحياة لاتحب أن تعيش به

ـ لو لم أكن أدرى مقدار حبى لك الذى يجعلنى أثق بمقدار حبك لى لظننت أنك تريد أن تتخلص منى

ـ سوسن الحياة التى تنتظرنى شاقة والعبء فيها ثقيل إذا تزوجتك

ـ سأعمل ولن أكون عبئا عليك

ـ انك تستحقين خيرا من هذا

ـ لماذا تضحى أنت ولا أضحى انا ؟

ـ ولو كنت أستطيع الزواج بعد تخرجى لضحينا معا ولكن لا أستطيع

ـ وفيم العجلة ؟

ـ ستكون حياتى جحيما وأنا أعرف أنك تنتظرين موعدا لا أدرى متى إنجازه

ـ لقد جاءنى الخاطب

ـ ورفضته

ـ أنا رفضته
ـ ولكن أباك لم يبلغه الرفض
ـ لم يبلغه فهو معجب به
ـ أغنى هو؟
ـ وهل ينظر أبى إلى غير هذا؟
ـ اقبليه
ـ هل أنت واثق؟

ولم يجب وانما سارع يبتعد مخفيا دمعاته . كانت قد تعودت أن تعنف به ويقبل عنفها امتنع عن الصخب مع الرفاق وامتنع عن ملذات الشباب وامتنع عن متع كثيرة يعلم أن فقره لايتيحها له . ولكن ما فرضه على نفسه مع سوسن كان أبعد الجراح غورا وحين جاءت ثروة عمه كانت سوسن قد أنجبت طفلها الأول .

وحين التقى بها فى الكلية بعد أن سمعت بغناه المفاجىء نظرت اليه نظرة طويلة ، ولم يجد شيئا يقوله أو يعمله الا أن يغمغم

ـ لم اكن أدرى
ـ وابتسمت فى مرارة
ـ لقد أصدرت حكمك على المستقبل دون أن تقرأ صحيفة الدعوى
ـ لاتزيدى آلامى
ـ انها بعض آلامى
ـ أسعيدة أنت؟
ـ تريد أن تطمئن على تضحيتك
ـ أريد أن أطمئن عليك
ـ لاتطمئن

ـ اتركيه
ـ وماذا أقول لابنى حين يصبح فى مثل عمرنا؟
ـ ألا سبيل؟
ـ الأحكام التى تصدرها الحياة لايجوز إعادة النظر فيها لسابقة الفصل فى الدعوى
ـ بلا استئناف؟
ـ فات موعده
ـ لا تطعن

ـ انت لم تخطىء فى تطبيق القانون ولكنك أخطأت فى وجهة النظر لاتقضي مادام القانون قد طبق .

ـ تسدين على المسالك

ـ أنا فقط أبقى عليها مسدودة كما أردتها

ـ أهذا ما كنت أريد ؟

ـ أحببت أن ترى نفسك بطلا . . افرح لقد أصبحته

ـ أحببت أن تعيش فى سعادة

ـ هيهات أتعرف أنت أين سعادتك أو أين سعادتى

ـ خيل إلى . . ظننت

ـ الأحكام فى الحياة لاتبنى على ظنون

ـ ألا ترحمين ؟

ـ إنى راحمة لأنى أعرف دوافعك

ـ لعلها تغفر لى عندك

ـ لقد غفرت لك عندى منذ دمعاتك التى أخفيتها ، وانصرف عنها إلى الأبد وهو يخفى دموعه عنها مرة أخرى .

ما الذى جعله يذكر هذا ؟ لايدرى أفى نفسه حب جديد . . وربما « حين ذهب إلى البيت أمسك بالرواية ونظر اليها بضع دقائق . . قلب صفحاتها . كانت المرة الأولى التى يقرأ فيها سيناريو كان الوقت متأخرا فألقى بها إلى جانبه وانصرف يهىء نفسه إلى النوم » .

فى الصباح كان أول شىء سمعه دعوى تليفونية من سهام سامى

ـ هل قرأت الرواية ؟

ـ لم أبدأ بعد

ـ هل يمكن أن أقول لك رأيا ؟

ـ واضح أنك دعوتنى من أجل هذا

ـ أنت رجل مستقيم

ـ أرجو أن أكون كذلك

ـ ولكن أتحب الرأى المستقيم ؟

ـ كنت أرجو أن تكونى عرفتنى أكثر من هذا

ـ اذن اسمع

ـ أنا أسمع

ـ حرام أن تضيع مالك ووقتك

ـ هواية .. أنا أعبد التمثيل

ـ اعبده كما تشاء ولكنك بلا موهبة

ـ هكذا مرة واحدة

ـ اسمع أنا لست أستاذة فى المعهد ولا تسمح لى سنى أن أكون خبيرة ولكن لى حاسة وقد تدربت هذه الحاسة فأصبح لها حكم فى هذا الوحش الذى يسمى التمثيل ولى أيضا أصدقاء قالوا لى ما لا يستطيع أحد أن يقوله لك أو ما يحب الكثيرون أن يخفوه عنك لمصالحهم الخاصة ابتعد عن هذا الوحش إنه فتاك يمتص فريسته ويخدعها ويسلط عليها غرورها حتى تصبح نفاية بشرية .

ـ الحكم غاية فى القسوة

ـ بعد سنوات قلائل ستدرك أنه غاية فى الرحمة

ـ ولماذا تقولين لى هذا ؟

ـ لو كان غيرك ما قلت له شيئا . فهذا الفن يجعل بعض العاملين فيه يتحاسدون ولو كنت أعلم أنك من هذا الصنف لمنعت نفسى أن أصارحك خشية أن تظن أننى أخشى على مستقبلى منك .

ـ ما هذا الكلام الفارغ .. أنت فى مجدك هذا تخشين ناشئا ؟

ـ قل أن يدرك ناشىء أنه ناشىء وهو يبحث دائماً عن سبب مثل هذه النصيحة غير أن تكون خالصة فليطمئن نفسه أن الممثلة التى بلغت من شهرة تخاف على نفسها منه ولهذا تنصحه أن يبتعد عن التمثيل .

ـ واذا تخلصت منه أليس من الطبيعى أن يأتى آخر يكون صاحب موهبة حقا ؟

ـ الفاشلون يعمون عن كل الحقائق فلا يدركون مثلا أن لكل نجم فى التمثيل فترة . وأن النجم لابد له من نجوم حتى يؤكدوا وجوده .. وكل هذا يغيب عن تفكيرهم ليؤكدوا لأنفسهم أنهم أصحاب مواهب .

ـ وما رأيك فى الإنتاج السينمائى ؟

ـ مريح جدا لمن يفهمه وخراب للهواة أمثالك

ـ ولكنك مع ذلك لم تجيبى على سؤالى

ـ لقد نسيته

ـ لماذا تقولين هذا لى ؟

ـ أخشى على نفسى منك

ـ هذه فهمناها وماذا أيضا

ـ أخشى عليك من نفسك

ــ هل تقدمين نصيحتك لأى أنسان تخشين عليه من نفسه .
ــ لا شأن لك بهذا

انهم يحتفلون اليوم بعيد ميلاده الستين . تحتفل به ابنته اخلاص وابنه فتوح ويحتفل أيضا به زوج ابنته سعيد مجدى المحامى . ويحتفل أيضا أبناء ابنته الهام وبهجت . والجميع يلتفون حول الممثلة السابقة والجدة الحالية سهام سامى .

سنوات مرت وسنوات وقطع من العمر طريقا طويلا ومن النجاح طريقا أطول فلم يكن أمامه أن يعود إلى المحاماة وكان قد تعود الجد الذى أرغم عليه فى أول حياته فنجح نجاحا ساحقا .

وأصبحت شهرته تشمل العالم العربى أجمع بل إنه تولى قضايا دولية خارج العالم العربى .

ولكن العجيب أنه مع كل هذا النجاح بقى له شىء هام من هوايته القديمة فهو يمثل فى كل تصرف يعمله . يمثل فى المحكمة .. يمثل مع أبنائه .. يمثل مع أحفاده والغريب ، الغريب أنه يمثل مع الممثلة الشهيرة زوجته وكانوا جميعا يضحكون فيما بينهم على طريقة تمثيله ويزدادون له حبا من أجلها . لم تمر به هوايته عبثا .

لقد بقى منها شىء .. بقى منها شىء كثير .

وإن كنت تعبت

ـ لا أرى أى فائدة فى التجديف
ـ ومع ذلك لابد أن تجدف .
ـ الأمواج تتصرف بالقارب غير عابئة بهذا التجديف
ـ ومع ذلك لابد أن أجدف
ـ لماذا ؟
ـ هذا عملى
ـ وان كان بلا فائدة ؟
ـ ليس هناك عمل بلا فائدة
ـ أتراك توجه القارب بتجديفك هذا ؟
ـ أنا لا أدرى ولكن لابد أن أجدف
ـ فاذا كنا تحت رحمة الأمواج ؟
ـ ولكن لا يستوى من يجدف ومن لا يجدف
ـ كيف عرفت ؟
ـ انظرى حولك الجميع يجدفون
ـ أترى الجميع ؟
ـ أرى من حولى
ـ ربما كان هناك آخرون لا يجدفون
ـ أولئك لا شك قد توقفوا فى الطريق
ـ أنت تستنتج ؟
ـ بل أنا أعرف

ـ كيف عرفت ؟
ـ وعرفت معى
ـ تقصد هذا الذى يقوله لنا الآخرون ؟
ـ نعم
ـ أتصدقه ؟
ـ ولماذا أكذبه ؟
ـ أنا لا أصدق شيئا لا أراه

ـ ومع ذلك فأنت تعرفين أن ابنك يجدف هو الآخر مع زوجته . وأنت وابنتك فى قارب زوجها الذى يجدف هو بها ويطفيه .

ـ ما شأن هذا بما قلت ؟
ـ أنت لا ترينهم دائما ومع ذلك تعرفين أنهم موجودون
ـ موجودن طبعا
ـ أن تصدقى ما تريدين أن تصدقيه وترفضى ما لا تحبين
ـ ربما كان تجديفهم عبثا هم أيضا
ـ وليكن ولكن لابد أن نجدف
ربما اذا توقفت عن التجديف بعض الشىء يتواثب السمك إلى قاربنا
ـ بل السمك لا يثب إنما ينبغى أن نقتنصه بالشباك
ـ وأنت تعلمين ذلك
ـ ومع ذلك فهو يثب أحيانا
ـ الاستثناء ليس القاعدة
ـ ألا تذكر السمكتين اللتين وثبتا معا الى قاربنا دون جهد ؟
ـ مرة
ـ ولكن السمك يثب الى قوارب أخرى أفواجا
ـ ومع ذلك فأصحاب هذه القوارب يصيدون بالشبك هم أيضا
ـ هواة متاعب
ـ يفعلون ما يجب أن يفعلوا
ـ لو كنت مكانها لاكتفيت بالسمك الذى يثب إلى القارب
ـ من يدرى ربما اذا توقفوا عن الصيد توقف السمك عن الوثوب إليهم
ـ فليجربوا
ـ ليس لدينا وقت للتجارب
ـ من تقصد ؟

ـ نحن جميعا . . جميع الذين يجدفون يجربون أن يتوقفوا
ـ ما الذى يخيفهم ؟
ـ الذى يخيفنا
ـ وما الذى يخيفنا ؟
ـ الذى يخيفهم
ـ وما آخرة هذا التجديف ؟
ـ أظن أننا سيأتى علينا وقت ونستريح
ـ من أين عرفت ؟
ـ لا شىء يظل كما هو
ـ طبعا
ـ كانتا ضعيفتين أول الأمر ثم أخذتا تشتدان شيئا فشيئا ثم أخذتا تضعفان شيئا فشيئا .
ـ فكف عن التجديف اذن .
ـ سيأتى وقت أكف فيه على رغم أنفى لا تستعجلى .
ـ لقد جئت الى قاربك وذراعاك قويتان .
ـ أعرف ذلك
ـ لم تشكى الى ضعفهما الا الآن
ـ ومع ذلك فقد عرفت أنهما ضعفتا
ـ نعم
ـ ولم تقولين ؟
ـ كنت أيضا أحس بالضعف
ـ أعرف ذلك
ـ ولم تقل ؟
ـ الأشياء البدهية لا داعى لذكرها
ـ ولكننا مع ذلك نقولها
ـ إن تجنبنا البدهيات فى كلامنا مازاد كلامنا عن جملة كل سنة .
ـ أخاف على ابنتى
ـ لماذا ؟
ـ إنها تجدف مع زوجها
ـ وأى غريبة فى ذلك ؟
ـ لم نعودها على ذلك
ـ كنا مخطئين

ـ أخشى أن تتعب
ـ ولماذا لا تخافين على زوجة ابنك ؟
ـ إن من واجبها أن تجدف مع زوجها
ـ أليس هو نفس الواجب بالنسبة لابنتك ؟
ـ صحتها ضعيفة
ـ أرى صحتها أحسن من صحة زوجة ابنك
ـ أيامنا لم نكن نجدف
ـ الأيام تتغير .. أين نحن وأين هم ؟
ـ نعم .. بيننا مسافة بعيدة
ـ والمسافة بيننا وبين آبائنا أبعد
ـ بل يخيل الى أننا نقترب منهم
ـ ليس إلى الحد الذى تتصورين
ـ الى أين نحن ذاهبان ؟
ـ إلى أبى وأبيك وأمى وأمك
ـ منذ زمن بعيد لم نرهما
ـ كلما اقتربنا إليهما زاد شوقنا لرؤيتهما
ـ تعبت
ـ فتوقف
ـ لا أستطيع
ـ ألا ترى الموج يسير بنا حتى وان لم تجدف .
ـ لابد أن أساعده
ـ يخيل إليك أنك تساعده
ـ بل يعرف أننى أساعده .. على الأقل حين أجدف أحس أننى أتقدم .
ـ وهم
ـ بل الوهم أن أتوقف وأترك للموج كل شىء .
ـ إن كل شىء فى يده
ـ ولكنه مع ذلك يريدنى أن أجدف
ـ أقال لك هذا ؟
ـ كثيرا
ـ أبينك وبينه حديث ؟
ـ لا تسمعينه

ـ حسبت أنني وحدى التي أكلمه

ـ وانما نظن أننا ننفرد بأشياء .. غرور

ـ لابد منه

ـ لماذا ؟

ـ لنتحمل الرحلة الطويلة

ـ ألا نحتمل الا بالغرور ؟

ـ وبأشياء أخرى

ـ مثل ماذا ؟

ـ مثل التجديف

ـ وماذا ؟

ـ وهذا الكلام الفارغ

ـ ولا أدرى .. ربما أيضا بشعورنا أننا لابد أن نحتمل

ـ وإن لم ؟

ـ لا يهم .. سواء عند الموج أن نحتمل أو لا نحتمل فالرحلة ستتم

ـ أعلم .. أتذكر متى بدأنا الرحلة ؟

ـ لم أعد أذكر شيئا

ـ ولا أنا

ـ هذا حسن

ـ لماذا ؟

ـ ربما معناه أننا اقتربنا

ـ أتريدنا أن نقترب ؟

ـ لا

ـ ولا أنا

ـ مع أنك تعبت ؟

ـ مع أنى تعبت

●

لم يتسع الوقت

حين تقرر أن يسافر الى السعودية لأعمال الشركة البولندية التى يعمل بها لم يفكر فى شىء آخر الا أن يزور الأراضى المقدسة ويطوف حول الكعبة المكرمة ويقف أمام شباك النبى .

ولم يكن توقه إلى العمرة عن أى شعور بالإيمان بل كان كل ما يفكر فيه هو تحدى هذه الرواسب التى تسيطر على أفكارالمسلمين والتى يرى أن انصياعهم لها ما هو الا تعلق ببقايا الأبوة وعهود الصبا والطفولة . وكان واثقا أن الانسان المتحضر لايمكن أن يؤمن بفكرة الدين أو التعلق بأوهامه .

هو واثق من نفسه ومن أفكاره وقد ازداد بها وثوقا حين اختار المذاهب الشيوعية مذهبا وانسلك فى قالبه وواجه كل ما واجهه أصحاب المذهب من عقاب كما نال كل ما ناله هؤلاء من ثواب .

والوظيفة التى يرتع فيها الآن ماهى الا نهر من فيض البحر الذى انسكب على أبناء مذاهبه فما كانت الشركة البولندية لتعينه لو لم يكن شيوعيا غارقا فى الشيوعية يهب لها نفسه وإلحاده ويقدم إليها أيضا فقره لترده عليه غنى ووفرة ورفاهية ورخاء .

وقد استطاعت الشيوعية أن توفر له مالم تستطع الرأسمالية أن توفره لأحد من أمثاله . فسيارته كاديلاك من آخر طراز . . نعم السيارة رأسمالية ولكن مادام الشيوعى قد استخدمها فان سيارته هذه الكاديلاك بالذات تصبح شيوعية بالتخصيص .

ومنزله من أفخم منازل الزمالك وأثاث بيته غالى الثمن غلاء فاحشا لايهم من بعد إن كان يتسم بالذوق السليم أو لايتسم فكل ما يهمه أن يكون غالى الثمن .

أما ملابسه فهى فى الحق مضحكة لأنه فيما يبدو مصاب بعمى الألوان فتراها تختلط على جسمه كقصة غير معقوله أو كموسيقى صاخبة يعزفها قوم لاقائد لهم ولانوتة تجمع بينهم .

ولكن كل وحدة من وحدات ملابسه ثمينة فى ذاتها . واضح أنه بذل فيها المال الكثير . فقد كان يعنيه دائما أن يبذل المال الكثير فيما يركب أو يسكن أو يلبس .

وكان يتيه دائما بين الناس بأنه لايمد يده لأى دولة شيوعية وأنه شيوعى بالمبدأ لا بالجيب وهو بطبيعة الحال يرى أن وظيفته هذه التى يشغلها والتى تسكب عليه هذا المال حق طبيعى له لاصلة لها بالشيوعية . هو يرى ذلك أمام الناس وحين يخاطبهم ولكنه فى دخيلة نفسه يعرف تماما أنه لو لم يكن شيوعيا لما زاد دخله عن دخل زملائه الذين تخرجوا معه والذين يعملون فى الوظائف العادية والذين يعجز مرتبهم أن يطاول عشر مرتبه .

هو واثق كل الوثوق أن ذلك الخير الذى يمرح فيه سببه الوحيد الذى لاسبب غيره أنه شيوعى ويعلم أن الكلية التى تخرج فيها قد منحت الحياة الآلاف من أمثاله أغلبهم أكثر منه علما ودربة على العمل وإتقانا له .

ولكن الشيوعيين وحدهم من هؤلاء الآلاف الذين يستطيعون أن ينالوا ماتهبه لهم الحياة من حظوة . وأصحاب الجرأة فيهم هم الذين يستطيعون أن يواجهوا الناس إنهم لايمدون يدهم لأى بلد أجنبى . وهو من أصحاب الجرأة هؤلاء .

حين نزل الى جدة قصد الى فندق الرياض حيث كانت شركته قد حجزت له حجرة فاخرة ذات غرفة ملحقة وتليفزيون . وبعد أن أودع الحجرة حقيبته ونظر إلى المرآة واطمأن على القصة غير المعقوله التى يضعها على نفسه نزل الى بهو الفندق ينتظر أصحاب العمل الذى جاء من أجله .

ولكنه فوجىء بصديقه رفعت جالسا فى البهو . .

ـ أنت . . . أنت فى السعودية ؟

ـ عمل

ـ فقط ؟

ـ طبعا سأعمل هذه العمرة التى تحكون عنها فى دينكم .

ـ وأنت ؟ ألك دين آخر ؟

ـ أنت تعرف

ـ فعلا . . أنت مسكين . . أنت بلا دين على الإطلاق

ـ أحمد الله على ذلك

ـ بل احمد الشيطان إن شئت

ـ المهم أنت ماذا تفعل هنا ؟
ـ أنا جئت من أجل هذه العمرة التى نؤمن بها نحن المسلمين
ـ وهل قمت بالعمرة ؟
ـ ليس بعد . أنا على موعد مع الأصدقاء أن نقوم بها
ـ أذهب معكم
ـ ألا تخاف ؟
ـ أخاف مم ؟

ـ ألا تخاف أن تؤمن . ؟ إن للكعبة روعة وإن لقبر الرسول ضياء لاتراه العين وانما ينفذ إلى القلب وإلى حنايا المشاعر فيرج الانسان رجا عميقا وترى روحك محلقة الى عليين تطوف مع النبى فى رحلة آخر دين أرسل إلى الناس وتراه معذبا فى سبيل عقيدته ثم تراه فى خطبة الوداع أتم دينه وبشرنا أن الله رضى لنا الإسلام دينا يخطب فى أصحاب عام حجه أن دماءكم وأموالكم حرام بينكم حرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى عامكم هذا . ويهتف بهم وهو يختم رسالته إلى البشرية اللهم هل بلغت ويصيحون نعم . ويهتف مرة أخرى اللهم فاشهد .

أتحتمل هذا جميعه ؟
ـ قد لايحتمله السذج من أمثالك أما أنا فاحتمله وإنى واثق .
ـ لكم أخشى أن أجدك اكثر سذاجة منى ومن أصحابى المؤمنين
ـ لقد جربت نفسى مع الإيمان
ـ حقا ؟
ـ ووجدت نفسى غير قابل للايمان على الاطلاق
ـ هل أنت واثق ؟
ـ كل الثقة
وكيف عرفت ؟
تعرضت لمحنة فلم أذكر الله
ـ ما نوع المحنة ؟
ـ هل يهمك هذا ؟
ـ كل الأهمية

ـ كنت راكبا سيارتى وغفت عينى لأجد نفسى غائصا بسيارتى فى الماء حاولت أن أفتح باب السيارة فاستعصى على ورحت أحاول وأنفاسى تختنق بى تشدنى إلى الموت فى جذب آسر عنيف ولم أجد أمامى إلا أن أحاول الخروج من شباك السيارة فرحت أدفع جسمى خلالها دفعا ثم لم أع بعد ذلك من أمر نفسى شيئا .

ـ أنقذت وأنت مغمى عليك ؟

ـ نعم

ـ ومتى كنت تريد أن تذكر الله . . ؟

إننا نحن المؤمنين نذكر الله حين نصبح عاجزين فان الله يأمرنا أن ندبر نحن أمر أنفسنا ونتوكل عليه ولا نتواكل .

وقد كنت أنت مشغولا بإنقاذ نفسك وحين جاءت اللحظة التى يجب أن تقول فيها أشهد أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله كان مغمى عليك . ياصديقى إن هذه تجربة لاتصلح دليلا تطمئن إليه . . إنك محصن ضد الإيمان .

ـ أترى ذلك ؟

ـ لاشك فى ذلك . . هيه . . أتاتى معنا ؟

ـ لا سأذهب وحدى

وأثار الحديث الكثير من الوساوس فى ضميره . ما مصيرى اذا اهتزت مشاعرى من الإيمان واستيقظت من سباتها تلك البذرة القديمة التى ألقى بها فى نفسى أبواى وسقتها البيئة والتقاليد وتاريخ أجدادى الطويل فى ظل العقيدة .

وما البأس أن أؤمن وأظل فى عملى . . هراء إن عملى متوقف على إلحادى . . ولماذا ألقى بنفسى إلى صراع أنا فى غنى عنه ومالى لا أبعد مشاعرى عن هذا الامتحان ؟ قد أجوزه وأظل على إلحادى أوقد أرسب وأدعو إلى الإيمان . ويومئذ وداعا للكاديلاك والملابس الأنيقة والعيش السعيد .

وبعد أيام التقى الصديقان فى بهو الفندق :

ـ أراك تنهى اقامتك بالفندق

ـ عائد إلى بيتى

ـ هل أديت العمرة ؟

ـ لم يتسع الوقت

سيزيف والصخرة

جاء فى الأساطير أن الآلهة قضت على سيزيف بالصعود الى أعلى الجبل وهو يدفع أمامه صخرة . وقضت الآلهة ألا تستقر هذه الصخرة فى أعلى الجبل أبدا . فكلما صعد بها سيزيف تعود فتنزل الى السفح ، ويعود سيزيف فيدفعها أمامه الى أعلى الجبل .

وفى يوم صعد سيزيف إلى أعلى الجبل دافعا أمامه الصخرة وتركها وعاد لينام وكان قد تعود أن يستيقظ مع فجر كل يوم ليجد الصخرة التى وضعها على القمة فى أمس قد عادت إلى السفح مع الفجر . ومع انبثاق النور يعود سيزيف فيدفع الصخرة الى أعلى الجبل ويستغرق منه هذا الجهد اليوم جميعه حتى الهزيع الأول من الليل .

وفى هذا اليوم صعد كشأنه وترك الصخرة . ونزل لينام ولينتظر الصخرة لتعود فيدفعها فى باكر الصباح .

وأشرق الفجر . ولا يدرى سيزيف لماذا راح ينظر حواليه فوجد أنه يعيش فى أجمل مكان فى العالم فبحوله الجداول الرقراقة والأشجار اليانعة والحدائق الغناء والطيور تستقبل النهار بموسيقى سماوية وتودعه بمواكب حافلة من الأنغام . وتعجب سيزيف أنه لم يلتفت إلى هذه الجنان حواليه إلا فى يومه هذا وأسف لهذا القضاء الذى فرضة عليه قدره وتمنى أن تتاح له الفرصة أن يستمتع بهذا الهناء الذى يرف حواليه ولا يصيب هو منه شيئا حتى ولا متعة النظر . كان قد مر عليه عشر سنوات وهو راضخ لقدره طائع له مستسلم غير متبرم به ولا هو ضجر . ولكنه فى يومه هذا كان يتمنى لو كان قدره أكثر رفقا به .

قام إلى الصخرة ومد يديه دون أن يكلف نفسه عناء النظر ولكن يديه بالهواء استقبلتا ونظر فاذا الصخرة ليست فى السفح وتشوف القمة فاذا الصخرة راسخة هناك لم تنزل . جن جنونه

من الفرح وصعد الجبل وثبا وفى مثل اللمحة الخاطفة كان واقفا هناك . الصخرة ثابتة حيث تركها فى الأمس . اذن فقد أفرجت عنه الآلهة .

جرى إلى الجدول الرقراق وراح ينقع نفسه فيه ويصب ماء صبا . وغسل ثوبه فاذا هو يعود جديدا كأنما لم تعمل فيه السنون بيديها . وبحث عن حجر وراح يسنه حتى أصبح قاطعا وراح يحلق ذقنه فهى ناعمة . ثم استقبل الجنة التى حواليه وراح يأكل مما بها من فواكه رائعة .

وما أن غذ فى السير حتى وجد أطفالا يلعبون عليهم ثياب نظيفة وفى وجوههم مرح ونعيم وسألهم :

ـ ماذا تعلمون هنا ؟

ـ نلعب

ـ ألكم بيت ؟

ـ طبعا

ـ أيـــن ؟

ـ فى هذه القرية هناك

اذن فبجانبه قرية أيضا قصد إليها فاذا من بها يلتفون حوله

ـ من أنت ؟

ـ سيزيف

ـ صاحب الصخرة ؟

ـ نعم

ـ لست به

ـ بل إننى هو

ـ سيزيف أشعث أغبر قذر الثياب طويل اللحية مكثر لا يعرف الضحك طريقا إلى وجهه .

ـ لقد عفت عنى الأقدار

ـ والصخرة ؟

ـ فى أعلى الجبل

ـ ولم تنزل ؟

ـ بل هى باقية حيث أرسيتها بالأمس

ـ اذن لنقيمن لك عيدا

ـ ولكنكم لا تعرفوننى

ـ بل نعرفك . . كنا نرقبك طوال السنوات الماضية

ـ لم أر أحدا منكم

ــ كنت مشغولا عن الدنيا جميعا

ــ اذن فهل أطمع أن أكون واحدا منكم ؟

ــ كـــن

ــ وأقيم العيد وضج المكان بالموسيقى والرقص .. وفى أثناء الرقص وقعت عينا سيزيف على فتاة كانت تبدو أمامه كنجمة مجنحة هبطت من السماء فيها إشعاع حلو ريان ينساب جسمها كحلم وسنان وهى ترقص كملاك وتبتسم كأمل وتغنى وكأنها أمنية تتحقق .

ــ ما اسمك ؟

ــ سيفيليا

ــ زوجة أنت لا شك ؟

ــ بل لست زوجة

ــ كيف .. أهذا الجمال جميعه لم يجد الزوج .

ــ يبدو أن السماء تريدنى لغير من طلبنى

ــ ترى أترضى بى السماء زوجا لك ؟

ــ إنى أرضى

ــ إذن فالسماء ترضى

وكان الزواج وعاش سيزيف أجمل فترات حياته وأنجب من سيفليا ابنا وابنة وكان دائما يسأل أهل قريته :

ــ عملا

ــ ولكن لا عمل لك

ــ أبدا ؟

ــ لقد وزعنا الأعمال من قبل مجيئك وهكذا ضاق سيزيف بالفراغ ووجد نفسه يذهب إلى لصخرة يدفعها عن الجبل ولكنها كانت ثابتة لا تريد حراكا فأتى بفأس وراح يضرب حواليها حتى وهنت جذورها ودفعها فسقطت إلى السفح ومنذ ذلك اليوم أصبح عمله كل يوم أن يدفع لصخرة إلى القمة طوال اليوم وفى اليوم الثانى يدفعها الى أسفل ثم يعود فيصعد بها إلى أعلى .

وعجب ابنه وابنته . فتشجع ابنه وسأله :

ــ أبى ماذا تفعل ؟

ــ أعمل

ــ ولكن بلا فائدة

ــ وكيف تقول هذا ؟

ـ لا أرى نتيجة لعملك

ـ النتيجة الوحيدة أننى أعمل

ـ أليس لكل عمل فائدة ؟

أريد أن يوجد العمل أولا

يوجد العمل أولا

ـ حتى ولو كان بلا هدف ؟

ـ لو فكرت يابنى قليلا .. لو فكرت لوجدت الهدف .. أتراك وجدته .. لايهم .. سوف تجده .

الحصان الذى نفق

لم يكن يسرى فقيرا فى القرية ولكنه كان تائها فى زحامها ، محتقرا بين أهلها لا يشعر به أحد رغم جهده الجهيد أن يشعر الناس به . فقد كان لا يترك وسيلة يذكر بها الناس أنه حى ، وأنه يسعى بينهم وأنه ليس نكرة من النكرات إلا سعى إليها حثيثا ، وقد كان يحصل دائما على هزاء الناس والسخرية به إلا أنه لم يستطيع قط أن يحصل منهم على مايريد من شعور بوجوده وأنه حى .

ولم يكن غناه فادحا ، ولكنه ـ مع ذلك ـ كان يدعو إلى الولائم فى كثير من الأحيان . وكان الناس يلبون دعوته ، ولكنهم ما أن يأكلوا ويتركوا بيته ، حتى ينسوا أمره ، وكأنه لم يكن .

ولم يكن يسرى مؤمنا بالله ، وما كان يصلى ، ولكنه مع ذلك حريص على أن يشهد صلاة الجمعة مرتديا أجمل ما عنده من الملابس ، لاينسى أن يلبس رباط عنقه الأحمر ، مقتنعا أن اللون الأحمر أكثر الألوان استرعاء للأنظار لكن الأنظار مع ذلك ـ كانت تأخذه فهو موجود بغير وجود ، حاضر خير منه الغائب .

وكان يسرى يحرص أيضا على أن يخطب الناس بعد كل صلاة جمعة . ولم يكن طبعا يستطيع أن يحدثهم عن عدم إيمانه . فهو مع كل حرصه على أن يذكر الناس بوجوده ، أكثر حرصا على أن يظل على قيد حياة . . أية حياة ولو أنه أطلع الناس على ما يعتمل فى نفسه من عدم إيمان ، لأصبح موته بأيديهم أمرا محققا .

وانما كان يسرى يخطب الناس فى وجوب إعطاء الفقراء والمساكين والإحسان إليهم ، ولكن لم يقدر له أبدا أن يكمل خطبة إلى النهاية التى يريد أن ينتهى إليها ، فما هى إلا جملة وأخرى ، حتى يصبح المسجد فارغا من الناس أجمعين .

فما كان أحد من أهل القرية ليلقى إليه سمعا ، وهم يعلمون أن الاحسان عنده كلام ، والشفقة بالمساكين عنده شقشقة ، وكفاهم دليلا على ذلك ما يعانيه منه عبد السميع ومحمدين وشفيق الذين يستأجرون أرضه . فان أحدا فى القرية لا يعانى من الفقر والذلة والهوان والقهر ما يعانيه هؤلاء الثلاثة الذين قدر لهم أن يكونوا أجراء عنده . وربما طالما عرضوا أنفسهم على الملاك الآخرين ، ولكن أحدا لم يستطع أن يغيثهم . فالمستأجرون فى القرية يرثون الأرض عن آبائهم ولا يستطيع مالك ، بل ولا يجب أن يخرج أحدا من أرضه ليعطيها إلى آخر .

وقد ضاق محمدين بمالك أرضه يسرى ، وضاق بالقرية جميعا فتركها الى أرض الله ، ولم تعد القرية تعلم عنه شيئا .

وظل عبد السميع وشفيق يستأجران أرض يسرى وحدهما ، بعد أن حاول أن يجد مستأجرا آخر بدلا من محمدين فذهبت محاولاته سدى .

فالكلام منه اذن عن وجود الإحسان خليق أن يجعل أهل القرية ينصرفون عنه ، حتى إن لم يتوافر هذا السبب فقد كان أهل القرية سينصرفون عنه أيضا ، لأنهم لا يشعرون أن له وجودا أو مكانا .

كان هذا الشعور بالضياع والإهمال يملأ نفس يسرى ، ويجعل نفسه تفيض مرارة وحقدا ، فهو حاقد على كل غنى له بين القرية توقير واحترام ، وهو حاقد على كل متعلم يقول فيسمع الناس فى اقتناع واحترام . وهو أشد حقدا على المحترمين فى القرية دون أن يكون لاحترامهم سبب ظاهر الا أنهم محترمون . فقراء هم ولعل بعضهم لم يصب من العلم إلا قليلا ، ولكن أهل القرية يحترمونهم ، ويقصدون إليهم إن طلبوا الرأى ، وينزلون عندما يشيرون به .

نار من الحقد تفتك به . . نار من داخله . لاسبيل أن يصل إليها شىء إلا ما يزيدها أوارا واشتعالا .

يخرج يسرى فى كل يوم إلى ظاهر القرية ، وينظر إليها فى كره شديد ، وألم عميق ، ومرارة قاتلة . ويظل قابعا منزويا كوحش كسير يحاول أن يتربص بأعدائه المصائب ، فتخذله الذلة . ويقعد به الهوان .

وبينما هو كذلك ، سمع جوادا يركض ، ويهز الأرض بأقدامه . واقترب الصوت واقترب ، حتى تكشف عن الحصان وراكبه . . أما الحصان فمجنون أرعن ، وأما صاحبه فخائف هالع .

ــ أين أنا ؟
ــ لا أدرى

ـ ألا تعرف اسم القرية التى أنت منها ؟
ـ المنشية .. من أين أنت قادم ؟
ـ لا شأن لك .. أتشترى هذا الحصان ؟
ـ ماذا ؟
ـ ألم تسمع .. لا وقت عندى للدلع
حصان .. أيشترى هو حصانا ؟

وما البأس .. وأى شيء سيجعل أهل القرية يحسنون به خيرا من هذا الحصان .. الحصان جاء .. الحصان ذهب .. ليس فى القرية من يملك حصانا .. ولكنهم لن يقولوا يسرى جاء أو ذهب .. الحصان فقط لا بأس أيضا .. يكفى أن يذكرهم الحصان به .

ـ ولكن هذا الحصان مخيف .. أراه لا يكف عن الحركة العنيفة
ـ هذا دليل الحيوية .
ـ الكثير منها يقتل
ـ أنت صاحبه .. اخدمه يخدمك
ـ ولكن لماذا تريد أن تبيعه ؟
ـ أهو تحقيق ؟
ـ لعلك سرقته .
ـ وافرض .
ـ قد يراه صاحبه فأخسره .
ـ اسمع . الأمر المؤكد أن صاحبه لن يحاول أن يسترده .
ـ هأنذا .. أركبه أمامك ، وأعرضه عليك ، ولا وقت عندى للكلام الكثير ، أتشترى أم أمشى
ـ كم تريد فيه ؟

واشترى يسرى الحصان . وحاول أن يركبه فنفضه الحصان نفضة عنيفة إلى الأرض أحس معها أن عظامه تنسحق ، فسحب الحصان ومشى يتكفأ حتى بلغ منزله فى عتمة من الليل .

وأدخل الحصان إلى حجرة نومه الخاصة . وذهب إلى حيث السكر ، فأحضر جميع ما فى البيت منه .

وبعد أسبوع استطاع يسرى أن يركب الحصان ، بعد أن أنس إليه .

وفعلا بدأت القرية تتكلم عن الحصان ، ولكنها ـ كما توقع يسرى ـ لم تتكلم عن يسرى .

كان يسرى يربط الحصان فى الغيط مع جاموسته ، ويذهب إلى ما يبتغى من أعمال . وبينما هو جالس فى بيته .. اذا بشخص يعدو إليه .

ـ يسرى .

ـ نعم .

ـ حصانك قتل عبد السميع .

ـ ماذا ؟

حاول عبد السميع أن يركبه فجرى حتى ألقاه فى الترعة وأغرقه، وأصبحت الحكاية أحدوثة فى القرية لفترة طويلة . ويسرى سعيد كل السعادة بموت عبد السميع الذى جعل الناس يتحدثون عن حصانه كل هذا الحديث .

كان الحادث فى القرية شيئا عظيما . فهو ريح شديدة العصف تمر على الماء الراكد من أثر الملالة . فالناس لا يجدون فى القرية ما يتحدثون عنه . فإذا مر بحياتهم حدث كهذا أصبح تاريخا يعتبر الذين عاصروه خالدين فى حياة القرية وتاريخها .

ولكن حصان يسرى لم يترك لهم فرصة طويلة يلوكون فيها حادث القتل الذى ارتكبه . بل هو يعاجلهم .

ـ يسرى .

ـ نعم .

ـ حصانك .

ـ ماله ؟

ـ فقأ عين عبد الشافعى بن سعيد أبو عرابى .

ـ ماذا ؟

وفى هذه المرة يذهب سعيد إلى يسرى . ويمسك بخناقه . مقسما بأغلظ الأيمان أنه قاتل الحصان ، أو قاتل يسرى .. ويتجمع الناس ويحولون بين سعيد ويسرى ، وتبدأ المفاوضات . ويسرى سعيد فقد أحس الناس به هو أخيرا . وها هم أولا يجتمعون حوله ، ويفاوضونه ويفاوضهم .

وتتوالى أحداث الحصان . فهو يقطع حبله ، ويعتدى على برسيم الآخرين وهو ينطلق فى القرية فى جنون أحمق يكسر أرجل الناس وأبوابهم ، أو يوقع ما يعرشون به على بهائمهم . أو يعتدى على هذه البهائم فيجعل أصحابها يعودون بها إلى السكن . ولعل أشد ما آلم الناس من الحصان وصاحبه ما فعله الحصان بالمصلى التى أقامها أجداد أجدادهم هناك عند مجرى النيل . فقد دخلها الحصان . فهدم قواعدها . ومزق الحصير فيها . ولعل هذا الحادث بالذات هو

أسعد ما سعد به يسرى . حتى لقد أغدق فى مساء هذا الحادث على حصانه من السكر قدرا لم يشهده الحصان من قبل .

أصبح يسرى هو شغل القرية الشاغل ، وأصبح الناس يبتعدون عن مكان الحصان قدر جهدهم . وألقى الحصان على القرية ظلا من الرعب ثقيلا . وليس أفتك بالانسان من الخوف ، ولا يزرى بالانسان شيء قدر شعوره أن الذعر والهلع يحيطان به من كل جانب وما أشد الهول حين يكون العدو حيوانا أعجم ، لا يعقل ولا يفهم وإنما يخرب لوجه الخراب بلا هدف ولا فكرة ولا غاية ينتهى إليها ، ويسرى سعيد . فليمت الناس من الخوف أو من الغضب . فلقد أصبح هو شيئا يذكر . ومقصدا يسعى إليه .

وفى يوم صحا يسرى من نومه . وذهب مسرعا الى حصانه . . مجده وعزه وأمله الذى تحقق وذكره الذى ذاع واسمه الذى انتشر ماذا . . ؟ ما الذى جعل الحصان فى هذا الشكل الذى هو عليه لا يمكن . . غير معقول . . لقد مات الحصان . . مات كيف . . لا يهم أمسموما مات . . لا يهم . . هل مات من كثرة السكر . . لا يهم . . لقد مات . . أحس يسرى أن اسمه هو هذا الممدد جسدا من غير روح . . وعما قريب يصبح عدما بلا جسد ولا روح . . لا يمكن . . غير معقول . . إن حصانى لا يموت . . إنه لا يموت . . لا يموت .

وفجأة انتفضت فى جسم يسرى المرارة التى اختزنها قبل أن يعرف الحصان وانتشر فى جسده الحقد الذى دفنه فيه طوال عهد الحصان ، ووجد نفسه يحمل الحصان الميت ، ويخرج به من البيت ، محطما باب البيت ، صارخا فى الناس ، وهو يعدو فى كل متجه . . إنه لم يمت إن حصانى لم يمت إن حصانى لا يموت . . لا يموت . . لا يموت .

وماهى الا صرخات قليلة . . وخطوات أقل من العدو الأحمق العربيد المجنون حتى انهار يسرى ومن فوقه الحصان يكتم أنفاسه القليلة الباقية .

واختلط الجسدان حتى لا يستطيع أحد أن يستبين أحدهما من الآخر . وقبل أن يدركه أحد تلحق روحه روح الحصان الذى نفق ، ويتجمع حوله أهل القرية . ولا تلتقى نظرات ولا كلمات ، وإنما يشيع أمن انسانى فارق الانسان فيهم حينا ثم عاد .

●

لحظة سعادة

كان سعيدا منشرح الصدر وهو يفكر . . كانت لحظة من هذه اللحظات القليلة التى يشعر فيها الانسان أن الحياة تعطيه بقدر ما يريد منها أن تعطيه ودون أن يدرى السبب راح يفكر فى السبب الذى بث فى نفسه هذه السعادة التى يشعر بها وما لبثت هذه الفترة أن بعدت عن مسار تفكيره . . وما لبث أن قال لنفسه إنى سعيد لأنى سعيد . . وأخشى ما أخشاه أن أبحث عن أسباب سعادتى وأنقلب بفعل يدى تعيسا وأسباب التعاسة دائما أكثر وفرة من أسباب السعادة . . . وهل هذا كلام رجل سعيد . . . إنه كلام أى انسان ولكنك لست أى انسان . انك رجل سعيد . . . حسنا فلأظل سعيداً إذن دون محاولات سخيفة لتعميق أسباب السعادة . . . هل هى قليلة لحظات السعادة هذه الى هذا الحد . . هل هى قليلة لدرجة أننى أقتنصها من الحياة اقتناصا ولا أحاول حتى أن أبحث أسبابها وما دعت إليه . . . إنى سعيد بزوجتى . . ولكن سعادتى بها لا تكون لى لحظات سعادة . . . أنا أحبها وأعلم أنها تحبنى . . وهى شريفة بحكم تكوينها وهى تعمل دائما على إسعاد بيتها وليس بينى وبينها إلا هذه المشاجرات التى تدل على أننا أحياء ولو أنها مشاجرات كثيرة وعنيفة فى بعض الأحيان مما ينبىء على أننا أحياء جدا . . . ولكنها جميعا مشاجرات طبيعية لابد أن تنشأ بين اثنين نشأ كل منهما فى بيت ثم جمعهما بيت واحد يعلمان أنهما سيقضيان فيه ما بقى لهما من حياة . . . قد تشعر هى بالضيق أحيانا أو قد يشعر هو بالضيق أحيانا وقد تكون هذه الأحيان كثيرة وقد تتلاقى هذه الأحيان من الضيق فتكون مشاجرة لو بحث كلاهما عن سببها لاتضح على الفور مقدار سخافتها .

لماذا أفكر فى كل هذا . . . من أجل لحظة سعادة . . ؟ ألم تكن لى لحظات سعادة كثيرة وأنا طفل . . . لماذا يقول الناس طفولة سعيدة . . . أظن السعادة هنا يقف وراءها الجهل . . إنهم

سعداء لأنهم لايعرفون كيف يكونون تعساء . . . ولكنى مع ذلك أذكر فى طفولتى لحظات سعيدة . والآن فقط أدرك أننى كان يجب أن أعتبر طفولتى سعيدة . . . يبدو أن الأطفال يعتبرون سعادتهم قضية مسلما بها لاتقبل النقاش . . . فحياتهم مهما تكن سعيدة يعتبرونها هم عادية . ولايذكرون منها إلا لحظات السعادة الخارقة للعادة ولحظات التعاسة العادية . . كانت لحظات سعادتى هى تلك الأوقات التى أقضيها فى قراءة القصص . . قصص الأطفال . كنت أحس أننى أعيش فى عالم آخر غير هذا الذى أعيش فيه .

لماذا يعتبر البعد عن العالم الذى أعيش فيه سعادة ؟ لماذا يقول الناس هذا دائماً كلما أحبوا أن يعبروا عن سعادتهم . . هل العالم الذى نعيش فيه سيىء إلى هذا الحد وإن كان سيئا أهو هكذا بالنسبة للأطفال .؟ لماذا يحبون أن يعبروا الى عوالم أخرى من قصص علاء الدين والسندباد وعلى بابا والأربعين حرامى وقصص الجان وغيرها وغيرها .

والكبار . . . ألا يتشبثون بعالم آخر . . ؟ ما الحياة عندنا اذا كانت هى هذه الحياة فقط . . . سبحان خالق الناس . . . عرف نفوسهم وعرف حياتهم فوعدهم بحياة أخرى يلقون فيها السعادة التى لم يعرفوها من الدنيا . . . ولكنى الآن سعيد . . . لحظة . . أو لحظات ثم تعود الحياة حياة . أقصى ما أطمع فيه منها ألا ترزأنى بلحظات تعاسة وتصبح أيام الملل والوتيرة الواحدة سعيدة . . . سعيدة لأنها ليست تعيسة . . .

إننا نبحث فى حياتنا هذه عن السعادة من أى سبيل . . . نرى السعادة فى نظرة الى أبنائنا . . . فى أبنائنا . . . فى ابتسامة على شفة لهم . . . فى ضحكة . . . فى مجرد جلوسهم أمامنا مشغولين عنا بالنظر الى التليفزيون .

ما السعادة التى يهبها لنا أطفالنا . . هى ما قبل الرعب الذى يلقون به فى نفوسنا . . . الهول المبين الذعر الآخاذ الوبيل . . . إذ مرض أحدهم أو اذا وهمنا أن مرضا يهدد واحدا . . . وحين يزول المرض وحين يزول الوهم تعود نفوسنا إلى الصفاء وتعود إلينا السعادة . . . ما أعظم الثمن الذى ندفعه لقاء السعادة من أطفالنا .

ويل لى لحظة سعادة واحدة تفعل بى هذه الأفاعيل . . . ماذا أحاول أن أعرف . . ؟ هل فرض على فرضا أن أبحث عن سبب هذه السعادة . . . ألا يكفينى أنى سعيد . . .

لنبحث أولا . . . ما هى أعراض السعادة التى أعانيها . . . ويلى ألا أعرف أعراض السعادة أهذه أيضا لاتحتاج إلى شرح . . . ألا أعرف هذه الإشراقة التى تشيع فى النفس فاذا النفس بهجة وإذا هى متطلعة إلى المستقبل الوردى الصافى وإلى الحاضر وكأن سعادة العالم تجمعت فيه . . . هذه هى حالى الآن . . . لماذا .؟ وما يهمك لماذا مادمت سعيدا . . . ألا تخشى أن تفقد سعادتك وأنت تبحث فى هدوء دون هذا البحث السخيف .؟ ونتفلسف أيضا

وتريد أن تظل سعيدا . . . يقولون أن الفلاسفة هم السعداء بل يقولون ان السعداء هم الجهلاء . . كلا القولين غير صحيح . . . فأنت سعيد ولست جاهلا إلى درجة أن يقال عنك جاهل ولست فيلسوف الى درجة أن يقال عنك فيلسوف . . ولكننى لست سعيدا . . . ماذا هل فقدت السعادة . . . أقصد أننى لست سعيدا سعادة الفلاسفة ولا الجهلاء . . . كل ما فى الأمر أننى أشعر بلحظة سعادة . . .

لعل لقاءك بالأمس مع سهام أمدك بهذه السعادة ؟ لقد أحسست بالسعادة فعلا فى لقائى معها ولكن اللقاء كان يشغلنى عن الشعور بالسعادة . . . وانتهى اللقاء وعدت إلى حياتى اليومية ومرت بى لحظات رضا ولحظات ضيق فلا شأن لسعادتى الراهنة بلقائى مع سهام . . . هى حبى وهى الوحيدة فى هذا العالم التى تستطيع أن تمسح عن نفسى همومها وآلامها وأنا أسعد بلقائها وأهب لها كل ما تريد ولكن الحياة تلاقينى بعد ذلك وأرى فيها الخير وأرى فيها الشر وأحيا كما يحيا الناس حتى التقى مرة أخرى بسهام . . . فهذه السعادة التى أحسها اذن سعادة جديدة من نوع آخر ينتابنى بلا مقدمات ولهذا أبحث عن أسبابه . . . ألابد أن تبحث . . . خالصة رجعنا ثانية إلى هذا الحديث . وهل السعادة مع سهام خالصة أتحبنى لنفسى أم لما أقدمه لها من مال .؟ إننى أقدم المال وأسعد . . . لا شيء يهم بعد ذلك . أم تراه يهم . . ؟ !

لعلك سعيده لهذه المرافعة الرائعة التى قدمتها فى قضية الأمس . . . أهى المرافعة الوحيدة التى رضيت عن نفسى فيها . . . اننى أعمل فى المحاماة منذ سنوات طويلة ويقولون إننى محام ناجح وأعرف أننى ناجح ومعرفتى هذه تجعلنى ألتقى بأى قضية وأنا أحتشد لها وكأننى محام ناشىء ثم أحتشد لها وورائى تاريخى الطويل فى ساحة القضاء . . . أرى أنك بدأت تترافع . . . طبيعة . . . ماذا أفعل فيها . . . المهم لحظة السعادة التى أمرح فيها الآن لا صلة لها بمرافعتى .

اسمع . . . ألا يجوز . . . مجرد فكرة لا تسخر منها . . . ألا يجوز أن يكون حديثك التليفونى مع صديقك اسماعيل قد أرسل إليك بهذه اللحظة السعيدة . . . أرى أنك بدأت تخرف . . . إننى كثيرا ما أحادث الاصدقاء ولاشك أنهم يرسلون الدفء إلى قلبى ولكن لو أننى شعرت بهذه لمجرد حديث مع صديق لأصبحت حياتى كلها سعادة بلهاء . . . سعادة لا قيمة لها لأنها ستصبح سعادة غبية سخيفة .

اسمع . . . طالما سمعت . . اسمع ولا تعقب . . . إنك سعيد لأنك سعيد . . . أهذا آخر ما وصلت إليه . . ؟ ما أشد سخفك بل أنت السخيف . . أرأيت أنك تريد أن تفسد على سعادتى . . .

اسمع إننى لن أبحث عن السبب . . إنى الآن سعيد ولايهم لماذا . . إنى سعيد وكفى . . .

الفهرس

- **الأيام الخضراء**

الأيام الخضراء ٥
أحببت وهمى ١٣
أخلفت الموعد ١٩
ملاعب الصبا ٢٥
لقاء ولا وداع ٣٣
فوق السعادة ٣٩
الطابق الأعلى ٤٥
حـنان وهوى ٥٣
على الطريق ٦١
حديث ولقاء ٦٧
وظيفة دائمة ٧٣
وأنا . . ما ذنبى ٧٩
هو الله ٨٥
سماء ولا أرض ٩١
الرحمة القاسية ٩٩
عودة السيد سكر ١٠٥

- **ذكريات بعيدة**

ذكريات بعيدة ١١٣
حـيرة ١٢١
زواج ١٢٩
خطابان ١٣٧
عودة الزغاريد ١٤٣
وجهات نظر ١٤٩
أستغفر الله ١٥٥

طوق حول العنق ١٦١
ربيع ١٦٧
ولدى . . ألا تعود ١٧٣
انتظار ١٧٩
على رغم الأيام ١٨٥
يالها من أيام ١٩٣
عودا إليك يأبى ١٩٩

● هذه اللعبة

هذه اللعبة ٢٠٥
الظل ٢١١
رحلة ٢١٥
فرحة ٢١٩
تقرير الطبيب ٢٢٥
رضوان أفندى ٢٣٣
لأنه يحبها ٢٣٩
ثمن الدواء ٢٤٧
الست عيشة ٢٥٥
ملالة ٢٦١
شوار وهيبة ٢٦٧

● حين يميل الميزان

ولكنى سعيد.. .... ٢٧٩
معقول ٢٨٣
لا تدرى ٢٨٩
فى الطريق ولن أعود ٢٩٥
أختى وأنا ٣٠١
حين يميل الميزان ٣٠٧
قصة صيف ٣١١

مزق هذا الخطاب ٣١٧
قصاصات ٣٢١
حلم العمر ٣٢٧
نوع من الحب ٣٣٣
لا . . لا تعودى ٣٣٩
ثمن المشروب ٣٤٥

● السباحة فى الرمال

لحظه سعادة ٣٥٣
السباحة فى الرمال ٣٥٧
حكاية رجل بخيل ٣٦١
النابغة ٣٨١
الميراث ٣٨٧
المقابل ٢٩٣
تحية عابرة ٤٠٣
وحدة ٤٠٩
رحلة العودة ٤٢٥

● وبقى شىء

وبقى شىء ٤٣٥
وإن كنت تعبت ٤٥٣
لم يتسع الوقت ٤٥٩
سيزيف والصخرة ٤٦٣
الحصان الذى نفق ٤٦٧
لحظة سعادة ٤٧٣

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٢٣٧٥ قرشا